

# أخلاق الوزيرين

أبو حيان التوحيدي

- ◆ المؤلف: أبو حيان التوحيدي
- ◆ العنوان: أخلاق الوزيرين
- ◆ طبعة آفاق الأولى 2022
- ◆ تصميم الغلاف: عمر الكفراوي
- ◆ مستشار النشر: سوسن بشير
- ◆ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٩٧٤١

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 336 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

## Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb  
CAIRO- EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787  
E-mail: afaqbooks@yahoo.com- www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية  
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

أبو حيان التوحيدي  
أخلاق الوزيرين

تحقيق  
خميس حسن

آفاق للنشر والتوزيع

**بطاقة الفهرسة**  
**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**  
**إدارة الشؤون الفنية**

التوحيدي، أبو حيان  
أخلاق الوزيرين - أبو حيان التوحيدي

تحقيق: خميس حسن

ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2022

360 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 29741 / 2021

الترقيم الدولي 7 - 336 - 765 - 977 - 978

1 - تراث

أ - التوحيدي ، أبو حيان

ب - العنوان

## المقرسة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، سَيِّدِنَا  
مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.  
وبعد..

ما زالت كُتُبُ أَبِي حَيَّانِ التَّوْحِيدِيِّ -رَغَمَ مَرُورِ مِائَةِ السَّنِينَ عَلَيْهَا- قَادِرَةً عَلَى  
أَنْ تُثِيرَ الْإِعْجَابَ فِيْنَا، وَتُبَعِّثَ فِي نَفُوسِنَا إِحْسَاسًا سَاحِرًا بِجَمَالِ اللُّغَةِ وَرُوعَةِ الْبَيَانِ  
وَحُسْنِ التَّصْوِيرِ الْأَدْبِيِّ وَبَسْطِ الْحِجَّةِ بِأَبْرَعِ عِبَارَةٍ وَأَرْقَى صُورَةٍ أَدْبِيَّةٍ.

ورغم هذه المكانة العالية التي تسورها «أبو حيان» في مجال الأدب والفكر  
والتصوّف إلا أنه قد لقي في حياته الأهوال، وعرف الشقاء الذي لا يستحقه، بينما  
وجدَ التافهين يرتفعون إلى أعلى المراتب، وهو القائل في إشاراتِهِ: «ما ظننتُ أَنَّ الدُّنْيَا  
وَنَكَدَهَا تَبْلُغُ مِنْ إِنْسَانٍ مَا بَلَغَ مِنِّي، إِنَّ قَصْدَتُ دِجْلَةَ لِأَغْتَسَلَ مِنْهَا نَضَبَ مَآؤِهَا، وَإِنْ  
خَرَجْتُ إِلَى الْقِفَارِ لِأَتِيَمَّ بِالصَّعِيدِ، عَادَ صَلْدًا أَمْلَسُ».

ومع ذلك كان ذا أنفة واعتدادٍ بالكرامة، فلم يشأ أن يرتمي على أعتاب الرؤساء،  
وظل غريبًا في وطنه، يعاني من أجل قوتِ يومِهِ، ويشتكى مهنة الوراقة التي كلَّت  
يديهِ، وأعشَّت عينيه، ولم تحقِّقْ لَهُ مَا يَصْبُو إِلَيْهِ مِنْ مَكَانَةٍ يَرَى أَنَّهَا يَسْتَحِقُّ الْوَصُولَ  
إِلَيْهَا بَعْدَمَا رَأَى تَوَافِدَ الْأَدْبَاءِ وَهَوْلَاءِ الْهُوجِ الطَّغَامِ الَّذِينَ يَجُوبُونَ الدُّنْيَا، وَيَدْخُلُونَ  
كُلَّ مِيدَانٍ، وَمَا يَحْصُلُونَهُ مِنْ مَجْدٍ، وَيَجْنُونَهُ مِنْ مَالٍ، بَيْنَمَا هُوَ مَكْبَلٌ بِمِهْنَتِهِ، مَحْبُوسٌ  
فِي فَقْرِهِ.

وعندما طَرَقَ بابَ الصَّاحِبِ بنِ عَبَّادٍ، ولازمه تسعة أشهرٍ كاملة، وجد الوراقة وراءه، والتجاهل والحرمان قائمين أمامه، والعبوس وعدم الرضا بين يدي مَنْ طرقت بابه آملاً تغيير حاله، كما وجد الإعراض في مجلس الصاحب حتى كان الانفجار الذي جعله يتركه ويدوّن في هذا السّفْر كل مثالبه «ولكنني ابتليتُ به، وكذلك هو ابتلي بي، ورَماني عن قَوْسه مُغرِقًا، فأفرغتُ ما كان عندي عَلى رأسه مَغِيظًا. وحرَمَني فازدريتُهُ، وحقَرَنِي فأخزيتُهُ، وخصَّني بالخِيبَة التي نالت مَتي، فخصَّصْتُهُ بالغِيبَة التي أحرقتَه، والبادي أَظلم، والمتَّصِفُ أَعذر».

أما أبو الفضل ابن العميد فإنَّ أبا حَيَّان لم يحضر مجلسه إلا مرّتين فشهد في إحدهما أعوان أبي الفضل يُخرجون من مجلسه رجلاً غريبًا صائمًا، في عشيّة من عشايا رمضان وقت الإفطار، وشاهد في ثانيتهما محنة شاعر من الكرخ، مدح ابن العميد فلم يُجزه بشيء رغم إلحاحه ومطالبته له أمام الحضور.

ومع ذلك فقد ترك هذان الحدثان في نفسه آثارًا بلغ من بُعد غورها، أن رأى ابن العميد أهلاً لأن يُقرن مع الصاحب في رَسَنِ واحد، وجعل يتتبع أخباره ويستقصي نقائصه، نقلًا عن جلاسه وخواصه، إلى أن اجتمع له ما نقرؤه في هذا الكتاب.

ومن هنا جاء حديثه عن الكرم واللؤم في أخلاقهما، والنقص والزيادة، والورع والانسلاخ، والرزانة والسخف، والشجاعة والجبن، والوفاء والغدر، والسياسة والإهمال والدهاء والغفلة، والرشاد والغَي، والخطأ والصواب، والخلاعة والتماسك.

وسواءً وقي «أبو حَيَّان» بخطته هذه أو لم يفعل، فإنه يريد في إصرار أن يظهر بمظهر الوفي لها، وأن عمله في هذا الكتاب سار على هذا النهج. ولم يُخف «أبو حَيَّان» الأسباب التي دفعت به في غير شفقة إلى تأليف كتابه هذا، فقد فارق أعزته ببغداد، وهجر أهله وإخوانه بها، وقصد «الصاحب» بالري، آملاً أن ينال ببابه ما كان

طمعه يدندن حوله، ونفسه تحلم به، وأمله يطمئن إليه فخيّب الصاحب أمله، وأساء معاملته، فتجرد أبو حيان للانتقام.

وهو في طول الكتاب يؤكد دائماً أن معه العذر في كل ما يقوله، ولديه الدليل والشاهد: «ولست أدعي على ابن عبّاد ما لا شاهد لي فيه، ولا ناصر لي عليه، ولا أذكر ابن العميد بما لا بيّنة لي معه، ولا برهان لدعواي عنده، وكما أتوخي الحق عن غيرهما إن اعترض حديثه في فضل أو نقص، كذلك أعاملهما به فيما عرفاً بين أهل العصر باستعماله، وشهراً فيهم بالتحلي به، لأن غايتي أن أقول ما أحطت به خبيراً، وحفظته سماعاً».

إن قيمة هذا الكتاب تتمثل في أنه عملية رصد لحقبة سياسية متقلبة في حياة الدولة العباسية، من خلال ملازمة أبي حيان لاثنين من أشهر الوزراء والساسة في زمانه، ومن خلال هذه المعاشية والملازمة صاغ تجربته في كتابه (أخلاق الوزيرين) الذي رصد فيه ما اتصف به هذان الوزيران من الكبر والغرور والفساد وقسوة اللسان والقلم.

وزاد هذه التجربة ثراءً، وإبداعاً في التصوير الأدبي أن أبا حيان أديب واسع الثقافة، أكسبته صلته بالناس على اختلاف طبقاتهم، ومشاركته لهم في حياتهم تجربة واسعة، فهو ناقد مر، ذو حس مرهف ينفعل لأخف المؤثرات، ويسجل أسرع الحركات وأخفها. يصحب كل ذلك قدرة لغوية فائقة تُسعفه على نقل أحاسيسه نحو الناس - مهما دقت - في غاية من الوضوح والصفاء.

وبهذه المواهب جميعاً حضر مجلس الصاحب، وعاش ما فعله ابن العميد، فرأى وسمع ولقي منهما ما ملأ عليه حواسه، فسجل ما شعرت به نفسه من الألم في كتابه هذا، وأخرجه صوراً معبرة رائعة ناطقة، أظهر فيها أبو حيان بحق أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة.

**خميس حسن**



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلواته على خير خلقه محمد وآله الطيبين.  
 أمتعتك الله بنعمته عليك، وتولاك بحسن معونته لك؛ وألهمك حمده، وأوزعك  
 شكره، ومنحك صنعه وتوفيقه؛ وأبسك عفوه وعافيته، وأوصل إليك رأفته، وصرّف  
 رغبتك إلى ما خلص عندك نفعه عاجلاً، وحلّت لك ثمرته أجلاً؛ وعرفك ما في الغيبة  
 والفريّة من الهجنة والشناعة، وما في إظهار العيب والتّنديد من العار والتّباعة<sup>(١)</sup>، وما  
 في الإعراض عن أعراض الناس من السّلامة والفائدة، وما في مباحاتهم<sup>(٢)</sup> ومقاربتهم  
 والتّوقير لهم من الرّاحة والعائدة، حتّى لا تأتي ما تأتي إلا وأنت واثق بعاقبته ومرجوعه،  
 ولا تدع ما تدع إلا وأنت محسوم الطّمع من خيره ومردوده، وحتّى لا تتكلّف إلا ما  
 في وسعك وطاقتك، ولا تُكلّف أحداً إلا ما له طريق إلى طاعتك وإجابتك، وعنده  
 الحجّة القوية في تقديم أمرك، والتّلوي<sup>(٣)</sup> فيما يتحمّله لك ويتوخّى فيه مسرّتك،  
 ويقصد به جدّلك<sup>(٤)</sup> وغبطنك، ويصير بالصّبر عليه من أوليائك وشيعتك، ولا يخرج

(١) التّباعة: العاقبة.

(٢) مباحاتهم: أبقى عليه: رحمة وشفق عليه، رعى حرّمته.

(٣) التّلوي: التّوجع والتألم.

(٤) جدّلك: فرحك.

معه إلى مُحَادَّتِكَ<sup>(١)</sup> ومخالفتك، لِأَمْرِ يُعْزِزُ، وحادِثٍ يَعْرِضُ، وَعَطْنٍ<sup>(٢)</sup> يَضِيْقُ، وَبَالٍ يَنْخُزِلُ<sup>(٣)</sup>، وَطِبَاعٍ تَخُورُ، وَحَاسِدٍ يَطْعَنُ، وَعَدُوٍّ يَعْتَرِضُ، وَجَاهِلٍ يَتَعَجَّرُفُ، وَسَفِيهِ يَتَهَانَفُ<sup>(٤)</sup>، وَصَدْرٍ يَخْرُجُ، وَلِسَانٍ يَتَلَجَّجُ. بل يَتَلَقَّى أَمْرَكَ بِالْقَبُولِ، وَيَنْشِطُ لخدمتك بالتأميل<sup>(٥)</sup>، وَيَرَى أَنَّ مَا يَنَالُهُ مِنْ رِضَاكَ فَوْقَ مَا يَبْذُلُ فِيهِ جُهْدَهُ لَكَ، وَمَا يُحْرِزُهُ مِنْ ثَوَابِكَ أَضْعَافُ مَا يُبْرِزُهُ مِنْ كَدِّهِ عِنْدَكَ، وَمَا يَنْجُو بِهِ مِنْ عَتَبِكَ وَاسْتِزَادَتِكَ يُوفِي عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِسَعْيِهِ فِي مُرَادِكَ، وَمَا يَعِزُّ بِهِ فِي الثَّانِي مِنْ إِحْمَادِكَ أَرْدُّ عَلَيْهِ مِمَّا يَدُلُّ بِهِ فِي الْأَوَّلِ مِنْ اقْتِرَاحِكَ، وَمَا يَقْوَى بِهِ مِنَ الْيَقِينِ وَالطَّمَأْنِينَةِ فِي كَرَامَتِهِ عِنْدَكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَضْعُفُ بِهِ مِنَ التَّرْنُحِ وَالشُّكِّ فِي بَوَارِهِ عَلَيْكَ.

وهذا بابٌ يرجع إلى معرفة الأحوال إذا وَرَدَتْ مُشْتَبِهَةٌ مُسْتَبَهَمَةٌ، وَعَوَاقِبُ الْأُمُورِ إِذَا صَدَرَتْ مُسْتَبِيرَةً مُتَوَضِّحَةً. وَثَمَرَةُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ السَّلَامَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْكَرَامَةُ فِي الْآخِرَةِ، وَبِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ يَصِحُّ الصَّرْفُ وَالْمَوَازَنَةُ، وَتَمَيِّزُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِمَّا انْفَقَ عَلَيْهِ، وَمَا تَرَجَّحَ بَيْنَ الْاِخْتِلَافِ وَالْاِتِّفَاقِ، وَلَمْ يَقُمْ عِنْدَ الْاِمْتِحَانِ وَالنَّظَرِ عَلَى سَاقٍ.

وهذه حالٌ لا تستفاد إلا بقلَّةِ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ، وَتَرْكِ الْهُوَيْنِيِّ<sup>(٦)</sup> فِي التَّشَاوُرِ وَالتَّخَايُرِ<sup>(٧)</sup>، وَمُجَانِبَةِ الْوِكَالِ<sup>(٨)</sup> كَيْفَ دَارَ الْأَمْرُ وَأَيْنَ بَلَغَتِ الْغَايَةَ.

وَأَنْتَ - حَفِظَكَ اللَّهُ - إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَجَدْتَهَا قَائِمَةً عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ، جَارِيَةً

(١) مُحَادَّتِكَ: معاداتك ومخالفتك.

(٢) الْعَطْنُ: مَبْرُكُ الْإِبِلِ وَمَرَبِضُ الْغَنَمِ عِنْدَ الْمَاءِ. وَفُلَانٌ وَاسِعُ الْعَطْنِ: وَاسِعُ الصَّبْرِ وَالْحِيلَةِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، سَخِيٌّ كَثِيرُ الْمَالِ.

(٣) يَنْخُزِلُ: يَنْقَطِعُ. وَانْخُزَلَ فُلَانٌ عَنِ الْأَمْرِ: ارْتَدَّ وَضَعُفَ.

(٤) يَتَهَانَفُ: يَضْحَكُ وَيَتَعَجَّبُ.

(٥) التَّأْمِيلُ: (مصدر أَمَّلَ) الرَّجَاءُ.

(٦) الْهُوَيْنِيُّ: الْاِتِّئَادُ فِي الْمَشْيِ. يُقَالُ: هِيَ تَمْشِي الْهُوَيْنِيَّ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّكَاسُلُ.

(٧) التَّخَايُرُ: تَخَايَرُوا فِي كَذَا: تَبَارَوْا وَتَغَالَبُوا لِيَرَوْا أَيُّهُمْ أَحْيَرُ.

(٨) الْوِكَالُ: الْبِلَادَةُ وَالْبُطْءُ.

عَلَى هَذِهِ الْأَصُولِ، ثَابِتَةً عَلَى هَذِهِ الْعَادَةِ؛ فَكُلُّ مَنْ كَانَ نَصِيْبُهُ مِنَ الْكَيْسِ وَالْحَزَامَةِ (١) أَكْثَرَ، كَانَ قِسْطُهُ مِنَ النَّفْعِ وَالْعَائِدَةِ أَوْفَرَ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَظُّهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّيْئِيدِ أَنْزَرَ (٢)، كَانَتْ تِجَارَتُهُ فِيهَا أَخْسَرَ، وَعَاقِبَتُهُ مِنْهَا أَعْسَرَ.

وهذا الباب جماعُ المنافع والمضارِّ، وبه يقعُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ، وَبَيْنَ السُّفْلَةِ وَذَوِي الْأَقْدَارِ. وَهُوَ بَابٌ يَنْتَظِمُ الصِّدْقَ وَالْكَذْبَ فِي الْقَوْلِ، وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ فِي الْفِعْلِ، وَالْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فِي الْإِعْتِقَادِ، وَالْعَدْلَ وَالْجَوْرَ فِيمَا عَمَّ، وَالْإِخْلَاصَ وَالْيَقِينَ فِيمَا خَصَّ، وَالرَّاحَةَ وَالسُّلْوَانَ فِيمَا بَانَ وَوَضَّحَ، وَالْقَنَاعَةَ وَالصَّبْرَ فِيمَا نَأَى وَنَزَّحَ (٣). وَمَتَى تَمَّتْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ، وَاسْتَحْكَمَتْ هَذِهِ الْبَصِيرَةُ، كَانَ الْإِقْدَامُ عَلَى ثِقَةٍ بِالظَّفْرِ، وَالنُّكُولُ عَنِ اطِّلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ.

وهذه معانٍ مَنْ أَبْصَرَهَا نَقَدَهَا، وَمَنْ نَقَدَهَا أَخَذَ بِهَا وَأَعْطَى، وَكَانَ فِيهَا أَنْفَذَ مِنْ غَيْرِهِ وَأَمْضَى؛ وَهَنَّاكَ يُحَكِّمُ لِبُعْدِهِ بِالْغُورِ، وَلِصَدْرِهِ بِالسَّعَةِ، وَلِصِيَّتِهِ بِالطَّيْرُورَةِ (٤)، وَلِطَبَاعِهِ بِالكَرَمِ، وَلِخُلُقِهِ بِالسُّهُوَلَةِ، وَلِثُودِهِ بِالصَّلَابَةِ، وَلِنَفْسِهِ بِالْمُدَارَاةِ، وَلِوَجْهِهِ بِالطَّلَاقَةِ، وَلِبَشَاشَتِهِ بِالْخِلَابَةِ (٥). وَمَتَى عَاشَرْتَ مَنْ هَذَا نَعْتُهُ وَحَدِيثُهُ نَعِمْتَ مَعَهُ، وَسَلِمْتَ عَلَيْهِ، وَسَعِدْتَ بِهِ، وَكُرِّمْتَ لَدَيْهِ، وَكَانَ حَظُّكَ مِنْ خِلَالَتِهِ (٦) وَمَجَاوَرَتِهِ الْغِبْطَةَ بِهِ، وَالْغَنِيمَةَ بِمَكَانِهِ. وَأَنْتَى لِكَ بَمَنْ هَذَا وَصْفُهُ وَخَبْرُهُ، وَمَنْ لَكَ بِالْمَرْءِ الَّذِي لَا بَعْدَهُ، مَعَ اضْطِرَابِ دَعَائِمِ الدُّنْيَا، وَتَسَاقُطِ أَرْكَانِ الدِّينِ؟ وَالْأَوَّلُ يَقُولُ:

(١) الحزامة: مصدر حَزَمَ.

(٢) أَنْزَرَ: أَقْلَ.

(٣) نَزَّحَ: نَفَدَ، ابْتَعَدَ، قَلَّ، رَحَلَ.

(٤) الطَّيْرُورَةُ: الطَّيْرَانُ.

(٥) الْخِلَابَةُ: الْخَدِيعَةُ بَرِيقِ الْحَدِيثِ.

(٦) خِلَالَتُهُ: صِدَاقَتُهُ.

وَكَيْفَ التَّمَّاسُ الدَّرَّ وَالضَّرْعُ يَابَسُ

وما لامرئٍ ممّا قضى الله مزحلاً (١)

وليس لرحلٍ حطّه الله حامل (٢)

إنّ البريء من الهنات سعيد (٣)

وما خير سيفٍ لم يؤيد بقائم (٤)

ولكن أين بالسيف ضارب (٥)

الله يرزق لا كيس ولا حمق (٦)

والبر خير حقيقة الرجل (٧)

(١) عجز بيت أوردته القالي في أماليه (١٦٨/١) تمامه:

كفيف وكلّ ليس يعدو حمامه وما لامرئٍ مما قضى الله مزحلاً

(٢) عجز بين لكعب بن زهير، وتمامه:

«وليس لمن لم يركب الهول بغية»

وورد أيضاً في عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٣١/١).

(٣) ورد في تهذيب الأزهري مادة (نجا) غير منسوب، وأوله:

«وأصون عرضي أن ينال بنجوة»

والهنات: جمع الهنة: شرٌّ وفسادٌ، ما يستقبح ذكره.

(٤) عجز بيت لبشار بن برد في قصيدة يهجو فيها المنصور العباسي، وصدوره:

«وما خيرٌ كفّ أمسك الغلّ أختها»

قائم السيف: ما تشد عليه اليد، وهو المقبض الذي تضم عليه الأصابع. والغلّ (بضم الغين): القيد. انظر

ديوانه (١٧٣/٤).

(٥) جزء من بيت غير منسوب، وتمامه:

فهذي سؤوف يا عدّي بن مالك \* كثير

وهو في «رسالة الملائكة» لأبي العلاء المعري ص ٢٤، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٢/٥).

(٦) عجز بيت لأبي العتاهية (ديوانه ص: ٢٨٨)، وصدوره:

«كلُّ امرئٍ ولهُ رزقٌ سيبلغه»

(٧) عجز بيت لامرئ القيس، وصدوره:

«الله أنجح ما طلبت به»

ولقد أجاد المَخزوميُّ أبو سَعْد<sup>(١)</sup> في قوله:

اصطَلَحَ السائلُ والمسؤولُ ليسَ إلى مَكْرُمَةٍ سبيلُ  
غَالٍ بِإِخْوَانِ الوَفَاءِ غُولُ كُلِّ امرئٍ بِشَأْنِهِ مشْعُولُ  
وما أَبْعَدَ الآخِرُ حينَ يُقُولُ:

أرى الناسَ شَتَّى في النَّجارِ وإنْ غَدَتِ خلائقُهُم في اللُّؤمِ واحِدَةَ النَّجْرِ<sup>(٢)</sup>  
وقد زادني عَتْبًا على الدهرِ أنِّي عَدِمْتُ الذي يُعَدِّي على حادِثِ الدَّهْرِ<sup>(٣)</sup>  
وهذا كثيرٌ، والداءُ فيه مُتفاقمٌ، والقولُ عليه مُعادٌ مَمْلُولُ.

فإن قلتَ: هؤلاءِ شعراءُ، والشُّعراءُ سُفهاءُ، ليسوا علماءَ ولا حُكَماءَ، وإنما يقولون ما يقولون، والجشعُ بادٍ منهم، والطمعُ غالبٌ عليهم، وعلى قَدْرِ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ يكون صوابُهُم وخطأُهُم؛ ومَن أَمَكَنَ أن يُزْحِزِحَ عن الحقِّ بأدنى طَمَعٍ، ويُحْمَلَ على الباطلِ بأيسرِ رَغْبَةٍ، فليس مَمَّنْ يكون لِقوله إِتاءً<sup>(٤)</sup>، أو لِحِكمته مَضاءً، أو لِقَدْرِهِ رِفْعَةً، أو في خُلُقِهِ طَهارةً؛ ولهذا قال القائلُ:

لا تصحبنَّ شاعراً فإنَّه يَهْجوك مَجَانًا وَيُطْرِي بِشَمْنٍ  
وهذا لأنَّه مع الرِّيحِ، أين مالَتْ به مالٌ، يتطوَّحُ مع أَقلِّ عارِضٍ، ويُجيبُ أولَ ناعِقٍ،  
ويشيم<sup>(٥)</sup> أيَّ بَرَقٍ لاحٍ، ولا يُبالي في أيِّ وادٍ طاح؛ فقد جَمَعَ دينَهُ ومُروءَتَهُ في قرْنٍ<sup>(٦)</sup>  
تَهاوُنًا بهما، وعَجْزًا عن تَدبيرهما. فهو لا يَكْتَرِثُ كيف أجابَ سائلاً، وكيف أبطلَ

(١) أبو سعد المَخزومي ممن عُرف بكنيته واسمه: عيسى بن خالد بن الوليد، من ولد الحارث بن هشام المَخزومي، شاعر من أهل بغداد، كثير الشعر جيدة، كان يهاجي دعبلاً الخزاعي وله مديح للمأمون. (انظر الفهرست: ٢٣٥، والأغاني ١٨ / ٥٠).

(٢) النَّجارُ: الأَصْلُ والنَّحْسَبُ. النَّجْرُ: الأَصْلُ.

(٣) يُعَدِّي: أعداه علي خصمه: نصره عليه وقواه. وحادث الدهر: نائبته ومصيبته.

(٤) الإِتاءُ: الرِّيعُ والغَلَّةُ.

(٥) شامَ السَّحابِ والبرقِ: نظر إليه يتحقَّقُ أين يكون مَطَرُهُ.

(٦) القرْنُ: الحَبْلُ يُقرَنُ به البعيران.

مُجِيبًا، وَكَيْفَ ذَمَّ كَاذِبًا وَمُتَحَامِلًا، وَكَيْفَ مَدَحَ مُوَارِبًا وَمُخَاتِلًا. فلا تفعل<sup>(١)</sup>، فِذَاكَ عَمُّكَ، وَشَبَّ ابْنُكَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لِحُكْمًا»<sup>(٢)</sup>، كما قال: «وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»<sup>(٣)</sup>، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَفِيهِ مِثْلُ قَوْلِ لَبِيدٍ<sup>(٤)</sup>:

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلْ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلْ  
وَالشُّعْرُ كَلَامٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَبِيلِ النَّظْمِ، كَمَا أَنَّ الْخُطْبَةَ كَلَامٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَبِيلِ  
النَّثْرِ، وَالِانْتِثَارُ وَالِانْتِظَامُ صُورَتَانِ لِلْكَلامِ فِي السَّمْعِ، كَمَا أَنَّ الْحَقَّ وَالْباطِلَ صُورَتَانِ  
لِلْمَعْنَى، وَكَذَلِكَ الْمَثَلُ فِي السَّمْعِ، وَلَيْسَ الصَّوَابُ مَقْصُورًا عَلَى النَّثْرِ دُونَ النَّظْمِ، وَلَا  
الْحَقُّ مَقْبُولًا بِالنَّظْمِ دُونَ النَّثْرِ. وَمَا رَأَيْنَا أَحَدًا أَغْضَى عَلَى باطلِ النَّظْمِ وَاعْتَرَضَ عَلَى  
حَقِّ النَّثْرِ؛ لِأَنَّ النَّثْرَ لَا يَنْتَقِضُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا؛ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الْقَائِلُ<sup>(٥)</sup>:

وَإِنَّمَا الشُّعْرُ لُبُّ الْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ حَمَقًا  
وَإِنْ أَشْعَرَ بَيْتِ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ، إِذَا أَنْشَدْتَهُ، صَدَقَا  
وَهَذَا بَابٌ لَا يُفِيدُ الْإِغْرَاقُ فِيهِ إِلَّا مَا يُفِيدُ التَّوَسُّطُ وَالْقَصْدُ، فَلَا وَجْهَ مَعَ هَذَا لِلِإِطَالَةِ،  
وَلِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْمَلَالَةِ.

(١) جواب لقوله «فإن قلت» السابق.

(٢) ذكره الأبناني في صحيح الأدب المفرد (٦٦٩) بلفظ «وإن من الشعر حكمة» ورواه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وقال صحيح.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري برقم ٥٧٦٧ وفيه أنه قدم رجلاً من المشرك فخطباً، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من البيان لسحراً، أو: إن بعض البيان لسحر».

(٤) لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري. أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، هو:

مَا عَاتَبَ الْمَرْءَ الْكَرِيمَ كَنْفُسِهِ وَالْمَرْءُ يُصْلِحُهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ  
وَسَكَنَ الْكُوفَةَ، وَعَاشَ عَمْرًا طَوِيلًا. وَهُوَ أَحَدُ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ. وَمَطْلَعُ مَعْلَقَتِهِ:  
عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمَنْى تَابَدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

(٥) هو حسان بن ثابت.

وهذه الجملة - أكرمك الله - أنت أحوجتني إليها، وجشمتني صعبها حتى نُسبتُ بها<sup>(١)</sup> قائماً وقاعداً، وتقلبتُ في حافاتِها مختاراً ومضطراً، وتصرفتُ في فنونها مُحسناً ومُسيئاً، لما تابعتُ إليّ من كتابٍ بعدَ كتابٍ، تُطالبُني في جميعه بنسخِ أشياءٍ من حديثِ ابنِ عَبَّادٍ وابنِ العَمِيدِ وغيرِهما ممَّن أدركتُ في عصري من هؤلاء منذُ سنةِ خمسين وثلاثمائة إلى هذه الغاية، وزعمتُ أنّي قد خبرتُ هذين الرجلين من غمارِ الباقين، ووقفتُ على شأنهما، واستبنتُ دخائِلَهما، وعرفتُ خوافي أحوالِهما، وغرائبَ مذاهبيهما وأخلاقهما. ولعمري قد كان أكثرُ ذلك، إما بالمشاهدة والصُّحبة، وإما بالسَّماعِ والرّواية من البطانة والحاشية والتَّدماءِ وذوي المُلابسة.

وقلت: ينبغي أن تُضيفَ إلى ذلك ما يتعلّق به. ويدخلُ في طرازه ولا يخرجُ عن الإفادةِ بذكره، والاستفادةِ من نشره؛ فإنَّ ذلك يأتي على كل ما تتوقُّ إليه النَّفسُ من كَرَمٍ ولُؤمٍ، وزيادةٍ ونقصٍ، وورعٍ وانسلاخٍ، ورزاةٍ وسُخفٍ، وكَيْسٍ وبُلهٍ، وشجاعةٍ وجُبْنٍ، ووفاءٍ وغدرٍ، وسياسةٍ وإهمالٍ، واستعفافٍ ونطفٍ<sup>(٢)</sup>، ودهاءٍ وغفلةٍ، وبيانٍ وعيٍّ، ورشادٍ وغيٍّ، وخطأٍ وصوابٍ، وحلمٍ وسفَهٍ، وخلاعةٍ وتمالُكٍ، ونزاهةٍ ودنَسٍ، وفضاظةٍ ورِقَّةٍ، وحياءٍ وقِحَّةٍ، ورحمةٍ وقسوةٍ.

وقلت: ولا يخلو موقعُ ذلك كَلِّه ولا يعذبُ ورْدُه، ولا يغزرُ عدُّه<sup>(٣)</sup>، ولا ينقادُ السمعُ له، ولا يراحُ<sup>(٤)</sup> القلبُ به إلا بعد أن تدعُ المُحاشاة<sup>(٥)</sup> وأنت مُقتدرٌ، وتفارقُ المُحاشاة<sup>(٦)</sup> وأنت مُنتصرٌ، وإلا بعد أن تتركِ العدوَّ والحاسدَ ينقدَّان<sup>(٧)</sup> بغیظهما انقِداداً

(١) نُسبتُ بها: تعلقتُ بها.

(٢) النُّطفُ: التلطفُ بالعیب.

(٣) العدَدُ: الماءُ الجاري الذي لا ينقطع.

(٤) يراحُ: راح فلانٌ للشَّيءِ نَشِطَ له وأخذته له خِفَّةً.

(٥) المُحاشاةُ: التجنبُ والابتعادُ.

(٦) المُحاشاةُ: الخوفُ.

(٧) ينقدَّان: ينشقان من الغیظِ.

ويرتدان على أعقابهما ارتداداً. فإن التقيّة في هذا الفنّ مجزعة مضرّعة، وركوب الرّدع فيه مأثرة ومفخرة.

وقلت والعامّة تقوله: مَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ شَاءَ دَقَّ عُنُقَهُ الذُّبُّ، وَمَنْ صَيَّرَ نَفْسَهُ نُخَالَةً أَكَلَهُ الدَّجَاجُ<sup>(١)</sup>، وَمَنْ نَامَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ دَقَّتْهُ الْحَوَافِرُ دَقًّا، وَالْكِبْرُ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ، كَالْتَوَاضِعِ فِي آدَاءِ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ ذُلٍّ، وَكَمَا أَنَّ الْمَنْعَ فِي مَوْضِعِ الْإِعْطَاءِ حَرَمَانٌ، كَذَلِكَ الْإِعْطَاءُ فِي مَوْضِعِ الْمَنْعِ خِذْلَانٌ؛ وَكَمَا أَنَّ الْكَلَامَ فِي مَوْضِعِ الصَّمْتِ فَضْلٌ وَهَذَرٌ، كَذَلِكَ السُّكُوتُ فِي مَوْضِعِ الْكَلَامِ لُكْنَةٌ وَحَصْرٌ، وَكَمَا أَنَّ الْقُلُوبَ جُبِلَتْ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، كَذَلِكَ النُّفُوسُ طُبِعَتْ عَلَى بُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا. وَالجَبَلُ وَالطَّبْعُ وَإِنْ افْتَرَقَا فِي اللَّفْظِ فَإِنَهُمَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْمَعْنَى، وَكَمَا أَنَّ الْحُبَّ نَتِيجَةُ الْإِحْسَانِ، كَذَلِكَ الْبُغْضُ نَتِيجَةُ الْإِسَاءَةِ، وَكَمَا أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِ لَا يَتَهَنَّأُ<sup>(٢)</sup> بِنِعْمَتِهِ الْوَاصِلَةِ إِلَيْهِ إِلَّا بِالشُّكْرِ لَوَاهِبِهَا، كَذَلِكَ الْمُسَاءُ إِلَيْهِ لَا يَجِدُ بَرْدَ غَلَّتِهِ وَلَذَّةَ حَيَاتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَشْكُوَ صَاحِبَ الْإِسَاءَةِ، وَإِلَّا بِأَنْ يَهْجُوَ الْمَانِعَ، وَيَذُمُّ الْمَقْصُرَ، وَيَثْلُبُ الْحَارِمَ، وَيُنَادِي عَلَى الْخَسِيسِ السَّاقِطِ، وَالتَّذَلُّ الْهَابِطِ، فِي كُلِّ سَوْقٍ، وَفِي كُلِّ مَجْلِسٍ، وَعِنْدَ كُلِّ هَزَلٍ وَجَدٍّ، وَمَعَ كُلِّ شَكْلِ وَضِدٍّ. مِيزَانٌ عَدْلٌ، وَوِزْنٌ بَقْسَطٍ، وَنَصْفَةٌ مَقْبُولَةٌ، وَعَادَةٌ جَارِيَةٌ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ.

وقلت أيضاً: وَمَنْ وَجَعَ قَلْبَهُ وَجَعُكَ، وَأَلَمَ عَلَيْهِ أَلَمُكَ؛ وَحُرِمَ حَرَمَانُكَ، وَخُيِّبَ خَيْبَتِكَ، وَجُرِّعَ مَا جُرِّعْتَهُ، وَقُصِدَ بِمَا قُصِدْتَ بِهِ، وَعُومِلَ بِمَا شَاعَ لَكَ، قَالَ وَأَطَالَ، وَكَرَّرَ وَسَيَّرَ، وَأَعَادَ وَأَبْدَأَ، وَعَرَّضَ وَصَرَّحَ، وَمَرَّضَ<sup>(٣)</sup> وَصَحَّحَ، وَقَامَ وَقَعَدَ، وَقَرَّبَ وَبَعَدَ. وَإِنَّ عَيْنًا تَرَفُدُ عَلَى الضَّيْمِ لِلْعَمَى أَحْسَنُ بِهَا، وَإِنْ نَفْسًا تَقْرَأُ عَلَى الْخُسْفِ لِلْمَوْتِ أَوْلَى بِهَا مِنْ حَيَاتِهَا.

(١) ذكر الآبي هذا المثل في نثر الدر (٤/٢٩٥).

(٢) لا يتَهَنَّأُ: لا يستسيغ.

(٣) مَرَّضَ المَرِيضَ: دَاوَاهُ وَأَحْسَنَ الْقِيَامَ عَلَيْهِ لِيُزِيلَ مَرَضَهُ. وَمَرَّضَ فِي الْأَمْرِ: قَصَّرَ فِيهِ وَلَمْ يُحْكِمَهُ.

وقلت: أما سمعت قول العاتبِ عليّ ابن العميد في رسالته حين قال الحقّ له؟ قال: وليعلم المرء - وإن عزَّ سلطانه، وعلا مكانه، وكثرت حاشيته وغاشيته، وملك الأعنة، وقاد الأزمنة - أنه يُنعم له<sup>(١)</sup> في الحمدِ على الحسن، والذمّ على القبيح، وأنّ المخوف يُرتاب من ورائه<sup>(٢)</sup> كما يُقرّع المأمون في وجهه، فأعلاهما حالاً أكثرهما عند التقصير وبالألّا.

وهذا بابٌ يعرفه من الناس من ساس الناس؛ وهذا الكاتب يُعرف بالأشَلّ<sup>(٣)</sup>.  
وقلت أيضاً:

ولستُ أسألك أن لا تذكر من حديثهما إلّا ما كان جالباً لمقتئهما، وداعياً إلى الزّرية عليهما، وباعثاً على سوء القول والاعتقاد فيهما، بل تُضيف إلى ذلك ما قد شاع لهما وشهر عنهما، من فضائل لم يثلثهما فيها أحدٌ في زمانهما، ولا كثيرٌ ممن تقدّمهما؛ فإن الفائدة المطلوبة في أمرهما وشرح حديثهما، تأديب النفس، واجتلاب الأُنس، وإصلاح الخلق، وتخليص ما حَسُن مما قُبِح، وتسليط النظر الصّحيح، مع العدل المحمود فيما أُشكِل واشتبه بين الحسن المطلق والقبيح المطلق.  
وقلت:

ومما ينبغي أن لا تُغفله ولا تذهب عنه، وتطالب نفسك بالتيقّظ فيه، والتّجَمُّع له: بابُ اللفظ والمعنى في الصّدق والكذب، فإنّك إن حرّفت في هذا بعض التحريف، أو جرّفت<sup>(٤)</sup> في ذاك بعض التجزيف، خرج معنك من أن يكون فحماً نبيلًا، ولفظك من أن يكون حلواً مقبولًا، لأن الأحوال كلّها - في صلاحها وفسادها - موضوعةٌ دون

(١) يُنعم له: يُحسن له ويزاد.

(٢) يُرتاب من ورائه: يُتهم في غيبته ويُتعرض له.

(٣) ذكره أبو حيان في البصائر والذخائر، وذكر رسالته تلك.

(٤) جرّفت: أرسلت القول جُرأفاً، أي دون تقدير.

اللفظ المُونِق، والتأليف المُعْجِب، والنَّظْم المتلائم. وما أَكْثَرَ مَنْ رُدَّ صَالِحُ مَعْنَاهُ  
لِفَاسِدِ لَفْظِهِ، وَقَبِلَ فَاسِدُ مَعْنَاهُ لَصَالِحِ لَفْظِهِ!

وقلت:

وإنما نَبَّهْتُكَ عَلَى هَذَا شَفَقَةً عَلَيْكَ، وَحِرْصًا عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ لِمُعْنَتِي وَعَائِبِي طَرِيقٌ  
إِلَيْكَ، وَأَنْتَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مُسْتَوْصٍ لَا تُخَوِّجُ إِلَى تَنْبِيهِ بَعْنَفٍ، وَإِنْ أَحْوَجْتَ إِلَى  
إِذْكَارٍ بَلُطْفٍ. وَقَدْ كَانَ الْبَيَانُ عَزِيزًا فِي وَقْتِ الْبَيَانِ، وَالنُّصْحُ غَرِيبًا فِي وَقْتِ النُّصْحِ،  
وَالدِّينُ مُسْتَطَرَفٌ فِي وَقْتِ الدِّينِ، إِذِ الْحِكْمَةُ مُعَانَقَةٌ بِالصَّدْرِ وَالتَّحَرُّ، مُقْبَلَةٌ بِكُلِّ شَفَةِ  
وَتَغْرٍ، مَخْطُوبَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاقِ، يُفْرَعُ مِنْ أَجْلِهَا كُلُّ بَابٍ، وَيَحْرُقُ عَلَى فَاتِّهَا كُلُّ  
نَابٍ<sup>(١)</sup>، وَالْأَدَبُ مُتَنَافَسٌ فِيهِ، مَحْرُوصٌ عَلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنْهُ، مَعَ شُعْبِهِ الْكَثِيرَةِ وَطَرَائِقِهِ  
الْمُخْتَلِفَةِ. وَالدِّينُ فِي عَرَضِ ذَلِكَ مَذْبُوبٌ عَنْهُ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، مَرْجُوعٌ إِلَيْهِ الرِّضَا  
والتَّسْلِيمِ، مَقْنُوعٌ بِهِ فِي الْغَضَبِ وَالْحِلْمِ. فَكَيْفَ الْيَوْمَ وَقَدْ اسْتَحَالَتِ الْحَالُ عَجْمَاءَ،  
وَمَلَكَ الْغِنَى وَالثَّرَاءَ الرُّؤْسَاءَ وَالْعُلَمَاءَ، وَقَلَّ الْخَائِضُ فِيمَا كَسَبَ زِيَادَةً أَوْ نَفَى نَقِيصَةً  
وَأَوْرَثَ عِرًّا وَأَعْقَبَ فَوْزًا.

وقلت:

وَلِيَكُنْ ذَلِكَ كُلُّهُ - إِذَا نَشِطْتَ لَهُ - مَقْصُورًا غَيْرَ مَبْسُوطٍ، أَوْ بَيْنَ الْمَقْصُورِ وَالْمَبْسُوطِ،  
فَإِنَّهُ إِنْ زَادَ عَلَى هَذَا التَّحْدِيدِ طَالَ، وَإِذَا طَالَ مُلٌّ، وَإِذَا مُلَّ نَظَرَ إِلَى صَحِيحِهِ بَعَيْنِ  
السَّقِيمِ، وَحُكْمَ عَلَى حَقِّهِ بِلِسَانِ الْبَاطِلِ، وَتُخَيَّلَ الْقَصْدُ فِيهِ إِسْرَافًا، وَالْعَدْلُ فِيهِ جَوْرًا،  
وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحُولُ عَنْ بَهْجَتِهِ وَمَائِهِ، وَرَوْنَقِهِ وَصَفَائِهِ.

وَجَمِيعُ مَا قَلَّتْهُ - حَاطَكَ اللَّهُ - وَأَتَيْتْ بِهِ، وَسَحَبْتَ ذِيْلَكَ عَلَيْهِ، وَرَفَلْتَ أَعْطَافُكَ  
فِيهِ، قَدْ سَمِعْتُهُ وَفَهَمْتُهُ، وَطَوَيْتُهُ فِي نَفْسِي وَبَسَطْتُهُ، وَجَمَعْتُهُ بِذَهْنِي وَفَرَّقْتُهُ، وَنَظَّمْتُهُ

(١) وَيَحْرُقُ عَلَى فَاتِّهَا كُلُّ نَابٍ: حرق الناب: صوت عند احتكاكه بناب آخر، يحدث ذلك عند الندم والغَيْظِ.

عندي ونثرته؛ ولست جاهلاً به ولا ذاهلاً عنه، ولكن من لي بعناد ذلك كله، وبالتأني له، وبالقدرة عليه، وبالسَّلامة فيه إن فاتتني الغنيمة فيه؟ مع صدري الضيق، وبالي المشغول، ومع زروح الحال<sup>(١)</sup>، وفقد النَّصر، وعدم القوت، وسوء الجزع، وضعف التوكل. نعم! ومع الأدب المدخول، واللسان المُلجج، والعلم القليل، والبيان النَّزْر، والخوف المانع. وإني لأظنُّ أن الطائع لك في هذه الخطة، والمجيب عن هذه المسألة، قليل النَّبِيَّة، سيئ البقية، ضعيف البديهة والرؤية، لأنه يتصدى لما لا يفي به، ولا يتسع له، ولا يتمكن منه. فإن وفي واتسع وتمكن لم يسلم على كثير ممن يقرأ كلامه، ويتصفح أمره، ويقص أثره، ويطلب عثرته؛ لأن الناس في نشر المدح والذم، وفي بسط العذر واللوم؛ على آراء مختلفة، ومذاهب متباينة، وأهواء مشتتة<sup>(٢)</sup>، وعادات متعاندة.

على أنهم، بعد شدة جدالهم وطول مرائهم، رجлан:

متعصب لمن تدممه وتعيبه وتنت<sup>(٣)</sup> القبيح عنه، فهو يغتفر له جميع ما يسمع منك، صادقاً كنت أو كاذباً، معرضاً كنت أو مفصلاً.

أو متعصب على من تمدحه وتزكيه وتفضله وتثني عليه، فهو يرد عليك كل ما تدعيه، مُحققاً كنت أو مُجرِّفاً، موضحاً كنت أو مُزخرفاً؛ ولذلك قال بعض علماء السلف الصالح: هما امرآن مَثَوَاك بينهما، راض عنك فهو يمنحك أكثر مما هو لك، وساخط عليك يتنقصك من حَقِّك؛ فزَمَّ ما ثلم الباغي بفضلة الراضي يعتدل بك الأمر. والشاعر قد فرغ من هذا المعنى وسيِّره في قريضه المشهور المتداول حيث يقول:

وعين الرضا عن كل عيب كيلةٌ      ولكن عين السُّخْطِ بُدِيِ المساويا<sup>(٤)</sup>

(١) رَزَحَتْ حَالُهُ : سَاءَتْ.

(٢) مشتتة: مختلطة متفرقة.

(٣) نَتَّ الخَيْرَ بَيْنَ النَّاسِ : حَدَّثَ بِهِ وَأَفْشَاهُ وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُكْتَمَ، أَدَاعَهُ، كَشَفَهُ.

(٤) يُنسب هذا البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. انظر الأغاني (١١ / ٦٣ - ٧٤)

والكامل للمبرد (١ / ١٨٣).

عَلَى أَنْ هَذَا الشَّاعِرُ قَدْ أَثْبَتَ الْعَيْبَ وَإِنْ كَانَ قَدْ وَصَفَهُ بِكُلُولِ الْعَيْنِ عَنْهُ، وَدَلَّ عَلَى الْمَسَاوِي وَإِنْ كَانَ الشُّخْطُ مُبْدِيهَا، وَهَذَا لِأَنَّ الْهَوَى مُقِيمٌ لِابْتِثِّ وَالرَّأْيُ مُجْتَازٌ عَارِضٌ، وَلَا بُدَّ لِلْهَوَى مِنْ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَيَبْلُغَ مَبْلَغَهُ، وَلَهُ قَرَارٌ لَا يَطْمِئِنُّ دُونَهُ، وَحَدُّهُ هُوَ أَوَّلًا يَتَعَدَّاهُ وَيَتَجَاوِزُهُ، وَلَهُ غَوْلٌ تُضِلُّ، وَتَمَسَّاحٌ يَبْتَلَعُ، وَثَعْبَانٌ - إِذَا نَفَخَ - لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ، وَالرَّأْيُ عِنْدَهُ غَرِيبٌ خَامِلٌ، وَنَاصِحٌ مَجْهُولٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: فَضَّلَ مَا بَيْنَ الرَّأْيِ وَالْهَوَى أَنْ الْهَوَى يَخُصُّ وَالرَّأْيُ يَعْصِمُ، وَالْهَوَى فِي حَيْزِ الْعَاجِلِ، وَالرَّأْيُ فِي حَيْزِ الْأَجَلِ، وَالرَّأْيُ يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ، وَالْهَوَى سَرِيعُ الْبُيُودِ<sup>(١)</sup> كَالزَّهْرِ، وَالرَّأْيُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَالْهَوَى مُفْتَحُ الْأَبْوَابِ مَمْدَدُ الْأَطْنَابِ. وَلِذَلِكَ قَالَ أَيْضًا بَعْضُ الْعَرَبِ، وَيُقَالُ هُوَ عَامِرُ بْنُ الظَّرْبِ<sup>(٢)</sup>: الرَّأْيُ نَائِمٌ وَالْهَوَى يَقْظَانُ، فَارْقُدُوا الْهَوَى بِفِظَاظَةٍ، وَأَيِّقِظُوا الرَّأْيَ بِلَطَافَةٍ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فِي يَدَيِ شَهَوَاتِهِ ظَفِرَ الْهَوَى مِنْهُ بِحَزْمِ ضَائِعٍ  
وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لَمْ أَرَ كَالْعَقْلِ صَدِيقًا مَعْقُوفًا، وَلَا كَالْهَوَى عَدُوًّا مَعشُوقًا. وَمِنْ وَفَّقَهُ  
اللَّهُ لِلْخَيْرِ جَعَلَ هَوَاهُ مَقْمُوعًا، وَرَأْيَهُ مَرْفُوعًا.

وَإِذَا كَانَ الْهَوَى - أَبْقَاكَ اللَّهُ - عَلَى مَا وَصَفْنَا، وَعَلَى وَرَاءِ مَا وَصَفْنَا مِمَّا لَا نُحِيطُ بِهِ وَإِنْ أَطَّلْنَا، فَمَتَى يَخْلُو الْمَادِحُ - إِذَا مَدَحَ - مِنْ بَعْضِ الْإِفْرَاطِ تَقَرُّبًا إِلَى مَأْمُولِهِ، وَخِلَابَةً<sup>(٣)</sup> لِعَقْلِهِ، وَاسْتِدْرَارًا لِكَرَمِهِ، وَبَعْنًا عَلَى تَنْوِيلِهِ وَتَخْوِيلِهِ. وَهَذِهِ حَالٌ مَصْحُوبَةٌ فِي الْمَمْدُوحِ إِذَا كَانَ أَيْضًا غَائِبًا أَوْ مَيِّتًا؟

أَوْ مَتَى يَسْلَمُ الذَّامُّ - إِذَا ذَمَّ - مِنْ بَعْضِ الْإِسْرَافِ تَعْتِنًا لِصَاحِبِهِ وَحَمَلًا عَلَيْهِ بِالْإِنْجَاءِ

(١) الْبُيُودُ: مَصْدَرٌ (بَاد) بِمَعْنَى هَلِكٌ.

(٢) عَامِرُ بْنُ الظَّرْبِ: هُوَ عَامِرُ بْنُ الظَّرْبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَبَّادِ بْنِ يَشْكُرَ بْنِ عَدُوَانَ، شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ مِنْ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ وَسَادَتِهِمْ، وَحَكِيمُهُمْ فِي سَوْقِ عَكَازٍ. كَانَ مِمَّنْ حَرَّمَ الْخَمْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

(٣) خِلَابَةٌ: الْخَدِيعَةُ بِرَقِيقِ الْحَدِيثِ.

الشديد، والقول الشنيع، والتداء الفاضح، والحديث المخزي، وجرياً مع شفاء الغيظ  
وبرد الغليل؟

لأن جرعة الحرمان أمرٌ من جرعة الثكل، وضياح التأميل أمضٌ من الموت، وخدمة  
من لم يجعله الله لها أهلاً أشدُّ من الفقر، وإنما يُخدم من انتصب خليفةً لله بين عباده  
بالكرم والرحمة، والتجاوز والصفح، والجود والنائل، وصلة العيش وبذل مادة الحياة  
وما يُصاب به روح الكفاية. وحرمان المؤمل من الرئيس ككفران النعمة من التابع،  
ورحى الحرب في هذا الموضع راکدة<sup>(١)</sup>، والقراع عليه قائم، والخطابة في دفعه وإثباته  
واسعة، والتّمويه مع ذلك مُعترض، والاعتذار مردود، والتأويل كثير، والتنزيل<sup>(٢)</sup> قليل.  
ولقد رأيتُ الجرّجرائي<sup>(٣)</sup> - وكان في عداد الوزراء وجلة الرؤساء، وإنما قتله ابن  
بقيّة<sup>(٤)</sup> لأنه نغم له بالوزارة - يقول للحاتميّ أبي عليّ<sup>(٥)</sup>، وهو من أدهياء الناس:

(١) راکدة: ثابتة ودائرة، من الأضداد، والمقصود هنا دائرة.

(٢) التنزيل: وضع الشيء في مكانه ومنزلته.

(٣) الجرّجرائي: هو محمد بن أحمد البغدادي الكاتب، توفي سنة ٣٦٣ هـ. انظر تفصلاً من أخباره في الإمتاع  
والمؤانسة: (١٥٣/٢ - ١٨٣/٣).

(٤) الوزير أبو الطاهر نصير الدولة وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابن بويه. كان من جلة الوزراء وأكابر  
الرؤساء وأعيان الكرماء. وفي أول أمره توصل إلى أن صار صاحب مطبخ معز الدولة ثم تنقل في غير ذلك من  
الخدم ولما مات معز الدولة حسنت حاله عند ولده عز الدولة ورعى له خدمته لأبيه فاستوزره في ذي الحجة  
سنة ٣٦٢ هـ فقال الناس: «من الغضارة إلى الوزارة»، ويشيرون إلى وضاعة أصله، ولكن كرمه غطى على عيبه.  
وفي سنة ٣٦٧ هـ قتله عضد الدولة وصلبه.

(٥) الحاتميّ أبو عليّ محمّد بن الحسين بن المظفر، إمام اللغة والأدب، أخذ عن أبي عمر الزاهد، وجماعة. وله  
(الرسالة الحاتميّة) فيها ما جرى بينه وبين المتنبّي من إظهار سرقانه وعبوب شعره وحمقه وتبنيه، فذكر أنه ذهب  
إليه وتحامق عليه، ثم قال: ما خبرك؟ فقلت: بخير لولا ما جئته على نفسي من قُصدك، ووسمت به قدر من  
ميسم الذل بزيارتك، يا هذا أين لي ممّ تبهك وخيلاؤك؟ وما أوجب ذلك؟ أهاهنا نسب علقّت بأذياله، أو سلطان  
تسلطت بعزه، أو علم يُشار إليك به؟ فلو قدرت نفسك بقدرها لما عدوت أن تكون شاعراً، مكتسباً، فامتّع لوئه،  
ولأن في الاعتذار، وكرّر الأيمان أنه لم يبتني، ولا اعتمد التقصير بي، وذكر فضلاً طويلاً في المعنى. ونأظره في  
الشعر. توفي في ربيع الأول سنة ٣٨٨ هـ. روى عنه أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة، ١١٠/٣.

إِنَّمَا تُحْرَمُ لِأَنَّكَ تَشْتُمُ.

فقال الحاتمي: وَإِنَّمَا أَشْتُمُ لِأَنِّي أُحْرَمُ.

فَأَعَادَ الْجَرْجَرِيُّ قَوْلَهُ.

فَأَعَادَ الْحَاتِمِيُّ جَوَابَهُ.

فقال: ثم ماذا؟

فقال الحاتمي: دَعِ الدَّسْتَ (١) قَائِمَةً، وَإِنْ شِئْتَ عَمِلْنَاهَا عَلَى الْوَاضِحَةِ.

قال: قُلْ!

قال الحاتمي: يَقْطَعُ هَذَا أَنْ لَا يَسْمَعُوا مَدَائِحَهُمْ، وَلَا يَكْتَرِثُوا بِمِرَاتِبِهِمْ؛ وَأَنْ يَعْتَرِفُوا لَنَا بِمَزِيَّةِ الْأَدَبِ وَفَضْلِ الْعِلْمِ وَشَرَفِ الْحِكْمَةِ، كَمَا خَذِينَا (٢) لَهُمْ بِعِظْمَةِ الْوِلَايَةِ، وَفَضْلِ الْعَمَلِ، وَبَسْطِ الْيَدِ، وَعَرْضِ الْجَاهِ، وَالِاسْتِبْدَادِ بِالْتَنْعَمِ وَالطَّاقِ (٣) وَالرُّوَاقِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْحِجَابِ وَالْبُؤَابِ؛ وَأَنْ يَكْتُبُوا عَلَى أَبْوَابِ دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ:

يَا بَنِي الرَّجَاءِ! ابْعِدُوا عَنَّا، وَيَا أَصْحَابَ الْأَمَلِ! اقْطَعُوا أَطْمَاعَكُمْ عَنْ خَيْرِنَا وَمَيْرِنَا (٤)، وَأَحْمَرِنَا وَأَصْفَرِنَا، وَوَفِّرُوا عَلَيْنَا أَمْوَالَنَا، فَلَسْنَا نَرْتَاخُ لِتَشْرِكُمْ فِي رِسَالَةٍ تُحَبِّرُونَهَا، وَلَا لِنَنْظِمَكُمْ فِي قَصِيدَةٍ تَتَخَيَّرُونَهَا، وَلَا نَعْتَدُ بِمَلَازِمَتِكُمْ لِمَجَالِسِنَا، وَتَرُدُّدِكُمْ إِلَى أَبْوَابِنَا، وَصَبْرِكُمْ عَلَى ذُلِّ حِجَابِنَا، وَلَا نَهْشُ لِمَدْحِكُمْ وَقَرِيضِكُمْ، وَلَا لِنَثَائِكُمْ وَتَقْرِيضِكُمْ؛ وَمَنْ فَعَلَ مَا زَجَرْنَاهُ عَنْهُ نَدِمَ فَلَائِلُومِنَ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَقْلَعَنَّ إِلَّا ضَرْسَهُ، وَلَا يَخْمَشَنَّ إِلَى وَجْهِهِ، وَلَا يَشُقَّنَنَّ إِلَّا ثُوبَهُ، وَإِنَّ مَنْ طَمِعَ فِي مَوَائِدِنَا يَجِبُ

(١) الدَّسْتُ: كرسي الحكم أو الوزارة. والمعنى: إما أن تترك المسألة تسير على هذا النحو، وإما أن نتكلم عنها ونوضحها.

(٢) خَذِينَا: خضعنا.

(٣) الطَّاقُ: الطَّيْلَسَانُ، وَ مَا عُطِفَ وَجُعِلَ كَالْقَوْسِ مِنَ الْأَبْنِيَةِ.

(٤) مَيْرِنَا: طعامنا.

أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ أَوَابِدِنَا<sup>(١)</sup>، وَمَنْ رَغِبَ فِي فَوَائِدِنَا نَشِبَ فِي مَكَايِدِنَا. فَأَمَّا إِذَا اسْتَعْدَمُونَا فِي مَجَالِسِهِمْ بِوَضْفِ مَحَاسِنِهِمْ، وَسَتْرِ مَسَاوِيهِمْ، وَالِاحْتِجَاجِ عَنْهُمْ، وَالْكَذِبِ لَهُمْ؛ وَأَنْ نَكُونَ أَلْسِنَةً نَفَّاحَةً عَنْهُمْ فَلْيُثْبِتُوا عَلَى الْعَمَلِ، فَإِنَّ فِي تَوْفِيَةِ الْعَمَالِ أُجُورَهُمْ قَوَامَ الدُّنْيَا، وَحَيَاةِ الْأَحْيَاءِ وَالْمَوْتِ. فَإِنْ قَصَّرْنَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي إِعَادَةِ الشُّكْرِ وَإِبْدَائِهِ، وَتَنْمِيقِ الثَّنَاءِ وَإِفْشَائِهِ، فَإِنَّهُمْ مِنْ مَنَعْنَا فِي حِلٍّ، وَمِنْ الْإِسَاءَةِ إِلَيْنَا فِي سَعَةٍ.

فَرَأَيْتُ الْجُرْجَرِيَّ - حِينَ سَمِعَ هَذَا الْكَلَامَ النَّقِيَّ، وَهَذِهِ الْحَبَّةَ الْبَالِغَةَ - وَجَمَّ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: لَعَمْرِي إِذَا جِئْنَا إِلَى الْحَقِّ، وَنَظَرْنَا فِيهِ بَعِينَ لَا قَدَىٰ بِهَا، وَنَفْسٌ لَا لُؤْمَ فِيهَا، فَإِنَّ الْعَطَاءَ أَوْلَىٰ مِنَ الْمَنَعِ، وَالتَّنْوِيلَ أَوْلَىٰ مِنَ الْحَرَمَانِ، وَالخَطَأَ فِي الْجُودِ أَسْلَمَ مِنَ الصَّوَابِ فِي الْبُخْلِ، لِأَنَّ الصَّوَابَ فِي الْبُخْلِ خَفِيٌّ جِدًّا، وَقَلَّ مَنْ يَعْرِفُهُ، وَالخَطَأَ فِي الْجُودِ حُلُوٌّ جِدًّا، وَقَلَّ مَنْ يَكْرَهُهُ.

وَأَنَا أَقُولُ: قَدْ صَدَقَ هَذَا الرَّجُلُ الْجَلِيلُ فِي هَذَا الْحَرْفِ صِدْقًا لَا تَمَارِي فِيهِ.

وَلَقَدْ جَرَىٰ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلِيِّ مِسْكُوبِيَه<sup>(٢)</sup> شَيْءٌ هَذَا مَوْضِعُهُ.

قَالَ مَرَّةً: أَمَا تَرَىٰ إِلَىٰ خَطَأِ صَاحِبِنَا - وَهُوَ يَعْنِي ابْنَ الْعَمِيدِ - فِي إِعْطَائِهِ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً؟ لَقَدْ أَضَاعَ هَذَا الْمَالَ الْخَطِيرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ.

فَقُلْتُ لَهُ - بَعْدَ مَا أَطَالَ الْحَدِيثَ وَتَقَطَّعَ بِالْأَسْفِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ! أَسَأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ وَاصْدُقْ، فَإِنَّهُ لَا مَدَبَ لِلْكَذِبِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَلَا هُبُوبَ لِرِيحِ التَّمْوِيهِ عَلَيْنَا؛ لَوْ غَلَطَ صَاحِبُكَ فِيكَ بِهَذَا الْعَطَاءِ وَبِأَضْعَافِهِ وَأَضْعَافِ أَضْعَافِهِ، أَكُنْتَ تَتَخَيَّلُهُ فِي نَفْسِكَ مُخْطِئًا وَمُبَدِّرًا وَمُفْسِدًا وَجَاهِلًا بِحَقِّ الْمَالِ؟ أَوْ كُنْتَ تَقُولُ: مَا أَحْسَنَ مَا فَعَلَ! وَلَيْتَهُ أَرَبِي عَلَيْهِ؟ فَإِنْ كَانَ مَا تَسْمَعُ عَلَيَّ حَقِيقَتَهُ، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بَدَّدَ مَالَكَ،

(١) أَوَابِدُ الْكَلَامِ: غَرَائِبُهُ.

(٢) هُوَ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ مَوْرَخٍ وَفَيْلسُوفٍ اشْتَعَلَ بِالْفَيْلسُوفَةِ وَالْكَيمِيَاءِ وَالْمَنْطِقِ وَالتَّارِيخِ وَالأَدَبِ وَالإِنشَاءِ. صَحَبَ عَضُدَ الدُّوَلَةَ وَأَشْرَفَ عَلَى خَزَانَةِ كِتَابِهِ. وَكَانَ التَّوْحِيدِيَّ مَعَاصِرًا لِمَسْكُوبِيَهِ وَأَلْفَا كِتَابَ (الهُوَامِلِ وَالتَّشَوَامِلِ) تَوَفَّى مَسْكُوبِيَهَ سَنَةَ ٤٢٤ هـ.

وردّد مقالكَ إنما هو الحسد أو شيء آخر من جنسه، فأنت تدّعي الحكمة، وتتكلم في الأخلاق وتُزيّف منها الزائف، وتختار منها المختار. فافطن لأمرك، واطلع على سرك وشرك.

هذا ذكرته - أبقاك الله - لتبين أنّ الخطأ في العطاء مقبول، والنفس تُغضي عليه، والصواب في المنع مردود، والنفس تقلق منه؛ ولذلك قال المأمون وهو سيّد كريم، ومملك عظيم، وسائس معروف: «لأنّ أخطىً باذلاً أحبُّ إليّ من أن أصيبَ مانعاً»، والشاعر<sup>(١)</sup> يقول:

لا يذهبُ العُرفُ بينَ الله والناسِ<sup>(٢)</sup>

وإن كان يكفرُ النعمة بعض من أنعم عليه بها، إنه ليشكرها كثير ممّن لم يتلمّظ<sup>(٣)</sup> حلاوتها، ولم يطعم فتاتة منها، ولم يسغ جرعة من غدیرها، ولم يسحب ذيلًا من أذيالها. وصدر هذا الكلام شبيه بشيء لا بأس بروايته في هذا الموضع وإن لم يكن من قبيل ما طال القول فيه، وتوالى النفس به.

قال المأمون لأبي العتاهية<sup>(٤)</sup>: إذا قال الله لعبده: لم لم تطعني؟ أي شيء يكون من جوابه؟

فقال: يقول: يا ربّ، لو وفقتني لأطعتك.

قال: فإن الله يقول: لو أطعتني لوفقتك.

(١) هو الحطينة جروم بن أوس، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) صدر هذا البيت:

\*من يفعل الخير لا يعدم جوازيه\*

(٣) يتلمّظ: يتذوق.

(٤) هو إسحق بن إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني الشهير بأبي العتاهية، كبير شعراء المولدين، ولد في عين التمر بالقرب من الكوفة سنة ١٣٠ هـ. كان شاعرًا مكثرًا سريع النظم، أكثر شعره في الزهد والمديح، لقي حظوة عند خلفاء العباسيين ونظم مدائحه فيهم. توفي سنة ٢١١ هـ.

قال أبو العتاهية: فإن العبد يقول: لو وفقتني لأطعتك، أكون ما يحتاج العبد إليه نسيئةً، وما يطالبه الله به نقدًا؟

قال المأمون: فما يقطع هذا؟

قال: يا أمير المؤمنين، اضرب عنه، فإن الدست قائمة<sup>(١)</sup>.

وأرجع فأقول:

وما خلا الناس منذ قامت الدنيا من تقصير واجتهاد، وبلوغ الغاية، وقصور عن النهاية، وتشارك في المحامد والمذام، والمساوي والمحاسن، والمناقب والمثالب، والفضائل والرذائل، والمكارم والملائم، والمنافع والمضار، والمكاره والمسار؛ ومن بعض ما يكون للقاتل فيه مندوحة، وللشاغب به استراحة، وللناظر فيه متسع، وللسامع فيه مستمتع. وأحسنهم حالاً، وأسعدهم جدّاً، وأبلغهم يمناً، وأربحهم بضاعةً، من كانت محاسنه غامرة لمساويه، ومنافبه ظاهرة على مثالبه، ومادحه أكثر من حاجيه، وعاذره أنطق من عاذله، والمحتج عنه أنبه من المحتج عليه، والنافع عنه أصدق من النافع فيه<sup>(٢)</sup>. وليس العمل على عدد هذه وهذه، ولكن على أن لا يكون مع صاحب المحاسن من الخصال اللئيمة ما يحبطها ويبتاعها، ويختلعها<sup>(٣)</sup>، ويأتي عليها وإن صغر جرم تلك الخلة<sup>(٤)</sup>، وخمل اسم تلك الخصلة؛ وأن يكون مع صاحب المساوي من الخلال الكريمة ما يعطيها، ويسبل الستر عليها، ويعين الذائد عنها، ويبيض وجه الناصر لها، ويمد باع المتناول إليها. وكما وجدنا السيئات يحبطن الحسنات، كذلك قد وجدنا الحسنات يذهبن السيئات.

(١) الدست قائمة: أي أن المشكلة مستمرة، والقول فيها متصل.

(٢) نفعه بالسيف: ضربه ضرباً خفيفاً، ونفع الشيء: دفعه عنه. يعني أن يكون المدافع عنه أفضل من الطاعن فيه.

(٣) يختلعها: ينتزعها.

(٤) الخلة: الخصلة.

والعمود الذي عليه المَعْوَل، والغاية التي إليها المَوْتَل، في خِصَالِ ثَلَاثِ هُنَّ دَعَائِمُ الْعَالَمِ، وَأَرْكَانُ الْحَيَاةِ، وَأُمَمَاتُ الْفَضَائِلِ، وَأُصُولُ مَصَالِحِ الْخُلُقِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ؛ وَهُنَّ: الدِّينُ، وَالْخُلُقُ، وَالْعِلْمُ. بِهِنَّ يَعْتَدِلُ الْحَالُ، وَيُنْتَهَى إِلَى الْكَمَالِ، وَبِهِنَّ تُمَلِكُ الْأَزِمَّةَ، وَيُنَالُ أَعَزُّ مَا تَسْمُو إِلَيْهِ الْهَمَّةُ؛ وَبِهِنَّ تُؤَمِّنُ الْغَوَائِلَ، وَتُحَمِّدُ الْعَوَاقِبَ؛ لِأَنَّ الدِّينَ جَمَاعُ الْمَرَاشِدِ وَالْمَصَالِحِ، وَالْخُلُقَ نِظَامَ الْخَيْرَاتِ وَالْمَنَافِعِ، وَالْعِلْمَ رِبَاطَ الْجَمِيعِ؛ وَلِأَنَّ الدِّينَ بِالْعِلْمِ يَصِحُّ، وَالْخُلُقَ بِالْعِلْمِ يَطْهَرُ، وَالْعِلْمَ بِالْعَمَلِ يَكْمُلُ؛ فَمَنْ سَلِمَ دِينُهُ مِنَ الشُّكِّ وَاللَّحَاءِ<sup>(١)</sup>، وَسُوءِ الظَّنِّ وَالْمِرَاءِ، وَتَبَتَ عَلَى قَاعِدَةِ التَّصَدِيقِ بِمَوَادِّ الْيَقِينِ الَّذِي أَقْرَبَهُ الْبُرْهَانَ، وَطَهَّرَ خُلُقَهُ مِنْ دَنَسِ الْمَلَالِ، وَلَجَّاجِ الطَّمَعِ، وَهُجْنَةِ الْبُخْلِ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْبَشْرِ نَصِيبٌ، وَمِنَ الطَّلَاقَةِ حَظٌّ، وَمِنَ الْمُسَاهَلَةِ مَوْضِعٌ؛ وَحَظِي بِالْعِلْمِ الَّذِي هُوَ حَيَاةُ الْمَيِّتِ، وَحَلِي الْحَيِّ، وَكَمَالِ الْإِنْسَانِ فَقَدْ بَرَزَ بِكُلِّ فَضْلٍ، وَبَانَ بِكُلِّ شَرَفٍ، وَخَلَا عَنْ كُلِّ غَبَاوَةٍ، وَبَرِيَ مِنْ كُلِّ مَعَابَةٍ، وَبَلَغَ النَّجْدَ<sup>(٢)</sup> الْأَشْرَفَ، وَصَارَ إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى.

وَلَمْ أَذْكَرْ لَكَ الْعَقْلَ فِي هَذَا التَّفْصِيلِ، وَهُوَ أَوْلَهُنَّ، وَبِهِ يَتِمُّ آخِرُهُنَّ، وَعَلَيْهِ مَجْرَى جَمِيعِ مَا افْتَنَّ الْقَوْلَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مَوْهَبَةٌ لِلَّهِ الْعُظْمَى، وَمِنْحَتُهُ الْكُبْرَى، وَبَابُ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، وَكَانَ مَا عَدَاهُ فَرْعًا عَلَيْهِ، وَمُضْمُومًا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَتَى عَدِمَهُ الْإِنْسَانُ الْحَيُّ النَّاطِقُ فَقَدْ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ، وَبَطَلَ عَلَيْهِ الْإِخْتِيَارُ، وَصَارَ كَبَعْضِ الْبَهَائِمِ الْعَامِلَةِ، وَكَبَعْضِ الشُّخُوصِ الْمَائِلَةِ؛ وَبِهِ يُعْرَفُ الدِّينُ، وَيَقُومُ الْخُلُقُ، وَيُقْتَبَسُ الْعِلْمُ، وَيُلْتَمَسُ الْعَمَلُ الَّذِي هُوَ الزُّبْدَةُ. وَقَدْ يُعَدُّ الْعَمَلُ وَالْعَقْلُ مَوْجُودًا، وَقَدْ يُفْقَدُ الْخُلُقُ وَالِدِّينُ ثَابِتًا؛ فَلَيْسَ الْأَصْلُ كَالْفَرْعِ، وَلَا الْأَوَّلُ كَالثَّانِي، وَلَا الْعِلَّةُ كَمَجْلُوبِ الْعِلَّةِ، وَلَا مَا هُوَ قَائِمٌ كَالْجَوْهَرِ، كَمَا هُوَ دَائِرٌ كَالْعَرَضِ؛ فَلِهَذَا أَضْرَبْتُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَغَيَّبْتُ

(١) اللِّحَاءُ: اللُّومُ وَالْمُخَاصِمَةُ.

(٢) النَّجْدُ: مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ.

عن الاستظهار به. وإذا تَمَّتْ فائدة الكلام فما زادَ عليه لغو، وإذا استقرَّ فيه المعنى فما أَلَمَّ به فساد.

والناس - هداك الله - من هذه الخصال التي ميَّزتها والخلال التي نصَّصتُ القولَ فيها، على أنصِبَاءٍ مُختلفةٍ، وهم فيها على غاياتٍ متنازحة، بالقِلَّةِ والكثرة، والضعف والقوة، والنقصان والزيادة، ومن أجلها يُتَوَخَّونَ بالحمد على الإحسان، ويُخدَمونَ بالشكر على الجميل، ويُحَيَّونَ بالنصائح الخالصة، ويُحَبُّونَ بالقلوب الصافية؛ ويُنْتَنَى عليهم بالقرائح النقية، والطَوِيَّاتِ المأمونة، ويُذَبُّ عنهم بالنيات الحسنة والألسنة الفصيحة، ويُعاوَنون عند الشدائد الحادثة، والنوائب الكارثة، والأُمور الهائلة، والأسباب الغائلة، بالمال المدخُور، والنصح المنخول<sup>(١)</sup>، ويُدفع عنهم بالأيدي الباطشة، والأقدام الثابتة، والأزواج العزيزة، والأنفس الكريمة. وكذلك يُوكَّسون<sup>(٢)</sup> على التقصير باللائمة، ويُجَبِّهون على اللؤم بالأبدة؛ ويُذمَّون على التهاون بكل فاقرة، ويُطَوَّقون كلَّ خِزْيٍ ومَعْرَةٍ، ويُواجَهون بكلِّ شَنْعَاءٍ مُفْضِعةٍ<sup>(٣)</sup>، ويُغتَابون بكل فاحشة مُنكَرة، ويُرمَون بكل ساقطة ولاقطة، ويُحرقون بكل نارٍ حامية، ويُقدِّفون بكل مُخْجِلة مُنْديَّة.

فهذا جُمهور الخَبَرِ عن حال المُحسِنِ إذا أَحسَنَ، وحال المُسيءِ إذا قَصَرَ، وهم وإن كانوا على هذا السِّيَاقِ ثابتين، ولهذا المنهاج سالكين، فإنهم يَتَنَزَّعون<sup>(٤)</sup> إلى أصولٍ حَدِيثَةٍ وقَدِيمَةٍ، وأَعْرَاقِ كَرِيمَةٍ وَلَيْمَةٍ، والمَجْدودِ<sup>(٥)</sup> مِن بَيْنِهِم مَن لَآثُ<sup>(٦)</sup>

(١) المنخول: الصافي، الخالص.

(٢) يُوكَّسون: يوبخون ويلامون.

(٣) مُفْضِعة: لم أصل لمعناها، ويجوز أن تكون في الأصل: مفضعة، بمعنى شديدة ومؤلمة.

(٤) يَتَنَزَّعون: يرجعون.

(٥) المجدود: المحظوظ.

(٦) لآثُ الشيء: أداره مرتين كما تدارُ العِمامة. ولآثُ الشيء بالشيء: خَلَطَه به ومَرَسَه.

اللَّهُ بِيَا فَوْحِهِ الْخَيْرَ، وَعَقَدَ بِنَاصِيَتِهِ الْبَرَكَةَ، وَجَعَلَ يَدَهُ يَنْبُوعَ الْإِفْضَالِ وَالْجُودِ، وَعَصَمَ طِبَاعَهُ مِنَ الْخَسَاسَةِ وَالذَّنَاءِ، وَكَفَاهُ عَارَ الْبَطَالَةِ وَالْفَسَالَةِ<sup>(١)</sup>، وَنَزَّهَهُ عَنِ الْإِسْفَافِ وَالتَّذَالَةِ.

وهذا كله ثمرة البصيرة الثابتة، والتية الحسنة، والضمير المأمون، والغيب السليم، والعقد المؤرب<sup>(٢)</sup>، والحق المؤثر وإن كان مراً، والأدب الحسن وإن كان شاقاً، والعفافة التي أصلها الطهارة، والظاهرة التي أصلها النزاهة. ومن عجن الله طينته بهذا الماء، وروّح عنه بهذا الهواء، وأطلق نفسه في هذا الجو، وقلبه على هذا البساط، وسقاه بهذا النوء<sup>(٣)</sup>، فقد أيده بروح القدس، ووصله بلطف الصنع، وأكمل عليه التعمة الجليلة، وأبانه بالشرّف المحسود، وميّزه بالمزية التامة، وخصّه بخيم<sup>(٤)</sup> الأنبياء، وألبسه جلباب الأصفياء، وأتاه ضرائب<sup>(٥)</sup> الصالحين، وأحضره توفيق المهديين المرضيين.

وقد صحّح - حفظك الله - عندي، ووضح لي أنّ الذي هاجك على هذا المعنى حتى حرّكتني له، وطالبتني به، ولم ترض مني إلا بالمبالغة والاستقصاء، وإلا بمباداة<sup>(٦)</sup> الأعداء، وذوي الشخناء: اجتماعنا في مجالس العلماء، وتلاقينا على أبواب الحكماء والأدباء أيام كنت أفكّهُك بالحديث النادر، واللفظ الحسن، فأضحك سنك بما ملح وحرّ<sup>(٧)</sup>، وأزيدك في خلال ذلك كله خبرة بالدهر وأهله، واعتباراً بالزمان وتصرّفه،

(١) الفسالة: الضعف وسوء الرأي.

(٢) تَأْرَبَ: تَوَثَّقَ واشتد. والمؤرب اسم مفعول بمعنى الموثق.

(٣) النوء: المطر الشديد.

(٤) الخيم: السحابة والطبيعة.

(٥) ضرائب: مفرد (ضريبة) وهي: الطبيعة والسحابة.

(٦) مباداة: مصدر بادى، باداه بالعداوة: كاشفه بها، جاهره بها.

(٧) الحرّ: الخالص من الشوائب، والحرّ من القول أو الفعل: الحسن منه، وما هذا منك بحرّ: بحسن ولا جميل.

وأَفْتَحُ عَلَيْكَ بَابَ الْمُؤَانَسَةِ، وَأَصِفُ لَكَ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَمَا يَفْتَرِقُونَ بِهِ وَيَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ غَرَائِبِ الْأُمُورِ، وَطَرَائِفِ الْأَحْوَالِ أَيَّامَ كَانَ عَوْدُ الشَّبَابِ رَطِيبًا، وَوَرَقُ الْحَيَاةِ نَضِيرًا، وَظِلُّ الْعَيْشِ مَمْدُودًا، وَنَجْمُ الزَّمَانِ مُتَوَقِّدًا، وَمُقْتَرَحِ النَّفْسِ مُوَاتِيًا، وَرَوْضِ الْمُنَى خَضِيلًا، وَدَرِّ التَّعْمَةِ مُتَّصِلًا، وَدَاعِي الْهَوَى مُشْمِرًا. أَيَّامَ رَأْسِكَ فَيَنَانٌ (١)، وَأَنْتَ كَالصَّعْدَةِ (٢) تَحْتَ السَّنَانِ، شِطَّاطُكَ (٣) مُعْجَبٌ، وَحَدِيثُكَ مَعْشُوقٌ، وَقُرْبُكَ مُتَمَنَّى، وَاللَّيْلُ بِكَ قَصِيرٌ، وَالنَّهَارُ عَلَيْكَ مَقْصُورٌ، وَالْعُيُونُ إِلَيْكَ طَوَامِحٌ، وَالْعَوَاذِلُ دُونَكَ نَوَائِحٌ، وَذَاكَ زَمَانٌ مَضَى فَاَنْقَضِي، فِيمَا غَوِيًّا وَإِمَا رَشِيدًا. وَكَانَ الْوَقْتُ يَقْتَضِي ذَلِكَ وَيَسَعُهُ، وَالْحَالُ تَوَاتِيهِ وَتَحْمِلُهُ، وَالْعُذْرُ يَقَعُ لَطَالِبِهِ وَمُلْتَمَسِهِ. لَكِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمَلِي الْمَتَعَلِّقِ بِكَ، وَطَمَعِي الْحَائِمِ عَلَيْكَ، وَرَجَائِي الْمُدْبَذِبِ عَلَيْكَ حَوْلِكَ؛ وَحَالِي الَّتِي جَعَلَكَ اللَّهُ كَافِلَهَا وَرَاعِيهَا، وَجَامِعَهَا، وَنَازِمَ مَا انْتَثَرَ مِنْهَا، وَمُؤَلِّفَ مَا انْتَشَرَ عَنْهَا - رَأَيْتُ الْبِدَارَ إِلَى بُغْيَتِكَ أَدْبًا مَحْمُودًا، وَحَظًّا مُدْرَكًا، وَالتَّرَاخِيَّ عَنِ طَاعَتِكَ حَرْمَانًا حَاضِرًا، وَعَتَبًا مُؤَلِّمًا.

وهكذا صنيع الطمع؛ فقل لي ما أصنع إن ردّ اعتذاري من يسره عثاري، ويسوءه استمراره (٤)؛ وليس إلا الصبر فإنه مفتاح كل باب مُرتجج، وبرود كل حرّان ملهج (٥)، وما زال الطمع قديمًا وحديثًا وبدءًا وعودًا يُضرعُ (٦) الخدّ الصّقيّل، ويُزغم الأنف الأشمّ، ويعفرّ الوجه المُفدّى، ويُغضّن العارض (٧) المُندى، ويحني القوام المهترّ،

(١) الفَيَّانُ: الحَسَنُ الشَّعْرُ الطَّوِيلُ

(٢) الصَّعْدَةُ: الْقَنَاءُ تَنَبَّتُ مَسْتَوِيَةً فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى تَثْقِيفِ.

(٣) الشُّطَّاطُ (بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ): حَسَنُ الْقَوَامِ وَاعْتَدَالُهُ.

(٤) استمراري: نجاحي.

(٥) ملهج: محروم ممنوع من الماء.

(٦) يُضْرَعُ: يَخْضَعُ وَيَذَلُّ.

(٧) الْعَارِضُ: جَانِبُ الْوَجْهِ.

وَيُدْنَسُ الْعَرِضُ الطَّاهِرُ. وَلِحَا لَللَّهِ الْفَقْرُ؛ فَإِنَّه جَالِبُ الطَّمَعِ وَالطَّبَعِ<sup>(١)</sup>، وَكَاسِبُ الْجَشَعِ وَالضَّرْعِ، وَهُوَ الْحَائِلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَدِينِهِ، وَسَدُّ دُونَ مُرْوَعَتِهِ وَأَدْبِهِ، وَعِزَّةَ نَفْسِهِ؛ وَلَقَدْ صَدَقَ الْأَوَّلُ<sup>(٢)</sup> حَيْثُ قَالَ:

وَقَدْ يُقْصِرُ الْقُلُّ الْفَتَى دُونَ هَمِّهِ      وَقَدْ كَانَ لَوْلَا الْقُلُّ طَلَّاعَ أَنْجَدٍ  
وَمَا كَذَبَ الْآخِرُ حَيْثُ يَقُولُ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَقْنِ الْحَيَاءَ إِذَا      رَأَى مَطَامِعَ نَيْلِ دَنْسَتِهِ الْمَطَامِعُ  
إِذَا قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ قَلَّ صَدِيقُهُ      وَأَهْوَتْ إِلَيْهِ بِالْعِيوبِ الْأَصَابِعُ  
وَأَجَادَ الْآخِرُ حِينَ قَالَ:

أَزْرَى بِنَا أَنَا شَالَتْ نَعَامَتُنَا<sup>(٣)</sup>      وَالْفَقْرُ يُزْرِي بِأَحْسَابٍ وَأَلْبَابِ  
وَمَا أَمْلَحَ قَوْلَ الْأَعْرَابِيِّ<sup>(٤)</sup> فِي قَافِيَتِهِ:

مَا بَالُ أُمَّ حُبَيْشٍ لَا تَكَلِّمُنَا      إِذَا افْتَقَرْنَا وَقَدْ نُثْرِي فَتَنْفِقُ  
وَصَدَقَ، لِأَنَّهَا إِذَا لِحِقَّتْهُ عَلَى الْفَقْرِ رَغِبَتْ عَنْهُ وَلَمْ تَوَاصِلْهُ، وَفَرَكْتَهُ وَاخْتَارَتْ عَلَيْهِ.  
وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْدَ هَذَا فِي وَصْفِ سِيرَتِهِ وَحُسْنِ عَادَةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُ قَالَ:

إِنَّا إِذَا حَطْمَةٌ حَتَّتْ لَنَا وَرَقًا      نُمَارِسُ الْعُودَ حَتَّى يَنْبِتَ الْوَرَقُ<sup>(٥)</sup>  
وَصَاحِبِ الْفَقْرِ إِنْ مَدَحَ فَرَطُ،      وَإِنْ ذَمَّ أَسْقَطُ، وَإِنْ عَمِلَ صَالِحًا أَحْبَطُ، وَإِنْ رَكِبَ

(١) الطَّبَعُ: الْوَسْخُ الشَّدِيدُ، الصَّدَأُ، الشَّيْنُ وَالْعَيْبُ. وَفِي الْحَدِيثِ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبَعٍ، أَيُّ يُوْدِي إِلَى شَيْنٍ وَعَيْبٍ؛ قَالَ أَبُو عبيد: الطَّبَعُ الدَّنَسُ وَالْعَيْبُ، بِالتَّحْرِيكِ. (لسان العرب: مادة طبع).

(٢) هُوَ حَمِيدُ بْنُ أَبِي شِحَاذِ الضَّبِّيِّ. وَالْمَعْنَى إِنْ الْفَتَى قَدْ يَقْصُرُ عَنْ سَجِيَّتِهِ فِي السَّخَاءِ فَلَا يَجِدُ مَا يَسْخُو بِهِ، وَلَوْ وَجَدَ مَا يَنْفِقُهُ لَسَمَا وَارْتَفَعَ فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ. (لسان العرب: مادة نجد).

(٣) شَالَتْ نَعَامَتَهُ الْقَوْمُ: تَفَرَّقَتْ كَلِمَتُهُمْ وَذَهَبَ عَزُّهُمْ.

(٤) هُوَ ذُو الْخِرْقِ الطَّهَوِيُّ، وَاسْمُهُ خَلِيفَةُ بْنُ حَمَلِ بْنِ عَامِرِ بْنِ حَمِيرِي. شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ، مِنْ بَنِي حَمِيرٍ وَهُوَ مِنْ فِرْسَانَهِمْ وَاسْمِي ذُو الْخِرْقِ لَشَعْرٍ قَالَ فِيهِ:

عَجَافًا عَلَيْهَا الرِّيشُ وَالْخِرْقُ

(٥) الْحَطْمَةُ مِنَ السَّنِينِ: الشَّدِيدَةُ الْجَدْبِ. حَتَّتْ لَنَا وَرَقًا: أَسْقَطَتْهُ.

شيئًا خلط وحبّط. ولم أرَ شيئًا أكشفَ لغطاء الأديب، ولا أنشفَ لماءٍ وجهه، ولا أذعر<sup>(١)</sup> لسرب حياته منه، وإن الحُرَّ الأنف، والكريم المتعيف<sup>(٢)</sup> من مقاساته والتجلد عليه، لفي شغل شاغل وموتٍ مائت.

وعلى ما قدّمت من هذه الكلمات، وأطلتُ به هذا الباب، فقد امتثلتُ أمرَك وسارعت إليه، وأرجو أن تهب لي فيه رضاك إن وقع موقعه الذي أملتُه، وتهديني إلى عين الصواب إن زلَّ عن حدِّك الذي حدّدته. وما غاية أمني به، وقصاري همّتي منه، إلا أن أكون سببًا قويًّا فيما حاز لك الشكرَ مني، وأوفرَّ عليك الحمد عني، وأذاقك حلاوة مدّحي وتمجّيدي، والشاعرُ يقول:

العُرف أصلٌ يُجتنى من فرعه الثمر الحميد  
يبلى الفتى في قبره وفعله غصُّ جديد

وسأجعل قصدي نحو السلامة إذا غلبني اليأس من الغنيمة، وأضيف إلى متن الحديث فوائد كثيرة، وأجتهد مُعذرًا<sup>(٣)</sup>، وأتقصي معذورًا، وأحكم متكرّمًا<sup>(٤)</sup>، وأقول ما أقول رائيًا؛ وراويًا. على أنني لا أتق بالخاطر إذا طاش، ولا باللسان إذا همز، ولا بالقلم إذا استرسل، ولا بالهوى إذا اشتمل وسؤل، فإن الهوى يُعمي ويصم، ولعل الغيظ يجرح ويجهز.

وهذه آفاتٌ متداركة لا سبيل إلى التفصي<sup>(٥)</sup> منها، والسلامة عليها، وذاك لأنّ الكلام في حمدٍ من يُحمد، وذمٍّ من يُذم، إن نُمقَ تنميقةً دخله التزيّد، والمتمزيّد مقلبي،

(١) أذعر: اسم تفضيل من ذعر، بمعنى نفر.

(٢) المتعيف: الكاره. ويمكن أن تكون الكلمة (المتعفف) وبها يستقيم المعنى أيضًا.

(٣) مُعذرًا: أعذر الشخص: رفع اللوم والذنب عن نفسه، قدّم حجةً يبرئ بها نفسه.

(٤) متكرّمًا: منزهًا في الحكم عما يشين.

(٥) التفصي: فصى الشيء من الشيء أو عنه: فصله، أزاله، خلصه، فصى اللحم عن العظم.

وإن أرسل على غراره<sup>(١)</sup> شأنه التَّقْصِيرُ والمَقْصَرُ مُعْجَزٌ. ولأنَّ يَدْخُلَهُ التَّقْصِيرُ فيكون دليلاً على الإبقاء، أَحَبُّ إِلَيَّ من أن يَدْخُلَهُ التَّزِيدُ فيكون دليلاً على الإزْباء. على أن من وصف كريماً أطرب، ومن أطرب طرب، والطربُ خِفَّةٌ وأريحيةٌ تَسْتَفِرُّانِ الطِّباعِ، وتُشَبِّهانِ الحَصِيفَ بالسَّخِيفِ. فأما من حَدَّثَ عن لئيمٍ فإنَّ أساسَ كلامه يكون على الغَيْظِ، والغَيْظُ نارُ القلبِ، وخبثُ اللسانِ، وتَشْبِيعُ القَلَمِ، فكيف الإِنْصافُ في وصف هذين الرَّجُلَيْنِ على هذينِ الحَدِيثَيْنِ، مع سرفِ الهَوَى، ووَقْدانِ الغَيْظِ، وعادةِ الجورِ، وداعيةِ الفَسَادِ، وصارفةِ الصَّلاحِ؟

وهذه أعراضٌ لا مَحِيصَ منها ولا أمانٍ من اعتراضها، ولا واقِيٍّ من تعاورها، وبعضُ هذا يَهْتِكُ سِرَّ الحِلْمِ وإن كان كثيفاً، وَيَفْتُقُ جَيْبَ التَّجَمُّلِ وإن كان مَكْفُوفاً<sup>(٢)</sup>، ويُخْرِجُ إلى الجَهْلِ وإن كان يُقَبِّحُه مَتَقَدِّماً.

وكنْتُ هَمَمْتُ ببعض هذا منذُ زمانٍ، فكَبِحَ عَنانِي عن ذلك بعضُ أشياخنا وقصَّرَ إِرادَتِي دونَه، وزَعَمَ أن الاختيارَ الحَسَنَ، والأدبَ المَرَضِيَّ يَنْهَيانِ عَنْهُ، ولا يُجَوِّزانِ الخَوْضَ فِيهِ؛ لأنَّ الغِيبَةَ والقَدْعَ والعَضِيهَةَ<sup>(٣)</sup> والتَّقْبِيحَ والسَّبَّ المؤلمَ والكلامَ القاشِرَ<sup>(٤)</sup>، والمكاشفةَ بالمَلامَةِ والشَّتِيمةَ بلا مُراقبَةٍ لَيْسَتْ من أخلاقِ أهلِ الحِكْمَةِ، ولا من دَابِّ دَوِي الأَخلاقِ الكَرِيمةِ، وقد قال بعضُ الحِكَماءِ: لا تَكُونَنَّ الأَرْضُ أَكْتَمَ منا لِلسَّرِّ. ومَن اعتادَ الوَقِيعَةَ في الأَعْرَاضِ، ومُباداةَ الناسِ بالسَّفَهِ، وتَلَبُّهَمَ بِكُلِّ ما جاشَ في الصِّدْرِ، وتذَرَّعَ به اللِّسانُ، فليس مِمَّنْ يُذَكِّرُ بِخَيْرٍ، أو يُرْجِي له فِلاحاً، أو يُؤمِّنُ مَعَهُ عَيْباً.

(١) سار على غراره، ضرب على غراره، نهج طريقه، قلده، أتبعه.

(٢) جيب القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه، طوق القميص. وكف الثوب: خاطه الخياطة الثانية بعد الشل. والكلام على التجوز.

(٣) القدع: الشتم بكلام قبيح. العضية: الإفك والبهتان.

(٤) القاشر: الجارح.

قال: وهل الحِلْمُ إلا في كَظْمِ الغَيْظِ، وفي تجرُّعِ المَضْمَضِ، وفي الصَّبْرِ على المرارة، وفي الإِغْضَاءِ عن الهَفَوَاتِ؛ ومَن لك بالمهذَّبِ النَّدْبِ<sup>(١)</sup> الذي لا يجد العَيْبُ إليه مُخْتَطِي<sup>(٢)</sup>، والأوَّلُ يقول<sup>(٣)</sup>:

ولست بمُسْتَبَقٍ أَخَا لا تُلْمُهُ عَلَى شَعَثِ أَيِّ الرِّجَالِ المهذَّبِ<sup>(٤)</sup>  
وقيل: لو تكاشفتُم ما تَدافنتُم<sup>(٥)</sup>، ولو تساويتُم ما تطاوعتُم؛ ولا بُدَّ من هَنَةٍ تُغْتَفَرُ،  
ومن تَقْصِيرٍ يُحْتَمَلُ، والاستقصاءُ فرقة، وفي المُسَالَسَةِ تَحَبُّبٌ، ومن ناقش في  
الحسابِ فقد رَغِبَ عن سَجَاحَةِ الخُلُقِ<sup>(٦)</sup>، وحُسْنِ المَلَكَةِ وإِثَارِ الكَرَمِ.

وهذا الذي قاله هذا الشيخُ الصالحُ مذهبٌ معروفٌ، وصاحبُه حميدٌ، لا يدفعه مَن  
له مُسْكَةٌ من عَقْلٍ وسِيرةٌ صالحةٌ في النَّاسِ، وأدبٌ مَوروثٌ عن السَّلَفِ. وليت هذا  
القائلُ ولي من نفسه هذه الولاية، وعاملٌ غيرَه بهذه الوصية، وليته بدأ بهذا الكلام وما  
شاكمه الرئيسَ الذي قد أخرجَ تابَعَهُ إلى هذا العناء والكَدِّ، وإلى هذا القيام والقعود!  
لا، ولكنَّه رأى جانبَ البائسِ المحرومِ أَلِينِ، وعَدَلَ المنتَجِعِ المظلومِ أهونَ، وزجرَ  
المتلذِّذَ بما يَنْتُهُ ويستريحُ به أسهلَ؛ فأقبلَ عليه واعظًا، وأعرضَ عن ظالمه مُحَابِيًا.

وبعدُ، فصاحبُ هذا القولِ وادَّعٍ غيرُ مُحَفَظٍ<sup>(٧)</sup>، ومَوْفُورٌ غيرُ مُتَّقِصٍ، وناعِمِ البالِ

(١) الندب: الخفيف الظريف السريع إلى الفضائل.

(٢) مُخْتَطِي: سبيلًا يختطى إليه منه.

(٣) هو النابغة الذبياني، واسمه قيس بن عبد الله بن عُدَس الجعدي العامري، شاعر صحابي اشتهر في الجاهلية،  
وسُمي النابغة لأنه مكث ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقال. وقد على النبي صلى الله عليه وسلم وأدرك  
صفين وشهداها مع معاوية، عمَّر لزمان التابعين ومات سنة ٥٠ هـ.

(٤) المعنى: لا يمكنك أن تستقي مودة أخ لا تُغضي عن هفواته وسيئاته، ولا تغفر له زلاته، وأين في الرجال  
المهذَّب الخالي من العيوب؟

(٥) أي لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييع جنازته ودفنه. وتنسب هذا الجملة إلى الحسن البصري  
(الحيوان للدميري، ٢/٢٠٨).

(٦) سَجَاحَةُ الخُلُقِ: سهولته واعتداله.

(٧) مُحَفَظٌ: غاضب. والحفيظة: الغضب.

غَيْرِ مَغِيظٍ، وَصَحِيحِ الْجَنَاحِ غَيْرِ مَهِيضٍ؛ وَلَوْ شِيكَ بحدّ قَتَادَةٍ<sup>(١)</sup> لَكُنَّا نَقْفَ عَلَيَّ  
عَرَبِكَتَهُ كَيْفَ تَكُونُ، وَعَلَى شَكِيمَتِهِ كَيْفَ تَثْبُتُ، وَكُنَّا نَعْرِفُ مَا يَأْمُرُ بِهِ مِمَّا يَأْتَمُرُ عَلَيْهِ،  
وَلَيْسَ بَرْدُ الْعَافِيَةِ مِنْ حَرِّ الْبَلَاءِ فِي شَيْءٍ.

وَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بِالْبَصْرَةِ أَيَّامَ الْمُهَلَّبِ<sup>(٢)</sup> كَانَ أَبُو سَعِيدِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ<sup>(٣)</sup>  
يُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الْوُثُوبِ مَعَ بَنِي الْمُهَلَّبِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ، وَقَامَ بِذَلِكَ مَقَاوِمَ  
شَقَّتْ عَلَى مَرَّوَانَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، فَقَامَ مَرَّوَانُ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيْبًا، وَحَثَّ النَّاسَ عَلَى  
الْجِدِّ وَالْإِنْكَمَاشِ<sup>(٤)</sup>، ثُمَّ عَرَّضَ بِالْحَسَنِ فَقَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ الضَّالَّ الطَّالِحَ  
الْمُرَائِيَّ يُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الطَّلَبِ بِحَقِّنَا، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ جَارَهُ نَزَعَ مِنْ خُصِّ دَارِهِ قِصْبَةً  
لَظَلَّ أَنْفَهُ رَاعِفًا، وَدَمْعُهُ وَآكِفًا، وَقَلْبُهُ لَاهِفًا، وَلِسَانُهُ قَارِفًا<sup>(٥)</sup>؛ وَيُنْكِرُ عَلَيْنَا أَنْ نَطْلُبَ مَا  
لَنَا. وَكَلَامًا غَيْرَ هَذَا غَادَرَنَاهُ قَادِرِينَ؛ لِأَنَّهُ لَا وَجْهَ لِلْإِطَالَةِ بِهِ. وَلَا أَقُولُ إِذَا مَرَّوَانَ بْنَ  
الْمُهَلَّبِ، أَحَقُّ بِمَا قَالَ مِنَ الْحَسَنِ، وَلَكِنَّ الْحَسَانَ تَكَلَّمَ عَلَيَّ مَذْهَبَ النَّسَاكِ، وَمَرَّوَانَ  
قَابِلَ ذَلِكَ بِمَذْهَبِ الْفُتَّاكِ.

وَفِي الْجُمْلَةِ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - لَيْسَ الْمَضْطَّرُّ كَالْمَخْتَارِ، وَلَا الْمَحْرُجُّ كَالسَّلِيمِ، وَلَا  
الْمَوْفُورُ كَالْمَوْتُورِ<sup>(٦)</sup>، وَلَا كُلُّ حَكْمٍ يَلْزَمُ الْمَتَوَسِّطَ فِي حَالِهِ يَلْزَمُ الْمَتَنَاهِي فِي حَالِهِ. وَمَتَى  
كَانَ - عَافَاكَ اللَّهُ - التَّابِعُ كَالْمَتَّبِعِ، وَالْأَمَلُ كَالْمَأْمُولِ، وَالْمُسْتَمِيحُ كَالْمُنْعَمِ، وَالْمَغْبُوطُ  
كَالْمَرْحُومِ، وَالْمُدْرِكُ كَالْمَحْرُومِ؛ هَذَا فِي مُنْقَطِعِ الثَّرَى، وَذَلِكَ فِي قَلَّةِ الْمُرْنِ.

(١) الْقَتَادُ: نَبَاتٌ صَلْبٌ لَهُ شَوْكٌ كَالْإِبْرِ مِنَ الْفَصِيلَةِ الْقَرْنِيَّةِ، وَيَسْمَى فِي السُّودَانَ: الْخَشَّابَ، وَمِنْهُ يَسْتَخْرَجُ أَجُودَ الصَّمْغِ.

(٢) هُوَ أَبُو سَعِيدِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ الْأَزْدِيِّ، أَمِيرَ الْبَصْرَةِ، الْمَتُوفَى سَنَةَ ٨٢ أَوْ ٨٣ هـ، فَارَسَ مَشْهُورًا وَكَاسَرَ شَوْكَةَ الْخَوَارِجِ وَهُوَ مَعَهُمْ شَوَاهِدٌ مَعْرُوفَةٌ. انظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي الْوَفِيَّاتِ (٢/١٩١ - ١٩٥).

(٣) هُوَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، إِمَامُ التَّابِعِينَ، الْمَتُوفَى سَنَةَ ١١٠ هـ.

(٤) الْإِنْكَمَاشُ: الْإِسْرَاعُ فِي جِدِّ. كَمَشَّ السَّائِرُ فِي السَّيْرِ: أَسْرَعَ فِيهِ وَجَدَّ.

(٥) قَرَفَ فَلَانًا: عَابَهُ وَأَتَمَّهُمْ. وَقَرَفَ الرَّجُلُ: كَذَبَ، خَلَطَ.

(٦) الْمَوْفُورُ: النَّامُ الَّذِي لَا يَنْقُضُهُ شَيْءٌ. الْمَوْتُورُ: رَجُلٌ مَوْتُورٌ: مَنْ قُتِلَ لَهُ قَرِيبٌ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى أَخْذِ تَأْرِهِ.

هذا عمرو بن بَحر أبو عثمان<sup>(١)</sup>، وهو واحد الدنيا، كتب رسالةً طويلةً في ذمِّ أخلاق محمد بن الجهم<sup>(٢)</sup>، ومدح أخلاق ابن أبي دُواد<sup>(٣)</sup>، وبالغ في الوصفين، وخطب على الرّحلين، ولم يترك قبحيةً إلا أعلّقها محمداً، ولا حسنةً إلا منّحها أحمد، وحتى جعل ابن الجهم مع إبليس في نصاب واحد، وابن أبي دُواد مع ملك في نقاب واحد؛ وهكذا «عَمَلُ مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ»<sup>(٤)</sup> إذا غضب فسبّ، أو رضي فمدح وأطّب. وما أحسن ما دلَّ على هذا المذهب أشجع السلمي<sup>(٥)</sup> بفحوى كلامه، فإنه قال:

أَعْلَى لَوْمْ أَنْ مَدَحْتُ مَعَاشِرًا خَطَبُوا إِلَيَّ الْمَدْحَ بِالْأَمْوَالِ  
يَتَرَحَّرُ حُونَ إِذَا رَأُونِي مُقْبَلًا عَنْ كُلِّ مُتَّكِّأٍ مِنَ الْإِجْلَالِ

وإذا لم يكن عليه لوم في مدح المُحسن إليه، فكذلك لا عتب عليه في ذمِّ المسيء إليه. نعم، وأفاد أبو عثمان في رسالته فوائد لا يخفى مكانها على قارئها، وقام فيها مقام الخطيب المصقع<sup>(٦)</sup>، والسهم النافذ، والناصر المدلّ، والمنتقم المستأصل؛ فهل

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني البصري الشهير بالجاحظ، أديب موسوعي، يعد من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي. عمّر الجاحظ نحو تسعين عاماً وترك كتباً كثيرة يصعب حصرها، أشهرها: البيان والتبيين، كتاب الحيوان، البخل.

قال ابن خلدون عند الكلام على علم الأدب: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة كتب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، كتاب الكامل للمبرد، كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها».

(٢) محمد بن الجهم: جاء في أخبار الحكماء للقفطي (٢١٥): «قال أبو معشر: كان محمد بن الجهم أميناً جليل القدر عالماً بالمنطق والتنجيم، ألف كتاباً للمأمون في الاختيارات قريب المأخذ صحيح المعاني جداً». وأخبار محمد بن الجهم قليلة متناثرة، ومما عُرف عنه أن كان من فلاسفة المتكلمين، عالماً بالمنطق، منقطعاً إلى دراسة كتب أرسطوطاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق».

(٣) هو أبو عبيد الله أحمد بن أبي دُواد الإيادي، عربي من إباد، ولد سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م في قنسرين، خرج وهو حدث مع أبيه في تجارة إلى العراق، حيث استقر هناك وطلب العلم، وخاصة الفقه والكلام. صحب هياج بن العلاء السلمي صاحب واصل بن عطاء فصار إلى الاعتزال.

(٤) مثل من أمثال العرب ومعناه: مَنْ أَحَبَّ فَطَنَ وَرَفَقَ؛ فَعَلَى كُلِّ مَنْ يُحِبُّ امْرَأَةً أَوْ امْرَأَةً أَنْ يُحْسِنَ لَهُ وَفِيهِ: الْفِطْنَةُ وَالْحَذَقُ وَالرَّفَقُ؛ فَيَكُونُ فَطَنًا رَفِيقًا لِمَنْ يُحِبُّ، وَلِمَا يُحِبُّ.

(٥) هو أشجع بن عمرو والسلمي، شاعر نشأ بالبصرة، ومدح الرشيد والبرامكة. توفي في حدود سنة ٢٠٠ هـ.

(٦) المصقع: البليغ.

قال أحد ممن له يدٌ في الفضل، وقَدَّم في الحكمة، وعِرْفَانٌ بالأُمور، وقوله معدودٌ فيما يُقال، وحُكْمُه مقبولٌ فيما يُثبِتُ ويُرَال: بنس ما صَنَعَ وسَاء ما أتى به؟ بل تهادوه وحفظوه، واستحسنوه وتأدبوا به، وحدوا على مثاله وإن كانوا وقعوا دونه.

ولم صنّف النَّاس المناقبَ والمثالب؟ ولم نشرُوا أحاديث الكرام واللثام؟ وكثيرٌ من الناس -عافك الله- لا غيبةَ لهم، أو في غيبتهم أجر، وقد وقع في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أذكروا الفاسقَ بما فيه كي تَحذَرَهُ النَّاسُ»<sup>(١)</sup>. وحدَّثنا برهان الصوفي قال: ذمُّ بشرٍ الحافي بخيلاً ثم قال: إنَّ البخيلَ لا غيبةَ له، قيل: وكيف؟ قال: لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بني سلِّمَة، مَنْ سيِّدُكُمْ؟ قالوا: الجَدُّ بنُ قيسٍ على بُخْلِ فيه، قال: فأَيُّ داءٍ أدوى من البُخْلِ»<sup>(٢)</sup>. فذكره وليس هو بالحَصْرَة.

وهذا عيسى بن فرخانِشاه<sup>(٣)</sup> عَزَلَ عن الوِزارة وكان مُسْتَحْفَافاً بِأبي العِيناء<sup>(٤)</sup> فوقف عليه أبو العِيناء وقال:

(١) ذكره الألباني في ضعيف الجامع برقم ١٠٤.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٣٤٨٥/٧، والشوكاني في الفتح الرباني ٥٨٣٩/١٢، والألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٢٢٧.

في هذا الحديث يسأل النبي ﷺ بني سلِّمَة: «مَنْ سيِّدُكُمْ؟» أي: مَنْ رَئِيسُكُمْ، فأجابوه أنه «الجَدُّ بنُ قيسٍ»، وقد كان الجَدُّ بنُ قيسٍ أحدَ السَّادةِ المُطاعينَ في بني قَيْلَة من الأوسِ والخزرجِ، وقد كانت سبيلُه في النَّفاقِ سبيلَ عبدِ اللهِ بنِ أبي بنِ سلولٍ، فقالوا للنبي ﷺ: «على أنا نبخله»، أي: نَصِفُه بِصِفَةِ البُخْلِ؛ يَمْنَعُ حُقُوقَ اللهِ، وحقوقِ الأدميينَ، وَيَمْنَعُ مَعروفَه، ويُسِيءُ عِشْرَةَ أَهلهِ وأقاربه.

فقال النبي ﷺ: «وأَيُّ داءٍ أدوى من البُخْلِ؟!» بمعنى: أَيُّ عيبٍ أقبحُ من أن يُصابَ الإنسانُ بِصِفَةِ البُخْلِ، فاختر لهم النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم سيِّداً آخرَ غيرَ هذا السيِّدِ البخيلِ، فقال: «بل سيِّدُكُمْ عمرو بنُ الجَموحِ»، وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية سادناً وخادماً لها، ولكنه أسلمَ وحسنَ إسلامه، ومن كرمه أنه كان يولِّمُ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا تزوجَ، أي: يقومُ بِعَمَلِ الوليمةِ عنه.

(٣) هو أبو موسى عيسى بن فرخانِشاه وزير المتوكل العباسي ثم المعتز من بعده.

(٤) هو محمد بن القاسم بن خالد بن ياسر الهاشمي، بالولاء، أبو العِيناء: أديب فصيح. من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جواباً. اشتهر بنوادره ولطائفه. وكان ذكياً جداً، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان في سب الناس والتعريض بهم. كُفَّ بصره بعد بلوغه أربعين سنة من عمره. أصله من اليمامة، ومولده بالأهواز، ومنشأه ووفاته في البصرة. توفي سنة ٢٨٣ هـ.

الحمدُ لله الذي أَذَلَّ عِزَّتَكَ، وَأَذْهَبَ سَطْوَتَكَ، وَأَزَالَ مَقْدُرَتَكَ، وَأَعَادَكَ إِلَى اسْتِحْقَاقِكَ وَمَنْزِلَتِكَ، فَلَمَّا أَحْطَأْتَ فِيكَ النِّعْمَةَ، لَقَدْ أَصَابَتْ مِنْكَ النِّقْمَةُ، وَلَمَّا أَسَاءْتَ الْيَوْمَ بِإِقْبَالِهَا عَلَيْكَ، لَقَدْ أَحْسَنْتَ بِإِدْبَارِهَا عَنْكَ؛ فَلَا أَنْفَذَ اللَّهُ لَكَ أَمْرًا، وَلَا رَفَعَ لَكَ قَدْرًا، وَلَا أَعْلَى لَكَ ذِكْرًا.

فَهَلْ قَالَ أَحَدٌ: بئسَ ما صنعَ؟

وليس للراضى عن المُحسن أن يُطالب المساءَ إليه بأن يكونَ في مُسكِهِ وَعَلَى حَالِ اعتدَالِهِ، لِأَنَّ بَيْنَهُمَا فِي الْحَالِ مَسَافَةٌ لَا يَقْطَعُهَا الْجَوَادُ الْمُبْرِّ<sup>(١)</sup> وَلَا الرِّيحُ الْعَصُوفُ. وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ<sup>(٢)</sup> عِنْدَ أَبِي الْعَيْنَاءِ فَقَالَ: مَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ قَطُّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّهُ مِنْ طَلَائِعِ الْقِيَامَةِ؛ قَصِيرِ الْقَامَةِ، مَشْوُومِ الْهَامَةِ؛ خَرَجَ مِنْ خُرَاسَانَ وَهُوَ أَمِيرُهَا، وَيَطْمَعُ فِيهَا وَهُوَ طَرِيدُهَا، وَيَلِي عَلَى أَسِيرِ الصَّغَارِ، وَطَلِيقِ الْهَزِيمَةِ.

وَوَجَدْتُ رِسَالَةً لِأَبِي الْعَبَّاسِ عُبَيْدِ بْنِ دِينَارٍ عَلَيَّ مَا قَدَّمْتُ الْقَوْلَ فِيهِ؛ وَأَنَا أَرَوِيهَا عَلَى وَجْهِهَا لِأَنَّهَا مُفِيدَةٌ، رَوَاهَا لِي الْمَنْصُورِيُّ الْقَاضِي بَارِجَانُ.

أُولَاهَا: «إِن فِي الشُّكْرِ، وَإِنْ قَلَّ، وَفَاءً بِحَقِّ النِّعْمَةِ وَإِنْ جَلَّ، بَلْ أَقُولُ: إِنَّ الشَّاكِرَ لِلنِّعْمَةِ، وَإِنْ أَطْنَبَ وَأَسْهَبَ، لَا يَلْحَقُ شَأْوَ الْمَبْتَدِئِ بِهَا، وَلَا يَخْرُجُ بِأَقْصَى سَعِيهِ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ فِيهَا؛ لِأَنَّ نِعْمَتَهُ صَارَتْ سَبَبًا لِشُكْرِهِ، وَدَاعِيَةً لَذِكْرِهِ، فَلَهَا فَضْلٌ سَبَقَهَا وَمَوْقِعُهَا وَفَضْلُهَا، فَإِنَّ الشُّكْرَ مِنْ أَجْلِهَا، وَإِنَّهَا - حَيْثُ حَلَّتْ - عَائِدَةٌ بِثَنَاءِ جَمِيلٍ، وَثَوَابٌ جَزِيلٌ. وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ الْجَالِبَ خَيْرٌ مِنَ الْمَجْلُوبِ، وَالْفَاعِلَ خَيْرٌ مِنَ الْمَفْعُولِ.

وَمَنْ لِي بِشُكْرِكَ وَأَنْتَ الَّذِي لَمَّا قَصَدْتُكَ بِالرَّغْبَةِ بَلَغْتَ بِي مَا وَرَاءَ الْمَحَبَّةِ،

(١) الْجَوَادُ الْمُبْرِّ الَّذِي إِذَا أَنْفَ يَأْتِنْفُ السَّيْرُ. وَسئَلُ رَجُلٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ: أَتَعْرِفُ الْفَرَسَ الْكَرِيمَ؟ قَالَ: أَعْرِفُ الْجَوَادَ الْمُبْرِّ مِنَ الْبَطِيِّ الْمُقْرِفِ.

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ طَاهِرٍ، الْمَتَوَفَى سَنَةَ ٢٩٢ هـ. وَلِي خُرَاسَانَ وَأَقَامَ بِهَا إِلَى سَنَةِ ٢٥٨ هـ حَيْثُ ظَفَرَ بِهِ يَعْقُوبُ بْنُ اللَّيْثِ وَأَسْرَهُ حَتَّى سَنَةِ ٢٦٢ هـ، ثُمَّ نَجَا مِنَ الْأَسْرِ وَفَرَّ إِلَى بَغْدَادٍ وَأَقَامَ بِهَا إِلَى أَنْ تَوَفَّى.

وَنَادَيْتُكَ فَأَجَبْتَ مِنْ قَرِيبٍ، وَلَذْتَ بِكَ فَأَنْزَلْتَ بِالْبَرِّ وَالتَّرْحِيبِ، فَلَمَمْتَ مِنِّي شَعْنًا،  
وَرَعَيْتَ لِي سَبَبًا لَوْلَا رِعَايَتُكَ لَكَانَ رَثًّا، وَوَفَّرْتَ عَلَيَّ نِعْمَةَ الْجَاهِ وَالْيَدِ، وَقَمْتَ لِي  
مَقَامَ الرُّكْنِ وَالسَّنْدِ، فَأَصْبَحْتَ لِي عَلَى الدَّهْرِ مُعِينًا، وَمِنْ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ مَلَاذًا حَصِينًا،  
وَمَا زَلْتَ بِكُلِّ خَيْرٍ قَمِينًا، وَجَدَّدْتَ لِي أَمَلًا قَدْ كَانَ أَخْلَقَ، وَأَمَسَكَتَ مِنِّي بِالرَّمَقِ،  
وَتَلَقَّيْتَ دُونِي نَبْوَةَ مَنْ عَاتَبَكَ وَاسْتَزَادَكَ، وَجَفْوَةَ مَنْ تَغَبَّطَكَ فَكَادَكَ؛ فِي حِينٍ عَزَّ  
الشَّفِيقِ، وَخَذَلَ الشَّقِيقِ، وَجَارِ الزَّمَانِ، وَتَوَاكَلِ الْإِخْوَانِ؛ فَكَشَفَ اللَّهُ بِكَ تِلْكَ الْغُمُومَ  
الْمُطْبِقَةَ، وَسَكَّنَ بِرَأْيِكَ مِنِّي نَفْسًا قَلِقَةً، فَأَنَا، فِي قُصُورِي عَمَّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ لَكَ،  
كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

لَوْ أَنَّ عُمْرِي أَلْفٌ حَوْلٍ وَقَدْ بُدِّلَتِ السَّاعَةُ بِالدَّهْرِ

وَكَانَ لِي أَلْفُ لِسَانٍ لَمَا نَطَقْتُ مِنْ شُكْرِكَ بِالْعَشْرِ

فَشَكَرَ اللَّهُ لَكَ مَا أَنْيْتَ، وَتَوَلَّى جَزَاءَكَ عَلَيَّ مَا تَحَرَّيْتَ، وَكَافَأَكَ بِأَحْسَنِ مَا نَوَيْتَ،  
وَلَا أَخْلَاكَ مِنْ أَمَلٍ يُنَاطُ بِكَ فَتُحَقِّقَهُ، وَظَنَّ يُصْرَفُ إِلَيْكَ فَتُصَدِّقَهُ، وَشَكَرَ يُوفَّرُ عَلَيْكَ  
فَتُسْتَحَقُّهُ، وَصَانَ لَكَ مِنَ النِّعْمَةِ رَاهِنَهَا، وَبَلَغَكَ أَقْصَى مَا تُؤَمَّلُ مِنْهَا، وَتَفَضَّلَ عَلَيْكَ  
بِمَا لَا تَحْتَسِبُ فِيهَا. وَكُلُّ مَا أَغْفَلْنَاهُ مِنَ الدُّعَاءِ لَكَ مِمَّا يَرْغَبُ الْمَرْءُ فِي مِثْلِهِ، فَوَهَبَ  
اللَّهُ لِي فِيكَ، وَوَهَبَهُ لَكَ فِي كُلِّ أَسْبَابِكَ.

فَأَمَّا فَضَائِلُكَ وَالْمَوَاهِبُ الْمَقْسُومَةُ لَكَ فَقَدْ قَادَتْ إِلَيْكَ مَوَدَّاتِ الْقُلُوبِ، وَوَقَفَتْ  
عَلَيْكَ خَبِيَاةِ الصَّدُورِ، وَارْتَهَنَتْ لَكَ شُكْرَ الشَّاكِرِ، وَرَدَّتْ إِلَيْكَ نَفْرَةَ النَّافِرِ، وَحَاطَتْ  
لَكَ الْغَائِبَ وَالْحَاضِرَ، وَأَفْحَمَتْ عَنْكَ لِسَانَ الْمُنَافِرِ، وَقَصَّرَتْ دُونَكَ يَدَ الْمُتَطَاوِلِ،  
وَطَامَنْتَ لَكَ نَخْوَةَ الْمُنَاضِلِ، وَأَوْفَتْ بِكَ عَلَى دَرَجَةِ الْأَدَبِ وَالْهِمَّةِ وَالرِّيَاسَةِ.

فَبَلَغَكَ اللَّهُ ذُرَى الْمَحَبَّةِ وَالْأَمَلِ، وَوَفَّقَكَ لِصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَلَا زَالَتْ رُبُوعُ  
الْحَرِيَةِ مَعْمُورَةٌ بِطُولِ عُمْرِكَ، وَالْمَكَارِمُ مُؤَيَّدَةٌ بِدَوَامِ تَأْيِيدِكَ، وَلَا بَرِحَتْ أَيَّامُكَ  
مُحْفُوفَةً بِالْعَزِّ وَالسَّعَادَةِ، وَنِعْمَتُكَ مَقْرُونَةٌ بِالتَّمَاءِ وَالزِّيَادَةِ، وَوَقَاكَ اللَّهُ بِعَيْنِهِ مِنْ

الْأَعْيُنِ، وَحَاطَكَ بِيَدِهِ مِنْ أَيْدِي الْمِحْنِ، وَفَدَاكَ مِنَ النُّوْأَبِ وَالْأَحْدَاثِ.

وَالنَّكِبُ<sup>(١)</sup> مَنْ قَدْ فُقِّتَتْ بِهِ عَيْنُ التَّعْمَةِ، وَاتَّضَعَتْ بِمَكَانِهِ رَتْبَةُ الْهَمَّةِ؛ فَلَا يَصْدُرُ عَنْهُ أَمَلٌ إِلَّا بِخَبِيَّةٍ، وَلَا يَضْطَرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِمِحْنَةٍ. إِنْ أَوْثَمِنَ غَدْرًا، وَإِنْ أَجَارَ أَخْفَرَ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِنْ قَدَّرَ اعْتَسَفَ، وَإِنْ عَاهَدَ نَكَثَ، وَإِنْ حَلَفَ حَنَثَ. تَصَدُّأُ بِمُحَاوَرَتِهِ الْأَفْهَامِ، وَتَضْطَرِّخُ<sup>(٢)</sup> مِنْهُ الدَّوْلَةُ وَالْأَقْلَامُ، سِيَانٌ قَامَ أَوْ قَعَدَ، وَغَابَ أَوْ شَهِدَ. إِنْ كَشَفْتَهُ كَشَفْتَ عَنْ عِلْجِ قَدَمٍ<sup>(٣)</sup>، يُقْضَى لَهُ بِكُلِّ خِسَّةٍ وَذَمٍّ، وَلَمْ يَقِفْ لِلْحَرِيَةِ عَلَى رِبْعٍ وَلَا رَسْمٍ، وَلَا عَرَفَ مَكْرُمَةً فِي يَقْظَةٍ وَلَا حُلْمٍ. أَسْوَأُ النَّاسِ صَنِيعًا، وَأَشَدُّهُمْ بِاللَّدَاءَةِ وَلُوعًا، لَمْ يَسْلِكْ إِلَى الْمَجْدِ طَرِيقًا، وَلَا وُجِدَ يَوْمًا مِنَ الْجَهْلِ مُفِيقًا، أَوْلَى النَّاسِ بِشْتَمٍ وَقَذْفٍ، وَأَجْدَرُهُمْ بِمَجَانَّةٍ وَسُخْفٍ، يَنْطِقُ قَبِيحَ خَلْقِهِ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ، وَيَدُلُّ بِرَكَاتَةِ عَقْلِهِ عَلَى لَوْمِ أَصْلِهِ. إِذَا اكْتَنَفْتَهُ الْحَوَادِثُ لَوَى عَنْهَا شِدْقَهُ، وَإِنْ لَزِمَهُ الْحَقُّ لَوَاهُ وَمَحَقَّهُ. وَقَدْ وَفَّرَ اللَّهُ حِظَّهُ مِنَ الْفِدَامَةِ كَمَا قَصَّرَ بِهِ فِي الْقَامَةِ، فَهُوَ بِكُلِّ لِسَانٍ مَهْجُوٌّ، وَلِكُلِّ حُرٍّ عَدُوٌّ، وَإِنْ عَوْتَبَ عَلَى الرَّهْوِ وَالْتِيهِ، أَقَامَ فِيهِمَا عَلَى تَمَادِيهِ؛ يَلُوثُ عِمَّتَهُ عَلَى دِمَاغِ فَارِغٍ، وَحَمَقَ ظَاهِرَ سَائِعٍ، فَهُوَ فِي أُخْرٍ حَالَاتِهِ، عِنْدَ نَفْسِهِ كَمَا قِيلَ، صُورَةٌ مِمَّثَلَةٌ أَوْ بِهَيْمَةٌ مَهْمَلَةٌ.

وَصَلَتْ هَذَا الْفَصْلَ بِقَوْلٍ فَاضَتْ بِهِ النَّفْسُ بَعْدَ امْتِلَائِهَا، وَجَاشَتْ بِهِ بَعْدَ تَرَدِّدِهِ فِيهَا، وَمَا اضْطَرَّنِي إِلَيْهِ إِلَّا تَتَابَعُ الْمَكْرُوهِ مِنْ جِهَتِهِ، وَالشَّرُّ الَّذِي لَا يَزَالُ يَتَعَقَّبُنِي بِهِ، وَأَنَّهُ حِينَ وَجَدَ غِرَةً اهْتَبَلَهَا<sup>(٤)</sup>، وَلَمَّا رَأَى الْفُرْصَةَ انْتَهَزَهَا، وَلَمْ يَرْضَ حَتَّى حَسَرَ عَنِ الذَّرَاعِ يَدًا، فَكَشَفَ الْقِنَاعَ وَجَرَّدَ الْعِدَاوَةَ وَالْتَعَصُّبَ، وَأَظْهَرَ التَّسَلُّطَ وَالْتِغْلُبَ.

وَأَنَا أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ أَصِلَ مَخَاطِبَتِي لَكَ بِمِثْلِهِ، وَإِنْ كُنْتُ أَجْعَلُهُ بِمَنْزِلَةِ اللَّهْوِ

(١) النَّكِبُ: المنحرف عن الخلق الكريم، والمقصود هنا الصاحب بن عباد.

(٢) تَضْطَرِّخُ: تستغيث.

(٣) الْعِلْجُ: كلُّ جافٍ شديدٍ من الرجال. قَدَمٌ: ضعيف الفهم.

(٤) اهْتَبَلَ الْفُرْصَةَ: اغتنمها.

الذي أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْحَقِّ، وَالْهَزْلُ الَّذِي أَسْتَرِيحُ بِهِ مِنَ الْجِدِّ؛ وَقَدْ قِيلَ: مَنْ لَمْ يَذُمَّ الْمَسِيءَ لَمْ يَحْمَدِ الْمُحْسِنَ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِلْإِسَاءَةِ مَضْمَضًا، لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ لِلْإِحْسَانِ مَوْقِعًا.

وَعَلَى أَنِّي لَسْتُ أَدْرِي أَمِيلِي إِلَيْكَ أَصْدَقُ، أَمْ انْحِرَافِي عَنْهُ أَوْثَقُ، وَرَغْبَتِي فِيكَ أَشَدُّ، أَمْ زُهْدِي فِيهِ أَوْكَدُ، وَمَوَدَّتِي لَكَ أَخْلَصُ، أَمْ أَنَا عَلَى مَصَارِمَتِهِ أَحْرَصُ، وَسُكُونِي إِلَيْكَ أَتَمُّ أَمْ نَبَوْتِي عَنْهُ أَحْكَمُ، وَأَنَا عَلَى ذَمِّهِ أَطْبَعُ، أَمْ فِي حَمْدِكَ أَبْدَعُ؟ كَمَا لَسْتُ أَدْرِي أَحْظُكَ مِنَ الْهَمَةِ وَالْمَرْوَةِ أَجْزَلُ، أَمْ حَظُّهُ مِنَ الدَّنَاءَةِ وَالْقِلَّةِ أَجَلُ، وَمَكَانُكَ مِنَ الْحَزَامَةِ وَالْكَرَمِ أَرْفَعُ، أَمْ مَحَلُّهُ فِيهِمَا أَوْضَعُ؟

وَكَيْفَ يُقَرَّنُ بِكَ أَوْ يُسَاوَى، وَمَا أَتَأَمَّلُكَ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا وَجَدْتُكَ فِيهَا حُسَامًا قَاضِبًا، وَشِهَابًا نَاقِبًا، وَعُودًا صَلِيبًا، وَرَأْيًا عِنْدَ مُعْضِلِ الْخُطُوبِ مُصِيبًا؛ فِي شِمَائِلِ حُلُوهِ عِذَابٍ، وَأَخْلَاقٍ مَعْجُونَةٍ بِأَدَابٍ؛ لَا تَتَجَافَى عَنِ مَكْرُمَةٍ، وَلَا تُخَلِّ لَذِي أَمَلٍ بِحُرْمَةٍ، وَلَا تُؤَوِّدُكَ<sup>(١)</sup> الْخُطُوبُ إِذَا اعْتَوَّرْتَكَ، وَلَا تَتَكَاءُذُكَ<sup>(٢)</sup> الْجِهَاتُ إِذَا اكْتَفَنَتْكَ، قَدْ تَعَرَّقَتْكَ الْأَيَّامُ<sup>(٣)</sup> بِحَالَتِي النُّعْمَى وَالْبَلْوَى، فَكَشَفَتْ مِنْكَ عَنِ أَمْضَى مِنَ الدَّهْرِ عَزْمًا، وَأَرَزْنَ مِنْ رَضْوَى<sup>(٤)</sup> حِلْمًا، وَأَثَبْتَ مِنَ اللَّيْلِ جَنَانًا، وَأَسْمَحَ مِنْ صَوْبِ الْغَمَامِ نَدَى، وَأَمْنَعَ مِنَ السَّيْفِ جَانِبًا، وَأَعَزَّ مِنْ كَلِيبٍ وَائِلٍ صَاحِبًا<sup>(٥)</sup>.

وَمَا أَتَأَمَّلُهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا وَجَدْتَهُ بَرَقًا كَازِبًا، وَرَأْيًا عَازِبًا؛ وَرَكَائِدَ ظَاهِرَةً، وَنِذَالَةً وَافِرَةً، وَهَيْئَةً خَسِيسَةً، وَنَفْسًا عَلَى الدَّمِّ حَبِيسَةً؛ لَمْ يَنْشَأْ مِنْشَأَ أَدَبٍ، وَلَا رَاضَتَهُ

(١) تَوَوِّدُكَ: تَشَقُّقٌ عَلَيْكَ وَتَتَعَبُكَ.

(٢) تَتَكَاءُذُكَ: تَتَّعَبُ عَلَيْكَ.

(٣) تَعَرَّقَتْكَ الْأَيَّامُ: أَخَذَتْ مِنْكَ وَنَالَتْ.

(٤) رَضْوَى: جَبَلٌ بِالْقَرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ.

(٥) فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ: «أَعَزَّ مِنْ كَلِيبٍ وَائِلٍ» هُوَ كَلِيبُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زَهْرٍ، وَكَانَ سَيِّدَ رَبِيعَةَ فِي زَمَانِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِزِّهِ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِي الْكَلَاءَ فَلَا يَقْرَبُ حِمَاهُ، وَيُجِيرُ الصَّيْدَ فَلَا يَهَاجُ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِرَوْضَةٍ أَعْجَبَتْهُ أَوْ غَدِيرٍ ارْتَضَاهُ كَنَعَ كَلِيبًا ثُمَّ رَمَى بِهِ هُنَاكَ، فَحَيْثُ بَلَغَ عُوَاؤُهُ كَانَ حِمَى لَا يُرْعَى.

أَوْلِيَةٌ حَسَبٌ، فَهُوَ دَهْرَهُ عَلَيَّ وَجَلَّ وَذُعُرٌ؛ إِنْ صَالَ فَعَلَى الْقَرِيبِ الدَّانِي، وَإِنْ هَمَّ  
فَبِمُضَلَّاتِ الْأَمَانِي، فَلَيْسَ تَتَجَاوَزُ صَوْلَتُهُ عَبْدَهُ، وَلَا يَخَافُ عَدُوَّهُ كَيْدَهُ، قَدْ جَمَعَ إِلَى  
قُبْحِ الْمُخْبَرِ، بِشَاعَةِ الْمَنْظَرِ، وَإِلَى دَمَامَةِ الْخُلُقِ سَوْءِ الْخُلُقِ. إِذَا فَكَّرَ الْمَفْكَرَ فِيمَا أُوتِيَ  
مِنَ الْحِظِّ، وَمُنِحَ مِنَ الْحَالِ، أَيْقَنَ بَعُلُوَّ الْجَهْلِ وَفَوْزَ قَدْحِهِ، وَإِكْدَاءَ الْبَاطِلِ وَكِسَادِ  
رَبْحِهِ؛ هُوَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

عَدُوٌّ لِمَوْلَاهُ عَدُوٌّ صَدِيقِهِ وَتَلِكِ الَّتِي يَأْتِي اللَّئِيمُ مِنَ الْفِعْلِ  
مُقَلَّمَةٌ أَظْفَارُهُ عَنِ عَدُوِّهِ عَلَيَّ أَقْرَبِيهِ ظَاهِرُ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ  
وَمَا أَخْطَأَ بِوَجْهِهِ الْمَشْوَاهُ قَوْلَ الْحَمْدُونِيِّ (١):

كَأَنَّ دَمَامَةً جُمِعَتْ فَصُورٌ وَجْهَهُ مِنْهَا  
وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي عِنْدِي سِيَانٌ فِيهِ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ، مَا يُظْهِرُ  
مِنَ الْإِنْحِرَافِ وَالْأَزْوَرَارِ، عَلَيَّ مَا بِي عَنْهُ مِنَ السَّلْوَةِ وَالْإِصْطِبَارِ. وَمَا مَحَلُّهُ فِيمَا يَأْتِيهِ  
إِلَّا مَحَلُّ أُمَّ عَمْرٍو وَمَا قِيلَ فِيهَا:

أَلَا زَهَبَ الْحِمَارُ بِأُمَّ عَمْرٍو فَلَا رَجَعَتْ وَلَا رَجَعَ الْحِمَارُ  
بَلْ هَجَوُوهُ وَاللَّهِ الْفَائِدَةُ الَّتِي يَجِبُ فِي مِثْلِهَا الشُّكْرُ، وَالْأَحْدُوثَةُ الَّتِي يَحْسَنُ فِيهَا  
الذُّكْرُ؛ فَأَمَّا غَضَبُهُ وَتَغْيِظُهُ فَغَضَبُ الْخَيْلِ عَلَى اللَّجْمِ الدَّلَاصِ (٢)؛ وَأَنَا أَقُولُ فِيهِ كَمَا  
قِيلَ:

فَإِنْ كُنْتَ غَضَبَانًا فَلَا زَلْتَ رَاغِمًا وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَغْضَبْ إِلَى الْيَوْمِ فَاغْضَبِ  
وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ أَيَادِيكَ الَّتِي لَهَا مِنِّي مَوْعُ الْقَطْرِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ، وَلَطْفُ مَحَلِّ  
الْوَصْلِ بَعْقَبِ التَّصَارُمِ وَالْهَجْرِ، لَمَا وَجَدَنِي مُحْتَمِلًا لَهُ أَدَى، وَلَا مُغْضِبًا لَهُ عَلَيَّ قَدَى.

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه، وحمدويه جده هو صاحب الزنادقة في أيام الرشيد. له أشعار مستطرفة  
وكان مليح الافتنان، حلوا التصرف. انظر أخباره في فوات الوفيات (١٤/١).

(٢) غضب الخيل على اللجم يضرب لمن يغضب غضبًا لا ينتفع به ولا موضع له. والدلاص: البراقة. (مجمع  
الأمثال: ٥٦/٢).

ولو كان تخوفه إياي بمثل إعراضك الذي أدناه يُقلق الوساد، ويُمرض الفؤاد، لما أَلفاني له مُعتبًا، ولا إليه مُعتدِرًا. فكيف وهو من لا يجب له حق الصنعة، ولا ذمام أدب، ولا ذمام معرفة. لم أَسرَّ برضاه لَمَّا رَضِي فأساء بغضبه وقد غضب، ولا نفعني إقباله فيضرنني إعراضه، لأنَّه بحمد الله كما قيل:

فتى إن يرض لا ينفك يوماً وإن يغضب فإنك لا تُبالي  
لست والله أحفلُ به أقبل أم أدبر، وسكن أم نفر، ولا أبالي بحالتي سُخطه ورضاه،  
ولا بأولى أمره ولا بأخراه. فأدام الله له سورة النبوة والإعراض، وأعانه على الجفوة  
والانقباض، ولا أخلاه من الغضب والامتناع؛ فقد رضينا بذلك فيه حظًا، واكتفينا  
به فيه وعظًا.

وَأخبرنا المرزباني<sup>(١)</sup> عن الصولي<sup>(٢)</sup> قال: كتَب ابنُ مُكرَّم<sup>(٣)</sup> الكاتب إلى أبي العيناء:  
«لستُ أعرف طريقًا للمعروف أحزن<sup>(٤)</sup> ولا أوعر من طريقه إليك، ولا مُستزرعًا  
أقلَّ زكاءً ولا أبعد من ثمره خيرٌ من مكانه عندك؛ لأنَّ المعروف يُضاف منك إلى جنب  
دني، ولِسَانِ بذي، وجهل قد ملك عنانك، وشغل زمانك؛ فالمعروفُ عندك ضائعٌ،  
والشكرُ لديك مهجورٌ، وإنما غايتك في المعروف أن تحوزه، وفي موليهِ أن تكفره».  
فكتب إليه أبو العيناء:

- (١) أبو عبيد الله، محمد بن عمران بن موسى المرزباني. ولد عام ٢٩٧ هـ وتوفي عام ٣٨٤ هـ في زمن الخليفة العباسي القادر بالله، هو إخباري ومؤرخ وأديب، خراساني الأصل، ولد وتوفي في بغداد. كان معتزليًا. له عدة كتب منها معجم الشعراء والموشح وهما كتابان مطبوعان. الفهرست لابن الديم ص ١٩٠.
- (٢) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول أبو إسحاق أحد أئمة الكتابة في العراق، ولد في خراسان سنة ١٧٦ هـ، ونشأ في بغداد وتقرَّب إلى الخلفاء المعتمِصم والوائق والمتوكل، وتقلد ديوان الضياع والنفقات وسامراء، وتوفي سنة ٢٤٣ هـ.
- (٣) هو محمد بن مُكرَّم، كاتب بليغ مترسل، كتب لنصر الدولة، وكان يهاتر (أي يتساب ويشاتم أبا العيناء). وذكر ابن النديم أن له رسائل ولم يؤرخ لوفاته. ورسالته هذه مختصرة في العقد الفريد ٤/ ٢٣٦.
- (٤) أحزن: أخشن، أغلظ.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنْتَ كَمَا قَالَ الْإِلَهُ فَإِنَّمَا أَتَيْتَ بِلَفْظٍ ضِعْفُهُ فَيْكَ يُوجَدُ  
أَمَا بَعْدُ:

فَقَدْ وَصَلَ إِلَيَّ كِتَابُكَ؛ سَبَّكَ وَعَرَّكَ<sup>(١)</sup>، وَلَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سُدَيْفٍ<sup>(٢)</sup> وَبَغَا<sup>(٣)</sup> مَا  
يَشْغَلُكَ عَنِ الْبَدَاءِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ  
وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وَأَنْتَ امْرُؤٌ تَزْعُمُ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ مَادَرَايَا<sup>(٤)</sup>، وَهُنَاكَ حَلَّتْ بِكَ الْخَزَايَا، مِنْ غَيْرِ  
نَقْصٍ لِأَهْلِهَا، وَلَا دَفْعٍ لِفَضْلِهَا، لِأَنَّكَ تُحِبُّهَا وَتُسَنِّوُكَ، وَتَنْتَمِي إِلَيْهَا وَتَدْفَعُكَ. وَإِنْ  
امْرَأٌ مُكْرَمٌ أَبُوهُ لَجْدِيرٌ عِنْدَ الْفَخْرِ أَنْ يُعْفَرَ فَوْهُ<sup>(٥)</sup>. وَأَمَّا أُمَّكَ فَامْرَأَةٌ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ  
الْغَافِلَاتِ، وَالْغَفْلَةُ مَقْرُونَةٌ بِالْخَيْرِ، وَالْعَجَبُ لَكَ وَلَاخِيكَ أَنَّكَ لَا تَنِيكَ وَلَا يَنِيكَ،  
فَعَلَامَ غَرَّرْتُمُ الْحَرَاثِرَ وَاسْتَهْدَيْتُمُ الْمَهَائِرَ، وَأَنْتُمْ قَوْمٌ تَلْفَفُونَ مَا يَأْفِكُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا  
تُوَعُونَ، وَفِيمَ خَطَبْتُمُ النِّسَاءَ وَأَنْتُمْ تُخَطَّبُونَ، وَكَيْفَ نَقَدْتُمُ الْمُهْمُورَ مَعَ حَاجَتِكُمْ إِلَيَّ  
الذَّكُورِ، ثُمَّ أَظْهَرْتُمْ حُبَّ النِّسَاءِ وَبِكُمْ عَرِقَ النَّسَاءُ، وَكَيْفَ أَدْعَيْتُمُ يَوْمَ الْحَرْبِ الطَّعَانَ،  
وَأَنْتُمْ مَعَشَرٌ تَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ، وَلَكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقَاعٌ وَمُعْتَرَكٌ جَمَاعٌ، ثُمَّ تُلْفُونَ وَقَعًا  
لِلصُّدُورِ، وَالرِّمَاحِ فِي أَعْجَازِكُمْ تَمُورٌ، وَقَدْ طَبْتُمْ أَنْفُسًا بَانَ أَصْبَحَتْ نِسَاؤُكُمْ عِنْدَ

(١) العَرُّ: المساءة والظلم. عَرَّ حَصْمَهُ: لَقَّبَهُ بِمَا يَتَّسِبُهُ، سَاءَهُ.

(٢) سُدَيْفٌ بِنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مَيْمُونِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ: شَاعِرٌ حِجَازِيٌّ غَيْرُ مُثَرٍّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانَ أَعْرَابِيًّا بَدْوِيًّا حَالِكًا  
السَّوَادِ شَدِيدَ التَّحْرِيطِ عَلَى بَنِي أُمِيَّةٍ مَتَّعِصِبًا لِبَنِي هَاشِمٍ وَأَظْهَرَ ذَلِكَ أَيَّامَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَعَاشَ إِلَى زَمَنِ  
الْمَنْصُورِ الْعَبَّاسِيِّ. فَتَشِيحُ لِبَنِي عَلِيِّ فَقَتَلَهُ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَلِيٍّ (عَامِلُ الْمَنْصُورِ) بِمَكَّةَ.

(٣) بَغَا الْكَبِيرُ أَبُو مُوسَى التَّرْكِيُّ، أَحَدُ الْقَوَادِمِ الشُّهُورِيِّينَ لِلْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَتَوَكَّلِ. تَوَفِيَ سَنَةَ ٢٤٨ هـ.

(٤) مَادَرَايَا: قَرْيَةٌ فَوْقَ وَاسِطٍ مِنْ أَعْمَالِ فَمِ الصُّلَحِ. (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ: ٣/٣٥٣).

(٥) يُعْفَرُ فَوْهُ: يُحْسَى فِي فَمِهِ التَّرَابِ، وَفِي هَذَا إِذْلالَ لَهُ.

جيرانكم، ورجالكم عند غلمانكم، فإذا سببتموهنَّ بالزنا سببناكم بالبعاء، وقد -  
لعمري- أظهرتم الدف، ونفرتم الدف<sup>(١)</sup>، وأكثرتم الطعن وادعيتم الإثارة<sup>(٢)</sup>. فلما  
احتيج منكم إلى اللقاء، وتنجز منكم الوفاء، انهزم الجمع ووليتهم الدبر، فقبحا لكم آل  
مكرم قبحا يقيم ويلزم.

فلستم على الأعقاب تدمى كلوكمم ولكن على أعجازكم يقطر الدم  
فيا بؤسى للعروس وإزارها الذي لم يحلل، وفرعها الذي لم يُبلل، وللظبية الغريرة  
وطرفها الفتان، وقولها للأتراب: أما لآل مكرم زباب؟ وقد زعمت النساء، غير ما  
إفك: أنك وأباك وأحاك جند ما هنالك مهزوم من الأباط.

وذكرت أنك لا تعرف للمعروف طريقا أحزن ولا أوعر من طريقه إلي، ولا  
مستزعا أقل زكاء ولا أبعد من ثمره خير من مكانه عندي.

فلو كان ما وصفت على ما ذكرت لما لحقك كفر إنعام، ولا شكر إحسان، لقصور  
جدتك<sup>(٣)</sup> عن التفضل، وهمك عن الإفضال. بلى، أستغفر الله! لو وجدت فضلا  
لوجهت به إلى العاملين عليها، أعني أم الفلك، القاضية عليك بالهلك. وأين أنت  
فيلحقني إكرامك، أو ينالني إنعامك؟ هيهات! جل الأمر عن الحرش<sup>(٤)</sup>، وعفى  
السيل العطن<sup>(٥)</sup>؛ ولكنك يا أبا جعفر - وأنى لك بجعفر - لا تعرف للجماع طريقا  
أسهل مائى ولا أقرب مأخذا من طريقه إليك وحلوله عليك؛ هذا مع دنس أنوابك،

(١) الدف: إعلان النكاح. الدف: الآلة الموسيقية المعروفة.

(٢) الإثارة: إدراك النار.

(٣) جدتك: غناك ومالك.

(٤) حرش الضب: صيده وهو أن يحك الجحر الذي هو فيه يتحرش به، فإذا أحسه الضب حسبه ثعبانا، فأخرج إليه  
ذنبه فيصا صيد. ومن أمثالهم: هذا أجل من الحرش) يضرب لمن يخاف شيئا فيبتلى بأشد منه. وأصل ذلك  
أن العرب كانت تقول: قال الضب لابنه يا بني احذر الحرش، فسمع يوما وقع محفار على فم الجحر، فقال:  
بابه، أهذا الحرش؟ فقال: يا بني هذا أجل من الحرش. (لسان العرب، مادة حرش).

(٥) عفى: طمس. العطن: مبرك الإبل.

وَوَضَرَ أَطْرَافَكَ، وَتَنَّنَ أَرْوَاحَكَ<sup>(١)</sup>.

وزعمت أن المعروف يحصل مني في حسب دني ولسان بدني، فانظر - لك الويلات - كيف ارتقيت، وإلى من تعديت؟ وهل فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم مفخر، وهل عن خلفاء الله مرغب؟ ولولا عدل سلطاننا وفضل أحلامنا، وأن الاقتدار يمنع الحر من الانتصار، مع دقتك عن المجازاة، وسقوطك عن الملاحاة، لاصطملك مني الاعترام؛ فاشكر لؤمك إذ نجحك، وخصمك إذ رفع قدره عنك.

وَأَمَّا الْبَدَاءُ فَمَا أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ إِقْمَاعِ اللَّئِيمِ وَتَعْظِيمِ الْكَرِيمِ، وَلِذَلِكَ أَقُولُ:

إِذَا أَنَا بِالْمَعْرُوفِ لَمْ أَتُنِّ صَادِقًا وَلَمْ أَشْتُمِ الْجِنْسَ اللَّئِيمَ الْمَذْمُومًا  
فَفِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللَّهُ الْمَسَامِحَ وَالْفَمَا  
وَأَمَّا الْجَاحِظُ فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي رِسَالَةٍ:

سَأَلْتَنِي - أَبْنَاكَ اللَّهُ - عَنْ فُلَانٍ، وَأَنَا أُخْبِرُكَ بِالْأَثَرِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْخَبَرِ،  
وَبِالْوَاضِحِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْخَفِيِّ، وَالظَّاهِرِ الَّذِي يَقْضِي عَلَى الْبَاطِنِ.  
فَتَفَهَّمْ ذَلِكَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فمن ذلك أني رأيته، وهو في جيرانه كالحيضة المنسية<sup>(٢)</sup>، وكلهم يعرفه بالأبنة، وله غلامٌ مديد القامة، عظيم الهامة، ذو ألواح وأفخاذ وأوراك وأصداع؛ أشعر القفا، يلبس الرقيق من الثياب، ويثابر على العطر ودخول الحمام، ويتزين ويقلم الأظفار؛ وكان - مع هذه الصفة - المدبر لأمره، والمشفع لديه، والحاكم على مولاه دون بنيه وأهله وخاصته، والصارف له عن رأيه، إلى رأيه، وعن إرادته إلى هواه، وكان أكثر أهله معه جلوسًا، وأطولهم به خلوةً، ولا يبيت إلا معه، وإذا غضب حزنه غضبه وطلب رضاه، وكان أيام ولايته لا يتقدمه قريب ولا بعيد، ولا شريف ولا وضيع. إن

(١) جمع بريح بمعنى رائحة.

(٢) كالحيضة المنسية: كالخرقة التي تستنفر بها المرأة ويرمى بها فتنسى لحقارتها.

رَكِبَ فَهُوَ فِي مَوْضِعِ صَاحِبِ الْحَرَسِ مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَإِنْ قَعَدَ فِي مَوْضِعِ الْوَلَدِ السَّارِّ وَالزَّوْجَةِ الْبَارَّةِ، وَإِنْ التَّوَتَ عَلَى أَحَدٍ حَاجَةً كَانَ لَهُ مِنْ وِرَائِهَا، وَكَانَتْ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ خَلْعِ نَعْلَيْهِ، وَكَانَ يَبِيتُ فِي لِحَافِهِ.

فَحُكِّمْنَا عَلَيْهِ بِهَذَا الْحُكْمِ الظَّاهِرِ، وَلَا حُكْمَ الْقُضَاةِ بِالتَّسْجِيلِ، وَتَخْلِيدِهَا فِي الدَّوَاوِينِ، وَلَا كَالِإِقْرَارِ بِالْحَقُوقِ وَشَهَادَاتِ الْعُدُولِ.

وَكَتَبَ الْعُتْبِيُّ<sup>(١)</sup> إِلَى صَدِيقٍ لَهُ يَحْذَرُهُ رَجُلًا، وَيَصِفُ أَخْلَاقَهُ فَقَالَ: احْذَرْ فَلَانًا، فَإِنْ ظَاهَرَهُ بَرٌّ وَغَيْبَهُ عِدَاوَةٌ، وَإِنْ أَفْشَيْتَ إِلَيْهِ حَدِيثَكَ وَضَعَهُ عِنْدَ عَدُوِّكَ، وَإِنْ كَتَمْتَهُ إِيَّاهُ شَتَمَكَ عِنْدَ صَدِيقِهِ، لَا يَصْلِحُ لَكَ عِنْدَ نَفْسِهِ حَتَّى يُفْسِدَكَ عِنْدَ غَيْرِهِ؛ وَهُوَ صَدِيقُكَ بِمَا يَلْزِمُكَ مِنْ حَقِّهِ، وَعَدُوُّكَ بِمَا يُضِيعُ مِنْ حَقِّهِ عَلَيْكَ؛ إِنْ دَنَوْتَ مِنْهُ أَدَاكَ، وَإِنْ غَيْبَتْ عَنْهُ اغْتَابَكَ، يَلْطِخُ صَاحِبَهُ بِأَذَاهُ، فَإِنْ غَسَلَهُ بِالِإِعْتَابِ أَعَادَهُ بِالْعُتْبِ، وَإِنْ تَرَكَهُ عُيِّرَ بِهِ. السَّلَامَةُ مِنْهُ أَنْ لَا تَعْرِفَهُ، فَإِنْ عَرَفْتَ فَهُوَ الدَّاءُ، إِنْ تَدَاوَيْتَ لَمْ يَنْفَعْكَ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ قَتَلَكَ، أَخْلَطَ النَّاسَ جَدَّهُ بِهِزْلَهُ لِيَمْنَعَكَ مَا فِي يَدِهِ مِنْعَ هَزْلِ، وَيَغْلِبَكَ عَلَى مَا فِي يَدِكَ مَسْأَلَةٌ جَدِّ.

وَوَجَدْتُ أَيْضًا رِسَالَةً لِأَبِي هَقَّانَ<sup>(٢)</sup> إِلَى ابْنِ مُكْرَمٍ وَهِيَ:

أَمَّا بَعْدُ يَا بَنَ مُكْرَمٍ ضِدَّ اسْمِهِ، وَخَطِيئَةَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، يَا سُبَّةَ الْعَارِ عَلَى سُبَّتِهِ، وَلَعْنَةَ إِبْلِيسَ عَلَى لَعْنَتِهِ، مَا أَظُنُّكَ مِنْ نُطْفَةٍ، وَلَا كَانَتْ لَوَاضِعَتِكَ عُذْرَةً. أَفْرَغَكَ أَبُوكَ مِنْ سَلْحَةٍ عَلَى سَلْحَةٍ، وَأَجْرَاكَ مِنْ أَمِّكَ فِي فِقْحَةٍ إِلَى فِقْحَةٍ، فَأَنْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) الْعُتْبِيُّ: هُوَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْبَصْرِيِّ الْمَتَوَفَى سَنَةَ ٢٢٨ هـ. كَاتَبَ أَدِيبَ شَاعِرٍ فَحَلَّ مِنَ الْمَحْدَثِينَ، وَلَهُ مَوْلاَفَاتٌ.

(٢) هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَرْبِ الْمَهْزَمِيِّ الْعُبَيْدِيِّ، مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ. مِنْ شِعْرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَأَحَدِ غُلَمَانِ أَبِي نَوَاسٍ وَرَوَاتِهِ. نَحْوِي لِعُيُوبِ رَاوِيَةِ عَالِمٍ بِالشَّعْرِ. وَلِدَ سَنَةَ ١٩٨ هـ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٥٧ هـ. وَلَهُ مَوْلاَفَاتٌ وَشِعْرٌ جَيِّدٌ إِلَّا أَنَّهُ مَقْلٌ.

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى نَسِيئِهِمَا شِعْرَتَيْنِ اخْتَكَّتَا فِي طَلْبِهِ  
 أَوْلَكَ زِنِيَّةً وَآخِرَكَ أُبْنَةً، فَكُلُّكَ لَعْنَةٌ فِي لَعْنَةٍ، تَقْصَعُ الْقَمَلَ بِأَسْنَانِكَ، وَتَمْسَحُ  
 مُخَاطِكَ بِلسَانِكَ، وَتَسْتَنْزِلُ مَنِيَّكَ بِبَنَانِكَ، وَمَنِيَّ غَيْرِكَ بِعِجَانِكَ، عَبْدُكَ يَصْفَعُكَ،  
 وَخَادِمُكَ يَقْمَعُكَ، وَكَلْبُكَ يَلْطَعُكَ، وَصَدِيقُكَ يَقْطَعُكَ، نَفْسُكَ فُسَاءٌ، وَخَشْمُكَ (١)  
 خَرَاءٌ، وَرِيْقُكَ مَاءُ الْعَدْرِ، وَكُلُّ خِلَالِكَ قَدْرَةٌ؛ وَأَنْتَ لِلْأَحْرَارِ عِيَابٌ، وَبَيْنَ الْكِرَامِ  
 نَمَامٌ، أَنْتَ لِلْأُدْبَاءِ حَاسِدٌ، وَلِلْعُلَمَاءِ شَاتِمٌ، وَبِالْجَلِيسِ هَامِزٌ، وَفِي الْمُحْسِنِ إِلَيْكَ  
 غَامِزٌ، تُظْهِرُ جَوْرَكَ، وَتَتَعَدَّى طَوْرَكَ، مَهِينٌ فِي نَفْسِكَ، عُرَّةٌ فِي جَنْسِكَ، حَالِفٌ فِي كُلِّ  
 حَقٍّ وَبَاطِلٍ، كَذُوبٌ عَلَى الْجَادِّ وَالْهَازِلِ، تَطْلُبُ أَنْ تُهَجِّيَ، وَتَسْتَدْعِي أَنْ تُزَنِّيَ، وَقَدْ  
 سَبَقَ الْقَوْلُ فِي مِثْلِكَ، مَعَ نَذَالَةِ فِعْلِكَ، وَلُؤْمِ أَصْلِكَ.

أَمَّا الْهَجَاءُ فَدَقَّ عَرَضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنكَ كَمَا عَلِمْتَ دَلِيلٌ  
 فَاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقُ عَرَضِكَ إِنَّهُ عَرَضٌ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ دَلِيلٌ  
 فَأَنْتَ - يَا بَنَ الْكَشْحَانَ الْقَرْنَانِ الدِّيُوثِ الصَّفْعَانَ - عِنْتُ لَاسِطِ الشَّيْطَانِ، لَا لَوْجَهُ  
 الرَّحْمَنِ، فَالْهَجَاءُ مِنْ أَنْ يُعَذَّبَ بِكَ فِي أَمَانٍ، فَأَنْتَ بَعْرٌ لُؤْمُكَ فِي سُلْطَانٍ، مَعْرِفَتُكَ تَشِينُ،  
 وَقَطِيعَتُكَ تَزِينُ، وَذُكْرُكَ سُبَّةٌ، وَقَتْلُكَ قُرْبَةٌ. لَا يُحْصِي الْخَلْقُ عِيوبَكَ، وَلَا تُثَبِّتُ الْحَفِظَةُ  
 ذُنُوبَكَ. أَنْتَ بِاللَّهِ مُشْرِكٌ، وَفِي خَلْقِهِ مُتَهْتِكٌ، نَقْصُكَ مَفْرُوضٌ، وَدِينُكَ مَرْفُوضٌ، وَبِكُلِّ  
 قَبِيحٍ مَنُوعُوتٌ، وَعِنْدَ الْعَالَمِ مَمْقُوتٌ. أَحْسَنُ آدَابِكَ الزَّنْدَقَةُ، وَأَفْضَلُ حَالَاتِكَ الصَّدَقَةُ.  
 نَذَلُ الْأَبُوَّةَ، رَذَلُ الْأُخُوَّةَ، عَدَوُّ الْمَرْوَةِ. لَمْ تُؤْمِنْ بِنَبُوَّةٍ، وَلَمْ تُعْرِفْ بِفُتُوَّةٍ. تَقْصِدُ الْكَرِيمَ  
 بِسَبَابِكَ، فَيُذَلُّكَ بِتَرْكِ جَوَابِكَ. جِئْتَ بِأُمَّ مِنْ حَمَامِ الدَّجَالِ، تُوَازِي بِهَا أُمَّهَاتِ الرِّجَالِ. لَا  
 صَوْمَ وَلَا صَلَاةَ، وَلَا صَدَقَةَ وَلَا زَكَاةَ، لَا تَغْتَسِلُ مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَا تَهْتُمُّ بِإِنَابَةٍ. عَقُوقُكَ بِأَبِيكَ  
 أَنَّهُ غَيْرٌ مِنْ يَدْعِيكَ، لِقَاتِلِكَ أَرْفَعُ الدَّرَجَ، وَمَا عَلَى قَازِفِكَ مِنْ حَرَجٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِالْآيَاتِ  
 وَالْحُجَجِ، الْحُدُّ لَتَارِكِ وَصْفِكَ، وَالنَّارُ لِلْمُطْنِبِ فِي مَدْحِكَ، وَلِقَارِيءِ مَثَالِبِكَ وَكَاتِبِ  
 مَعَايِبِكَ ثَوَابٌ مُعْتَقِ الرَّقَابِ، يُوفَى أَجْرَهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَلَهُ فِيكَ مِنَ الثَّوَابِ أَكْثَرُ مِمَّا لَكَ

(١) المخاط يسيل من الخياشيم.

من العقاب، لك خُلِقْتُ سَقَرًا، وَمَنْ أَجْلَكَ يُعَذِّبُ الْبَشَرَ، أَحْسَنُ فِي عَيْنِكَ مِنَ الْقَمَرِ، مَا تَسْتَدْخِلُهُ مِنَ الْكَمَرِ، تَعِيبُ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَتَقْذِفُ الْمُحْصَنَاتِ وَالْمُحْصَنِينَ، إِذْ لَيْسُوا لَكَ بِآبَاءَ، وَلَسْتُ لَهُمْ فِي عِدَادِ أَبْنَاءَ، فَأَنْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

مُغْرَى بِقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَلَسْتُ مِنْ أَبْنَائِهَا

أَنْفُ لِلْعِلْمِ الَّذِي حَوَيْتَهُ، وَأَغَارُ عَلَى الشَّعْرِ الَّذِي رَوَيْتَهُ، فَأَنْتَ - وَإِنْ غَلَطْتَ بِكَلِمَةٍ طَرِيفَةً، أَوْ حُجَّةٍ حَكِيمَةٍ، أَوْ نَادِرَةٍ مَلِيحَةٍ، اعْتِبَارًا لِلسَّمَاعِ وَفِكْرَةً لِلْعَاجِبِ - سَفِيهٌ عَلَى إِفْرَاطِ قَدْرِكَ، حَسُودٌ عَلَى شِدَّةِ بَحْرِكَ، وَوَقَّاعٌ عَلَى قَاتِلِ ذَفْرِكَ<sup>(١)</sup>، تُمَازِحُ فَلَا تُحْسِنُ وَتُجَابُ وَتُذْعَنُ، إِنْ تُرَكَّتْ عَبْتَتْ، وَإِنْ عُبْتُ بِكَ اسْتَعْتَتْ، فَمَثَلُكَ ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فَاسْتَمِعْ لِكَلَامِ يُشْبِهُكَ فِي الْأَيَّامِ، يَا عَيْبَ الْمُعَايِبِ، وَيَا شَيْنَ الْمُحَاضِرِ وَالْمَغَايِبِ، فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَسْفَلُ، وَالْقِيَاسُ الْأَرْدَلُ، وَالشَّبَهُ الْأَنْدَلُ كَمَا قِيلَ:

وَأَدْعُوكَ لِلأَمْرِ الَّذِي أَنْتَ شَيْنُهُ عَلَى شَيْنِهِ يَا فَاضِحًا لِلْفَضَائِحِ  
وَوَجَدْتَ أَيْضًا رِسَالَةً أَفَادَنِيهَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَرُوضِيُّ<sup>(٢)</sup> لِابْنِ حَمَادٍ<sup>(٣)</sup> فِي ابْنِ مُقْلَةَ  
أَبِي عَلِيٍّ<sup>(٤)</sup> يَمَزِّقُهُ فِيهَا، وَيَذْكَرُ خَسَاسَةَ أَصْلِهِ، وَسَقُوطَ قَدْرِهِ، وَلَوْامَ نَفْسِهِ، وَفُحْشَ  
مَنْشَأَتِهِ، تَرَكْتُ تَخْلِيدَهَا فِي هَذَا الْمَكَانِ، وَكَذَلِكَ تَرَكْتُ غَيْرَهَا هَرَبًا مِنَ التَّطْوِيلِ.

وَبَعْدَ فَحْمَدِ الْمُحْسِنِ وَذَمِّ الْمُسِيءِ أَمْرَانِ جَارِيَانِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مُدُّ خَلْقَ اللَّهِ  
الْخَلْقِ، وَعَلَى ذَلِكَ يَجْرِي إِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ بِفَنَائِهِ، وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلُ مَنْ حَمِدَ وَذَمَّ،

(١) ذَفْرُكَ: نَتْنُكَ وَخَبْثُ رِيحِكَ.

(٢) أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَرُوضِيُّ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي سَلِيمَانَ الْمُنْطِقِيِّ. وَذَكَرَ أَبُو حَيَّانٍ فِي (الْمُقَابَسَاتِ) أَنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ هَذَا كَانَ مِنَ الْأُمَّةِ فِي شَأْنِهِ وَكَانَ يَتَفَلَسَفُ.

(٣) هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمَادِ الْكَاتِبِ، ذَكَرَهُ ابْنُ النَّدِيمِ فِي الْفَهْرَسْتِ ١٩٥.

(٤) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُقْلَةَ. وَوُلِدَ سَمَةَ ٢٧٢ هـ وَوُزِرَ لِلْمُقْتَدِرِ سَنَةَ ٣١٦ هـ وَوُلِدَ الْقَاهِرِ سَنَةَ ٣٢٠ هـ وَوُلِدَ الرَّاضِي، وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ كَيْفَوُا الْخَطَّ الْعَرَبِيَّ وَهَنْدَسُوهُ، فَسَارَتِ الْأَمْثَالُ بِحَسَنِ خَطِّهِ. تُوْفِيَ سَنَةَ ٣٢٨ هـ.

وشكّر ولام، ألا تراه كيف وصّف بعض عباده عند رضاه عنه فقال: ﴿يَعْمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقال في آخر ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وعلى هذا، فإنه أكثر من أن يُبلغ آخره؛ ثم انظر كيف وصّف آخر عند سُخطه عليه وكرهته لما كان منه فقال: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (١١) ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢) ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾.

[القلم: ١١ - ١٣].

وهذا فوق ما يقول مخلوق في مخلوق.

وقال الحسن البصري: الهَمَّازُ: العِيَاب، و «مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ»: ينقل الكلام القبيح، «مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ»: بخيل، «مُعْتَدٍ أَثِيمٍ»: ظلوم ذميم، «عُتْلٌ» جاف، والزَنِيمُ: الدَّعِيُّ.  
قال أبو سعيد السيرافي<sup>(١)</sup>: العُتْلُ: نراه من قولهم جيء بفُلانٍ يُعْتَلُّ إذا غلظ عليه، وعُتِفَ به في القود.

وكيف يَأْتُمُ الإنسانُ في غِيبةٍ من كان قلبه نَغْلًا بالنِّفاق، وصدْرُه مريضًا بالكفر، ونفسُه فائِضَةٌ بالقساوة. ووجهُه مكسورًا بالصِّفاقة، ولسانه ذَرِبًا بالفُحش والبذاءة، وسيرته جاريةٌ على الكَيْدِ والعداوة، وعِشرته ممقوتةٌ بالنكد والرداءة؛ وقد أثنى الله على واحدٍ ولعن آخر، وحطَّ هذا إلى الحُشِّ<sup>(٢)</sup> ورفع ذلك إلى العرش، وعاتب، وأنب ولام ودمم؛ وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، ومَن تقدّمه من الأنبياء والمرسلين والأولياء المخلصين؛ وعلى هذا فورق السلف الطاهر، والصّحابة العلية، وهم القدوة والعُمدة، وإليهم يُنتهى في كل حال، وعليهم يُعتمد في كل أمرٍ ذي بال.

فمن ذا يُزري على هذا المذهب إذا خرج القولُ فيه مَعْضودًا بالحجّة، ممدودًا بالمعذرة، معقودًا بالنصفة، وكان فيه برد الغليل، وشفاء الصدر، وتخفيف الكاهل

(١) أبو سعيد السيرافي هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي النحوي المعروف؛ سكن بغداد وتولى القضاء بها، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وتوفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

(٢) الحُشُّ: الكنيف وموضع الغائط والمتوضأ.

من ثقل العَيْظِ عَلَى أَجَلٍ وَجَهٍ وَأَسْهَلِ طَرِيقٍ، مع مُسَامِحَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَتَغَافُلٍ عَرِيضٍ؟  
وَقِيلَ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ: أَيُّ شَيْءٍ أَلْذُّ؟ قَالَ: رُكُوبُ هَوَىٰ وَافِقَ حَقًّا، وَإِدْرَاكُ شَهْوَةٍ  
لَا تَتْلُمُ دِينًا، وَقَضَاءُ وَطَرٍ لَا يَتَحَيَّفُ مُرْوَةً، وَبُلُوغُ مُرَادٍ لَا يُسَيِّرُ قَالَةَ قَبِيحَةٍ؛ وَالْمَذْهَبُ  
الْأَوَّلُ مَذْهَبُ الزُّهَادِ وَالْمَتَأَبِّدِينَ<sup>(١)</sup>، وَأَصْحَابُ الْوَرَعِ وَالْمَتَعَبِّدِينَ.

وَنَحْنُ قَدْ بَيَّنَّا الْأَصْلَ فِي هَذَا الْبَابِ، فَلَيْسَ بِنَا حَاجَةً إِلَى التَّكْثِيرِ؛ وَكَيْفَ يَلْزَمُنَا  
حُكْمٌ مِنْ يَتَعَجَّرُ فِي قَوْلِهِ وَيَخْتَارُ عَلَى رَأْيِهِ، وَيَعْتَرِضُ بِجَوْرِهِ.

وَنَحْنُ قَدْ اقْتَدَيْنَا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَجَرَيْنَا عَلَى عَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَخَذْنَا  
بِهَدْيِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ وَإِنَّمَا أَشْكَلُ الْقَوْلُ فِي هَذَا الْمَذْهَبِ عَلَى قَوْمٍ مَدَحُوا  
الصَّمْتَ، وَكَرَهُوا كَثِيرًا مِنَ الْقَوْلِ؛ وَقَلِيلُ الْكَلَامِ عِنْدَهُمْ فَضْلٌ، وَكَثِيرُهُ هُجْرٌ، وَفِيهِ  
اللَّغْوُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُتَجَنَّبَ، وَالْحَشْوُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَادَ.

وهؤلاء قومٌ - أكرمك الله - لا يعرفون فضل ما بين التفيهُقِ المذمومِ والبلاغةِ  
المحمودةِ، والتشُدُّقِ المكروهِ والخطابةِ الحسنةِ، وما هو من باب البيانِ المشتملِ  
على الحكمةِ، وما هو من باب العيِّ الشاهدِ بالهجنةِ. ومتى كان ذكرُ المهتوكِ حرامًا،  
والتشنيعُ على الفاسقِ مُنكرًا، والدلالةُ على التَّفَاقِ خَطْلًا، وتحذيرُ النَّاسِ مِنَ الْفَاحِشِ  
المتفحشِ جَهْلًا؟

هذا ما لا يقوله مَنْ قامَ بالموازنةِ وبالمكايلةِ، وعَرَفَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمَكَاشِفَةِ  
وَالْمَجَامِلَةِ؛ وَإِنَّمَا غَزُرَ الْأَدَبُ، وَكَثُرَ الْعِلْمُ، وَجَزُلَتِ الْعِبَارَةُ، وَانْبَعَجَتِ الْعَبْرُ،  
وَاسْتَفَاضَتِ التَّجَارِبُ، لَمَّا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءِ النَّاسِ وَقَصَّصِهِمْ وَأَحَادِيثِهِمْ فِي  
خَيْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ، وَفِي وَفَائِهِمْ وَغَدْرِهِمْ، وَنُصْحِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، وَأُمُورِهِمُ الْمُخْتَلَفَةَ  
عَلَيْهِمْ، وَالْحَسَنَ الَّذِي شَاعَ عَنْهُمْ، وَالْقَبِيحَ الَّذِي لَصِقَ بِهِمْ، وَالْمَكَارِمَ الَّتِي بَقِيَتْ  
لَهُمْ، وَالْفَضَائِحَ الَّتِي رَكَدَتْ عَلَيْهِمْ. وَالدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ؛ فَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا ذُكِرَ بِهِ، وَأُكْرِمَ

(١) المتأبدين: المنزولين عن الناس.

من أَجَلِهِ، وَلِحِظِ بَطْرِفِ الْوَقَارِ، وَصِيْنِ عِرْضِهِ عَن لِّصُوصِ الْعَارِ وَالشَّنَارِ<sup>(١)</sup>، وَالْحِقِّ بِأَصْحَابِ التَّوْفِيقِ، وَمَنْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْوِزْنُ الرَّاجِحُ، وَالْوَجْهُ الْمُسْفِرُ؛ وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا لِيَمِ عَلَيْهِ، وَأُهِنَ مِنْ أَجَلِهِ، وَنُظِرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْمَقْتِ، وَأُلْصِقَ بِعَرَضِهِ كُلُّ خِزْيٍ، وَبِيعَ فِيمَنْ يَنْقُصُ لَا فِيمَنْ يَزِيدُ؛ وَالجِزَاءُ وَإِنْ كَانَ مُؤَخَّرًا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لِأَهْلِهِ، فَإِنَّ بَعْضَ ذَلِكَ قَدْ يُعَجَّلُ لِمُسْتَحِقِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَنْزِيلِهِ: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

والذي ذكرته عن الجاحظ فليس هو أول من اقتضبه وسنه، بل قد سلف فيه قوم كرام، وخلف عليه ناس من جلة الناس. أنا قرأت رسالة لابن المقفع<sup>(٢)</sup> في معايب بعض آل سليمان بن علي الهاشمي، وكذلك أصبت رسالة لسهل بن هارون<sup>(٣)</sup> في مثالب الحراني، ورأيت أيضا رسالة لسعيد بن حميد<sup>(٤)</sup> في فضائح آل علي بن هشام؛ وحتى الصولي بالأمس ذم بعض بني المنجم في رسالة له.

وحدثنا حمزة المصنف عن أبي الحسن البغدادي قال: كتب أبو العيناء إلى أحمد ابن أبي دواد:

(١) الشنار: العيب والعار.

(٢) هو عبد الله روزبه بن دادويه ويكنى بأبي محمد، مفكر وكاتب شهير من العصر العباسي. ولد ابن المقفع في مدينة البصرة عام ٧٢٤م، ويعتقد البعض أنه ولد في مدينة فيروز آباد في بلاد فارس. درس الفارسية وتعلم العربية في كتب الأدباء واشترك في سوق المرند. نقل من البهلوية إلى العربية كليلة ودمنة. وله في الكتب المنقولة التي وصلت إلينا الأدب الكبير والصغير والأدب الكبير فيه كلام عن السلطان وعلاقته بالرعية وعلاقة الرعية به، والأدب الصغير حول تهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة. من أعماله مقدمة كليلة ودمنة.

(٣) هو أبو عمرو سهل بن هارون بن راهبون الدستيمساني، نسبة إلى دستميسان وهي كورة بين واسط والبصرة والأهواز، حكيم فصيح شاعر. وكان أبو عثمان الجاحظ يفضلها، ويصف براعته وفصاحته، قال في وصفه في البيان والتبيين (١/٥٢): «ومن الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار، والكتب الكبار المخدلة، والسير الحسان المدونة، والأخبار المولدة: سهل بن هارون بن راهبوني الكاتب، صاحب ثعلة وعفرة في معارضة كليلة ودمنة، وكتاب الإخوان، وكتاب المسائل، وكتاب المخزومي والهدلية، وغير ذلك من الكتب». توفي سهل سنة ١٧٣ هـ.

(٤) أبو عثمان سعيد بن حميد بن سعيد، كاتب وشاعر في العصر العباسي، كان يتقلد ديوان الرسائل أيام الخليفة المستعين العباسي. له أخبار مع فضل الشاعرة، توفي سنة ٢٥٠ هـ.

أما بعدُ، فالحمد لله الذي حبسك في جلدك، وأبقى لك الجارحة التي بها تنظرُ إلى زوال نعمتك. قال: وهي طويلة، قال: وقال أبو العيْناء: لولا أن القَدْر يُعْشِي البَصْرَ، لما نهى ولا أمر. ومن غريب هذا الفنِّ رسالةُ لأبي العباسِ محمَّد بن يزيد<sup>(١)</sup> في خبائث الحسن بن رجاء<sup>(٢)</sup>، ورأيت أيضاً رسالةً للعمري في رقاعات الفضل بن سهل ذي الرياستين.

فأما الشعراءُ وأصحابُ النَّظم، وأربابُ المدح والهجاء، والثلب والحمد، والتشجيع والتَّحسين فهم كالطمِّ والرَّم<sup>(٣)</sup>؛ لا يكسبون إلا بهذا المذهب، ولا يعيشون إلا على هذا الاختيار، ولهم الهجاء المنكر، والقولُ المُخزِي، والقذعُ المؤلم، واللفظُ الموجه؛ والتعريض الذي يتجاوز التصريح، والتصريحُ الذي يجمعُ كلَّ قبيح، وأمرهم أظهرُ من أن يدلَّ عليه، وشأنهم أبينُ من أن يُردَّدَ القولُ فيه.

وإنما المدار الصدق في القول، وعلى تقديم الحق في العقد، وقصد الصواب عند اشتباه الرأي وغلبة الهوى.

فأما قولُ أبي الحرثِ حمين وقد سُئل عمَّن يحضُر مائدةَ محمَّد بن يحيى، وجوابه: الملائكة، قيل: إنما نسألك عمَّن يأكل معه، قال: الذُّباب. فإنَّ هذا من باب التملُّح والمجانة، وليس من قبيل الصدق في شيء؛ وإن كان بعض الصدق مشوباً، وبعضُ الحق ممزُوجاً فلا بأس ولا حرج، فإن ذلك القَدْر لا يقبل الصدق كذباً، ولا يُحيل الحقَّ باطلاً. وأين المحض من كل شرٍّ، والخالص من كل خير؟ إنك إن رمتَ ذاك في عالم الكون والفساد، ودار الامتحان والتكليف، مع هذه الطبائع المختلفة، والعناصر

(١) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرِّد ينتهي نسبه بثمانية، وهو عوف بن أسلم من الأزد. أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد، عاش في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري.  
(٢) الحسن بن رجاء، شاعر من جلة الكتاب، نشأ في خلافة المأمون، وقلده الوزير إسماعيل بن بلبل أصبهان وعاش حتى أيام الواثق. توفي سنة ٢٣٢ هـ.  
(٣) الرَّم: الثرى، والطم: البحر، ويكنى بذلك عن الكثرة.

المتمازجة، والأسباب القريبة، رُمت محالاً، ورأى المحال خابط، وطالب الممتنع خائب، ومُحاول ما لا يكون مكدود مُعنى، ومحدود مُعدى<sup>(١)</sup>، ومَرَجِعِه إلى الندم، وغايته الأسف الذي يشجُو النفس، ويمرُس الفؤاد، ويوجع القلب، ويضعف الآسى، وربما أفضى إلى العطب.

قد ذكرنا - حاطك الله - جملةً من القول رأينا تقديمها والاستظهار بها، قبل أخذنا فيما أنشأنا له هذا الكلام، قَصْداً لِفَلِّ حَدِّ الطاعن، وحسماً لمادة الحاسد، وتعليماً للجاهل، وإرشاداً للمتخير، واحتجاجاً على مَنْ يُدَلُّ بحفظ اللسان، وكتمان السر، وطَيِّ القبيح، ومُسالمة الناس، واغتفار<sup>(٢)</sup> المنكر؛ وهو مع ذلك في قوله كالأسد في غيله، والنمر في أشبه<sup>(٣)</sup>، والثعبان في وجاره<sup>(٤)</sup>، حتى إذا غمز غمزة، أو وخر وخرزة رأيت معاقده حلمه متحللة، ودخائر صبره مُنتهبة، وكظمه الذي كان يُدَلُّ به مَفقوداً، وجلده الذي كان يدعيه باطلاً. وما أكثر مَنْ يتكلم - على السلامة من النفس والمال، وطيب القلب، ورخاء البال، وعند مؤاتاة الأمور، وطاعة الرجال، ومُساعدة المراد - بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، وبالنظر الدقيق، واللفظ الرقيق، حتى إذا التوت عليه حال، وتعسر دون مُرادِه أمرٌ، وعرض في بعض مطالبه تعقُّد، سمعت له هناك زخرةً ونخرةً، وضجرةً، وكفرةً، كأن لم يسمع بالحلم والتحلُّم، والصبر والتصبر؛ يخرج من فروته عارياً من الحلم والكظم، بادي السؤا بالبداء والجهل، كما يخرج الشعر من العجين، ولعل ما نزل به وحل عليه لم يرزاه زبالاً<sup>(٥)</sup> ولا مسح منه عذاراً<sup>(٦)</sup>.

(١) محدود: محروم، ومعدى: متجاوز به عن الغرض، يعني مصروف عن هدفه إلى غيره.

(٢) اغتفار: غفران.

(٣) موضع أشيب: كثير الشجر.

(٤) وجاره: جحره.

(٥) زبالاً: الزبال بالضم: ما تحمله النملة في فيها، يقال: ما أصاب منه زبالاً شيئاً.

(٦) العذار: الخد. يعني لم يؤذه بشيء.

وهذا هو اللئيم الذي بلغك، والساقط الذي سمعتَ به والله تعالى يقول: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٧]. وروى أصحابنا عن ابن عباس أنه قال: إلا من لم يُكْرَم، في ضيافته، فإن كان هذا التأويل صحيحًا، وهذا الوجه معروفًا، فأنا ذلك المظلوم، ولا بد لمن ظلم من أن يتظلم، وكيف يكون المظلوم إذا انتصر ظالمًا، والله يقول: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، ولو كان المظلوم إذا تظلم ظالمًا، لكان الظالم إذا ظلم معذورًا. وكما هجَّن الله لومَ المحسن، فكذلك حسن توبيخ المسيء، وكما أثاب على تزكية من كان طاهرًا، كذلك آجر على جرح من كان مدخولًا. ألا ترى أن التقرب إلى الله بعداوة أبي جهل، وذمه ولعنه وذكر لومه وخساسته، كالتقرب إلى الله بولاية أبي بكر ومدحه والترحم عليه وذكر فضله وبلائه ونصرتَه؛ وهذا مُستمر في غير أبي جهل ممن عادى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما أنه مُستمر في غير أبي بكر ممن أطاع الله ورسوله. وإنما الأمور بعواقبها، والمذاهب بشواهداها، والتناج بمقدماتها، كما أن الفروع بأصولها، والأواخر بأوائلها، والسقوف بأساسها.

ولست أدعي على ابن عبَّاد ما لا شاهد لي فيه، ولا ناصر لي عليه، ولا أذكر ابن العميد بما لا بيَّنة لي معه، ولا برهان لدعواي عنده، وكما أتوخى الحق عن غيرهما إن اعترض حديثه في فضل أو نقص، كذلك أعاملهما به فيما عرفنا بين أهل العصر باستعماله، وشهرا فيهم بالتحلي به، لأن غاييتي أن أقول ما أحطت به خبرًا، وحفظته سماعًا.

وسهل عليَّ أن أقول: لم يكن في الأولين والآخرين مثلهما، ولا يكون إلى يوم القيامة من يعشرهما اصطناعًا للناس، وحلمًا عن الجهال، وقيامًا بالثواب والعقاب، وبدلًا لقتية المال، ولكل دُخر من الجواهر والعقد. وأنهما بلغا في المجد الذروة السماء، وأحرزا في كل فضل وعلم قصب السبق، وأن أهل الأرض دانوا لهما، وأن

النقص لم يشنهما بوجه من الوجوه، وأن العجز لم يعترهما في حال من الأحوال؛  
وأنتهما كانا في شعار إمام الرافضة<sup>(١)</sup> وعصمته<sup>(٢)</sup> المعروفة، وأن الاستثناء لم يقع  
في وصفهما في حال، لا في الصناعة والمعرفة، ولا في الأخلاق والمعاملة، ولا في  
الرياسة والسياسة، ولا في الأبوة، والعمومة، ولا في الأمومة والخوولة، وأن الولادة  
قرت على شرف المحتد، والمنشأ جرى على كرم المولد؛ فالجوهر فائق في الأصل،  
والمجد عميم في الفرع، والنصاب مقوم بالقديم المذكور، والخير شامل في الحديث  
المشهور، والنجابة معروفة عند الولي والعدو، والعرق نابض بكل فعل رضي، والغور  
بعيد على المتأمل، والأمر كله عال عن المتناول؛ وأنه كما يقال لهذا: ابن العميد؛  
لنباهة أبيه، كذلك كان يقال لذلك: ابن الأمين؛ لخير كثير كان فيه، وأن العميد وإن كان  
مقدمًا في الكتابة، فقد كان الأمين معظماً في الديانة، والكتابة صناعة تدرِكها الخلوقة،  
والديانة حلية لا تزاد إلا الجدة، وتلك الدنيا وهي زائلة، وهذه الآخرة وهي باقية،  
والله تعالى يقول: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].  
عَلَى أَنَّ الْأَمِينَ كَتَبَ لِرُكْنِ الدَّوْلَةِ كَمَا كَتَبَ الْعَمِيدُ لِصَاحِبِ خُرَّاسَانَ. وَالْأَمِينَ

(١) الرافضة: الرفض في اللغة يأتي بمعنى الترك. يقال: رفض يرفض رفضاً، أي ترك. وعرفهم أهل اللغة بقولهم:  
«والروافض كل جند تركوا قائدهم»؛ هذا هو معنى الرفض في اللغة. وأما في الاصطلاح: فإنه يطلق على تلك  
الطائفة ذات الأفكار والآراء الاعتقادية الذين رفضوا خلافة الشيخين وأكثر الصحابة، وزعموا أن الخلافة في  
علي وذريته من بعده بنص من النبي صلى الله عليه وسلم، وأن خلافة غيرهم باطلة.

وقد أطلقت هذه التسمية على الرافضة لأسباب كثيرة:

١- قيل: إنهم سمو رافضة لرفضهم إمامة زيد بن علي، وتفرقهم عنه.

٢- وقيل: سمو رافضة لرفضهم أكثر الصحابة، ورفضهم لإمامة الشيخين.

٣- وقيل: لرفضهم الدين.

ولعل الراجح هو الثاني، ولا منافاة بينه وبين الأول، لأنهم كانوا رافضة يرفضون الشيخين وقد رفضوا زيداً  
كذلك إذ لم يرض مذهبهم. وللمزيد انظر (فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها،  
غالب بن علي عواجي، ١/ ٣٤٤-٣٤٦).

(٢) العصمة: صفة من صفات الإمام عند الشيعة، ومعناها أن الإمام لا يجوز أن تصدر عنه معصية، كما لا يجوز  
عليه أن يسهو في شيء أو ينسى شيئاً من الأحكام.

كَانَ يَنْصُرُ مَذْهَبَ الْأَشْئَانِيِّ تَدْيِينًا وَطَلَبًا لِلزُّلْفَىٰ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالْعَمِيدُ كَانَ يَعْمَلُ لِعَاجِلَتِهِ؛ وَإِنْ قُلْتَ كَانَ الْأَمِينُ مَعْلَمًا بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى طَالِقَانَ الدَّيْلَمِ، قِيلَ: وَكَانَ وَالِدَ الْعَمِيدِ نَخَالًا فِي سَوْقِ الْحَنْطَةِ بِقُمَّ.

فَدَعِ هَذَا وَنظِيرَهُ، وَأَنْكَ مَتَى أَرَدْتَ أَنْ تُحْصِيَ صَنَائِعَ ابْنِ الْعَمِيدِ وَابْنَ عِبَادِ أَرَدْتَ عَسِيرًا، وَمَتَى أَثْرَتْ<sup>(١)</sup> أَنْ تُحْصِلَ فُضَائِلَهُمَا حَاوِلْتَ مَمْتَنَعًا، وَأَنْهُمَا كَانَا بِالسِّيَاسَةِ عَالَمِينَ، وَلِأَوْلِيَاءِ نِعْمِهِمَا نَاصِحِينَ، وَإِلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مَتَحَبِّينَ، وَعَلَى الْقَاصِيِ وَالِدَانِي حَدِيثِينَ، وَلِأَمْوَالِهِمَا بَادِلِينَ، وَلِأَعْرَاضِهِمَا صَائِنِينَ، وَفِي مَرَضَاتِ اللَّهِ دَائِبِينَ، وَعَلَى هَدْيِ أَهْلِ التَّقَى جَارِيِينَ، وَمَنْ كُلِّ دَنْسٍ وَنَطْفٍ بَعِيدَيْنِ نَزْهَيْنِ؛ وَأَنْهُمَا لَوْ بَقِيََا لَنَزَلَ عَلَيْهِمَا الْوَحْيُ، وَلَتَجَدَّدَ بِهِمَا الشَّرْعُ، وَسَقَطَ بِمَكَانِهِمَا الْاِخْتِلَافُ، وَزَالَ بِنَظَرِهِمَا مَا فِيهِ الْأَمَةُ مِنْ هَذَا الْعَيْشِ النَّكِدِ، وَالشُّؤْمِ الشَّامِلِ، وَالْبَلَاءِ الْمَحِيطِ، وَالْغَلَاءِ الْمَتَّصِلِ، وَالذَّرْهِمِ الْعَزِيزِ، وَالْمَكْسَبِ الدَّنَسِ، وَالْخَوْفِ الْغَالِبِ، وَلِكَاثَتِ الْأَرْضِ تُخْرَجُ أَثْقَالُهَا، وَتَلْفُظُ كُنُوزُهَا، وَيَسْتَغْنِي مِنْ أَلَمِ الْفَقْرِ أَهْلُهَا، وَمِنْ فَضِيحَةِ الْحَاجَةِ أَرْبَابُهَا، وَيَعُودُ ذَوِي الدِّينِ نَاضِرًا، وَخَامِلُ الْمَرُوءَةِ نَبِيهَا.

وَلَكِنْ قَدْ يَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ مَنِ شَاهَدَهُمَا، وَتَبَطَّنَ أَمْرَهُمَا، وَخَبَرَ حَالَهُمَا، وَعَرَفَ مَا لَهُمَا وَعَلَيْهِمَا، فَلَا يَتِمَّاسِكُ عَنْ زَجْرِي وَخَسَائِي<sup>(٢)</sup> وَإِسْكَاتِي وَمَقْتِي، وَلَا يُتَنَهِنُهُ شَيْءٌ عَنْ مُقَابَلَتِي بِالتَّكْذِيبِ وَاللُّؤْمِ، وَلَا يَجِدُ بَدَأًا مِنْ أَنْ يَرِدَ قَوْلِي فِي وَجْهِي، وَلَا يَسْعُهُ إِلَّا ذَاكَ بَعْدَ اِزْدِرَائِي وَتَجْهِيلِي، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَقُولَ: انظُرُوا إِلَى هَذَا الْكُذِّبِ الَّذِي أَلْفَهُ، وَإِلَى هَذَا الزُّورِ الَّذِي فَوَّهَهُ<sup>(٣)</sup>، وَالْبَاطِلِ الَّذِي وَصَفَهُ، وَالْحَقِّ الَّذِي دَفَعَهُ بِسَبَبِ ثُوبٍ لَعَلَّهُ أَخَذَهُ، أَوْ دِرْهَمِ ثُنَى عَلَيْهِ كَفَّهُ، أَوْ حَاجَةِ خَسِيسَةٍ قُضِيَتْ لَهُ. تَبْلُغُ بِهِ قَلَّةٌ وَسُوءُ النَّظَرِ فِيمَا يُتَعَقَّبُ بِالتَّقْبِيحِ وَالتَّحْسِينِ أَنَّهُ يَمْدَحُ وَاحِدًا مَقْرُوفًا بِالزَّنْدَقَةِ

(١) أثرت: عزمت على فعله وتفرغت له.

(٢) خسائي: زجري وطردي، من الفعل (خسا).

(٣) فوّه الكلام: زخرفه.

والكفر، ويُقَرِّظُ آخَرَ مَعْرُوفًا بِالْإِلْحَادِ وَالسَّخْفِ، وَيَصِفُ بِالْجُمُودِ مَنْ كَانَ أَبْخَلَ  
 مِنْ كَلْبٍ عَلَى عَقِي صَبِيٍّ<sup>(١)</sup>، وَيَدَّعِي الْعَقْلَ لِمَنْ كَانَ أَحْمَقَ مِنْ دُغَّةٍ<sup>(٢)</sup>؛ وَمَنْ أَظْلَمَ  
 مِمَّنْ يَصِفُ السَّفِيَةَ بِالْحَصَافَةِ، وَاللَّيْمَ بِالكَرَمِ، وَالْمَتَعَجِّرَ بِالْأَنَاةِ، وَالْعَاجِزَ بِالْكَفَايَةِ،  
 وَالنَّاقِصَ بِالزِّيَادَةِ، وَالْمَتَأَخِّرَ بِالسَّبْقِ، وَالْعَنِيفَ بِالرَّفْقِ، وَالْبَخِيلَ بِالسَّخَاءِ، وَالْوَضِيعَ  
 بِالْعَلَاءِ، وَالْوَقَّاحَ بِالْحَيَاءِ، وَالْجَبَّانَ بِالْغَنَاءِ؟

فلا يكون حينئذ لقولي قابلًا، ولا لحكمي ملتزمًا، ولا لنصبي مرجوعًا، ولا لسعيي  
 نَجحًا، ولا لصوابي مُختارًا، ولا لحدائي مُستمعًا؛ وفي الجملة لا يكون لدعواي مُصدِّقًا.  
 ولعمري لو انقلبتُ عن ابن عبّاد - بعدَ قصدي له من مَدِينَةِ السَّلَامِ وَإِنَاخْتِي بِفِنَائِهِ  
 مَعَ شِدَّةِ الْعُدْمِ وَالْإِنْفَاضِ<sup>(٣)</sup>، وَالْحَاجَةِ الْمُرْعِجَةِ عَنِ الْوَطَنِ، وَصَفْرِ الْكَفِّ عَمَّا يُصَانُ  
 بِهِ الْوَجْهَ؛ وَبَعْدَ تَرُدِّي إِلَى بَابِهِ فِي غَمَارِ<sup>(٤)</sup> الْغَادِينَ وَالرَّائِحِينَ، وَالطَّامِعِينَ الرَّاجِينَ،  
 وَصَبْرِي عَلَى مَا كَلَّفَنِي نَسْخِهِ حَتَّى نَشِبْتُ بِهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ خِدْمَةً وَتَقَرُّبًا، وَطَلَبًا لِلْجِدْوَى  
 مِنْهُ، وَالْجَاهِ عِنْدَهُ، مَعَ الضَّرْعِ وَالتَّمَلُّقِ - بَعْضُ مَا فَارَقْتُ مِنْ أَجْلِ الْأَعْزَةِ، وَهَجَرْتُ  
 بِسَبَبِهِ الْإِخْوَانَ، وَطَوَيْتُ لَهُ الْمَهَامَةَ وَالْبِلَادَ، وَعَلَى جُزْءٍ مِمَّا كَانَ الطَّمَعُ يُدِنْدُنُ حَوْلَهُ،  
 وَالنَّفْسُ تَحْلُمُ بِهِ، وَالْأَمَلُ يَطْمئن إِلَيْهِ، وَالنَّاسُ يَعْذِرُونَهُ، وَيَحْقِقُونَهُ<sup>(٥)</sup>، لَكِنْتُ لِإِحْسَانِهِ  
 مِنَ الشَّاكِرِينَ وَإِلِسَاءَتِهِ مِنَ السَّاتِرِينَ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ بِالْخَيْرِ مِنَ الْمَسَاعِدِينَ الْمَصْدُقِينَ،  
 وَعِنْدَ قَرْفِهِ بِالسُّوءِ مِنَ الذَّائِبِينَ الْمَمْتَعِضِينَ. وَالشَّاعِرُ يَقُولُ:

«مَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمُحَامِدِ يُحْمَدُ»

(١) العقي (بالكسر): أول ما يخرج من بطن الصبي حين يولد.

(٢) دُغَّةٌ: اسم رجل كان أَحْمَقَ. وَدُغَّةٌ: اسم امرأة من عَجَلٍ تُحَمِّقُ؛ قال ابن بري: هي مارية بنت مُعْنَجٍ. يقال: فلان  
 أَحْمَقُ مِنْ دُغَّةٍ.

(٣) الإنفاض: ذهاب المال وفناء الزاد.

(٤) غمار (بفتح العين وضمها): جماعة الناس، يقال: دخلت في غمار الناس، أي في جمعهم المتكاثف.

(٥) يحققونه: يصدقونه.

والآخر يقول:

«والحمدُ لا يُشْتَرَى إِلَّا بِأَثْمَانٍ»

والآخر<sup>(١)</sup> يقول:

وإنَّ المجدَ أوله وُغورٌ ومصدِرٌ غبّه كرمٌ وخيرٌ<sup>(٢)</sup>  
وإنك لن تنالَ المجدَ حتّى تجودَ بما يَظنُّ به الضميرُ  
بنفسك أو بملكك في أمورٍ يهاب ركوبها الورعُ الدثورُ<sup>(٣)</sup>

والآخر يقول:

والحمدُ لا يُشْتَرَى إِلَّا له ثمنٌ مما يَظنُّ به الأثوامُ معلومٌ  
والجودُ نافيةٌ للمالِ مُهلكةٌ والبخلُ مُبقيٌ لأهليه ومذمومٌ<sup>(٤)</sup>

وقال الآخر:

ومن لا يَظنُّ قبلَ التّوافدِ عرضه فيحرزه يُغررَ به ويُحرّق<sup>(٥)</sup>  
ومن يلمسُ حسنَ الثناءِ بما له يَظنُّ عرضه من كلِّ شنعاءٍ مُوبقٍ  
ولكنني ابتليتُ به، وكذلك هو ابتلي بي، ورماني عن قوسه مُغرّقاً<sup>(٦)</sup> فأفرغتُ ما  
كان عندي على رأسه مغيظاً. وحرمني فازدرئته، وحقرني فأخزئته، وخصني بالخيبة  
التي نالت مني، فخصصته بالغيبة التي أحرقتة، والبادي أظلم، والمنتصف أعذر؛  
وكنت كما قال الأول:

وإن لسانی شَهِدَةٌ يُشْتَفَى به أَجَلٌ وَعَلَى مَنْ صَبَّه اللهُ عَلَقَمٌ<sup>(٧)</sup>

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الشاعر عمرو بن الأَهم. انظر المفضليات (٢/ ٢١٠).

(٢) الوغور: الصلب، من الفعل وعر. والخير بالكسر: الكرم والشرف.

(٣) الورع: الجبان، والدثور: الكسلان التؤوم.

(٤) الجود: جمع جواد، وهو الكريم السخي. نافية للمال: مخرجة له.

(٥) التوافد: الطعنات النافذة. يعرر: يلقب بما يشينه.

(٦) مُغرّقاً: أغرق في الشيء: تجاوز الحد فيه.

(٧) الشهدة: العسل. العلقم: نبات الحنظل.

ولئن كان متعني ماله الذي لم يبق له، فما حَظَر عليَّ عرضَه الذي بقي بعده، ولئن كنتُ انصرفت عنه بخفي حنين<sup>(١)</sup> لقد لَصِقَ به من لساني وقلمي كل عارٍ وشنارٍ وشينٍ، ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبره، إني لأراه أهلاً لقول الحق فيه، ونث ما كان يشتمل عليه من مخازيه، ولئن كان ظن أن ما يصير إلي من ماله ضائع، إني لأتيقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولي شائع، والحساب يُخرج الحاصل من الباقي، والنظر يميز الصحيح من السقيم، والاعتبار<sup>(٢)</sup> يُفرد الحق من الباطل، والمنصف في الحكم يعذر المظلوم ويلوم الظالم، والشاعر يقول:

فإن تمنعوا ما بأيديكمُ فلن تمنعونا إذن أن نقولا  
وقال آخر:

فيا قومنا لا تظلمونا فإننا نرى الظلم أحياناً يشل ويغرج  
ويترك أعراض الرجال كأنها فريسة لحم ليس عنها مهجع<sup>(٣)</sup>  
وقال آخر:

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغناك عني فهو يغنيني  
ماذا علي وإن كنتم ذوي رحمي أن لا أحبكم إذ لم تحبونني  
يا قوم إن حصاتي ذات معجمة على العدو فخلوهم واخلوني<sup>(٤)</sup>

(١) مثل تذكره العرب، وأصله كما جاء في مجمع الأمثال للميداني: «قال أبو عبيد: أصله أن حنيناً كان إسكافاً من أهل الحيرة، فساومه أعرابي بخفين، فاختلفا حتى أغضبه، فأراد غيظ الأعرابي، فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنين أحد خفيه وطرحه في الطريق، ثم ألقى الآخر في موضع آخر، فلما مر الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخف بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته، ومضى، فلما انتهى إلى الآخر ندم عليه تركه الأول، وقد كمن له حنين، فلما مضى الأعرابي في طلب الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخفان، فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال: جئتكم بخفي حنين، فذهبت مثلاً. يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة». (مجمع الأمثال: ١/ ٢٩٦).

(٢) الاعتبار: التدبر والملاحظة.

(٣) هجع بفلان: صاح به وزجره ليكف.

(٤) الحصاة: العقل والرزانة. ذات معجمة: ذات صبر وصلابة وشدة.

وقال آخر:

لَكُنْ طِبْتَ نَفْسًا عَنِ ثَنَائِي إِنْ نِي لَأَطِيبُ نَفْسًا عَنِ نَدَاكَ عَلَيَّ عُسْرِي  
فَلَسْتُ إِلَى جَدِّوَاكَ أَعْظَمَ فَاقَةً عَلَيَّ شِدَّةَ الْإِعْسَارِ مِنْكَ إِلَى شُكْرِي  
وَرَوَى الْحَزْنَبِلُ<sup>(١)</sup> عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ<sup>(٢)</sup> قَالَ: مَدَحَ زِيَادُ الْأَعْجَمِ بَعْضَ الْعَمَّالِ فَحَرَمَهُ  
وَرَأَى لُكْنَتَهُ فَاسْتَحْقَرَهُ، فَدَخَلَ فَأَنْشَدَهُ:

وَكُنْتُ إِذَا مَا عَامِلٌ عَقَّ أُمَّهُ وَلَمْ يَحْمِهَا مِنِّي أَبْخْتُ حِمَاهُمَا  
كَسَوْتُهُمَا بُرْدَيْنِ مِنْ يَمَنِئِيَّةٍ إِذَا أَلْبَسَا كَانَا بَطِينًا بِلَاهُمَا  
وَأَجْهَلُ النَّاسِ فِي ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ، مَنْ ظَنَّ أَنَّ عَرِضَهُ فِي خَفَارَةِ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّ الْمُقْدِمَ  
عَلَيْهِ مُتَعَرِّضٌ لِنَكِيرِهِ، وَخَيْرٌ مِنْ هَذَا الظَّنِّ أَنْ يَحْتَمِلَ أَلَمَ مُفَارَقَةِ الْمَالِ بِبَعْضِ الْمَيْسُورِ،  
حَتَّى لَا يُقْرَفَ بِشَيْءٍ لَا غَاسِلَ لَهُ، وَلَا نَافِعَ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>. مَا الَّذِي رَبِحَ الْبِزِيدِيُّ حِينَ آسَدَ<sup>(٤)</sup>  
الشَّاعِرَ الَّذِي حَرَمَهُ عَلَيَّ نَفْسَهُ حَتَّى قَالَ فِيهِ شَيْئًا شَافِيًا لَغَلِيلِهِ مِنْهُ بِمَا بَقِيَ عَلَيَّ أُسْتِ  
الدَّهْرِ<sup>(٥)</sup>، وَذَلِكَ قَوْلُهُ:

بَنُو الْبِزِيدِيِّ فِي أَدْبَارِهِمْ شَعَرٌ قَدْ شَابَ مِمَّا عَلَيْهِ تُحَلَّبُ الْكَمَرُ  
أَمَّا حُبَيْشَةُ مِنْهُمْ فَهُوَ مِمْتَحَنٌ مِنَ الْبَغَاءِ بِمَا لَمْ يُمْتَحَنُ بِشَرُّ

(١) الحزنبل: لقبه أشهر من اسمه. وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عاصم التميمي. عالم راوية؛ روى عن ابن السكيت كتاب السرقات. وله خط جيد معروف بين العلماء بالصحة والتحقيق، متوافر القيمة. (إنباه الرواة عن أخبار النحاة، ٣٧٤).

(٢) محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله: راوية، ناسب، علامة باللغة. من أهل الكوفة. ولد عام ١٥٠ هـ وتوفي بسامراء عام ٢٣١ هـ. قال ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي وكان يحضره زهاء مئة إنسان، كان يسأل ويقرأ عليه، فيجيب من غير كتاب، ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط، ولقد أملى على الناس ما يُحمل على أجمال، ولم ير أحد في علم الشعر أغزر منه. وهو ربيب المفضل بن محمد صاحب المفضليات.

(٣) نافع عنه: دافع عنه.

(٤) آسد: هيج وأغرى.

(٥) على أسْتِ الدَّهْرِ: يريد ما قَدَّمَ من الدهر.

بؤدّه أن كلّ النّاس من حُمُرٍ وكلّ جارحة في جسمه ذكرٌ  
والله للخروج من الطّارف والتّالد أسهلّ من التعرّض لهذا القول والصّبر عليه وقلة  
الاكتراث به، ولهذا بكت العرب من وقع الهجاء كما تنكي الثّكلى<sup>(١)</sup> من النّساء،  
وذلك لشرف نفوسها ونزاهتها عن كل ما يتخوّن<sup>(٢)</sup> جمالها ويعيب فعالها.

وما يُختل به الرّئيس ويذهل عليه أنّه ينظر إلى جماعة بين يديه قد أحسن إلى كلّ  
واحد منهم وقربه وأعطاه واختصّه بشيء وأبانه بحال، وإذا رأى واحداً بعد هؤلاء لا  
نباهة لقدره، ولا جهازة<sup>(٣)</sup> لمنظره، ولا شهرة لاسمه ومنصبه حقّره، وثنى طرفه عنه،  
وأغضاه دونه، ولم يهشّ لذكره ورؤيته، واعتقد أنّه ليس بذئ محلّ يبالى به، ولا يبين  
في غمار الباقيين؛ أو يجب على ذلك المحروم أن يذكره بما هو أغلب عليه، وأشهر  
عنه، وأن يعدّ نيل غيره كرمًا قد عمّ، وأن كان إخفاقه وحده لؤماً قد خصّ؟

وهذا موضعٌ يُشكل قليلاً، وتطول فيه الخصومة بين الآمل والمأمول، على أن  
الكرم والاحتجاج لا يجتمعان، واللؤم والاحتياال لا يفترقان؛ وقد ألمّ الشاعرُ بطرف  
من هذا المعنى بقوله:

إن تكلمتُ لم يكن لكلامي موقعٌ والسكوت ليس بمُجدي  
فأبن لي أكلُّ هذا التواني في جميع الإخوان أم فيّ وحدي  
أم ترى ما اصطنعته عند غيري واجبٌ أن أعده لك عندي

والذي أقول غير مُحتمش ولا مُراقب: أن السؤدد لا يكون إلا باحتمال خصال من  
الصّبر والحلم والتكرّم والبذل والعطاء والتفقد، وهنّ أثقل مما يُعانيه الزائر بأمله،  
والفقير برجائه، والشاعر بطمعه، والمُنتجع بزيارته. اللهم إلا أن يكون السّيد يجري  
في هذه الأخلاق والشّيم على الهوى فيُعطي من كان أخفّ روحاً عنده، وأحلى شمائل

(١) الثّكلى: الثّكل: فقد الحبيب، وامرأة ثكلى: فقدت إنّها، أي مُفجوعة به.

(٢) يتخوّن: يتنقص.

(٣) جهازة الرجل: حُسن منظره وتمام جسمه.

وَأَلْطَفَ فَضْلًا، وَأَعْبَرَ قَوْلًا<sup>(١)</sup>، فهذا ليس عليه من ثِقَلِ السُّودِّ شيءٌ، لَأَنَّهُ قَدْ مَيَّزَ مَا يَخْفَ عَلَيْهِ مِمَّا يَثْقُلُ، وَمَا يَتَّصِلُ بِنَفْسِهِ مِمَّا يَنْبُو عَنْهُ، وَمَا هَذَا مِنَ السُّودِّ، إِذَا كَانَ صَرِيحًا تَامًّا عَرِيقًا، فِي شَيْءٍ، بَلِ السُّودُّ مَا قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيَلِيُّ<sup>(٢)</sup> لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ<sup>(٣)</sup>: إِنَّكَ لَنْ تَسُودَ حَتَّى تَصْبِرَ عَلَى سِرَارِ الشُّيُوخِ الْبُخْرِ<sup>(٤)</sup>، وَهَذَا الْكَلَامُ كَالْمِيلِ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَحْسِبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا<sup>(٥)</sup>  
 وَقِيلَ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ<sup>(٦)</sup>: مَنْ السَّيِّدُ؟

قَالَ: الْأَحْمَقُ فِي مَالِهِ، الدَّلِيلُ فِي عِرْضِهِ، الْمُطْرِحُ لِحِقْدِهِ، الْمَعْنِيُّ بِأَمْرِ جَمَاعَتِهِ؛ فَلَيْسَ يَسُودُ الْمَرْءُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْهَرَ مِنْ أَوَّلِ لَيْلِهِ إِلَى آخِرِهِ فِكْرًا فِي قِضَاءِ الْحَقُوقِ، وَكَفِّ السَّفَاهِ<sup>(٧)</sup>، وَازْدِرَاعِ الْمَحَبَّةِ فِي الْقُلُوبِ، وَبَعْثِ الْأَلْسِنَةِ عَلَى الشُّكْرِ. وَفِي الْجُمْلَةِ مَنْ جَهَلَ حَقَّكَ، فَلَيْسَ يَلْزُمُكَ أَنْ تَعْتَرِفَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَمَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِيمَا لَكَ عَلَيْهِ، لَمْ يَجِبْ عَلَيْكَ أَنْ تَنْظُرَ فِيمَا لَهُ عَلَيْكَ؛ وَقَدْ قَالَ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا خَيْرَ

(١) أَعْبَرَ قَوْلًا: أَبِين وَأَيْسِر.

(٢) أَبُو الْأَسْوَدِ ظَالِمُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ سَفِيَانَ الدُّؤَلِيُّ (وَيُطْلَقُ عَلَيْهِ أَيْضًا: الدِّيَلِيُّ) الْكِنَانِيُّ، مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ وَأَعْيَانِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ وَشِعْرَائِهِمْ وَمُحَدِّثِهِمْ وَمِنَ الدِّهَانِ حَاضِرِي الْجَوَابِ وَهُوَ كَذَلِكَ عَالِمٌ نَحْوِي وَأَوَّلُ وَاضِعِ لَعَلْمِ النُّحُو فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَشَكَلَ أَحْرَفَ الْمُصْحَفِ، وَضَعَ النُّقَاطَ عَلَى الْأَحْرَفِ الْعَرَبِيَّةِ بِأَمْرِ مِنَ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَوُلِدَ قَبْلَ بَعْتَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآمَنَ بِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يَرَهُ فَهُوَ مَعْدُودٌ فِي طَبَقَاتِ التَّابِعِينَ، وَصَحَّبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي وُلَّاهُ إِمَارَةَ الْبَصْرَةِ فِي خِلَافَتِهِ، وَشَهِدَ مَعَهُ وَقْعَةَ صَفِّينَ وَالْجَمَلِ وَمِحْرَابَةَ الْخَوَارِجِ. تَوَفِّيَ عَامَ ٦٩ هـ.

(٣) عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ، وَلِيَّ إِمْرَةِ الْكُوفَةِ وَخِرَاسَانَ لِمَعَاوِيَةَ، وَالْعِرَاقَ لِزَيْدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ، وَقَتْلَهُ ابْنُ الْأَشْثَرِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ سَنَةِ ٦٧ هـ.

(٤) سِرَارٌ: الْمَسَارَّةُ وَالْمِنَاجَاةُ. الْبُخْرُ: نَتْنٌ رَائِحَةُ الْفَمِ.

(٥) الصَّبْرُ: عَصَاةٌ شَجَرٌ مُرٌّ.

(٦) هُوَ أَبُو طَرِيفِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ الطَّائِي، قُتِلَ زَمَنَ الْمُخْتَارِ، وَحَضَرَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَقْعَةَ الْجَمَلِ وَصَفِّينَ.

(٧) السَّفَاهُ: السُّفْهُ وَالْجَهْلُ.

لَكَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ»<sup>(١)</sup>.

وقد قيل: تواضع للمُحْسِنِ إِلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَانْتَصَفَ مِمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَإِنْ كَانَ حُرًّا قُرَشِيًّا. وَمِنْ صِفَاتِ الْكَرِيمِ مَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنَّ الْكَرِيمَ مِنْ تَلَفَّتْ حَوْلَهُ وَإِنَّ اللَّئِيمَ دَائِمُ الطَّرْفِ أَقْوَدُ

وقال آخر:

لَحَا اللَّهُ أَكْبَانَا زِنَادًا وَشَرَّنَا وَأَيْسَرْنَا عَنْ عِرْضِ وَالِدِهِ ذَبَا  
رَأَيْتُكَ لَمَّا نِلْتَ مَالًا وَعَضَّنَا زَمَانٌ تَرَى فِي حَدِّ أَنْيَابِهِ سَعْبَا  
جَعَلْتَ لَنَا ذَنْبًا لَتَمْنَعُ نَائِلًا فَأَمْسِكْ وَلَا تَجْعَلْ غِنَاكَ لَنَا ذَنْبَا

وقال آخر:

نَالَ الْغِنَا بَعْدَ فَقْرٍ فَاسْتَغَاثَ بِهِ كَمَا اسْتَغَاثَ بِبَاقِي رَيْقِهِ الشَّرِيقُ  
وَإِذَا اخْتَجَجْتُ بِالْعِيَانِ فِي وَصْفِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فِي الْكَرَمِ وَاللُّؤْمِ فَقَدْ رَفَعْتُ  
الْمِرْيَةَ، وَإِذَا أَقَمْتُ الشَّاهِدَ عَلَى الدَّعْوَى فَقَدْ مَنَعْتُ مِنَ اللَّائِمَةِ، وَإِذَا أَرَيْتَ الضَّرُورَةَ  
فَقَدْ بَلَغْتَ الْغَايَةَ؛ وَأَيُّ خَفَقَةٍ لِلْقَلْبِ بَعْدَ الْيَقِينِ، وَأَيُّ وَحْشَةٍ لِلنَّفْسِ بَعْدَ الْاسْتَبْصَارِ،  
أَمْ أَيُّ بَقِيَّةٍ عَلَى الْمُحْتَجِّ إِذَا وَصَلَ الْبِرْهَانَ، أَمْ كَيْفَ يُسْتَحْيَا فِي الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، أَمْ  
كَيْفَ يُعْتَذَرُ مِنَ الصَّدَقِ وَإِنْ كَانَ مُوجِعًا.

هذا ما لا يُكَلِّفُهُ حَكِيمٌ، وَلَا يَأْمُرُ بِهِ مُرْشِدٌ، وَلَا يَحْتُ عَلَيْهِ نَاصِحٌ.

وهذا مَبْدَأُ أَخْذِي فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّادٍ عَلَيَّ مَا يَتَّفَقُ مِنْ تَرْبِيئِهِ وَوَضْعِهِ، غَيْرَ آخِذٍ فِي  
أَهْبَةِ، وَلَا مُحْتَفِلٍ بِتَقْدِمَةِ.

فَأَوَّلُ مَا أذْكَرُهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَدُلُّ بِهِ عَلَيَّ سَعَةَ كَلَامِهِ، وَفَصَاحَةَ لِسَانِهِ، وَقُوَّةَ جَأْشِهِ،

(١) رواه ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (٢/ ٣٣٠) وقال: منكر جداً. وقال الألباني: ضعيف جداً، انظر

السلسلة الضعيفة: (٥٩٦).

وشدة مُتَّه (١)، وإن كان في فحواه ما يدلُّ على رِقاَعته وانتكاث مَريرته (٢)، وُضعف حَوِّله، وركاكة عقله، وانحلال عقده.

لَمَّا رَجَعَ من هَمْدان سنةَ تسع وستين وثلاثمائة بعد أن فارق حَضْرَةَ عَضِدِ الدَّوْلَةِ استقبله النَّاسُ من الرِّيِّ وما يليها، واجتَمَعوا بساوَة (٣) ودونها وفوقها، وكان قد أعدَّ لكل واحدٍ منهم كلامًا يلقاه به عند رؤيته وأين كانوا يَقْعُون مِنْهُ، وأين كانوا يَبِينون عنده؛ وهذا الذي ذهب به في الإعجاب والكِبَر، وبعثه على احتقار النَّاسِ، وتركه في التَّيِّهِ المُضِلِّ.

فأولُّ من دنا منه القاضي أبو الحسن الهمدانيُّ وهو من قَرِيَةِ يقال لها أسد آباد (٤)، فقال له: أيُّها القاضي! ما فارقتك شوقًا إليك، ولا فارقتني وجَدًّا عليك، ولقد مرَّت بعدك مجالسُ كانت تقتضيك وتخطبك وترتضيك؛ ولو شهدتني بين أهلها وقد علوتهم ببياني ولساني وجدلي، لأنشدت قولَ حسان بن ثابت في ابن عباس ورأيتني أولَى به منه، فإنَّ حسان قال:

إذا ما ابنُ عباسٍ بدا لك وجهه رأيت له في كلِّ مجمعة فضلًا  
إذا قال لم يترك مقالًا لقائل بملتقطاتٍ لا ترى بينها فضلًا  
كفى وشفى ما في النفوسِ فلم يدع لذي إربةٍ في القولِ جدًّا ولا هزلًا  
سموت إلى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا دنيًا ولا وغلًا

ولذكرت أيضًا أيُّها القاضي قولَ الآخر وأنشدته؛ قال فيمن وقف موقفي، وقرف مقرفي، وتصرَّف مُتصرِّفي، وانصرف مُنصرِّفي، واغترَّف له مُغرِّفي:

إذا قال لم يترك مقالًا ولم يقف لعيٍّ ولم يثن اللسان على هجر

(١) المُتَّه: القوة.

(٢) المَرِيرَةُ: طاقة الحَجَل. عِزَّةُ النَّفْسِ. العزيمة. والجمع: مَرَائِر. والانتكاث: النَّقْضُ والحل.

(٣) ساوَة: مدينة بين الري وهمدان.

(٤) في معجم البلدان (أسداباذ) بالذال بدل الدال، وهي مدينة بينها وبين همدان مرحلة واحدة نحو العراق.

يُصْرَفَ بِالْقَوْلِ اللَّسَانَ إِذَا انْتَحَى وَيَنْظُرُ فِي أَعْطَافِهِ نَظَرَ الصَّقْرِ  
ولقد أودعتُ صدرَ عضدِ الدولة ما يطول به التفاتهُ إليّ، ويُدِيمُ حَسْرَتَهُ عَلَيّ، ولقد  
رأى ما لم يرَ قبله مثله، ولا يرى بعده شكّله؛ فالحمد لله الذي أوفدني عليه على ما  
يسرّ الوليّ، وأصدرني عنه على ما يسوء العدو.

أيها القاضي كيف الحال والنفس، وكيف الإمتاع والأنس، وكيف المجلس  
والدّرس، وكيف القرص<sup>(١)</sup> الجرس<sup>(٢)</sup>، وكيف الدس<sup>(٣)</sup> والدعس<sup>(٤)</sup>، وكيف  
الفرس<sup>(٥)</sup> والمرس<sup>(٦)</sup>. وكاد لا يخرج من هذا الهديان لتَهَبُّجِه واحتدَامِه، وشدة  
خِيَلَتِه وغُلُوَاتِه. والهمداني مثل الفارة بين يدي السنور قد تضاعل وقمؤ لا يصعد له  
نفس إلا بنزع تذللاً وتقللاً، هذا على كبره في مجلسه مع نذالته في نفسه.

ثم نظر إلى الزعفرانيّ رئيس أصحاب الرأي فقال:

أيها الشيخ! سرّني لقاؤك وساءني عناؤك وقد بلغني عداؤك<sup>(٧)</sup> وما خيّل إليك  
خِيَلَاؤُكَ، وأرجو أن أعيش حتى يردّ عليك غلواؤك. ما كان عندي أنك تُقدّم على ما  
أقدمت عليه، وتنتهي في عداوتك لأهل «العدل والتوحيد» إلى ما انتهيت إليه. ولي  
معك - إن شاء الله - نهاراً له ذيل، وليل يتبعه ليل، وثبور يتصل به ويل، وقطر يدوم  
معه سيل؛ ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقَبِيَ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٤٢].

قال الزعفراني: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(١) القرص: الإمساك بالجزء من اللخم ولويه بالأصابع، والمقصود هنا التجميش وهو المغازلة والملاعبة  
بالقرص.

(٢) الجرس: الأكل.

(٣) الدس: إدخال شيء تحت شيء.

(٤) الدعس: الطعن وشدة الوطء.

(٥) الفرس: مواصلة النساء.

(٦) المرس: الدلك.

(٧) عداؤك: غلظ خلقك وصعوبته.

ثم أبصر أبا طاهر الحنفي فقال:

أيها الشيخ، ما أدري أأشكوك أم أشكو إليك، أما شكواي منك فلأنك لم تكاتبني بحرف، حتى كأننا لم نتلاحظ بطرف، ولم نتحافظ على الف، ولم نتلاق على ظرف؛ وأما شكواي إليك فهو أنني ذممت الناس بعدك، وذكرت لهم عهدك، وعرضت بينهم وذك، وقدحت عليهم زندق، ونشرت عندهم غرائب ما عندك؛ فاشتاقوا إليك بتسويقي، واستصفوك بتزويقي، وأثنوا عليك بتنميقي وترويعي<sup>(١)</sup>؛ وهكذا عمل الأحاب إذا تناءت بهم الركاب، والتوت دونهم الأعناق، واضطرت في صدورهم نار الاشتياق.

فالحمد لله الذي أعاد الشعب ملتئمًا، والشمل منتظمًا، والقلوب وادعة، والأهواء جامعة؛ حمدًا يتصل بالمزيد، على عادة السادة مع العبيد، عند كل قريب وبعيد.

ثم التفت إلى ابن القطان القزويني الحنفي، وكان من ظرفاء العلماء، فقال: أيها الشيخ! كدت والله أحلم بك في اليقظة، وأشمم عليك دون الحفظة، لأنك قد ملكت مني غاية المكانة والحرمة. والله ما أسغت بعدك ريقًا إلا على جرض<sup>(٢)</sup>، ولا سلكت دونك طريقًا إلا على مَضَض، ولا وجدت للظرف سوقًا إلا بالعرض. سقى الله ربعًا أنت ساكنه بنزاهتك، وطبعًا أنت طابته ببراعتك، ومغرسًا أنت نبغه بنباهتك، وأصلًا أنت فرعه بفقاهاتك<sup>(٣)</sup>.

وقال للعباداني:

أيها القاضي! أيسرُك أن أشتاقك، وتسلو عني، وأن أسأل عنك فتسأل مني، وأن أكتبك فتغافل، وأطلبك بالجواب فتكاسل؛ وهذا ما لا أحتمله من صاحب

(١) ترويعي: تحسيني وتفضيلي.

(٢) جَرَضٌ فلانٌ بريقه: بلعه بعناء.

(٣) الفقاهاة: الفقه والفطنة.

خُرَّاسَان، وَلَا يَطْمَعُ مِنِّي فِيهِ مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ؛ مَتَى كُنْتُ مَنَدِيلاً لَيْدًا؟ وَمَتَى نَزَلْتُ عَلَى هَذَا الْحَدِّ لِأَحَدٍ؟ إِنْ انْكَفَأْتُ إِلَيْكَ بِالْعُذْرِ انْكَفَاءً، وَإِلَّا انْدَرَأْتُ<sup>(١)</sup> عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ انْدِرَاءً، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ مَعِيَ قَرَارٌ بِحَالٍ، وَلَا يَبْقَى لَكَ بِمَكَانِي اسْتِكْثَارٌ إِلَّا عَلَى وَبَالٍ وَخَبَالٍ.

ثم طلع أبو طالب العلوي فقال:

أَيُّهَا الشَّرِيفُ! جَعَلْتَ حَسَنَاتِكَ عِنْدِي سَيِّئَاتٍ، ثُمَّ أَضَفْتَ إِلَيْهَا هَنَاتٍ بَعْدَ هَنَاتٍ، وَلَمْ تَتَفَكَّرْ فِي مَاضٍ وَلَا آتٍ، أَضَعْتَ الْعَهْدَ وَأَخْلَفْتَ الْوَعْدَ، وَحَقَّقْتَ النَّحْسَ وَأَبْطَلْتَ السَّعْدَ؛ وَحُلْتَ سَرَابًا لِلْحَيْرَانِ، بَعْدَ مَا كُنْتَ شَرَابًا لِلْحَرَّانِ، وَظَنَنْتَ أَنَّكَ قَدْ شَبِعْتَ مِنِّي، أَوْ اعْتَضْتَ عَنِّي، هِيَهَاتَ! وَأَنْتَى لَكَ بِمَثَلِي، أَوْ بِمَنْ يَعْتَرِ فِي ذَيْلِي، أَوْ لَهُ نَهَارٌ كَنَهَارِي أَوْ لَيْلٌ كَلَيْلِي؟

«وَهَلْ عَائِضٌ مِنِّي، وَإِنْ جَلَّ، عَائِضٌ»

أَنَا وَاحِدٌ هَذَا الْعَالَمِ، وَأَنْتَ بِمَا تَسْمَعُ عَالِمٌ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ. أَيُّهَا الشَّرِيفُ! أَيْنَ الْحَقُّ الَّذِي وَكَّدْنَاهُ أَيَّامَ كَادَتِ الشَّمْسُ عَنَا تَزُولُ؟ وَالزَّمَانُ عَلَيْنَا يَصُولُ، وَأَنَا أَقُولُ، وَأَنْتَ تَقُولُ، وَالْحَالُ بَيْنَنَا يَحُولُ؟ سَقَى اللَّهُ لَيْلَةَ تَشْيِيعِكَ وَتَوْدِيعِكَ، وَأَنْتَ مَتَنَكَّرٌ تَنَكَّرًا يَسُوءُ الْوَلِيَّ، وَأَنَا مَفَكَّرٌ تَفَكَّرًا يَسُرُّ الْعَدُوَّ، هَذَا وَنَحْنُ مَتَوَجِّهُونَ إِلَى وَرَامِينَ<sup>(٢)</sup> خَوْفًا مِنْ ذَلِكَ الْجَاهِلِ الْمَهِينِ، يَعْنِي بِالْجَاهِلِ الْمَهِينِ ذَا الْكِفَايَتَيْنِ حِينَ أَخْرَجَهُ مِنَ الرَّيِّ بَعْدَ أَنْ أَلَّبَ عَلَيْهِ وَكَادَ يُؤْتِي عَلَى نَفْسِهِ الْخَبِيثَةَ، وَهُوَ حَدِيثٌ لَهُ فَرَشٌ، وَمَا أَنَا بِصَدَدِهِ يَمْنَعُ مِنْ اقْتِصَاصِهِ، وَلَعَلَّهُ يَجْرِي عَلَى وَجْهِهِ فِيمَا بَعْدُ. وَلَقَدْ ظَلَمَ بِقَوْلِهِ، وَكَانَ بِالْجَهْلِ وَالْمَهَانَةِ أَحَقَّ، وَسَيَمَّرُ مَا يَدُلُّ عَلَى قَوْلِي وَيُصَحِّحُ حُكْمِي، وَيَبَيِّنُ لَكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا الْجَدُّ الْمُسَاعِدُ فَقَطْ، وَبَاقِي ذَلِكَ تَشْبَعٌ وَإِبْهَامٌ وَتَمْوِيهِ وَكَذِبٌ وَبَهْتٌ وَوَقَاحَةٌ.

(١) اندرأت: اندفعت.

(٢) ورامين: بلدة في نواحي الرّي.

ثم نظر إلى أبي محمد كاتب الشروط فقال:

أيها الشيخ! الحمد لله الذي كفانا شرَّك، ووقانا عُرَّك، وصرف عنا ضُرَّك، وأرانا  
فِيحَك وحرَّك؛ دببت الضراء لنا، ومشيت الخمر<sup>(١)</sup> علينا، ونحن نحيس لك الحيس<sup>(٢)</sup>  
ونصيفك باللبابة والكيس، ونقول ليس مثله ليس، وأنت في خلال ذلك تقابلنا بالوئح  
والويس<sup>(٣)</sup>؛ لولا أنك قرحان<sup>(٤)</sup> لسقط العشاء<sup>(٥)</sup> بك متا على سرحان<sup>(٦)</sup>.

وقال لابن أبي خراسان الفقيه الشافعي:

أيها الشيخ! ألغيت ذكرنا عن لسانك، واستمرت على الخلوة بإنسانك، جارياً  
على نسيانك، مُستهتراً بفتياتك وافتنانك، غير عاطفٍ على إخوانك وأخذانك. لولا  
أنني أرعى قديماً قد أضعته، وأعطيتك من رعايتي ما قد منعتك، لكان لي ولك حديث،  
إما طيب وإما خبيث؛ خلقتك محتسباً فخلقت مكتسباً، وتركتك أمراً بالمعروف.  
فلحقتك راكباً للمنكر، قد يفيل<sup>(٧)</sup> الرأي ويخيب الظن، ويكذب الأمل، وقد قال  
الأول:

(١) الخمر: ما وارى الشيء من شجر أو بناء أو جبل أو نحوه.

(٢) الحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعبن وتسوَّى كالتريد.

(٣) وئح: كلمة توجع وترحم وإظهار الشفقة، تستعمل منونة وغير منونة، وقيل: هي بمعنى ويل. ويس: كلمة  
تستعمل في موضع رافة واستملاح، ويسه ما أمْلحُه، ويسا له، ويس له.

(٤) قرحان: مسه القرح.

(٥) العشاء: مقصور العشاء.

(٦) السرحان: الذئب، أو اسم رجال من الفتاك. وفي المثل: «سقط العشاء به على سرحان» وأصله أن رجلاً خرج  
يلتمس العشاء، فوقع على ذئب فأكله، وقال الأصمعي: أصله أن دابة خرجت تطلب العشاء، فلقيها ذئب  
فأكلها. وقال ابن الأعرابي: أصل هذا أن رجلاً من غني يقال له سرحان بن هزلة كان بطلاً فاتكاً يتقيه الناس،  
فقال رجل يوماً: والله لأرعىن إبلي بهذا الوادي، ولا أخاف سرحان بن هزلة، فورد بإبله ذلك الوادي، فوجد  
به سرحان وهجم عليه فقتله، وأخذ إبله، وقال:

أبلغ نصيحة أن راعي أهلها سقط العشاء به على سرحان  
سقط العشاء به على متقمر طلق اليمين معاود لطمعان

ويضرب هذا المثل في طلب الحاجة يؤدي صاحبها إلى التلف. (مجمع الأمثال: ١/ ٣٢٨).

(٧) فال الرأي: أخطأ وضعف.

أَلَا رَبُّ مَنْ تَعْتَشُّهُ لَكَ نَاصِحٌ وَمَوْثَمِنٌ بِالْغَيْبِ وَهُوَ ظَنِينٌ

ثم نظر إلى الشادياشي فقال:

يا أبا علي! كيف أنت وكيف كنت؟

فقال: يا مولانا،

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن  
فقال: اغرب يا ساقط يا هابط، يا من يذهب إلى الحائط بالغايط، ليس هذا من  
نحت يدك ولا هو مما نشأ من عندك، هذا لمحمد بن عبد الله بن طاهر، أوله:

كُتِبَتْ تَسْأَلُ عَنِّي كَيْفَ كُنْتُ وَمَا لَاقَيْتَ بَعْدَكَ مِنْ غَمٍّ وَمِنْ حَزَنِ  
لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن  
وكان ينشد وهو يلوي رقبته، ويحفظ حدقته، ويُنزِي أطراف منكبه ويتسائل<sup>(١)</sup>  
ويتمايل، كأنه ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم قال: يا أبا علي! لا تُعَوِّلْ عَلَى أَيْرٍ فِي سَرَاوِيلِ غَيْرِكَ، لَا أَيْرٍ إِلَّا أَيْرٌ تَمَطَّى تَحْتَ  
عَانَتِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ عَوَّلْتَ عَلَى ذَلِكَ خَانَكَ وَشَانَكَ، وَفَضَحَ خَانَكَ وَمَانَكَ<sup>(٢)</sup>.

ثم نظر إلى غلام قد بقل وجهه كان يُتَهَمُ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَبْيَحِ، فَالْتَوَى وَتَقَلَّقَلَ،  
وقال: اذُنْ يَا بُنَيَّ! كَيْفَ كُنْتَ؟ وَلَمْ حَمَلْتَ عَلَى نَفْسِكَ هَذَا الْعِنَاءَ؟ وَجْهَكَ هَذَا الْحَسَنَ  
لَا يُبْتَدَلُ لِلشُّحُوبِ، وَلَا يُعْرَضُ لِلْفَحَاتِ الشَّمْسِ بَيْنَ الطُّلُوعِ وَالْغُرُوبِ، أَنْتَ يَجِبُ  
أَنْ تَكُونَ فِي بَذْلَةٍ<sup>(٣)</sup> بَيْنَ حَجَلَةٍ وَكِلَّةٍ<sup>(٤)</sup>، تُزَاحُ بِكَ الْعِلَّةُ، وَتُعْلَا فِيكَ الْقُلَّةُ، وَتُشْفَى  
مِنْكَ الْعُلَّةُ.

(١) يتسائل: مفاعلة من سال.

(٢) الخان: مكان نزول التجار: مانك: كذبك.

(٣) البذلة: الثياب.

(٤) الحجلة: مثل القبة، وحجلة العروس: بيت يزین بالثياب والأسرة والستور. والكيلة: الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البق والبعوض.

هذا آخرُ حديث الاستقبال، وقد حذفتُ منه أشياء كثيرةً من رقاعاته، لأنَّ العَرَضَ غير مَقْصُورٍ عَلَيَّ فَنِّ واحدٍ من حديثه.

وقال يوماً في دارِ الإمارة لفيروزان المَجُوسِي، وكان الخرائطي حاضراً، في شيءٍ نابذه عليه: إنما أنت مخش (١) مجش (٢) محش (٣) لا تهش ولا تبش ولا تَمْتَش (٤).

فقال له فيروزان: أيها الصَّاحِب! برئتُ من النارِ إن كنتُ أدري ما تقول، إن كان من رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم، فإن العَرَضَ لك، والنَّفْسُ فداؤك، لست من الزَّنج، ولا من البربر، ولا من الغز، كلُّمنا بما نعقل على العادة التي عليها العمل. والله ما هذا من لغة آبائك الفرس، ولا لغة أهل دينك من هذا السَّواد. فقد خالطنا الناسَ فما سمعنا منهم هذا النَّمَط، وإني أظنُّ أنك لو دعوت الله بهذا الكلام لما أجابك، ولو سألته لما أعطاك، ولو استغفرت الله به ما غفر لك؛ وحقيقٌ على الله ذلك.

فقال الخرائطي: أيها الصَّاحِب! والله لقد صدق فلا تغضب، فليس كل من وثق بأنه لا يرجع في قوله وفعله ركب ما يحمق فيه شاهداً وغائباً.

فقامَ عنهما خزيان يُردُّ ريقه حقداً عليهما، وكان ذلك سبباً كبيراً في فساد أمرهما. وقلتُ للزَّعفراني الشاعر، وكان من أهل بغداد: اصدقني أيها الشيخ عن هذا الإنسان، كيف وجدته في طول ما عجمت عودهُ، وتصفحت أخلاقه، وخبرت دخلته. فقال: وجدته كليل الكرم، حاد اللؤم، رقيق الظاهر، مُريب الباطن، دَنَس الحَيْب، مُثرياً من العيب، كأنه خلق عبثاً مما ملئ خُبثاً؛ سفهه ينفى حكمة خالقه، وغناه يدعو إلى الكفر برازقه. وأنا أستغفر الله من قولي فيه ونفاقي معه. ولعن الله الفقر فهو الذي يُحيل المروءة، ويقدم في الديانة. ولو كان لي ببغداد قوتٌ يحفظ عليَّ ماء الوجه ما

(١) المخش: الرجل الجريء.

(٢) المجش: الرحي.

(٣) المحش: ما تحرك به النار.

(٤) متش الناقة: حلبها بأصابعه حلباً رقيقاً، والمعنى في هذه الكلمات جميعاً: إنك خشن الطبع لا ليونة فيك.

صبرت على هذا الرزق البارد المجنون المطاع ساعة، ولكن ما أصنع؟ قد قلبت أمري  
ظهراً لبطن، ما لي إلى الرزق باب إلا منه، وأنشد:

وَالرِّزْقُ كَالْوَسْمِيِّ رُبَّمَا عَدَا رَوْضَ القَطَا وَسَقَى مَهَامَةً جِلَّقِي (١)  
فَإِذَا سَمِعْتَ بِحُؤُولٍ مَتَأَلَهُ مَتَأَدَبَ فَهُوَ الَّذِي لَمْ يُرَزَّقِ (٢)  
وَالرِّزْقُ يَخْطِئُ بَابَ عَاقِلٍ قَوْمِهِ وَيَبِيتُ بَوَابًا لِبَابِ الأَحْمَقِ  
وَأُنشِدُ أَيْضًا:

الرِّزْقُ قَدْ يَأْتِيكَ فِي وَقْتِهِ وَالْحَرِصُ لَا يُغْنِي وَلَا يُجْدِي  
كَمْ قَاعِدٍ يَبْلُغُ مَأْمُولَهُ وَطَالِبٍ مُضْطَرِبٍ يُكْدِي  
فَاسْتَرِزِقِ الرَّازِقَ مِنْ فَضْلِهِ وَارْضَ بِمَا يُؤَلِّيكَ مِنْ رِفْدِ  
وِثْقٍ بِإِحْسَانٍ لَهُ وَاسِعٍ فَهَكَذَا عَادَاتُهُ عِنْدِي  
وَأُنشِدُ الْقَرْمِسِينِي (٣) قَالَ: أَنشَدْنَا عَلِيٌّ بْنُ سَلِيمَانَ الأَخْفَشَ لِشَاعِرٍ:

قَدْ يُرَزَّقُ المَرْءُ لَمْ تَتَّعَبْ رَوَاحِلُهُ وَيُحْرَمُ الرِّزْقَ مَنْ لَمْ يَوْتِ مِنْ تَعَبِ  
يَا ثَابِتَ العِقْلِ كَمْ عَايَنْتَ ذَا أَدَبِ الرِّزْقِ أَعْدَى لَهُ مِنْ ثَابِتِ الجَرَبِ  
وَإِنِّي وَاجِدٌ فِي النَّاسِ وَاحِدَةً الرِّزْقِ وَالتُّوكُ مَقْرُونَانِ فِي نَسْبِ (٤)  
وَخَصَلَةٌ قَلَّ فِيهَا مَنْ يُنَازِعُنِي الرِّزْقَ أَرَوْعُ شَيْءٍ عَنِ ذَوِي الأَدَبِ  
وَقُلْتُ لِلْمَسِيبي: مَا قَوْلُكَ فِي ابْنِ عِبَادٍ؟

فَقَالَ: لَهُ فِي الخَلَاعَةِ قرآنٌ مُعْجِزٌ، وَفِي الرِّقَاعَةِ آيَةٌ مُنْزَلَةٌ، وَفِي الحَسَدِ عِرْقٌ ضَارِبٌ،

(١) رَوْضُ القَطَا: موضع بأرض اليمامة كثر ذكره في أشعارهم. وجيلق: دمشق أو الغوطة.

(٢) حُؤُولٌ: بصير بالأمر، وذو تصرف واحتيال.

(٣) قال عنه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢ / ١٢٠): علي بن هارون بن نصر أبو الحسن النحوي المعروف بالقرمسيني.. توفي في جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة قال وكان عنده عن أبي الحسن الأخفش أشياء كثيرة وسمعت منه، وكان ثقة جميل الأمر، وكان مولده سنة تسعين ومائتين وكان جارنا بالرحبة.

(٤) التوك: الحمق.

وفي الكذب عارٌ لازِب؛ لا يَنْزِعُ عن المساويِ إِلَّا مَلَلًا، ولا يَأْتِي الخَيْرَ إِلَّا كَسَلًا. ظاهرُهُ ضلالةٌ، وباطنه جهالةٌ، وليس له في الكرم دلالةٌ، ولا في الإحسانِ إِلَى الأحرارِ آلةٌ. فسبحان مَنْ خلقه غيظًا لأهل الفضل والأدب، وأعطاه فيضًا من المال والنسب!

وقلت لأبي بكر الخوارزمي<sup>(١)</sup> الشاعر، وكان قد خَبَرَهُ:

كيف وَجَدتِ الصاحب، وقد أعطاك وأولاك وقَدَّمك وآثرك، وسفر لك إِلَى عضد الدولة، وهو اليوم شاهُ الملوك، حتى مَلأتِ عِيابك تَبْرًا، وحقائبك ثيابًا، وَرَواحلك زادًا؟

فقال: دَعَنِي مما هنالِكَ، واللَّهِ إِنَّه لَخَوَّارٌ في المكارم، صَبَّارٌ عَلَى الملائم، زَحَّافٌ إِلَى المائِم، سَمَّاعٌ لِلنَّمائم، مِقْدامٌ عَلَى العِظائم. يدعُو إِلَى «العدل والتوحيد»، ويدَّعي «الوعد والتخليد»، ثم يخلو باستعمال الأيُّور، ويشتمل عَلَى الفسوق والفجور، وَيُسمِّي وهو بُور<sup>(٢)</sup> وَيُصبح وما على وَجْهه نور.

وكان الخوارزمي من أَفصحِ الناس، ما رَأينا في العجم مثله، وإِنما نَوَّلَهُ الصاحب ما نَوَّلَهُ، وخَوَّلَهُ ما خَوَّلَهُ، لأنَّهُ كان أَذْكَاهُ عِينًا عَلَى محمد بن إبراهيم صاحب الجيش بنيسابور، واستملى منه أخبار المشرق، وبهذا المعنى استدرَّ له من مَلِكِ بَغدادِ بوساطة ابن يوسف<sup>(٣)</sup>، وكان الظاهر أَنَّهُ إِنما يعطيه لأدبه، ويجيزه لشعره، ويصطفيه لفضله.

ولقد قلت للزعفراني:

أَرى الخوارزميَّ سَيِّئَ الرَّأْيِ في ابن عبادٍ مع ما يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْهُ، فما السببُ؟

(١) محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر: من أئمة الكتاب، وأحد الشعراء العلماء. كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب. وهو صاحب الرسائل (ط) المعروفة برسائل الخوارزم. وقد كان الخوارزمي شاعرًا، ولكن ديوانه ضاع، ولم يبق من شعره إِلَّا القليل. لا يُعرف بالضبط متى، أما موته ففيه خلاف؛ فمن قائل: إنه توفي سنة ٣٨٣ هـ، ومن قائل: إنه توفي سنة ٣٩٣ هـ، وسمي الخوارزمي؛ لأن أباه من خوارزم.

(٢) بُور: هالك فاسد لا خير فيه.

(٣) هو عبد العزيز بن يوسف الكاتب.

فقال:

ابن عبّاد سيئُ السياسة لصنائه، وذلك أنه يُعطي الإنسان عطيةً ما، ثم يبلّوه بجفاءٍ يَتَمَتَّى معه لَقَطَ النوى من السِّكِّ، والمصنَّع الكريم هو الذي يكون اصطناعه بلسانه فوق اصطناعه بيده؛ وإني أحدثك ببعض ما عامل به الخوارزمي ليصحَّ لك القياسُ عليه، والتعجب منه.

حضّر الخوارزمي يوماً، وجَرَى حديث القَافَة<sup>(١)</sup>، فقال الخوارزمي:

دخل مجزر المدلجِي<sup>(٢)</sup> عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر إلى أقدام أسامة، وزيد، فقال: هذه أقدامُ بعضُها من بعض، وصَحَّفَ البائس كما يُصَحِّفُ الناس، العلماءُ فَمَن دونهم، وكان ابنُ عبّادِ عَلَى بركة، فما زالَ يَدُورُ حَوْلَ البركة وهو يَصْفَعُ الخوارزمي ويقول: محرز؟ بحياتي؟ إلى أن رَعَفَ الخوارزمي فتنحى وخرَجَ. فهذا وما دانه هو الذي كان يُفسد به ما يفعله من الخير والبر.

وحدَّثني بذكورِ أبي بكرٍ عيناً بخراسان أبو الطيبِ النصراني، وكان علي السَّرِّ عند مؤيد الدولة وكان يعرف من مخازي ابن عبّادِ عجائب؛ سمعته يقول: لو بُحِثَ بما في نفسي من حديث هذا المأبون لتصدَّع الجبل، ولتقلَّع الجنَدَل.

وكان ابن عبّادٍ شديدَ السَّفَه عَجيبَ المناقضة، سريعَ التحوُّل من هيئةٍ إلى هيئة، مستقبلاً للأحرار بكل فِرْيَةٍ وفاحشة. كان يقول للإنسان الذي قد قدم عليه من أهل العلم: تقدِّم يا أخي! وتكلِّم، واستأنس، واقترح، وانبسط، ولا تُرَع، واحسبني في جوف مرقعة، ولا يهولك هذا الحشَم والخَدَم، وهذه الغاشية والحاشية، وهذه المرتبة والمِسْطَبَة وهذا الطاق والرَّواق، وهذه المجالس والطنافس؛ فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية، وشرف العلم أعلى من شرف المال، فليفرِّخ روعك ولينعِمْ بالك،

(١) القَافَة: جمع (قائف) وهو من يتتبع الأثر ويعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود والوالد.  
(٢) هو ابن الأعور بن جعدة الكناني المدلجِي القائف. كان إذا أسر أسيراً جز ناصيته وأطلقه فسمي مجزراً.

وَقُلْ مَا شِئْتُ، وَانصُرْ مَا أَرَدْتُ، فَلَسْتُ تَجِدُ عِنْدَنَا إِلَّا الْإِنصَافَ وَالْإِسْعَافَ وَالْإِتْحَافَ  
وَالْإِطْرَافَ، وَالْمُقَارَبَةَ وَالْمَوْاهِبَةَ، وَالْمَوَانِسَةَ وَالْمُقَابِسَةَ، وَعَلَى هَذَا التَّنْزِيلَ، وَمَنْ كَانَ  
يَحْفَظُ مَا يَهْدِي بِهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ؟

حتى إذا استقى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والحيل، وسأل الرجل معه  
في حذوره على مذهب الثقة، وركب في مناظرته، وردعه وحاجه، وراجعه وضاجعه  
وشاكعه<sup>(١)</sup> ووضع يده على النكتة الفاصلة، والأمر القاطع تنمر له، وتنغر عليه<sup>(٢)</sup>،  
واستحصد غضباً وتلظى لهباً، وقال بعض وثبتين أو ثلاث: يا غلام! خذ بيد هذا  
الكلب إلى الحبس، وضعه فيه بعد أن تصب على كاهله وظهره وجنيه خمس مئة  
عصا؛ فإنه معاند ضد، يحتاج إلى أن يُشدَّ بالقد، ساقط هابط، كلبٌ تباح، متعجرف  
وقاح<sup>(٣)</sup>؛ أعجبه صبري، وغره حلمي، ولقد أخلف ظني، وعُدت على نفسي من أجله  
بالتويع، وما خلق الله العصا باطلاً، ولا ترك خلقه هاملاً.

فيقام ذلك البائس على هذه الحال التي تسمع، على أن مسموعك دون مشاهدتك  
لو شاهدت، ومن لم يحضر ذلك المجلس لم يرَ منظرًا ربيعاً ورجلاً ربيعاً؛ قد عامل  
بما وصفت الحريري غلام ابن طرارة والجامدي الشاعر الوارد عليه من البصرة، وأبا  
زيد الكلابي وغيرهم.

وكان أبو الفضل أعني ابن العميد إذا رآه<sup>(٤)</sup> يقول: أحسب أن عينيه ركبنا من زئبق  
وعنقه عمل بلولب.

وصدق، لأنه كان طريف الشني والتلوي، شديد التفكك والتفتل، كثير التعوج  
والتموج، في شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة، والمخنث الأسمط.

(١) شاكعه: غاضبه.

(٢) تنغر عليه: تنكر وتدمر.

(٣) رجل وقاح الوجه: قليل الحياء، وامرأة وقاح الوجه: كذلك.

(٤) الضمير في (رآه) يعود على ابن عباد.

وسمعتُ أبا الفضل الهَرَوِي يقول له يوماً: لو وُضِعَ في خِزانةِ الكتبِ للوقوفِ شيءٌ من الطَّبِّ لكان ذلك باباً من المنافعِ الحاضرةِ والفوائدِ المعجَّلةِ والخيرِ العامِّ. فقال على حَدِّثه وجنونه: الطَّبُّ - يا أبا الفضل - سُلِّمَ الإلحادِ، ولقد أُسْرِرَتْ في هذا القولِ حَسَواً في ارتغاءٍ<sup>(١)</sup>، أنتَ مُهندِسٌ، وأنتَ مَتَّهَمٌ، ويكفي منك في هذا المعنى ما هو دون هذا.

فانخزل الهَرَوِي وكان جَباناً، وأخذ يتلافى ما فرطَ منه.

قال أصحابنا بالرِّيِّ: وكيف يسوغ له أن يقولَ هذا، وهو يُشاوِر الطَّيِّبَ في كلِّ غداةٍ، ويعتمدُ على الطَّبِّ في كلِّ عارضٍ، ويجمَعُ الكتبَ فيه، ويرجعُ إليه. قالوا: وليسَ هذا بأعجَبَ من عيبه لعلمِ النجومِ وذمِّه لأهله، وهو لا يُفارقُ التَّقويمَ، ولا يخلو يوماً من النَّظَرِ فيه مرَّاتٍ؛ لأنَّه كان لا يركبُ إذا وَجدَ نَحَساً، هذا على تَقليده فيه، لأنَّه ما كان يَعْرِفُ حرفاً من علمِ النَّجُومِ، لا على طَريقةٍ مَنْ يَنْظُرُ في أَحكامه، ولا على مَذهَبٍ مَنْ يَخْتارُه لهيئته، فَهَلْ رأيتَ بَهْتاً أشدَّ من هذا؟ ومناقضةً أَقْبَحَ من هذا؟ يذمُّ شيئاً في الظاهرِ، ثم يحبُّه في الباطنِ، ويؤدُّه غيرَه في شيءٍ وهو يُؤثِّره.

وكان من ضَعْفِ عَقْلِهِ يقول: يجوزُ أن يكونَ الفلَّكُ من سَلْجَمٍ أو جَزَرٍ أو فِجَلٍ. قال هذا للصَّاعِغاني أبي حامدٍ ونَحْنُ حُضُورٌ، وهو معَ هذا العَقْلِ السَّخِيفِ يَطْلُبُ كِتَابَ الأوائِلِ ويجمَعُها، وينظُرُ فيها، ويشتهي أن يفتَحَ فاتحَ عليه شيئاً منها في السِّرِّ، وعلى وَجهِ التَّهجينِ لا على وَجهِ التَّقْبُلِ، ويقول في أبي الحَسَنِ العامريِّ: قال الخرائي كذا وكذا، وإذا خلا نظر في كُتُبِهِ ومصنَّفاته، وكان أخذها من أبي الحَسَنِ الطَّبْرِي طيِّبِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ، وكان معَ هذا المذهبِ الذي يُدَلُّ به ويُسمِّيهِ «العدل والتوحيد» قليل التوجُّهِ إلى القِبلةِ، قليل الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، وكان معَ حِفْظِهِ العَزيزِ، عليه مؤونة في

(١) «يسرَّ حَسَواً في ارتغاء»، ويضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيرَه، يعني يحسو اللبن وهو يظهر أنه يريد رغوته فقط. (اللسان: مادة رغا).

تلاوة آية من كتاب الله عز وجل، إذا أراد أن يستدل بها في المناظرة والجدل، أو يذكر وجهًا من وجوهها في المذاكرة، ولم يكن عليه طابع العبادة، ولا سيما المتألهين، وكان مع ذلك سفاكًا للدماء، قتالًا للنظرَاءِ والأكفَاءِ، وكان شديد الحسد لأهل الفضل والدراية، ولأصحاب الحفظ والرواية، وكان جُلُّ حسده لمن كتب فأحسن الخطَّ وأجاد اللفظ، وتأتى للرسم وملح في الاستعارة. وكان إذا سمع من إنسان كلامًا منظومًا، ومعنى قويًا، ولفظًا مسجوعًا، ونثرًا مطبوعًا، وبيانًا بليغًا، وغرضًا حكيماً انتقض طباعه، وذهب عليه أمره، وتبدد حلمه، وزال عنه تماسكه، والتهب كأنه نار، واضطرب كأنه شرار، وحدث نفسه بقتله أو نفيه أو إغرامه وإبعاده وحرمانه.

قلت للتميمي الشاعر المصري المعروف بالرغيب: كيف ترى هذا الرجل، أعني ابن عباد؟

فقال: طويل العنان في اللؤم، قصير الباع في الكرم، وثابًا على الشر، مُقعدًا عن الخير، كافرًا بالنعم، متحرشًا بالنقم، جباهاً بالمكروه، سفيهاً في الجملة، خليعاً في التفصيل.

قلت: أين هو من صاحبكم بمصر، أعني ابن كلس؟

فقال: ذاك رجل له دار ضيافة، وله زوار كالقطر، لا يعرف محكًا ولا لجاجًا ولا مجادلة، ولا كيدًا ولا مُخاتلة، يعطي على القصد والتأمل، والرجاء والتوجه. والطمع والطلب وسائر الوسائل، عنده بعد هذه الأوائل، فضلٌ يستحق به الزيادة، وليس هناك امتحانٌ ولا محاسبةٌ ولا احتجاجٌ ولا تغيير، المال مصبوب، والخازن قائم، والمُفرِّق مُجَزَّفٌ<sup>(١)</sup>، والنداء عال، والواصل موصول، والمؤمل مشكور، والراحل شاكر؛ ووزارة ذاك نيابة عن خلافة، ووزارة هذا خلافة عن عمالة.

هل ترى هاهنا صلة ترتفع عن مئة درهم إلى ألف؟

(١) مُجَزَّفٌ: يعطي جزافاً دون حساب.

أليسَ أنبلُ مَنْ وردَ عليه البديهي وهو شيخه في العروض، وعنه أخذ القوافي، وبفتحه وهدايته قال الشعر؟ هل زاده في طول مُقامه إلى رَحيله على خمسة آلاف درهم تفاريق؟ وإنَّ أقلَّ ضيفٍ بمصرَ يصيرُ إليه مثلُ هذا في أول يوم.

وقد سألتُ جماعةً من سادة الناس عنه، وحصلت عن كل واحد منهم جواباً يمر بك فيما تستقبل، وأذكر هاهنا أشياءً حدّثني بها بطائنته وخدمه.

حدّثني الجرفادقاني أبو بكر وكان كاتب داره، قال:

يبلغ من سُخنة عين صاحبنا أنه لا يسكت عما لا يعرف، ولا يسأم نفسه فيما لا يفي به ولا يكمل له، ويظن أنه إن سكت عنه فطن لنقصه وإن اختال وموه جاز ذلك وخفي واستتر ولم يظهر، ولم يعلم أن ذلك الاحتيال طريقٌ إلى الإغراء بمعرفة الحال، وصدق القائل: كاد المريب يقول: خذوني.

قلت له: وما الذي حدّاك على هذه المقدّمة؟

قال: قال لي في بعض هذه الأيام: ارفع حسابك فقد أخرتَه وقصّرت فيه واغتنمت سكوتي وشغلي بتدبير المُلك وسياسة الأولياء والجُند، والرعايا والمدن، وما عليّ من أعباء الدولة وحفظ البيضة ومُشاركة الأطراف النائية والدّانية باللسان والقلم، والرأي والتدبير، والبسط والقبض، والإبرام والنقض، وما على قلبي من الفكر في الأمور الظاهرة والغامضة؛ وهذا لعمري باب مُطمع وإمساكي عنه مُغرٍ بالفساد مُولع، فبادر عافاك الله إلى عمل حساب بتفصيل باب بابٍ تبين فيه أمر داري، وما يجري عليه دخلي وخرجي.

قلت له: وهذا كله بسبب قوله هات حسابك بما تُراعيه؟

قال: إي والله! ولقد كان أكثر منه وإنما اختصرته.

وصدق هذا الكاتب، كان يأخذ طرفاً من الحديث فيمدّه إلى الفلّك بالغثاثة والجهل والهذر.

قال أبو بكر: فتفردتُ أياماً وحررتُ الحسابَ على قاعدته وأصله والرسم الذي هو مألوف بين أهله، وحملته إليه، فأخذه من يدي وأمرَ عينه فيه من غير تثبت أو فحص أو مسألة، ثم حذف به إليّ وقال: أهدا حساب، أهدا كتاب، أهدا تحرير، أهدا تقرير، أهدا تفصيل، أهدا تحصيل؟ والله لولا أني قد ربّيتك في داري، وشغلت بتخريجك ليلى ونهاري، ولك حرمة الصبا، وتلزمُني رعاية الأبناء، لأطعمتُك هذا الطومار<sup>(١)</sup>، وأحرقتُك بالنفط والنار، وأدبتُ بك كل كاتبٍ وحاسب، وجعلتُك مُثلةً لكل شاهد وغائب.

أمثلي يُموه عليه، ويُطمع فيما لديه، وأنا خلقتُ الكتابة والحِسابه، والله ما أنام ليلةً إلا وأحصّل في نفسي ارتفاع العراق ودخل الآفاق. أغرك مني أني أجررتك رسنك<sup>(٢)</sup>، وأخفيتُ قبيحك وأبديتُ حسنك؟

غير هذا الذي رفعت، واعرف قبل وبعد ما صنعت، واعلم أنك من الآخرة قد رجعت فزد في صلاتك وصدقتك، ولا تعول على قحتك وصلابة حدقتك.

قال: فوالله ما هالني كلامه، ولا أحاك<sup>(٣)</sup> في هديانه، لأنني كنت أعلم جهله بالحساب، ونقصه في هذا الباب، فذهبتُ، وأفسدت و قدّمت وأخرت، وكأيدت وتعمّدت؛ ثم ردّده إليه فنظر فيه، ثم ضحك في وجهي وقال: أحسنت بارك الله عليك، هكذا أردت، وهذا بعينه طلبت، ولو تغافلُ عنك أول الأمر لما تيقّظت في الثاني.

فهذا كما ترى، أعجب منه كيف شئت.

ومن رقاعاته أيضاً: سمعته يقول يوماً، وقد جرى حديث الأبهري المتكلم، وكان

(١) الطومار: الصحيفة.

(٢) تقول العرب: أجررت فلاناً رسنه: أي أمهلت له في إرادته وتركته على هواه.

(٣) أحاك، حاك: أتر. وما أحاك سيفه: ما قطع. وما أحاكته أسناني، وما أحاكته فيه.

يُكنى أبا سعيد<sup>(١)</sup>، فقال: لعن الله ذلك الملعون المأبون المأفون؛ جاءني بوجه مكَّح<sup>(٢)</sup>، وأنف مُفلطح<sup>(٣)</sup>، ورأس مُسْفَح<sup>(٤)</sup>، وذقن مُسْلَح، وسُرْم مُفْتَح، ولسان مُبَلَّح<sup>(٥)</sup>، فكلَّمني في مسألة الأصلاح، فقلتُ له: اغرب عليك غضبُ الله الأترح<sup>(٦)</sup>، الذي يلزم ولا يبرح.

وشتم يوماً رجلاً فقال: لعن الله هذا الأهوج الأعوج، الأفلج<sup>(٧)</sup> الأفحج<sup>(٨)</sup>، الذي إذا قام تحلَّج<sup>(٩)</sup>، وإذا مشى تدحرج، وإن عدا تفجفج<sup>(١٠)</sup>.

بالله يا أصحابنا حدثوني، أهذا عقل رئيس، أو بلاغة كاتب، أو كلام متماسك؟ لم تجنّون به، وتتهالكون فيه، وتغيظون أهل الفضل به؟ هل هناك إلا الجَدّ الذي يرفع من هو أنذل منه، ويضع من هو أرفع منه؟

ولقد حدثتُ بهذا الحديث أبا السلم الشاعر، فأنشدني لشاعر:

(١) هو القاسم بن علقمة، أبو سعيد الأبهريّ الشروطيّ، شيخ عالي الإسناد، أكثر الرواية عنه أبو يعلى الخليلي، توفي سنة ٣٨٨ هـ.

(٢) مكَّح: عابس.

(٣) مفلطح: عريض.

(٤) مسْفَح: أي أصلع.

(٥) مُبَلَّح: كال وعاجز.

(٦) الأصلاح: ضد الفساد، وكل ما عرى من الفساد؛ فهو صلاح؛ وهو الفعل المتوجه إلى الخير من قوام العالم وبقاء النوع في العاجلة، والمؤدي إلى السعادة السرمدية في الآخرة. أما الأصلاح: فهو ما إذا كان هناك صلاحان وخيران، وكان أحدهما أقرب إلى الخير المطلق، فإنه يكون الأصلاح.

ويرى المعتزلة في الصلاح والأصلاح أن الله لا يفعل بالعباد كلهم إلا ما هو أصلح لهم في دينهم وأدعى لهم إلى العمل بما أمرهم به، وأنه لا يدخر عنهم شيئاً يعلم أنهم يحتاجون إليه في أداء ما كلفهم به. وهو أصل طال واحتد فيه الجدال بينهم وبين أهل السنة. والأبهريّ سنيّ والصاحب معتزليّ؛ ومن هنا كان السؤال عن الأصلاح، وكان غضب الصاحب.

(٧) الأفلج: من تباعد ما بين قدميه أو يديه أو أسنانه.

(٨) الأَفْحَج: فَحَّجَ رِجْلَيْهِ: وَسَّعَ مَا بَيْنَهُمَا.

(٩) تحلَّج: حَلَجَ فِي مَشْيِهِ: مَشَى قَلِيلًا قَلِيلًا.

(١٠) تفجفج: فَجَّ الرَّجُلُ: بَاعَدَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ.

سبحان من أنزل الدنيا منازلها وصير الناس مشنوءاً وموموقاً<sup>(١)</sup>  
فَعَاقِلٌ فَطِنٌ أَعَيْتُ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٌ خَرِقٌ تَلَقَّاهُ مَرَزُوقًا  
كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ مُغْتَرَفٌ وَلَمْ يَكُنْ بَارْتِزَاقَ الْقَوْتِ مُحَقَّقًا  
هذا الذي ترك الأبواب حائرةً وصير العاقل التَّحْرِيرَ زنديقا

وحدثني المأموني<sup>(٢)</sup> عند روايتي هذا الحديث: سمعته أنا يقول على غير هذا الوجه، قال: جاءني فلان بهامة مسطحة، وأرنبة مفلطحة، ولحية مسرحة، وفقحة مسلحة، وجبهة موقحة، وجملة مقبحة، يناظرني في المصلحة<sup>(٣)</sup>، فهيمت والله أن أصله على باب المسلحة. وباب المسلحة بالرِّي سوقٌ معروفة.

وهذا الكلام الثاني هو الأول يشقق<sup>(٤)</sup> ويؤذي، ويصيح ويهذي، ويوهم ويدعي، وقاحةً وجهلاً وازدراءً للناس، وحقراً لكل من يرى من أهل الفضل والأدب، والحرية والحسب.

وكان كلفه بالسجع في الكلام والعلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد.

قلت للمسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك أنه لو رأى سبعة تنحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها جبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لكان يخف عليه أن لا يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبا بجميع ما وصفت من عاقبتها.

(١) المَشْنُوءُ: المُبْعَضُّ، ولو كان جميلاً. موموقاً: محبوباً.

(٢) المأموني: هو عبد السلام بن الحسين أبو طالب. ولقب بالمأموني نسبةً إلى الخليفة المأمون لأنه كان من ذريته. ورد الرِّي على صاحب ومدحه وحظي عنده، ثم اتهمه حاسدوه بنظم شعر يدعو فيه لبني العباس واعتقاد تكفير الشيعة والمعتزلة، وبهجاء صاحب، فسأت صلته بالصاحب وسقطت منزلته عنده فتركه. توفي سنة ٣٨٣ هـ.

(٣) المصلحة: هي «الأصلح» الذي تحدثنا عنه آنفاً.

(٤) يشقق: يورث الصداق المعروف بالشقيقة.

وقال علي بن القاسم الكاتب: السجع لهذا الرجل بمنزلة العصا للأعمى، والأعمى إذا فقد عصاه فقد أقعد، وهذا إذا ترك السجع فقد أحم. وقلت للخليلي: كيف كان ابن العميد أبو الفضل يقدم هذا ويرشحه وهذا عقله ولفظه وشمائله؟

فقال: كان يسترقعه<sup>(١)</sup> ويضحك منه ولا يغتاض لأنه كان تحت تدبيره. والرقاعة الخالية من القدرة مقبولة، وإنما تضاعف اليوم حديثه في الرقاعة لأنه أصبح بسيط اللسان بالدولة، مطاع الأمر في القريب والبعيد؛ ونعوذ بالله من جنون موصول بانقياد الأمور وطاعة الرجال. وكان يقول: هو مع هذا الطيش والخفة، والتفتل والتثني أفضل من أبيه؛ فإن أباه كان ثورا خوارا، وحمارا نهاقا. وكان أيضا يقدح ابنه أبا الفتح به، ويبعثه على الحركة والنطق، وكان أيضا مظنونا<sup>(٢)</sup> به وهو غلام ما بقل وجهه<sup>(٣)</sup>.

قال: وأسباب الجد عجيبة، وكما لا يدري الإنسان من أين يخفق كذلك لا يدري من أين ينال.

فقلت للخليلي: أما كان ابن العميد يسمع كلامه؟

قال: بلى، وكان يقول: سجعُه يدلُّ على الخلاعة والمجانة، وخطه يدلُّ على الشلل والزمانة، وصياحه يدلُّ على أنه قد غلب بالقمار في الحانة، وما نظرت إليه قطُّ في وقت إلا خلتُ أنه قد سقاه العبارة دواء مذ ساعة. وهو أحمق بالطبع إلا أنه طيب، وإن كان له يومٌ تضاعف حمقه، وذهب طيبه، وضرَّ أهل النعم والمروات والأدب بالحسد والكبر والإعنات.

(١) يسترقعه: يعده رقبعا، والرقيع: الأحمق السمج.

(٢) مظنونا به: متهمًا به.

(٣) بقل وجه الغلام: نبت شعره.

قلت للخليلي: هل عرفت طالعه؟

قال: حدثني أصحابنا منهم الهروي أن طالعه الجوزاء كط، والشعري اليمانية كط، وكان رحله في الحادي عشر في الحمل كح، والقمر فيه يط والشمس في السنبله يج، والزهرة فيها ي، والمشتري في الميزان كد، والمريخ في العقرب ز، وسهم السعادة في القوس يد، وسهم الغيب في الجدي يد، والرأس في الثالث في الأسد يا. قال: وخفي علي عطارد. وذكر أنه ولد سنة ثلاثمائة وست وعشرين من الهجرة لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة روز سروش من ماه شهرير<sup>(١)</sup>.

قلت: فأين ولد؟

فقال: كان عندنا أنه ولد بطالقان<sup>(٢)</sup>، وقال لنا قوم: بل بإصطخر. وقال لي غير الخليلي: كان عطارد في السنبله ط ي.

وكنت بالرّي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وابن عبّاد بها مع مؤيد الدولة قد وردا في مهمّات وحوائج، وعقد ابن عبّاد مجلس جدل وكنا نبئت عنده في داره بباب سين ومعنا الضّرير أبو العباس القاصّ وأبو الحوراء الرّقي، وأبو عبد الله النحوي الزّعفراني، وجماعة من الغرباء فرأى ليلة في مجلسه وجهًا غريبًا صاحب مرقعة، فأراد أن يفّره<sup>(٣)</sup> ويعرف ما عنده، وكان الشاب من أهل سمرقند زعم أنه يعرف بأبي واقد الكرابيسي.

فقال له: يا أخ انبسط واستأنس وتكلم؛ فلك منا جانبٌ وطّي ومشرب رويّ، ولن

تري إلا الخير، بم تُعرف؟

قال: أعرّف بدقاق.

(١) ماه شهرير: ويقال «شهر يور ماه» اسم لأحد الشهور الفارسية. وروز سروش اليوم السابع عشر من شهر النوروز.

(٢) طالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ، بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل.

(٣) يفّره: يمتحنه ويكشفه.

قال: تَدُقُّ ماذا؟

قال: أَدُقُّ الخصمَ إِذَا زَاغَ عن سَبِيلِ الحقِّ. فلما سَمِعَ هذا تنكَّرَ وعجِبَ، لأنَّه فُجِعَ ببديعة.

فقال له: دَعُ ذَا، تكلم.

قال: أَتَكَلَّمُ سائلاً؟ والله ما بي حاجةٌ إِلى مسألة، أم أَتَكَلَّمُ مسؤولاً؟ فوالله إِنِّي لأَكْسَلُ عن الجواب، أم أَتَكَلَّمُ مَقَرَّرًا؟ فوالله إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ أَبُدِدَ الدَّرَّ في غير مَوْضِعِهِ، وإِنِّي لَكَمَا قال الأول:

لقد عَجَمْتَنِي العاجِمَاتُ فلم تَجِدْ هَلُوعًا ولا لِينَ المَجَسَّةِ في العَجَمِ  
وكاشَفْتُ أَقوامًا فأبديتُ وصمَّهُم وما لِالأَعادي في قَناتي من وَصَمٍ  
فقال له: يا هذا، ما مَذْهَبُكَ؟

قال: مذهبِي أَنْ لا أَقَرَّ عَلَى الضَّيْمِ، ولا أَنام عَلَى الهُونِ، ولا أُعْطِي سَمْتِي لمن لم يكن وَلِيَّ نِعْمَتِي، ولم يَصِلْ عِصْمَتَهُ بِعِصْمَتِي.

قال: هذا مَذْهَبٌ حَسَنٌ، وَمَنْ هذا الذي يَأْتِي الضَّيْمَ طائِعًا، وَيَرَكِبُ الهُونَ سَامِعًا؛ ولكن ما نَحَلْتِكَ التي تنصُرُها؟

قال: نَحَلْتِي طَوِيَةَ صَدْرِي، ولستُ أَتَقَرَّبُ بِها إِلى مَخْلُوقٍ، ولا أَنادي عليها في سُوقٍ، ولا أَعْرِضُها على شاكِّ، ولا أَجادلُ عليها المؤمنَ.

قال: فما تَقولُ في القرآن؟

قال: وما أَقولُ في كلامِ رَبِّ العالمين الذي يَعْجِزُ عنه الخَلْقُ إِذا أرادوا الاطِّلاعَ عَلَى غيبِهِ، وَبَحَثُوا عن خافي سرِّهِ، وَعَجائبِ حِكْمَتِهِ، فَكَيْفَ إِذا حاولوا مُقابَلَتَهُ بِمِثْلِهِ، وليس له مِثْلٌ مِثْلُ مِثْلُونٍ، فَكَيْفَ عن مثلِ مِثْلَيْنِ؟

قال ابن عَبَّاد: صَدَقْتَ، ولكن أَمْخُلُوقٌ هو أم غير مَخْلُوقٍ؟

فقال: إِنْ كَانَ مَخْلُوقًا كَمَا تَزْعُمُ فَمَا يَنْفَعُكَ؟ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ كَمَا يَزْعُمُ  
خَصْمَكَ فَمَاذَا يَضُرُّكَ؟

فقال: يَا هَذَا، أَبْهَذَا الْعَقْلِ تَنَاطَرِ فِي دِينِ اللَّهِ وَتُقُومُ عَلَيَّ عِبَادَةُ اللَّهِ؟  
قال: إِنْ كَانَ كَلَامَ اللَّهِ فَيَنْبَغِي إِيمَانِي بِهِ وَعَمَلِي بِمُحْكَمِهِ، وَتَسْلِمِي لِمُتَشَابِهِهِ، وَإِنْ  
كَانَ كَلَامَ غَيْرِهِ، وَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ مَا ضَرَّنِي.

فَأَمْسَكَ عَنْهُ ابْنُ عَبَّادٍ وَهُوَ مَغِيظٌ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَنْتَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ خُرَّاسَانَ بَعْدَ (١).  
فَمَكَثَ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ نَهَضَ. فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّادٍ: إِلَى أَيْنَ يَا هَذَا؟ قَدْ تَكَسَّرَ اللَّيْلُ، بَتَّ  
هَاهُنَا.

فقال: أَنَا بَعْدُ لَمْ أَخْرُجْ مِنْ خُرَّاسَانَ، فَكَيْفَ أَبَيْتُ بِالرَّيِّ، وَخَرَجْتُ. فَارْتَابَ بِهِ ابْنُ عَبَّادٍ،  
فَقَفَّاهُ بِصَاحِبٍ لَهُ، وَوَصَّاهُ بِأَنْ يَتَّبِعَ خُطَاهُ وَيَبْلُغَ مَدَاهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَفْطَنُ لَهُ وَلَا يَرَاهُ، فَمَا  
رَاغَ (٢) الرَّجُلُ عَنْ بَابِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ حَتَّى دَخَلَ، وَوَصَلَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْفَائِتِ إِلَيْهِ.

فَقِيلَ لِابْنِ عَبَّادٍ ذَلِكَ فَطَارَ نُومُهُ مِنْ عَيْنِهِ، وَقَالَ: أَيُّ شَيْطَانٍ هَبَطَ عَلَيْنَا وَأَحْصَى مَا  
كُنَّا فِيهِ بَيْنَنَا، وَبَلَغَ أَرْبَةَ مَنَّا، وَأَخَذَ حَاجَتَهُ مِنْ عِنْدِنَا، بِلِسَانٍ سَلِيطٍ وَطَبَعٍ مَرِيدٍ (٣).

فَحَدَّثَنِي الْهَرَوِيُّ، وَكَانَ يَبِيْتُ عِنْدَ رُكْنِ الدَّوْلَةِ، أَنَّ رُكْنَ الدَّوْلَةِ قَالَ لِلْخُرَّاسَانِيِّ:  
كَيْفَ رَأَيْتَ كَاتِبَ ابْنِنَا؟

قال: رَأَيْتُ وَجْهَهُ وَجَهَ خِنْزِيرٍ، وَعَقْلَهُ عَقْلَ سِنُّورٍ، وَكَلَامَهُ كَلَامَ مُبْرَسَمٍ (٤)، وَحَرَكَتَهُ

(١) يشير ابن عباد هنا إلى ما كان يوصف به أهل خراسان في وقته بالخشونة والبلادة، وهو ما أشار إليه أبو حيان أيضًا  
في الصداقة والصديق عند وصفه لأبي البقاء البوزجاني بقوله: «وأما أبو الوفاء: فهو والله ما يُتَعَدُّ بِهِ عَنِ الْمُؤَانِسَةِ  
الطَّبِيَّةِ، وَالْمَسَاعِدَةِ الْمَطْرِيَّةِ، وَالْمُفَاكِهِةِ اللَّذِيذَةِ، وَالْمُوَانَاةِ الشَّهِيَّةِ، إِلَّا أَنْ لَفْظَهُ خُرَّاسَانِي، وَإِشَارَتُهُ نَاقِصَةٌ».

(٢) راغ: حاد ومال.

(٣) طبع مرید: طبع خبيث.

(٤) مبرسَم: بفتح السين اسم مفعول وهو لفظ معرب من البرسام (بكسر الباء)، المصاب بمرض البرسام وهو  
التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب، ويعرف أيضًا بالجرسام، وقد يصاب المبرسم بارتفاع  
الحرارة فيهذي.

حركة مَحْنَث، ونظره نظراً فاجر، ورأيه رأي مؤسوس، وأعضائه أعضاء مفلوج؛ ولقد عشنا ونعشى معنا زال يذكر القدر والخبز والأدم والبوارد والغضائر<sup>(١)</sup> والمطابخ حتى عرقت جباهنا من الحياء والانخزال، واسترخت أيدينا من الخجل.

فقال له ركن الدولة: لو علمت أنك هكذا تنقلب عن مجلسه لما أذنت لك في لقائه، ولكن قد فات.

قال الهروي: وكان هذا الكرابيسي عيناً لركن الدولة بخراسان، فلذلك كان قريباً منه وكان أحد رجالات الدنيا، ولم يتمكن<sup>(٢)</sup> من مكائثرته.

وقلت للخليلي: بم انفرج ما بين هذا الرجل، أعني ابن عباد وصاحبكم، أعني أبا الفتح ذا الكفايتين.

فقال: كان صاحبنا غراً صعب القياد شديد الزهو؛ وهذا على رقاوته التي ترى، ولم يكن بينهما عاقل يرأب المصدوع، ويصل المقطوع، ويرفع الموضوع، ويضع المرفوع، ويرد هذا عن حدته بلسانه، ويكف ذلك عن تيهه واعتنانه. وقد كان ركن الدولة يكنفهما بظله، ويكفهما بفضله، ويخفص لهما جناح إحسانه، ويمزج بينهما في استخدامه، ويجمعهما على طاعته لصحة رأيه وحسن مداراته؛ ونفوسهما على ذلك تغلي، وصدورهما تفيض، والألسنة تُكني، والحواجب تتغامز، والشفاه تلتوي، والأعين تختلج، والوشاة تدب، والزمان يعمل عمله؛ فلما مضى سائسهما تقارفا القرحة<sup>(٣)</sup>، وتنازعا الرتبة فكان ما كان.

قلت: ما الذي كان ينقم هذا من ذلك، وذاك من هذا؟

فقال: كان صاحبنا يقول: أشد ما علي أن خصمي معلم مأبون. وكان هذا يقول:

(١) البوارد: كل ما هو طيب. الغضائر: المفرد: الغضار وهو إناء متخذ من طين لزج أخضر لا رمل فيه.

(٢) أي لم يتمكن ابن عباد من مغالبتة وشفاء نفسه منه.

(٣) تقارفا القرحة: رمى كل واحد مهما صاحبه بما يعيبه ويكرهه للناس.

كيف أسامي حَدَثًا صَغِيرَ الرَّأْسِ كَلِيلَ اللِّسَانِ، قَلِيلَ الهِمَّةِ، الخَيْرُ عِنْدَهُ حَرٌّ<sup>(١)</sup> والدَّرْهَمُ فِي نَفْسِهِ رَبٌّ؛ وَكَانَ يُنْشِدُ فِيهِ:

فَتَى يَمْنَعُ الطَّعْمَ مَ وَلَا يَمْنَعُ الحُرْمَ  
فَجَمِيعَ النِّسَاءِ فِي الدَّ حِلِّ وَالْمَطْبُخِ الحَرْمَ  
فهذا هذا.

قلت لأبي عبيد<sup>(٢)</sup> الكاتب النصراني ببغداد، وكان سهل البلاغة حلو اللفظ، حسن الاقتضاب، غريب الإشارة، مليح الفصل والوصل: كيف ترى كتابة ابن عباد؟ فقال: هي شوهاء فيها شيء في غاية التنقيح، وفيها شيء في غاية الركافة، وبينهما فتور راكد، بمذاهب المعلمين الحمقى المتعاقلين أشبه منها بمذاهب السلف الأولين من الكتاب وأصحاب الدواوين.

قال: السجع الذي يُلَهَّجُ به هو مما يقع في الكلام، ولكن ينبغي أن يكون كالطراز في الثوب، والصنفة<sup>(٣)</sup> في الرداء، والخط في العصب<sup>(٤)</sup>، والملح في الطعام، والخال في الوجه؛ ولو كان الوجه كله خالاً لكان مقلباً.

قال: وبديعه في هذا الفن لا تُسْتَرَّ رَكَائِتهُ فِي سَائِرِ فُنُونِ الكَلَامِ، فَإِنْ فُنُونِ الكَلَامِ مَحْصَلَةٌ عَلَى التَّقْرِيبِ بَيْنَ البَدَدِ<sup>(٥)</sup> والسَّجْعِ وَالوِزْنِ، وَمَا يُسَمِّيهِ قَوْمٌ تَجْنِيسًا وَتَطْبِيقًا.

(١) الحر: لها أكثر من قراءة، فإذا كانت بفتح الحاء فتعني حرقة في القلب من الوجد، وإذا قرئت بكسر الحاء فتعني أن الخير عنده عورة لا يراها الناس.

(٢) ذكره أبو حيان باسم (ابن عبيد) وقال عنه في الصداقة: «وأما ابن عبيد، فكلفه بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة، قد طرحه في عمق لج لا مطمع في انتقاده منه، ولا طريق إلى صرّفه عنه. هذا مع حركات غير متناسبة، وشمائل غير دمتة، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة، ودالة أصحاب الحجّة».

(٣) صنفة الإزار، بكسر النون: طرته التي عليها الهدب، وقيل: هي حاشيته، أي كانت.

(٤) العصب: ضرب من برود اليمن المخططة.

(٥) البدد: المتفرق، ويعني به النثر الخالي من السجع.

قال: ومنها شيءٌ يجب أن يُسمَّى المسلسل، وأمثله في كلام أبي عثمان<sup>(١)</sup> موجودة. ثم قال: والذي ينبغي أن يهجر رأساً، ويُرغب عنه جملة التكلف والإغلاق، واستعمال الغريب والعويص، وما يستهلك المعنى أو يفسده أو يحيله، ويجب أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، والغرض الثاني في تخير اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم وحلاوة التأليف، واجتلاب الرونق، والاقتصاد في المواخاة، واستدامة الحال، ليستمر الثاني على الأول، والثالث على الثاني، وأن يتوقى الفضاء الذي يعرض بين الفصل والفصل.

قلت: ما معنى الفضاء؟ قال: عدم الرباط بين المتقدم والمتأخر، وهو النبوء العارض في النفس عند سماعه وتحصيله.

قال: والهجنة التي ليس بعدها هجنة، والركاكة التي ليس فوقها ركاكة، الولوع بالغريب، وما يشكل فيه الإعراب، ويتجاذبه التأويل؛ فإن هذا وما شاكله كلفة على النفس عند سماعه، ومؤونة على الطبع عند تحييره، ومشقة على اللسان عند اللفظ به. ثم قال: فخير الكلام - على هذا التصفح والتحصيل - ما أيده العقل بالحقيقة، وساعده اللفظ بالرقة، وكان له سهولة في السمع، ووقع في النفس، وعدوبة في القلب، وروح في الصدر؛ إذا ورد لم يحجب، وإذا صدر لم ينس، وإذا طال لم يمل، وإذا قصر لم يحقر، له غنج كغنج العين، ودل كدل الحبيب، ولذة كلذة الغناء، وانقياد كانقياد الذليل، وتيه كتية العزيز، وجمش كجمش الغانية، ووقار كوقار الشيخ، وحلاوة كحلاوة العافية، ولين كلين الصيب، وأخذ كأخذ الخمر، وولوج كولوج النسيم، ووقع كوقع القطر، وريح كريح العطر، واستواء كاستواء السطر، وسبك كسبك التبر، يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام.

فأما صحته فمن جهة شهادة العقل بالصواب، وأما بهجته فمن جهة جوهر اللفظ

(١) يقصد عمرو بن بحر الجاحظ.

واعتدال القسمة، وأما تمامه فمن جهة النظر الذي يستعير من النفس شعفها، ويستشير من الروح كلفها.

ثم قال أبو الربيع<sup>(١)</sup>: الكتاب سبعة: الكامل، والأعزل، المبهم، والرقاعي، والمخيل، والمخلط، والسكيت.

فأما الكامل فهو الذي له في الإنشاد والإملاء حظ. والأعزل: الذي يُملي ولا يكتب. المبهم: الذي يكتب ولا يُملي. والرقاعي: الذي يبلغ في الرقاع حاجته، ولا يصلح لعظم الكتابة؛ والمخيل: الذي له عارضة وبيان، ورواية وإنشاء، وتعرف بالآداب، ولا طبع له في الكتابة؛ وإذا كان عاقلاً صلح لمنادمة الملوك. والمخلط: الذي يرى له في الكتاب الواحد بلاغة جيدة ودفامة عجيبة. والسكيت: المتخلف المتبدل، وربما جاء بالشيء المحتمل إذا تعنى فيه.

قلت: فمن أيهم ابن عباد؟ قال: هو مُشكل، لا يجوز أن تهضمه فتضعه في أسفل سافلين، ولا يجوز أن تغلط فيه فترفعه إلى أعلى عليين، ثم ضعه بين هذين أين شئت، على أنه على كل حال جبلي.

قلت له: قد استمر قولك بما لو كان تصنيفاً لك لساغ، وبقي تمامه في كلمة، هذا وقت المسألة عنها ومعرفة الحال فيها.

قال: قل، فقد استرسلنا في الحديث، وتبأثنا كل ضمير.

قلت: كيف ترى كتابنا أعني القرآن؟ وأنت رجلٌ قد أشرفت على غاية هذا الباب، واستوعبت جميع ما فيه.

قال: ذاك كلامٌ ليس فيه أثرٌ للصنعة، ولا علامة للتكلف، وهو كلامٌ منسكبٌ انسكاباً، وجارٍ جرياً يزيد لطفه على الطبع، بقدر ما يزيد الطبع على التصنع، قليلاً

(١) هو محمد بن الليث الخطيب الكاتب البليغ الفقيه المتكلم. ذكره ابن النديم في الفهرست (١/١٥٢).

كثير، وكثيره غزير، ومعناه أفوم من لفظه، ولفظه أرشق من وزنه، ووزنه أعدل من نظمه، ونظمه أحلى من نثره، ومجموعه أبهى من مُفَرَّقه، ومُفَرَّقه أظرف من مجموعته، وبعضه أعرب من كله، وكله أعجب من بعضه. وهو شيء يستوي فيه تعجب الجاهل، وتحير العالم، ويستعلي الذهن ويستغرق الفهم، ويحجب الرؤية عن الإدراك، ويردّها إلى البدئية في التسليم، وهذا يصح ويبين لمن كان ذا أداة تامّة، وعقل ثابت، وعلم غزير، وطبع ساجح، وبصر بالجوهر صحيح، ومعرفة بالصورة والصورة، وتمييز بين الحال والحال، ورفق فيما يزيد البيان عنه، لا يحمله ما لا يطيق، ولا يحتمل له ما لا يجب، فيكون في جميع ذلك كالطبيب الحاذق، والناصح المشفق.

قلت له: إنما يكون هذا كله وما هو عتيّد عندك داعياً إلى الإيمان به، والتصديق لصاحبه.

فقال: أتراني لا أنصح لنفسي في قضاء الحق عنها مُجْتَلِبًا للسعادة، كما لا أنصح لها في اقتضاء الحق لها مُكْتَسِبًا للزيادة؟ بلى والله! ولكن وراء هذا ما يُشْكل ويُعْضِل، ويُطوّل ويُملِّ.

وكان هذا الرجل ممّن يُدَوّن كلامه كما يُدَوّن كلام ابن هلال الصّابي<sup>(١)</sup>.....<sup>(٢)</sup> صاحبًا له: يا هذا! انفع صاحبك على كل حال وإن ضرّك، وزينته وإن عرّك، وحسّن به ظنّك وإن عرّك.

ومما يدلّ على وُلوع ابن عبّاد بالسّجع ومجاورة الحدّ فيه بالإفراط قوله يومًا: حدّثني أبو علي بن باش، وكان من سادة النّاش، جعل السّين شيئًا ومرّ في الحديث وقال: هذه لغة. وكذب وكان كذوبًا.

(١) هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصّابي، ولد في شهر رمضان من سنة ٣١٣هـ ببغداد، ونشأ بها وفيها عرف الأدب ومارس الكتابة شعرًا ونثرًا، فكان من أقدر كتاب عصره. كما يعرف إبراهيم الصّابي بخبرته العظيمة في ميادين الرياضيات والهندسة والفلك.

(٢) نقص في الكلام.

وكان أبو مالك يكتب بين يديه فقال له: إنما أنت حَطَّ وقَطَّ فقط. وفَتَّت أطرافه بحر كاته تخننًا وتأننًا.

وقال لعبد الله المعلم، وقد أنشده: يا عبد الله! أنت طويل النفس، عتيق القوس، شديد المرس.

وقال لشيخ من خراسان في شيء جرى: والله لولا شيء لقطعتك تقطيعًا، وبضعتك تبضيعًا، ووزعتك توزيعًا، ومزعتك تمزيعًا، وجرعتك تجريعًا، وأدخلتك في حر أمك، ثم توقف وقفة وقال: جميعًا.

وملح<sup>(١)</sup> هذه الحكاية ينتثر في الكتابة، وبهاؤها ينقص بالرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ، وملاحة الشكل في التحرك والتثني، والترشح والتهادي، ومد اليد، ولي العنق، وهز الرأس والأكتاف، واستعمال جميع الأعضاء والمفاصل.

وقلت لابن القصار الفقيه: لو ناظرته، وكان يذهب مذهب القلانسي. فقال: الرجل كلف بالمذهب، والكلف لا يفهمك. يقول استكبارًا عليك، ولا يفهم ما تقول استحقارًا لك.

وطلع عليّ يومًا في داره وأنا قاعد في كسر<sup>(٢)</sup> رواق أكتب له شيئًا قد كادني به، فلما أبصرته قمت قائمًا، فصاح بحلق مشقوق: «اقعد! فالوراقون أخس من أن يقوموا لنا»، فهيمت بكلام، فقال لي الزعفراني الشاعر: احتمال فإن الرجل رقيق، فغلب عليّ الضحك، واستحال الغيظ تعجبًا من خفته وسخفه، لأنه قال هذا وقد لوى شدقه وشمخ أنفه وأمال عنقه واعترض في انتصابه وانتصب في اعتراضه، وخرج في مسك مجنون قد أفلت من دير حنون. والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال؛ لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ، ولا يؤتى عليها باللفظ.

(١) ملح: حسن.

(٢) كسر: جانب.

أفهدا كله من شمائل الرؤساء وكلام الكبراء وسيرة أهل العقل والرزانة؟  
لا، والله! وتزباً<sup>(١)</sup> لمن يقول غير هذا.

وسمعت الخشعي الكاتب كاتب علي بن كامة يقول: ما رأيت في طول عمري مع علو سني وكثرة تجاربي وشدة تبغي رجلاً أجمع للمخازي والمقابح والرقاعات والجهالات والخسافات والفواحش والخبائث من ابن عبّاد؛ أفيل الناس رأياً إذا ارتأى، وأنكلهم عن الخصم إذا تراءى، وأقلهم وفاءً لمن جعله الله ولي نعمته، وأوقحهم وجهاً مع كل إنسان، وأحدّهم لساناً بكل خنيّ وفحش، وأحسدّهم لنظير ولمن دون النظير. وأسعاهم بالفساد على الصغير والكبير، وأخطبهم على الدّين، وأضرّهم للمسلمين، وأفجرّهم من بين العالمين. فقلت له: ما الذي يمدّه على ما هو فيه، وبأي شيء يطرد له ما هو عليه؟

فقال: لم يبقَ فيمن فوقه من ينتقد، ولا فيمن دونه من يزاحم؛ فقد خلا له الجوّ فهو يبيض ويصفر<sup>(٢)</sup>، ويتمطى ويئوع<sup>(٣)</sup>، ويقول سبعا في ثمان؛ لم يذلّ لأحدٍ وذلّ له كلُّ أحد، وأمر كلُّ إنسان وما نهاه إنسان، وضرع إليه كلُّ محتاج، وما احتاج إلى غير، ونشأ على البطر والجنون، وعلى الخلاعة والمجون؛ فبهذا وأشباهه فسدت أخلاقه، وساء أدبه، وبذؤ لسانه، ووقح وجهه، وغلط في نفسه غلطا شديداً؛ وأعجب بعربيته إعجاباً بعيداً؛ وهكذا يفسد كل من فقد المخطئ له إذا أخطأ، والموبّخ له إذا أساء، والمقوم له إذا اعوجّ؛ لا يسمع إلا: صدق سيدنا، وأصاب مولانا؛ وما له في الزمان ثانٍ، ولم يعرف فيمن تقدّم له نظير.

(١) كلمة تقال في الدعاء، أي لا أصاب من يقول هذا خيراً.

(٢) أول من قال ذلك طرفة بن العبد الشاعر، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي، فنزلوا على ماء، فذهب طرفة بفخّيح له فنصبه للقنابر، وبقي عامّة يومه فلم يصد شيئاً ثم حمل فخه ورجع إلى عمه وتحملوا من ذلك المكان، فرأى القنابر يلقطن ما نثر لهن من الحبّ، فقال:

يا لك من قنبرة بمعمّر  
قد رحل الصياد عنك فأبشري  
خلاً لك الجوّ فيضي وأصفري  
قد رحل الصياد عنك فأبشري

(٣) يتمطى: يتبختر. يئوع: يبسط باعه.

رجل في هذه المملكة الواسعة العريضة على ما ترى من التمكن والاستعلاء، وهو لا يُحصَل شيئاً من خرابها وعمارتها، ولا ينظر في مصلحتها ومفسدتها، ولا يعرف المُختَلَسَ منها ولا الضائع بين الناظرين فيها. أعمال باثرة، وبلاد غامرة، وأموال محتججة<sup>(١)</sup>، وطمع مستحکم، وضعف غالب وعدو راصد، ووقت فائت بالفُرس، وخوف مؤذن بسوء العاقبة؛ وهو قاعد في صدر مجلسه يقول: قال شيخنا أبو علي<sup>(٢)</sup> وأبو هاشم<sup>(٣)</sup>، تارة يتقلَّس<sup>(٤)</sup> ويتعمَّم<sup>(٥)</sup> ويتلحَّى<sup>(٥)</sup> وينظر العامة؛ هذا البقال وهذا الخباز وهذا الخلقاني<sup>(٦)</sup> وهذا الإسكاف بالفارسية إما بالدرية، وإما بالرازية<sup>(٧)</sup> وإما بغيرهما؛ ويرى أنه في شيء مهم، وأنه في نشر مذهب ونصرة دين؛ وتارة يناغي هذا الأمرد، ويعاتب هذا الخادم، وينشد الشعر البارد الذي يُورث الفالج:

أبا يوسفٍ إن العثنانين آفة على حاملها فاتخذ لحيه قصداً<sup>(٨)</sup>  
ولا تك مشغولاً بسحب فضولها ولا تولها إلا الإبادة والحصد  
وينشد:

قد استوجب في الحك م سليمان بن مختار  
بماتول من لحيته التحريق بالنار  
أو النتف أو الجز أو النشر بمنشار

(١) محتججة: مسلوقة أو محتجزة.

(٢) أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفي سنة ٣٠٣ هـ، إمام المعتزلة ورئيس المتكلمين في عصره، وهو صاحب فكرة الجبائية في البصرة.

(٣) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي ابن أبي علي، معتزلي أيضاً.

(٤) يتقلَّس: يلبس الطيلسان.

(٥) يتلحَّى: يدير كوراً من عمامته تحت لحيه.

(٦) نسبة إلى الخلقان (جمع خلق) وهو البالي.

(٧) الدرية والرازية: لهجتان فارسيتان.

(٨) جمع عشون وهو اللحية.

فَقَدَّ صَارَ بِهَا أَشْهَرُ — رَ مِنْ رَايَةِ بِيْطَارِ  
فَإِذَا مَلَ الشَّعْرَ قَالَ:

قال سعيد بن حميد لأبي هفان: إن ضرطت عليك ضرطة لأبلغنك إلى فيد<sup>(١)</sup>.  
فقال أبو هفان: زدني أخرى تُبَلِّغُنِي مَكَّةَ، فَإِنِّي صَرُورَةٌ<sup>(٢)</sup>.

أتدري يا أبا فلان ما الصرورة، وكم لغة فيها، وما أصلها، وما نظيرتها؟  
ويقول: ضرب المتوكل على فقحة عبادة<sup>(٣)</sup> فضرط، فقال: ويحك ما هذا؟ فقال:  
يا أمير المؤمنين، خليفة يقرع باب قوم فلا يجيبونه؟

ويقول: مرَّ بعلي بن الحسين العلوي رجل عباسي مأبون، فقال: من هذا؟  
فقال: هذا تيس الجن.

فقال: ينبغي أن يُقال له نعمة الإنس.

ويقول: جمع مُزَبَّدٌ<sup>(٤)</sup> بين قحبة وصديقها في بيت فتعاتبا، فأراد أن يُجامعها  
فامتنت وقالت: ليس هذا موضع ذا، فسمعها مُزَبَّدٌ فقال: يا زانية فأين موضعه؟ أبين  
القبر والمنبر؟ والله ما بُني هذا البيت إلا من جذر القحاب، ولا وزن ثمن خشبه إلا من  
أثمان نعالٍ اختطفت في شهر رمضان من المساجد، وما اشتريت أرضه إلا من السرقة؛  
وما أعرف موضعاً أحق بالزنا فيه منه.

وكان ينشد لابن الحجاج<sup>(٥)</sup> كلُّ سُخْفٍ وَيَسْتَجِيدُهُ وَيُعْجَبُ بِهِ؛ أَنشَدَ لَهُ يَوْمًا:

(١) فيد: موضع في طريق مكة.

(٢) رجل صرورة: لم يحجج قط.

(٣) عبادة هذا كان من المخشئين المجان وكان من ندماء المتوكل الذي كان شديد البغض لعلي بن أبي طالب رضي  
الله عنه ولأهل بيته، فكان عبادة يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه الأصلع ويرقص ويقول: قد  
أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين - يعني بذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمتوكل يأكل ويشرب.

(٤) مزبد: اسم رجل من المجان أصحاب النوادر.

(٥) الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج أبو عبد الله الكاتب الشاعر المتوفى سنة

٣٩١ هـ، شعر كثير المجون والفحش.

يسائلني محمداً عن أخيهِ وعنهُ وقد بلوتهما شديداً  
فقلتُ كلا كما جعسٌ ولكن أخوك، الحقُّ، أكثرُ منك دوداً<sup>(١)</sup>  
ويقول: امرؤ القيس<sup>(٢)</sup> والنابغة يقصران عن هذا الفن.  
وينشد أيضاً له:

ومصرفٍ أنفاسٍ ليثٍ خادِرٍ يصدُرْنَ عن لهواتٍ كلبٍ رابضِ  
ذي لثَّةٍ غرويةِ الريا وذِي لحمٍ مُصِلٍّ في لعابٍ حامِضِ  
رثِّ الثياتِ يخر منيته دما فكأنما شفتاه شُفراً حائضِ  
لم أدْرِ ماذا قالَ إلا أنه ما زال يفسو ضرُّه في عارضي

ومن أحاديثه السخيفة التي يتنزّه عنها الرؤساء، قال: قدم أبو فرعون الأعرابي وكان  
يسمى سلمان البصرة، فنظر إلى بعض آل المهلب على بابهِ قد فرش له، ووصيفةٌ  
أدماء كأنها ظبية قائمة تدبُّ عنه، فجعل يجمح إليها ويحدُّ النظر، فقال له صاحبها:  
أتشتهيها؟

قال: إي والذي خلقها.

قال: فهل لك أن تكشف عما معك بين يدي وتكحها وأنا أنظر؛ فإن فعلت ذلك  
فهي لك.

فلما ألقاها وأخرج متاعه كأنه عمود البيت، وبرك عليها صاح به الناس: زر، زر،

(١) الجعس: العذرة.

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (٤٩٧-٥٤٥ م)، من بني آكل المرار. شاعر يمانى الأصل. اشتهر  
بلقبه، واختلف النسابون في اسمه، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر وعنه أخذ  
الشعر. ثم ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه وثأر لأبيه من بني أسد وقال في ذلك شعراً كثيراً. وكانت حكومة فارس  
ساخطة على بني آكل المرار، فأوعزت إلى المنذر ملك العراق بطلب امرئ القيس، فطلبه فابتعد وانتهى إلى  
السموأل فأجاره، ثم رأى أن يستعين بالروم على الفرس فسار إلى قيصر الروم يوستينياس في القسطنطينية،  
فوعده ومطله، ثم ولاء إمرة فلسطين، فرحل يريدها، فوافاه أجله بأنقرة. وقد جمع بعض ما ينسب إليه من  
الشعر في ديوان صغير ولُقّب بالملك الضليل.

فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ، فَاسْتَحْيَا وَفَتَرَ وَوَلَّى هَارِبًا وَالنَّاسُ فِي إِثْرِهِ يَصِيحُونَ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ مَتَاعِهِ  
وقال:

يالك من أيرجُزيتَ شراً أقمته حتى إذا اكفهرًا  
واضطربت أعراقه ودرا عاد إلي وجهه مُزورًا  
أريد جُؤًا ويريد بَرًا كأنه صاحبُ ذنبٍ فرًا  
كأنما ألقم شيئاً مُرًا وما عليك أن يُقالَ زراً؟  
وحدّث أَيْضًا:

قال عبادة: اختصم الحرُّ والحرُّ<sup>(١)</sup> في الجلدة التي بينهما، فكان كلُّ يدعيها،  
فتقدما إلى الأير. فقال: ليست لأحدكما.  
قالا: فلمن هي؟

قال: هي لي إذا دخلتُ حططتُ عليها رحلي، وإذا خرجتُ استرحتُ عندها من  
كربي.

وحكى يوماً عن جحظة<sup>(٢)</sup> قال: كانت لي جاريةً فحبّلت، فقلتُ لها: يا مَلْعُونَةٌ مَنْ  
أحبّلك؟  
قالت: مَنْ غرّقهُ يا مولاي.

قال: وقيل لعبادة: لم صار الصّفع بالقرع على القفا ثقيلًا، وفي الجوف خفيفًا،  
قال: لأنه ينزل على القفا جملة ويدخل في الجوف تفاريق.

وكان ديدنه السُّخْفَ والخلاعة والمجّون، والرّواية عن مُزبّد المدني وأبي الحرث  
حمين وعبادة، وجحظة ونضلة بن البك ومن أشبه هؤلاء. وكان يضع أحاديث من

(١) الحرُّ بالكسر وتشديد الراء: فرج المرأة، والحرُّ: الثوب.

(٢) هو أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الحسن المعروف بجحظة البرمكي، أديب راوية  
أخباري شاعر صانع للغناء، وكان مع هذه الفضائل كلها بعيداً عن أدب النفس وسخاً متهمًا في دينه. توفي  
بواسطة سنة ٣٢٤ هـ أو ٣٢٦ هـ.

الفواحش عَلَى بني ثوابة وَيَرُويها عنهم وَيَسْمُهُم بها. وكان القوم مُعَاذِينَ منها، عَلَى ما حَدَّثَنَا شيوخ جِلَّة كرماء لهم دين ومرّوة. وكان يتكذّب عَلَى اليزيديين وغيرهم. وكان أكثر هذا فيه، وإنما كان يتحدّث بمثله تَبَرُّوا ونزاهة، وكان أدنس من الخنزير.

ولمثل هذه الخصال كتب إليه أبو راغب، فتى من آل أبي جعفر العبّي الوزير بخراسان رسالة هتكه بها؛ وأنا أرويها لتعلم أني لم أتفرد بتّهجينه والنكير عليه، بل كلُّ حرّ كريم، وكلّ دين مذكور، وكلّ ذي مروّة ظاهرة معي فيما نثوت<sup>(١)</sup> عنه وكرهته منه؛ فإن لم تعبأ بما تسمع مني فاعبأ بمن لعله عندك أشف مني، ولا تتسرع إلى عيبي هذا الرجل بما قد دونته حتى تتبين الأمر على حقه وصدقه.

كتب أبو راغب:

أصلحك الله أيها الرجل لنفسك، فإنك إذا صلحت لنفسك صلحت لقريبك وبعيدك.

أما بعد فإن بعد صيتك بعثني على تصفح شأنك، وتصفحي لذلك وقفني على أحوال كرهتها لك، وأنفت منها لمن بلغ درجتك، والعيب منك مضاعف، واللسان فيك جوال، والحقد عليك سريع. ولولا الحال التي أنت عليها من القدرة والتمكّن لكان العذر يناضل عنك، والتوبيخ يتبدد دونك، وما أحسن ما قال شاعرُ عَصْرِكَ في نظمه:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنعص القادرين على التمام  
قد خولك الله ما يفوت ذرع همتك، وآتاك ما يتجاوز اشتطاطك في حُكمك، من المال والثروة والرياسة والعلم والقوة والمكانة؛ ولم يخصك بهذا كله بسابقة لك عنده، ولا لحق لك عليه، بل كله تفضل في الأول، واختبار في الثاني، وثواب أو عقاب في الثالث.

(١) نثوت الحديث: أشعته.

ولقد شددتُ وسطي في تعرّف أخبارك، واستعنتُ كلَّ عَيْنٍ وأذنٍ في معرفة ليلك ونهارك، فلم أجد في تفصيل ذلك إلا ما يعصبُ برأسك العار، ويحشد عليك أسباب الدمار، وتكون عاقبتك منه دخول النار؛ لأنك تظهر القول بالوعيد<sup>(١)</sup> ثم تركب كلَّ كبير، من أخذ المال المحرّم، واستباحة الحرّيم المصّون، وقتل النفس المؤمنة، ومُساهمة الفسقة الفجرة، وخدمة الظلمة الغشمة، وتقديم أهل المُجون والعيارة، وفي عشر هذا سقوط المروّة، والإنسلاخ من الديانة.

فيا أيها المُدلل بالتوحيد والعدل، أهذا كلُّه في مذهبك أو في مذاهب أسلافك؟ مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبّيد، وأبي موسى المُردار، والجعفرين<sup>(٢)</sup>؟

أما كانوا - مع بدعتهم التي شأنوا بها وجه الإسلام، وكادوا بها أهله - مجتهدين في غير ما أنت به راضٍ لنفسك ومُصِرٌّ عليه باعترارك؟ إن الله لا يخادع، ولا منجاة للعبد إلا بالطاعة الخالصة، والتوبة النصوح؛ هذا إذا كان الإيمان ساكن صدره والخوف من الله متردداً في أقطار فكره، واليقين بالمعاد عمود دينه، والعلمُ بالجزاء راسخاً في فؤاده. فأما إذا كان عارياً من هذا كلِّه فهو الكافر بعينه الذي سمعت به، وعاقبة الكافرين ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَأْنَ الْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

والله ما حرّكتني لبند هذا الكلام إليك حبيبة<sup>(٣)</sup> عليك؛ لأنني لم أتجنّك، ولم أطمع

(١) الوعيد: هو عدل الله تعالى وعقوبته، وهو ما جاء في إخبار الله تعالى عباده بأنه يعاقب من عصاه وخالف أمره، فمن ذلك: أنه أخبر بأن جهنم دار العصاة، وأنه يعذب المذنبين، وأن وعيده تعالى للكفار والمشركين والعصاة حق كما أن وعده حق. وأهل السنة والجماعة يعملون نصوص الوعد؛ فيرجون للمحسن، ويعملون نصوص الوعيد؛ فيخافون على المسيء. والمعتزلة ترى أن العدل الأسمى يقضي بوجوب إنفاذ وعيد الله سبحانه وتعالى، وباستحالة تخلفه؛ ومن هنا كان من أسماء المعتزلة «الوعيدية». والكاتب أبو راغب يشير بهذه الجملة إلى أن الصحاب - مع إيمانه كمعتزلي - بأن هذه العقوبات التي تنذر بها آيات الوعيد يجب أن تطبق - يرتكب كل كبيرة وموبقة.

(٢) الجعفران هما: جعفر بن حرب الهمداني المتوفي سنة ٢٣٦ هـ، وجعفر بن مبشر الثقفي المتوفي سنة ٢٣٤ هـ، وكلاهما من المعتزلة.

(٣) حبيبة: التوجع والحزن.

في مالك، ولا عرفت وجهي، ولا سمعت باسمي، لكن أبت نفسي أن تقرّ على الجَهْل بحالك، وبدخلة<sup>(١)</sup> ما يكون عليه أمثالك، فأثرت نصيحتك؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة»<sup>(٢)</sup>. وما أخوفني أن تكون جرأتك على هتك حرّمات الدين، ومعارضة الصّالحين، مع العكوفة على الخسران المبين، إنّما قويت وربت لأنك شاردت على ربك، نافرت من دين نبيك، مدّح له بلسانك، شاك فيه بفؤادك، متعجب ممّن له إخلاص، أو له بالدينونة اختصاص؛ والويل لك إن كنت بهذا قانعاً من نفسك في الحال الأولى، ثم الويل لك مع الثبور إن كنت جاهلاً بما عليك في الحال الأخرى. حدّثني أيّ أمر أنت فيه على رشد، وأخذ منه باحتياط؟ أم ما أنت عليه مع الغلمان المردّ الجرد؟ أم ما أنت مشهور به من المجانة والسُّخف؟ ثم تدعي الإطعام للخاص والعام، وقد شاهدنا فوجدنا على بابك قوماً يضربون بالمقارع وجوه الناس، ويحطّون على رؤوسهم العذاب، طرداً لهم وإبعاداً. أفما هذا بأمرك وعينك وأذنك؟ فلم تتكلّف ما لا تُقرّ به؟ ولم تدعي ما لا تسلم فيه؟ لقد وقفنا عياناً من استخفافك بالأحرار، ووضعك من ذوي الأقدار، وكُفرك بولي نعمتك، وتعرّيك من كل شبهة في أمرك، ما لو تنفّسنا به بين الناس، أو رسمناه بالقلم في القراطيس، لكان ذلك زائداً على تمرّد فرعون، وكفر أبي جهل وجرأة ديك الجن<sup>(٣)</sup>.

لقد قيست مروّتك إلى مروّات قوم قرفوا بالزندقة فوجدت مروّاتهم فوق دياتتك، ولقد رأينا قوماً لم يتحلّوا بالدعوى تحلّيك استنفدوا قوتهم في طلب مرضاة مؤمليهم

(١) دخلة: باطن الأمر.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة برقم ٥٥.

(٣) ديك الجن: هو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي، المعروف بديك الجن (١٦١هـ - ٣١١هـ). شاعر مجيد، فيه مجون، من شعراء العصر العباسي. سُمي بديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين. أصله من سلمية (قرب حماة) ومولده ووفاته بحمص (في سورية) لم يفارق بلاد الشام، ولم يتجع بشعره. له ديوان شعر مطبوع.

وَمُتَّجِعِي قَطْرَهُمْ، وَبَلَّغُوا مِنْ ذَلِكَ الْمُبَالِغِ، وَأَنْتَ مَعَ تَمَكُّنِكَ وَيَسَارِكَ لَمْ تَسْمَحْ مِنَ الشَّاةِ بَظْلِفِهَا، ثُمَّ مَلَأْتَ الدُّنْيَا بَقَبَاقًا بِالْأَمْتَانِ عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، كَأَنَّكَ خَالِقُ الْخَلْقِ وَبَاسِطُ الرِّزْقِ. انظُرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ أَيَّ آخِرٍ سَوَّءٍ لَكَ! وَاللَّهِ إِنَّكَ شَدِيدُ الثَّقَةِ، وَقَدْ قِيلَ: رَبِّ وَاثِقِ خَبْلٍ. أَيُّهَا الرَّجُلُ!

مَا طَارَ طَيْرٌ فَارْتَفَعَ إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعُ  
أَمَا تَعْتَبِرُ بِمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرٌ ذِي الْكِفَايَتَيْنِ مَعَ ذَلِكَ الْبَأْوِ وَالْخُنْزُوانَةِ<sup>(١)</sup>؟ أَمَا رَأَيْتَ  
بِعَيْنِكَ فِي هَذِهِ السَّنِينَ مَا يَحْدُوكَ عَلَى الْأَخْذِ بِالْوَثِيقَةِ لِنَفْسِكَ؟ وَكَفَ الْيَدُ عَنْ كَثِيرٍ  
مِمَّا يُوتَغُ<sup>(٢)</sup> دِينَكَ، وَيَهْشَمُ أَنْفَ مَرُوتِكَ، وَيَقْطَعُ عِرْقَ أَبُوتِكَ، وَيَهِيحُ الْأَلْسِنَةَ عَلَى  
تَبْكِيَتِكَ، وَيَبْسُطُ الْأَيْدِيَ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْكَ، وَيَحْشُو الْقُلُوبَ تَمَنِّيَ زَوَالِ دَوْلَتِكَ.  
فَاتَّعِظْ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَأْيُهَا الْبَاغِي عَلَى الْأَحْرَارِ ثِقَةً بَلِينِ مَقَادَةَ الْأَقْدَارِ  
لَا تَعْتَرِزُ بِمَدَى تَطَاوُلِ حِينِهِ فَالظُّلْمُ يُقْصِرُ مِنْ خُطَى الْأَعْمَارِ  
وَالْعَيْشُ نَهْلَةٌ وَارِدٍ وَلَرْبَمَا سُدَّتْ عَلَيْهِ مَدَارِجُ الْإِصْدَارِ  
وَأَخْتِمِ قَوْلِي هَذَا بِمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ لِأَصْحَابِهِ، قَالَ: أُحَدِّثُكُمْ الدُّنْيَا وَأَخَوْفُكُمْ  
يَوْمَ النَّادِ، يَوْمَ لَا يُعْرَفُ لِخَيْرٍ أَمَدٌ، وَلَا يَنْقَطِعُ لِشَرٍّ أَمَدٌ، وَلَا يَعْتَصِمُ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ.  
وَأَرْجُو أَنْ تَسْمَعَ مَا صَدَقْتُ الْقَوْلَ فِيهِ بَاتِّصَاحِ، وَتَعْرِفَ مَا تَوْتِيهِ بَارْتِيَا، وَالسَّلَامُ.  
قَالَ: وَيَقُولُ أَيْضًا: قَالَ أَبُو الْعَيْنَاءِ لِحَبَّاجِ الْكَاتِبِ: ابْنُكَ فِي أَيِّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ  
النَّحْوِ؟ قَالَ: هُوَ فِي بَابِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ. قَالَ: هُوَ إِذْنٌ فِي بَابِ وَالِدَيْهِ.  
وَيَقُولُ: قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ: اشْتَرَى الْأَمِيرُ سِرَاوِيلَ مِنْ فَنَكٍ<sup>(٣)</sup>. قَالَ: التَّقَى الثُّوبَانِ.

(١) البأو: الفخر. والخنزوانة: الكبر.

(٢) وتغ فلان: فسد.

(٣) الفنك: جلد يلبس. قال أبو عبيد: قيل لأعرابي إن فلاناً بطن سراويله بفنك، فقال: التقى الثريان، يعني وبر الفنك وشعر استه.

ويُشَد:

شَيْخٌ لَنَا يُعْرِفُ بِالْخُلْدِيِّ يُرِيدُهُ فِي غِلْظِ الْمُرْدِيِّ (١)  
أَدْخَلَنِي يَوْمًا إِلَى دَارِهِ فَنَاكَنِي وَالْأَيْرُ مِنْ عِنْدِي  
قال الخثعمي: وهو في هذا كله عَلَى نَزَقٍ فِيهِ شَدِيدٌ، وَفَهْقَهُةٌ عَالِيَةٌ، وَتَفَكُّكٌ قَبِيحٌ،  
وَسَيَّلَانٌ مَنكَرٌ، وَشَمَائِلٌ مَنذَرَةٌ.

الويلُ لَهُ! هَلَّا تَرَكَ هَذِهِ السِّخَافَاتِ وَالْحِمَاقَاتِ عَلَى قَوْمٍ يَلِيقُ بِهِمْ هَذَا النَّمَطُ،  
وَأَقْبَلَ عَلَى الدَّوْلَةِ فَنظَّمْ مَخْتَلِّهَا، وَسَدَّدَ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَحْصُولٌ.

يا قوم!

أَيُّ دِينَ يَصِحُّ لَهُ وَقَدْ قَتَلَ آلَ الْعَمِيدِ؟ وَأَيُّ وِفَاءٍ يَسْلَمُ لَهُ وَقَدْ سَمَّ أَوْلَادَ بُوَيْهِ الَّذِي  
هُوَ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ، وَحَافِظُ مُهْجَتِهِ، وَبَاسِطُ يَدَيْهِ، وَبِهِ نَالَ مَا نَالَ، وَبَلَغَ مَا بَلَغَ؟  
وَأَيُّ مُرُوَّةٍ تَبَقَى لَهُ، وَهُوَ يَمُنُّ بِالْقَلِيلِ إِذَا أُعْطِيَ؟ وَأَيُّ كَرَمٍ يُعْتَقَدُ فِيهِ، وَهُوَ يَغُرُّ  
الْأَمِلَ وَيَسْحَبُهُ عَلَى الْوَعْدِ حَتَّى إِذَا انْتَهَى فَقَرًّا أَوْ ضَجْرًا حَرَمَهُ حَرْمَانًا يَابَسًا، وَرَدَهُ رَدًّا  
مُرًّا، وَأَعْطَاهُ شَيْئًا قَلِيلًا وَقَحًّا؟

وَهَلْ تَجِدُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ عِنْدَهُ وَنَفَقَ عَلَيْهِ غَيْرُ ابْنِ الْمَنْجَمِ (٢) وَهُوَ يَعْثُ بِلِحِيَّتِهِ وَهَامَتِهِ،  
وَيَسْخَرُ مِنْهُ وَيَضْحَكُ بِهِ؛ وَيَعْمَلُ لَهُ الشُّعْرُ فِي النَّوْرُوزِ وَالْمَهْرَجَانِ وَغَيْرِهِمَا، وَيَسْمَعُهُ  
فِي هَيْئَتِهِ يَوْمَ الْمَحْفَلِ، وَيَطْرَبُ عَلَى إِنْشَادِهِ وَيَقُولُ: مَا أَحْسَنَ شَعْرَكَ! وَمَا أَسْلَسَ  
طَبْعَكَ! وَيُعْطِيهِ عَلَى ذَلِكَ، وَيَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ بِالْقِيَادَةِ وَبِكُلِّ مَا لَا يُجِيزُهُ الدِّينَ وَالْمَرْوَةَ.  
وَكَذَلِكَ ابْنُ الْمَنْجَمِ الْآخِرُ أَبُو مُحَمَّدٍ جَبْسُ جَاهِلٍ صَلَفٍ، وَسَبِيلُهُ وَحَدِيثُهُ أَنْ يَقُولَ:  
وَرَدْتُ عَلَى مَوْلَانَا الصَّاحِبِ، وَأَنَا كَالْبَدْرِ إِذَا طَلَعَ، فَعَشِقْنِي وَعَشِقْ عِدَارِي وَهَامَ

(١) المُرْدِي: خشبة يدفع بها الملاح سفينته.

(٢) أبو الحسن علي بن هارون بن علي بن يحيى المنجم، شاعر وراوي للشعر وندم الخلفاء، ولد في بغداد سنة ٢٧٧ هـ، له كتب منها (شهر رمضان) ألفه للراضي العباسي، و(الرد على الخليل) في العروض، وغيرهما. توفي سنة ٣٥٢ هـ كما ذكر ابن خلكان في الوفيات (١/٣٥٦).

بسببي ورزقت منه، وحفقت على قلبه، وحظيت عنده، وكان يعجبه مني ما لا يجوز التحدث به.

وصدق الخثعمي في هذا كله؛ كان أبو محمد يقول ما هو أكبر مما قال، وكان مع ذلك في مسك كلب خسة ولؤماً ونزقاً وطمعاً. رأته يوماً وقد كتب لإنسان كتاباً بمكنسة<sup>(١)</sup> أخذها منه وجعلها في كمه. وقضى لآخر حاجة بعشر باذنجانا، والباذنجان إذ ذاك بالرّي مائة بدانق.

وقال أيضاً الخثعمي:

وهل يتقدم عنده إلا هؤلاء الهوج الطغام الذين يجوبون الدنيا، ويدخلون كل ميدان، ويسخرون منه فيقولون: فعل مولانا، وكان مولانا، وما رأينا مثل مولانا؛ وإن رأى مولانا أمكننا من نسخ رسائله وكتب ألفاظه، فإذا سمع هذا وأشباهه ماع وسأل وترجرج وذاب وأعطى عليه وجاد.

وقال أيضاً:

كيف يدعى له التبريز في كل علم وهو لا يعرف النحو إلا ما جلّ منه، ومن الكلام إلا ما وضح؛ ثم هو في اللغة على تصحيف شديد وتخليط كثير، وفي الأخبار على تمويه لا يخفى على مميّز؛ وقد أفسد رسائله بطريقة المتكلمين، وأفسد طريقة المتكلمين بطريقة الكتاب، وكذلك النحو واللغة والحديث، وهذا وصف ظاهر لا يدفعه إلا مكابر.

وصدق هذا الشيخ، فإني رأيت ابن ثابت البغدادي المحدث، وقد سأله عشية يوم عن قول النبي ﷺ: «قوموا صُفُوفكم فترأصوا، لا تتخللکم الشياطين كأنها بنات الحذف»<sup>(٢)</sup>: ما الحذف؟ فلم يجبه وقال: سأقول لك، وأخذ في حديث آخر.

(١) يعني كانت أجرة نسخ الكتاب مكنسة.

(٢) لم أعر عليه. والحذف: الغنم الصغار تكون بالحجاز.

قال الخثعمي:

وهو مع هذا كله يكذب صراحاً في كل شيء، يقول: كان عندنا معلّم، وسئل عن «يوسف» أذكر هو أم أنثى؟ فقال: «يوسف» يذكر ويؤنث، ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾، ثم قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وقد اجتمعت له العلامتان.

وكان هذا ينسبه إلى إنسان معروف بالأدب، لكنّه كان يُحمق ابن عبادٍ ويُنث مخازيه، فكان هذا يضع عليه نوادر باردة.

ويقول: دخلت بغداد فلقيت أبا سعيد السيرافي<sup>(١)</sup>، وعلي بن عيسى<sup>(٢)</sup>، والمراغي<sup>(٣)</sup>. وناظرت المراغي في «عسى»، و«لعل» و«كاد» وغير ذلك فأبرزت<sup>(٤)</sup> وذُكرت، وأشير إليّ بالأصابع، وفُسح لي في المجمع؛ وكذلك ناظرت فلاناً وفلاناً، وأفدتهم أكثر مما استفدت منهم.

وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال: سبحان الله! وسكت استعظماً لهذا الحديث ونفيًا له. وهو كما أومأ إليه.

وقلت للمراغي: أكان لهذا الحديث أصلٌ فقال: لا، والله.

وقال الخثعمي: وهل يدلّ ولو عه بالعروض إلا على سوء الطبع وقلة التآني؟ وكان أخذها عن البديهي، وإنما ردّو شعر البديهي أيضاً لمثل هذا، وبلغ من جنونه عليها - أعني العروض - أنه كان يلقيها على كل إنسان، وبطالب به كل شاعر وكاتب، حتى

(١) السيرافي: تقدمت ترجمته.

(٢) هو أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، من أئمة اللغة والأدب والمتكلمين على طريقة المعتزلة. جمع بين علم الكلام والعربية، ويعد في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي، وكان مشاركاً في جميع العلوم. توفي سنة ٣٨٤ هـ.

(٣) المراغي: هو أبو الفتح محمد بن جعفر بن محمد الهمداني. حافظ نحوي بليغ. توفي سنة ٣٧٦ هـ.

(٤) فأبرزت: غلبت وعلوت.

أخذ في هذه الأيام يلقن غلامًا تركيًّا وآخر قوهيًّا وآخر زنجيًّا؛ وكان يُظهِر بهذا وما أشبهه الحدق والبراعة والتخريج.

ثم ينظر في كتاب «الفصيح»، «ومختصر» الجرمي، ويقول: ما رأيت كاتبًا يُخطئ إلا من هذا، ولا يلحن إلا من هذا. وهذا - حفظك الله - منه مُغالطة، إن الكاتب قد يُخطئ من غيرهما أيضًا، وهو ذاك المخطئ المحرّف إذا وزنت كلامه بالقسطاس، واعتبرته بالقياس على ما أوضحه العلماء والنحويون، قال: ومن أراد ذلك بينت له، فليس الباب دونه مُغلَقًا ولا الطريق إليه مُتَعَسَفًا.

ثم قال الخشعي:

وهل مداره إلا على السُّخف والجبه والمكابرة والبهت. يقول فيمن هو أكتب منه وأعفُّ وأسرى:

حجر أبي نصر بن كوشاذ أوسع من مصر وبغداد

قلت له: هل لك في فيشة فقال مولاي وأستاذي

يُنشد هذا وهو يتطاير، ويفتل يده وينسبل ويصفق.

أف هذه مخايل ذوي الأقدار والرياسة؟ أم مخايل أصحاب الرعاع والسفلة؟

وهل شاع القول بتكافؤ الأدلة في هذه الناحية إلا به؟ وكثر المرء والجدل والشك إلا في أيامه، لأنه منع أهل القصص من القصص والذكر والزجر والمواعظ والرقائق، ومنع من رواية الحديث - وقال: «الحديث» حشو<sup>(١)</sup> - وتفسير القرآن، ونشر التأويل، وسماع قول الصحابة والتابعين، وما يُعنى به من الحلال والحرام، ويتعلق بجلائل

(١) الحشو لغة: ما يُحشى به الشيء. والحشو من الكلام: الفضل الذي لا خير فيه. وعند الحشوية: الاعتقاد بجواز أن يكون في الكتاب والسنة ما لا معنى له.

الأحكام، وطردهم ونفاهم؛ منهم: ابن فارس<sup>(١)</sup>، والرؤياني، وابن بابويه<sup>(٢)</sup>، وابن العطار، وابن شاذان<sup>(٣)</sup>، والبلخي، وفلان وفلان؛ وأجلس النجار يَخْدَعُ الديلم بالزيدية، وزعم أنه على مقالة زيد بن علي<sup>(٤)</sup> ورأيه ودينه ومذهبه، وزيدٌ - يعلم الله منه - بريءٌ لفسقه وفجوره وتهتكه وظلمه وغضبه ونهبه وقتله النفس المحرمة، وأخذهُ الأموال المحظورة. أترانا لا نعرف مذهب زيد، وأن جميع ما هو فيه مخالف للدين والإسلام؟

وقال الخثعمي:

زعم أنه إنما منع المذكورين والقصاص لئلا يفشو الحشو والتشبيه ولئلا يُشئتوا عليه الصغير والكبير، فهلا منع من الكلام والجدل لئلا يفشو الإلحاد، ولا تكثر الشبه؟ ثم يجلس لأصحاب الحديث، ويروي ويفسل ويكذب ويختلق الإسناد ويبتك المتن<sup>(٥)</sup>. فأبي عيب لم يظهر به ولم يغلب عليه؟ وأي خزي لم يبين ولم يكثر؟ وأي فعل سيئ لا فعله؟ أليس هو سبب كل قبيحة، وفاتح كل باب شر؟ فما هذا الغلط فيه؟ وما هذا التعصب له؟ وما هذا اللجاج بسببه؟

أمن «العدل» الذي يُدَلُّ به في مذهبه أن يجوز ويغصب ويقتل؟ أم من التدين بـ«التوحيد» أن يركب الفواحش ويأتي القاذورات؟ ويخلو بالأبن<sup>(٦)</sup> والسوءات؟

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ أو ٣٩١ هـ أو ٣٩٥ هـ، مؤلف كتاب (المجمل) و(الصاحبي) وغيرهما من الكتب.

(٢) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بابويه القمي، ويعرف بالشيخ الصدوق، من فقهاء الشيعة. أصله من قم ونزل بالري وارتفع شأنه في خراسان، وتوفي ودفن بالري سنة ٣٨١ هـ.

(٣) هو بكر بن شاذان بن بكر أبو القاسم الواعظ المقرئ. كان مولده سنة ٣٢٢ هـ وتوفي سنة ٤٠٥ هـ.

(٤) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الإمام الشهيد في سنة ١٢١ هـ، وهو رئيس الفرقة الزيدية.

(٥) يبتك المتن: يقطعه.

(٦) الأبن: جمع أبنة، وهي التهمة والعيب.

ويتسنَّم الكبائر المُبِيرَات<sup>(١)</sup>؟ ثم يَبْنِي دَارًا يَسْمِيهَا دَارَ التَّوْبَةِ اسْتَهْزَاءً وَسُخْرِيَةً وَسُخْنَةً عَيْنٍ؟ أَمْ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ يَتَعَاطَى كُلَّ مَنْكَرٍ قَوْلًا وَفِعْلًا؟  
إِنِّي لِأُظَنُّ أَنَّ مَنْ يَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ لِأَعْمَى أَصَمَّ قَدْ أَسْلَمَهُ اللَّهُ مِنْ يَدِهِ، وَأَلْجَأَهُ إِلَى الشَّيْطَانِ قَرِينِهِ.

أَمْ مِنَ الْعَقْلِ وَالْمَرْوَةِ وَالكَرَمِ وَالْفِتْوَةِ أَنْ يَقُولَ: أَيْنَ مَائِدَتُنَا مِنْ مَائِدَةِ مَطْرَفٍ؟  
يَعْنِي أَبُو نَصْرٍ مَطْرَفُ بْنُ أَحْمَدَ وَزَيْرٌ مَرْدَوَائِحُ الْجَبَلِيِّ، وَكَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ؛ وَمِنْ مَائِدَةِ الْمَهْلِيِّ؟ وَمِنْ مَائِدَةِ ابْنِ الْعَمِيدِ؟ وَأَيْنَ طِعَامُنَا مِنْ طِعَامِهِ؟ وَأَيْنَ إِطْعَامُنَا مِنْ إِطْعَامِهِ؟  
وَكَانَ أَبُو الْفَضْلِ سَيِّدًا، وَلَكِنْ لَمْ يُشَقَّ غُبَارُنَا، وَلَا أُدْرِكَ شِوَارُنَا، وَلَا مَسَّحَ عِذَارُنَا، وَلَا عَرَفَ عَرَارُنَا لَا فِي عِلْمِ الدِّينِ، وَلَا فِي مَا يَرْجَعُ إِلَى مَنَافِعِ الْمُسْلِمِينَ. فَأَمَّا ابْنُهُ فَقَدْ عَرَفْتُمْ قَدْرَهُ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ؛ طِيَّاشٌ قَلَّاشٌ، لَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا قَاشٌ وَقِمَاشٌ، مِثْلُ ابْنِ عِيَّاشٍ وَالْهَرَوِيِّ وَالْحَوَاشِ.

يا قوم، هذا كلام من له عقل ويرجع إلى رزانه؟

ثم يقول في مجلسه: أَنَا الذُّعَافُ<sup>(٢)</sup> لِمَنْ حَسَانِي، وَالجُرَافُ<sup>(٣)</sup> لِمَنْ عِصَانِي،  
وَالجُحَافُ<sup>(٤)</sup> لِمَنْ عِنَانِي أَوْ حَرَّكَ عِنَانِي؛ أَخْمَصِي فَوْقَ هَامَةِ الدَّهْرِ، أَيْنَ ابْنُ الزِّيَّاتِ<sup>(٥)</sup> مِتًّا؟  
أَيْنَ ابْنُ خَاقَانَ مِنْ غُلَامِنَا، يَعْنِي أَبُو الْعَبَّاسِ الضُّبِّيُّ، وَمَنْ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى الْحَشَوِيِّ،  
وَمَنْ ابْنُ الْفِرَاتِ الْأَرَعَنُ، وَمَنْ ابْنُ مُقَلَّةِ الْخَطَّاطِ، وَمَنْ الْحَسَنُ بْنُ وَهَبِ الضَّرَّاطِ؟

هل كانوا إلا دوننا إذا ذُكِرَتْ سِيَادَتُنَا، وشوهدت سعادَتُنَا. وُلِدَتْ وَالشُّعْرَى

(١) المُبِيرَات: المهلكات، من الفعل (أبار) أي أهلك وأفسد.

(٢) الذُّعَافُ: السُّمُّ يَقْتُلُ مِنْ سَاعَتِهِ وَالْجَمْعُ: ذُغْفٌ.

(٣) الجُرَافُ: الذَّاهِبُ بِكُلِّ شَيْءٍ، سَيْلٌ جُرَافٌ، وَمَوْتُ جُرَافٌ.

(٤) الجحاف: الموت. وموتٌ جُحَافٌ / وباءٌ جُحَافٌ: يحصد الأرواح.

(٥) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة أبو جعفر المعروف بابن الزِّيَّاتِ، أحد بلغاء الكُتَّابِ والشعراء، كان وزيرًا للمعتصم والوائق العباسيين، ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على توليه ابنه وحرمان المتوكل، فنكبه هذا وعذبه في تنور إلى أن مات سنة ٢٣٣ هـ.

في طالعي، ولولا دَقِيقَةٌ لَأَدْرَكْتُ النُّبُوَّةَ، وقد أَدْرَكْتُ النُّبُوَّةَ إِذِ قُمْتُ بِالذَّبِّ  
عنها والنُّصْرَةَ لها. فَمَنْ ذَا يَجَارِينَا وَيُمَارِينَا وَيَبَارِينَا وَيُعَادِينَا وَيُضَارِينَا وَيُسَارِينَا  
وَيُشَارِينَا؟

وكادَ الخثعمي لا يَقْطَعُ هذا المجلس لطول ما مرَّ فيه، وشِدَّةَ ما أهمَّه منه.  
فهذا كما ترى.

وقلتُ للمسيبي يوماً: لم انقطعَتَ عن هذا الرجل، وقد كان مُحسِنًا إِلَيْكَ، مُقَدِّمًا  
لك، مُعْجَبًا بِكَ؟

فقال: الصَّبْرُ عَلَى الرِّقَاعَةِ مُعْوزٌ<sup>(١)</sup>، ومُكَادِبَةُ النَّفْسِ وَخِدَاعُ الْعَقْلِ مِنَ الْكُلْفِ الشَّاقَّةِ  
وَالْأُمُورِ الصَّعْبَةِ، وَلَعَنَ اللَّهُ الرَّغِيفَ إِذَا لَمْ يُصَبِّ إِلَّا بَضْعَةَ النَّفْسِ، وَغَضَاضَةَ الْقَدْرِ،  
وَكَدَّ الرُّوحِ، وَمَفَارِقَةَ الْأَدَبِ الْحَسَنِ، وَدَنَسَ الْعَرِضَ التَّقِيَّ، وَتَمْزِيقَ الدِّينِ الْمُعْتَقَدِ،  
وَكَسْبَ الزُّورِ الْمُحْبِطِ، وَإِزَالََةَ الْمَرْوَةِ الْمُخْدُومَةِ؛ وَإِنِّي لَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنِّي عَلَى عُدْمِي لَصَاحِبُ هِمَّةٍ لَهَا مَذْهَبٌ بَيْنَ الْمَجْرَةِ وَالنَّسْرِ

\*\*\*

وَإِنَّ امْرَأًا دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمَسْتَمِسِكُ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورٍ  
وَسَمِعْتَهُ يَقُولُ لِابْنِ ثَابِتٍ<sup>(٢)</sup>:

جَعَلَكَ اللَّهُ مَمَّنْ إِذَا خَرَى شَطْرًا، وَإِذَا بَالَ قَطْرًا، وَإِذَا فَسَا غَبْرًا، وَإِذَا ضَرَطَ كَبْرًا، وَإِذَا  
عَفَجَ عَبْرًا.

وهذا سُخْفٌ لَا يَلِيقُ بِأَصْحَابِ الْفُرْضَةِ، وَالَّذِينَ نَشِئُوا بِالْمَزْرَفَةِ، وَاخْتَلَفُوا إِلَى

(١) مُعْوزٌ: مفقر، شديد على النفس.

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن ثابت البغدادي، أحد فضلاء بخارى، وكان من جلاس صاحب.

الخدق ودار بانوكة<sup>(١)</sup> والزبد والخلد<sup>(٢)</sup>.

وسمعه يقول: أنشدني صقلاب، وابن باب، وقرأت علي ابن البواب، وسمعت من أبي الحباب، ورويت لأبي المرتاب الدباب كل شيء عجاب.

ولقد تحير المهلبني مني، وعرف معز الدولة فضلي وأدبي وأكبر قدري، وبلغ الحد الأقصى في أمري.

وأنشدني أبو دلف الخزرجي عندما رأى من كلفه بالمذهب<sup>(٣)</sup> وإفراطه في التعصب:

يا بن عباد بن عبا س بن عبد الله خذها  
تنيكر الجبر وقد أحم رجيت للعالم كرها

وكان إذا نشط واهتز لا يسمع منه إلا حديث عبادة وجحشويه وأمثال هؤلاء.

وكان يضع علي بني ثوابة كل حكاية غثة فاحشة؛ وكان إذا أراد أن ينفي عن نفسه ما يُتَرَف به، قال: قيل لقاضي الفتيان: نيك الرجال ريبة. فقال: هذا من أراجيف الزناة.

وقيل لابن ماسويه: الباقل<sup>(٤)</sup> مقشورة أصح في الجوف. فقال: هذا من طب

الجياع.

وقيل للوطي: إن اللواط إذا استحكمت صار حلاقاً<sup>(٥)</sup>. قال: هذا من توليد أصحاب

القحاب.

(١) دار البانوقة أو البانوجة أو بانوكة، وتقع في محلة المخرم على أحد فروع نهر موسى من الجانب الشرقي من بغداد، حيث يمر هذا الفرع إلى باب سوق الدواب ثم إلى دار البانوجة ويفنى هناك، فسميت الضاحية التي حول الدار بالبانوقة نسبة إلى دار البانوقة بنت الخليفة العباسي المهدي.

(٢) من الممكن أن يكون موضع قصر الخلد الذي ذكره الخطيب البغدادي (١/ ٧٥، ٨٠) وقال إن موضعه وراء باب خراسان من مدينة بغداد على شاطئ دجلة.

(٣) أي مذهب الاعتزال.

(٤) الباقل، الباقلاء: الفول.

(٥) الحلاق: وجع في الحلق.

فَأَمَّا الَّذِي يَدُلُّ عَلَى كَلَامِ الْمُبْرَسَمِينَ<sup>(١)</sup> وَالْمَجَانِينَ وَمَنْ قَدْ شُهِرَ بِالصَّرْعِ وَالْمَالِيخُولِيَا<sup>(٢)</sup> فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لَشَيْخِ خِرَاسَانِي قَدْ دَعَا بِهِ وَأَكْرَمَهُ وَتَوَقَّرَ لَهُ وَكَلَّمَهُ؛ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَا يَقْتَضِي، وَمَا يَكُونَ مِنْهُ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، وَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَا يَكُونَ، وَيَكُونَ مَا يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ، وَإِنَّمَا لَا يَكُونَ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، وَيَكُونَ مَا يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَيْسَ فِي وَزْنٍ مَا يَكُونَ، وَالكَوْنُ وَالْوَجُوبُ لَا يَتَلَازِمَانِ، بَلْ يَجْتَمِعَانِ ثُمَّ يَفْتَرِقَانِ، وَالاجْتِمَاعُ وَالِافْتِرَاقُ عَلَيْهِمَا جَارِيَانِ، فَلِهَذَا يُرَى الْوَاجِبُ كَائِنًا وَالْكَائِنُ وَاجِبًا، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْكَوْنَ مَتَضَمِّنٌ الْوَجُوبَ، وَالْوَجُوبُ مَتَضَمِّنٌ الْكَوْنَ، وَتَحْصِيلُ الْفَضْلِ بَيْنَهُمَا بِالنَّظَرِ مِنْ سِحْرِ الْعَقْلِ.

وهذا فن لم أجد فيه لمشايعنا شوطاً محموداً، ولعلي أُملي فيه كلاماً بسيطاً بجميع ما يكون شرحاً له إن شاء الله.

فلما خرَجنا للشيخ الخراساني، وقد أخذنا في الموائسة وتجادبنا أطراف الحديث كما قال الشاعر:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحِ<sup>(٣)</sup>  
كيف سمعت الليلة ذلك الكلام في الكون والإيجاب؟

فقال: يا حبيبي، إما أن يكونَ هذا الرَّجُلُ مَرْحُومًا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تَكُونُوا مَرْحُومِينَ فِي يَدِهِ. أَمَا فِي بَلَدِكُمْ مَارِسْتَان؟ أَمَا لِلسُّلْطَانِ شَفَقَةٌ عَلَيَّ هَذَا الْإِنْسَانَ، أَمَا لَهُ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَنْصَحُ لَهُ فِي نَفْسِهِ وَيَكْسَحُ هَذَا الْجِزءَ مِنْ عَقْلِهِ، إِنْ لَلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ؛ عُمَّ عَلِيٍّ بِاسْمِهِ عِنْدَنَا بِخِرَاسَانَ، وَطُنَزَ بِنَا<sup>(٤)</sup> بِهِ فِي تِلْكَ الْبِلْدَانِ. وَقَدْ كَانَ، وَاللَّهِ، يُلُوحُ

(١) سبق الكلام عن البرسام والمبرسم.

(٢) المالخوليا: هي أن يغلب المزاج السوداوي على الإنسان فتكثر أوهامه وتخيلاته.

(٣) أطراف الأحاديث: ما يستطرف منها.

(٤) طنز به: سخِرَ، واستهزأ.

خَلَلَ كَبِيرٌ لِقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ مِنْ رَسَائِلِهِ وَرِقَاعِهِ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَ الذَّنْبَ عَلَى الْوَرَّاقِينَ.

وقال يوماً آخرَ لابن القَطَّانِ أَبِي الحَسَنِ الفقيه المتكلم:

أَيُّهَا الشَّيْخُ أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ؟

قال: نعم.

قال: واللَّهِ الْحَقُّ؟

قال: نعم.

قال: فَأَنْتَ عَلَى اللَّهِ.

فقال القَصَّارُ<sup>(١)</sup>: الحمد لله عَلَى سُرْعَةِ هَذَا الْإِنْقِطَاعِ، وَسُطُوعِ هَذَا الْبُرْهَانِ، وَلِزُومِ

هَذَا الْحُكْمِ.

فلما خرج قُلْنَا لَهُ: هَلَّا فَصَّلْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ وَقَدْ عَرَّضَ بِكَ، وَتَضاحَكَ عِنْدَ الْإِشَارَةِ إِلَيْكَ؟ فقال: وما مُنَاقَلَتِي<sup>(٢)</sup> رَجُلًا لَوْ كَانَ فِي الْمَارِسْتَانِ مَغْلُورًا لَكُنْتُ لَا آمِنُ جَانِبَهُ إِذَا كَلَّمْتُهُ، فَكَيْفَ وَهُوَ مُطْلَقٌ مُطَاعٌ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَجْنُونٍ قَادِرٍ مُطَاعٌ، كَمَا نَعُوذُ بِهِ مِنْ عَاقِلٍ ضَعِيفٍ مَعْصِيٍّ.

ثم قال: وهذا الكلام من سوء أدب، وضعف عقل، وجسارة نفس، واجتلاب مَقْتٍ، وقلة دين. إن الحقَّ والحقَّ اسمان يقعان بالاشتراك في اللفظ عَلَى معنيين مُخْتَلِفِينَ، وأنا عَلَى الْحَقِّ، ولكن الْحَقُّ الَّذِي ضِدُّهُ الْبَاطِلُ، وَلَسْتُ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي لَا ضِدَّ لَهُ؛ وَالْحَقُّ يُطْلَقُ عَلَى اللَّهِ وَيُرَادُ أَنَّهُ مُحَقَّقٌ، وَالْحَقُّ يُطْلَقُ عَلَى مَا عَدَاهُ وَيُرَادُ بِهِ أَنَّهُ مُحَقَّقٌ؛ وَاللَّهُ الْحَقُّ الْمُحَقَّقُ الْمُحَقَّقُ، وَمَا جَاوَزَهُ فَهُوَ الْحَقُّ الْمُحَقَّقُ الْمُحَقَّقُ؛ وَإِذَا قِيلَ فِي وَجْهِ آخِرٍ: اللَّهُ مُحَقَّقٌ فَالمراد به غير هذا، لَأَنَّهُ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ مُثَبَّتٌ مَوْجُودٌ، وَمَعْتَقَدٌ مَشْهُودٌ لَهُ بِالْوَحْدَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَشِيئَةِ.

(١) السياق يقتضي أن يكون الكلام: «وقال ابن القطن».

(٢) المناقلة في الكلام: المجابوبة والمنازعة، ونَاقَلَ صَاحِبُهُ الْحَدِيثَ: حَدَّثَ كُلُّ مَنْهُمَا الْآخَرَ بِمَا عِنْدَهُ.



حَقُّكَ وَالجَذْبُ بَضْبِعِكَ<sup>(١)</sup>، وَالرِّيَاةُ فِي قَدْرِكَ عَلَى أَقْرَانِكَ.

قال: فلم أرَ بعدَ ذلكَ إلاَّ الخيرَ، حتَّى عَرَاءَ مَلَلٍ آخِرَ، فَعَادَ إِلَى عَادَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَنِي فِي الحَبْسِ سَنَةً، وَجَمَعَ كُتُبِي وَأَحْرَقَهَا بِالنَّارِ، وَفِيهَا كُتُبُ الفَرَاءِ<sup>(٢)</sup> وَالكِسَائِي<sup>(٣)</sup>، وَمصاحفُ القرآنِ، وَأَصُولُ كَثِيرَةٍ فِي الفِقهِ وَالكَلَامِ، فَلَمْ يَمَيِّزْهَا مِنْ كُتُبِ الأَوَائِلِ، وَأَمَرَ بِطَرَحِ النَّارِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ تَكَبُّتٍ، لَفَرَطِ جَهْلِهِ وَشِدَّةِ نَزِقِهِ.

أفهدنا يا قومُ من سيرة أهل الدين، أو أخلاق ذوي الرياسة، أو من جنس ما يُعتاد ممن له عقل أو تماسك؟

وهلَّا طرَحَ النَّارَ فِي خِزَانَةِ كُتُبِهِ عَلَى قِيَاسِ هَذَا؟ فَإِنَّ فِيهَا كُتُبَ ابْنِ الرُّونْدِيِّ<sup>(٤)</sup>، وَكَلَامَ ابْنِ أَبِي العَوْجَاءِ فِي مُعَارَضَةِ القرآنِ بَزَعْمِهِ، وَصَالِحِ بَنِ عَبْدِ القُدُّوسِ<sup>(٥)</sup>، وَأَبِي

(١) الضبع: العضد. وجذب بضمه: أخذ بيده وأعانه.

(٢) يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكرياء، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب.

كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. ومن كلام ثعلب: لولا الفراء ما كانت اللغة. ولد بالكوفة، وانتقل إلى بغداد، وعهد إليه المأمون بتربية ابنه، فكان أكثر مقامه بها، فإذا جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوماً في أهله يوزع عليهم ما جمعه ويبرهم. وتوفي في طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ.

(٣) علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي: إمام في اللغة والنحو والقراءة. من أهل الكوفة. ولد في إحدى قراها. وتعلم بها. وقرأ النحو بعد الكبر، وتنقل في البادية، وسكن بغداد، وتوفي بالرِّيِّ سنة ١٨٩ هـ، عن سبعين عاماً. وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين.

(٤) ورد اسمه في كتب التراجم: «الراوندي» و«الريوندي» وورد في مخطوطة هذا الكتاب «الروندي». وهو أحمد ابن يحيى بن إسحق أبو الحسين. توفي سنة ٢٨٩ هـ. قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٦٠): «قال ابن النجار: أبو الحسين ابن الراوندي المتكلم من أهل مرو الروذ، سكن بغداد، وكان معتزلياً، ثم تزندق. وقيل: كان أبوه يهودياً».

(٥) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي الجذامي. شاعر عباسي كان مولى لبني أسد. كان حكيماً متكلماً يعظ الناس في البصرة، له مع أبي الهذيل العلاف مناظرات، واشتهر بشعر الحكمة والأمثال والمواعظ، يدور كثير من شعره حول التنفير من الدنيا ومتاعها، وذكر الموت والفناء، والحث على مكارم الإخلاق، وطاعة الله، ويمتاز شعره بقوة الألفاظ، والتدليل، والتعليل، ودقة القياس. أُنهم بالزندقة فقتله المهدي بيده سنة ١٦٠ هـ.

سَعِيدُ الْحَصِيرِيِّ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَرْسَطَاطَالِيسِ وَأَشْبَاهِهِ. وَلَكِنْ مِنْ شَاءِ حَمَقٌ نَفْسِهِ. كَانِ الْأَقْطَعَ الْمُنْشِدُ الْكُوفِيُّ يَقُولُ كَثِيرًا: لَوْ لَمْ تَسْتَدِلَّ عَلَيَّ جُنُونُ هَذَا الرَّجُلِ وَقَلَّةُ دِينِهِ وَضَعْفُ عَقْلِهِ إِلَّا بِنِفَاقِي عَلَيْهِ لَكَفَى؛ لِأَنِّي رَجُلٌ قَطَعْتُ فِي اللَّصُوصِيَّةِ، فَمَا قَوْلُكَ فِي لَصِّ مَقَامِرٍ؟ أَقَوْدُ وَالْوَطَّ وَأَزْنِي وَأَنْتُمْ وَأَضْرِبُ<sup>(١)</sup>، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنْ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ، لِأَنِّي لَا أَصَلِّي وَلَا أَصُومُ، وَلَا أَزْكِي وَلَا أَحُجُّ، وَنَشَأْتُ فِي الْمَسَاطِبِ وَالشُّطُوطِ وَالْفُرُضِ وَالْمَوَاحِيرِ، وَمَشَيْتُ مَعَ الْبَطَّالِينَ سَنِينَ وَسَنِينَ، وَجَرَحْتُ وَخَنَقْتُ وَطَرَزْتُ<sup>(٢)</sup> وَنَقَبْتُ وَقَتَلْتُ وَسَلَبْتُ وَكَذَبْتُ وَكَفَرْتُ وَشَرِبْتُ وَسَكَرْتُ وَشَابَكْتُ<sup>(٣)</sup> وَسَاكَنْتُ وَمَا حَكْتُ<sup>(٤)</sup> وَدَامَكْتُ<sup>(٥)</sup>. وَلَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا مِنْكَ إِلَّا أَتَيْتُ، وَلَا خَنَى إِلَّا رَكِبْتُ؛ وَهُوَ عَلَيَّ هَذَا يُعْرِي بِي وَيَلْجُ مَعِي وَيُؤْذِنِي وَيَمْنَعُنِي مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى بَيْتِي وَامْرَأَتِي، قَدْ حَبَسَنِي فِي دَارِهِ هَكَذَا، فَإِذَا اغْتَلَمْتُ جَلَدْتُ عُمَيْرَةَ ضَرُورَةً.

وَصَدَقَ هَذَا الشَّيْخُ، كَذَا كَانَ مَذْهَبُهُ، وَعَلَيْهِ شَاخٌ، وَلَكِنَّ ابْنَ عَبَّادٍ كَانَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ كَلَامَ الْمُكْدِينِ، وَمُنَاغَاةَ الشَّحَازِينَ، وَعِبَارَةَ الْمَقَامِرِينَ وَمَنْ يَصِرُّ فِي اللَّعْبِ بِالْكَعْبَتَيْنِ، وَيَضْجَرُ وَيَكْفُرُ وَيَنْخَرُ وَيَشُقُّ الْمِئْزَرَ، وَيَبْزُقُ فِي الْجَوْ؛ وَكَانَ لَا يَجِدُ هَذَا عِنْدَ أَحَدٍ كَمَا يَجِدُهُ عِنْدَهُ، فَلِذَلِكَ كَانَ يَتَمَسَّكُ بِهِ.

وَكَانَ الْكُوفِيُّ هَذَا، مَعَ مَا وَصَفْنَاهُ، طَبِيبًا مَلِيحًا نَظِيفًا ظَرِيفًا فَصِيحًا، وَهُوَ الَّذِي حَدَّثَنَا عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي الْمُسْطَبَةِ.

قَالَ: قُلْنَا لَهُ: إِنَّكَ تُحِبُّ الطَّيِّبَ، وَتَلْهَجُ بِالنِّكَاحِ وَتُفْرَطُ.

قَالَ: فَقَالَ لَنَا: وَاللَّهِ مَا أَقْتَدِي فِي هَذَا إِلَّا بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ قَالَ:

(١) أَضْرِبُ: مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَرَبْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ فِي الشَّرِّ: أَيِ أَعْوَيْتَهُمْ عَلَيْهِ.

(٢) طَرَزْتُ النَّوْبَ: شَقَّه. وَمِنْهُ الطَّرَازُ: النَّشَالُ يَشُقُّ ثَوْبَ الرَّجُلِ وَيَسْلُ مَا فِيهِ.

(٣) شَابَكْتُ: خَاصَمْتُ.

(٤) مَا حَكْتُ: نَازَعْتُ وَجَادَلْتُ وَخَاصَمْتُ.

(٥) دَمَكْتُ: نَكَحْتُ.

«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَةٌ الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ»<sup>(١)</sup>.

قال: فقلنا له: ففي الخبر: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>(٢)</sup> وَأَنْتَ لَا تُصَلِّي أَصْلًا.

فقال: يَا حَمَقِي لَوْ صَلَّيْتُ لَكُنْتُ نَبِيًّا، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا نَبِيَّ بَعْدِي»<sup>(٣)</sup>.

وَرَأَيْتَ الْأَقْطَعَ هَذَا واقفًا بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ عَبَّادٍ فِي صَحْنِ الدَّارِ، وَذَلِكَ أَيْضًا واقفًا، فَطَلَعَ أَبُو صَالِحِ الْوَرَّاقِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّادٍ حِينَ نَظَرَ إِلَيْهِ وَإِلَى لِحْيَتِهِ الْمَسْرُوحَةِ:

ولحية كأنها القباطي

فقال الأقطع بلا وقفة:

جعلتها وقفًا على ضراطي

وكان أبو صالح هذا يقول: أنا من ولد محمد بن يزيد الوزير.

وكان ابن عبَّادٍ يطالب الأقطع بأن يحفظ قصائده في أهل البيت ويُشدها الناسَ على مذهب النُّوحِ، وكان يُعطيهِ على كل بيت درهمًا، وإذا لم يُحْكَمْ ضَرْبُهُ لِكُلِّ بَيْتِ ضَرْبَةٍ بَعْضًا عَجْرَاءَ. فكان الأقطع المسكين كلَّ يوم يُضْرَبُ.

فقلتُ له: من كلفك الصبرَ على هذا الضرب؟ احفظ كما كنتَ تحفظ واربح الدرهم، وتخلص من الألم.

فقال: والله لو ضَرَبَنِي بِكُلِّ عَصَا فِي الْأَرْضِ كَانَ أَخَفَّ عَلَيَّ مِنْ حِفْظِ شَعْرِهِ الْغَثِّ، وَإِنْ شَادِ قَافِيَتَهُ الْبَارِدَةَ، وَاللَّهِ وَإِنْ شَعْرَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ خِرَاءَ. فهذا قوله.

وكان لا يدع الأقطع لينصرف إلى منزله، وكان يشكو الشبق، وكانت امرأته تأتيه

(١) أخرجه الألباني في صحيح الجامع عن أنس بن مالك بلفظ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». برقم ٣١٢٤.

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٠٤) بلفظ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي».

في كل قليلٍ إلى دهليز الباب وتُغَيَّر ثيابه، وتُصَلِّح أمره، وتحدِّثه وتنصرف بشيءٍ معه قد جمعه، فصادف الأقطع يوماً الدهليز خالياً، وكانت الهاجرة منعت من الحركة، فراودها وطرحتها في المكان المُتَخَطَّى وتَقَمَّمها وأخذ في عمله، فرمقه بعض السُّتْرَيْن فعدا ورفَع الحديث إلى ابن عبَّاد، وذكر الحال والصورة، فهاج من مقيله البارد ومكانه الظليل، وحشيتته التي قد استلقى عليها، حاسراً حافياً، قد جعل طرف كُمِّه على رأسه بلا سراويل، ولقَط قدمه لقطاً حتى وقف على الأقطع وهو يكوم، يُولج ويُخرج ويرهز ذاهب العقل.

فقال له: يا أقطع، ويليكَ يا بن الزانية! إيش هذا في داري!

فقال: أيها الصاحب! اذهب، ليس هذا موضع النظارة، هذه امرأتي بشهود وُعدول وعقد وقبالة، اذهب اذهب. يهذي ولا يعقل حتى أفرغ، وسَيدي على رأسه يضحك ويصَفِّق ويرقص. ثم أخذ بيده على تلك الحال، وهو يشد تكته، وابن عبَّاد يُعينه، وأدخَله إلى مقيله يعاتبه ويسأله عن العمل والحال وكيف استطابه وكيف هاج؟ ثم خلَع عليه ووهب له، ووهب لامرأته ثياباً وطيباً.

أفهذا من المروءة والفضيلة وأدب الرياسة وآيين الوزارة<sup>(١)</sup>؟

أهكذا كانت البرامكة وهو لا يرضاهم؟

أم هكذا كان حامد بن العباس، والعباس بن الحسن، وآل الفرات، وآل الجراح، وهو لا يزنُّهم بشيءٍ فيمن تأخَّر؟

إن من يستحسن هذا وأمثاله، ويعذر أهله في الرياسة والجلالة لضعيف النحيزة<sup>(٢)</sup>، سَلِيب المروءة. وإن من ينظر هذا وشبهه لَصَفِيقُ الوجه قليلُ المعرفة.

وقال لابن الزيات المتكلم يوماً في مناظرته: لا تعبث بلحيتك.

(١) آيين الوزارة: رسمها وما يوجهه من سمت وزى وصورة. وآيين لفظ فارسي.

(٢) نَحِيْزَةُ الْإِنْسَانِ: طَبِيعَتُهُ.

فقال ابن الزيات: وما عليك منها؟ هي لحيّتي.

قال: أنا سلطان.

قال: أفي عهدك النظر في لحيّتي؟

قال أصحابنا: بل قال له: أنا سلطان، وإذا خرجت من عندي ولحيّتك على غير الشكل الذي دخلت عليّ به ظنّ الناس أنّي ظلمتكم فيها عند المناظرة والخلاف، وأنا أحبّ صيانتك وصيانتني عند الناس بسببك.

وقلت لابن الزيات ببغداد: كيف رأيت ابن عبّاد؟

قال: هو كالحر، لا يرجع إليه من خرج منه.

وقلت للجيلوهي الشاعر، وكان شيخاً له تجربةٌ ومعرفةٌ بأيام الناس ومُشاهدة: حدّثني عن ابن عبّاد.

قال: مغرورٌ من نفسه لمواتة جدّه، وتصديق ذوي الأطماع في جميع دعواه، وما أحوجه إلى إنصاف الناس من نفسه بأحد شيئين: إما بأن لا يدعي الكمال، أو بأن لا يُبكت الرجال؛ فلا هو بريءٌ من النقص، ولا هو غير مستحقّ للتبكيّ؛ وليس من لا يمكن أن يواجه بالنقص الذي فيه وبالتّوبيخ الذي يستحقّه على فعله، ليد له في السلطان قوّة، وشمس له في الدّولة طالعة - ينبغي أن يركب هامّ الناس ويأكلهم بلسانه؛ فريح الدّولة قد تركد، والضعف يزول، والحشم يتحوّل، وقد يقال وراء ظهره ما يُرْبِي على ما هو عليه، ولو قصر يده على فضله الذي له لم تشلّ، ولو وقف قدمه عند غايته لم تزلّ، ولكنه يجري طلقاً<sup>(١)</sup> ثم يَكبو، وينصّل للقراع ثم ينبو، ويتناول إلى ما لا يناله ثم يخبو؛ وهذا طريق الجاهلين المغترّين.

ثم قال: والكذب من آفاه، وهو خلق يعرّ المرؤة<sup>(٢)</sup> ويشين الديانة، ويسقط الهيبة،

(١) الطلق: الشؤط.

(٢) يعرّ المرؤة: ينقصها.

وَيَجْلِبُ الْخِزْي، وَيَسْتَدْعِي الْمَمْت، وَيَقْرَبُ الْمَوْتَ؛ وَقَلَّ مِنْ لَهَجٍ بِهِ إِلَّا كَانَ حَتْفُهُ فِيهِ، وَمَا رُئِيَ شَيْءٌ أَمْحَى لِنِضَارَةِ الْوَجْهِ وَلِبَهْجَةِ الْعِلْمِ وَلِزِينَةِ الْبَيَانِ مِنْهُ.

قال: وَعَلَى ذَلِكَ فَمَا رَأَيْتُ رَئِيسًا يُحَسِّنُ مَا يُحْسِنُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَّا وَهُوَ مُرَدُّوٌّ بِالتَّنَكُّدِ، لِأَنَّهُ مَا هُنَّا قَطُّ بِنِعْمَتِهِ، وَلَا أَمْتَعُ بِإِحْسَانِهِ. وَلَا تَرَكَ لَهُ يَدًا بِيضَاءً عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا وَكَرَّرَ عَلَيْهَا بِالتَّسْوِيدِ.

قال: وقد شاهدتُ النَّافِقِينَ عَلَيْهِ، وَالمْتَقَدِّمِينَ لَدَيْهِ، وَوَقَفْتُ عَلَى مَوَاتِهِمْ وَوَسَائِلِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ وَذَرَائِعِهِمْ فَلَمْ أَجِدْ فِيهِمْ إِلَّا مَخْشِيَّ اللِّسَانِ اسْتَكْفَّ شَرَّهُ بِالإِحْسَانِ كَالْخُورَازْمِيِّ<sup>(١)</sup> وَغَيْرِهِ، أَوْ مُرْتَبَطًا لِأَمْرٍ يُرَادُ مِنْهُ لَا يَفِي بِهِ سِوَاهُ كَالْهَمْدَانِيِّ<sup>(٢)</sup> وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ، أَوْ مَلْعُوبًا بِهِ قُرَّبَ عَلَى ظَنَّةٍ وَرِيْبَةٍ وَحَالٍ زَائِدَةٍ عَلَى الْقُبْحِ وَالفُضِيْحَةِ، كَفُلَانٍ وَفُلَانٍ وَهَمَّ الدُّهْمُ؛ وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ المْتُوسِلِينَ إِلَيْهِ، بَعْدَ هَؤُلَاءِ، مَنْ وَصَلَ إِلَى دَرَاهِمٍ مِنْ مَالِهِ إِلَّا بِبِذْلِ النِّفْسِ وَإِذَالَةِ<sup>(٣)</sup> العِرْضِ، وَمُواصِلَةَ البُّكُورِ وَالرِّوَاكِحِ وَاسْتَشْنَاكِ الغُبَارِ وَالرِّيَاحِ وَتَجَرُّعِ العَبْطِ<sup>(٤)</sup> وَالكَدِّ، وَمِزَاحِمَةَ أَهْلِ الجَهْلِ وَالنَّقْصِ، وَمُغَالِبَةَ ذُلِّ الحِجَابِ وَسُوءِ أَدَبِ البَّوَابِ وَالرِّضَا بِالْهَزْءِ وَالسَّخْرِيَةِ. وَمَا ابْيَضَّتْ لَهُ يَدٌ عِنْدَ أَحَدٍ، وَلَا تَمَّتْ لَهُ نِعْمَةٌ عَلَى أَحَدٍ، لِمَلَلِهِ وَحَسَدِهِ، وَضَجْرِهِ وَنَكَدِهِ، وَامْتِنَانِهِ وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ لِفَضْلِهِ وَمَدْحِهِ لِنَفْسِهِ. وَالعَرَبُ تَقُولُ فِي حِكْمَتِهَا: المِنَّةُ تُزْرِئُ بِالأَلْبَاءِ.

عَلَى أَنْ عَطَاهُ لَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ دَرَاهِمٍ وَثُوبٍ إِلَى خَمْسِمِائَةٍ، وَمَا يَبْلُغُ إِلَى أَلْفٍ نَادِرٌ، وَمَا يُوفِّي عَلَى الأَلْفِ بَدِيعٌ، بَلْ قَدْ نَالَ بِهِ نَاسٌ مِنْ عَرَضِ جَاهِهِ عَلَى السَّنِينِ مَا يَزِيدُ قَدْرَهُ عَلَى هَذَا بِأَضْعَافٍ، وَعَدَدٌ هَؤُلَاءِ قَلِيلٌ جَدًّا، وَذَلِكَ أَيْضًا بِابْتِدَالِ النَّفْسِ

(١) سبق الترجمة له.

(٢) هو بديع الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ هـ، وكان له صلة بالصاحب. (انظر الوفيات: ٤٨/٤٧/١).

(٣) إذالة: إهانة وابتدال.

(٤) العَبْطُ: التنقص والشتم، وَعَبَطَ صَاحِبُهُ: عَابَهُ.

وهتكَ السِّتر، والإفراج عن الدين والمرّوة والعرض والأنفة.

قال: وأيُّ عقل يكون لمن يقول: لم يكن في الدولتين الأموية والعباسية مثلي؟ وهذا الكلام قد دوّنه في بعض كتبه؛ وقد حكيتُ هذا بمدينة السلام فسمِعَه قومٌ كرامٍ يرجعون إلى فضلٍ كثيرٍ وبصائرٍ حسنةٍ منهم ابن البقال الشاعر، ومحسن بن التتوخي، وابن فتاش المصري فضحكوا وهزئوا، وشعّوا عِرضه، وجحدوا محاسنه التي لو سكّت عليها لسلمت له، ولادّعى في جملتها أكثر مما يدّعيه لنفسه؛ ولعمري ما كان له فيمن تقدّم في الدولتين مثلاً ولا شبيهه، ولكن في الخلاعة والمجون، والرّقاعة والجنون.

قال: ومن العجب أنه يدّعي «العدل والتوحيد» وهو لا يفيق من قتل من ظنّ به عداوته والوقيعة فيه، أو القدح في رُقعته له، وإن كان ذلك الإنسان من الصّالحين العابدين.

ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلويّ، فكان إذا سمع منه كلاماً يسجّع فيه، وخبراً ينمّقه ويرويه، يبلق عينيه<sup>(١)</sup> وينشر<sup>(٢)</sup> منخريه، ويُري أنه قد لحقه عشيّ حتى يُرشّ على وجهه ماءُ الورد. فإذا أفاق قيل له: ما أصابك؟ ما عراك؟ ما الذي نابك وتغشاك؟

فيقول: ما زال كلام مولانا يروقني ويونقني حتى فارقتني لبي وزايلني ذهني واسترخت له مفاصلي وتحللت عرى قلبي وذهل عقلي وحيل بيني وبين رُشدي. فيتهلل وجه ابن عبّاد عند ذلك، ويتنفّس ويضمحل عجباً وجهلاً، ثم يأمر له بالكرمة والحباء والصّلة والعطاء، ويقدمه على بني عمه وبني أبيه.

ومن يتخذ هكذا فلا يكون ممن له في الكتابة قسط، أو في التماسك نصيب، وهو بالنساء الرُّغن والصبيان الضعاف أشبه منه بالرؤساء والكبار.

(١) يبلق عينيه: يفتحهما.

(٢) ينشر: يفتح فتحاً شديداً.

وحدثني الشاذياشي قال: حُجبت مدةً عنه فضقت ذرعاً بذلك، فإن الجاه الذي كنت مددته انزوى، والأمر الذي قومته تأوّد، وأخذت المادة تقف، والحال ينقص، والذكر يقل، فأحييت الليل أرقاً وفكراً فيما أعتلّ فقدح لي خاطر بحيلة، فأصبحت وكتبت رقعةً ذكرت فيها:

«إني رجل امتحنت بما لم يُمتحن به أحدٌ غشي بابك، ونال إحسانك واستمرع فناءك، واستحصد جنابك. إني بعد هذا الدأب الشديد، والنصب المتصل، والقراءة والتسخ، والبحث والمناظرة، والصبر والمناصحة، قد شككت في مسائل «الأصول الخمسة»<sup>(١)</sup> التي عليها مدار المذهب<sup>(٢)</sup>، وركن المقالة، وهذه محنةٌ بل فتنةٌ، بل شيء فيه هلاكي وخسران عملي، وذهاب عمري، فالله الله فيّ، تداركني فإني من الأموات بين الأحياء، غريب الدار، خائب الأمل، بائس البضاعة، خاسر الصّفقة، طلبت الزيادة على ما كان عندي فأتلفت ما كان معي».

قال: فلما قرأ الرقعة قلق في نصابه<sup>(٣)</sup>، وأقبل على أصحابه وقال: مسكين الشاذياشي، لقد نزل به أمرٌ عظيم، وحلّ به خطبٌ جسيم، ودُهي في دينه، وأصيب بيقينه، إن هذا لهو البلاء المبين. عليّ به، هاتوه البائس. ودُعيت فأذاني ولاطفني، وقال لي: ما هذا الشك الذي اعتراك، وأين أنت عن القاضي أبي الحسن حتى يحلّ ذلك؟ قلت: لست أتق إلا ببيان مولانا، ولا عجب من بيانه، ولكن العجب من إنصافه مع سلطانته، وحسن إقباله مع أشغاله.

قال: فانفسخ عقده، وابتلّ شنه<sup>(٤)</sup>، واستحال ذلك المملّ استطرافاً، وذلك النبؤ

(١) الأصول الخمسة هي: العدل - التوحيد - المنزلة بين المنزلتين - الوعد والوعيد - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) أي مذهب الاعتزال.

(٣) النَّصَابُ: الأصل والمرجع. يقال: رجع الأمر إلى نصابه.

(٤) الشَّنُّ: القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها، وابتل شنه كناية عن لين الجانب.

استعطافاً، وأقبل يقول: هات، وأنا أهاتيه<sup>(١)</sup> هكذا أياماً وليالي، أتأطر<sup>(٢)</sup> له تارةً بالاستحسان والقبول، وأتعسر عليه تارة بالتوقف والفتور، ولا أفارق الكيس والحيلة، حتى استنفدت قوته وقوتي له، ثم قبلت أطرافه وتباكيت، وقلت: يا مولانا أسلمت على يدك، ونجوت من النار بإرشادك.

فقال: يا أبا علي! أكثر عندنا، واقتبس علمنا. قد ذللنا لك الحجاب، وتقدمنا بذلك إلى الحجاب، فاسكن واطمنن، وطب نفساً وارفين<sup>(٣)</sup>، ولا تقلق فترجحن<sup>(٤)</sup>.

قال: فانصرفت من مجلسه قرير العين، ممدود الجاه، مملوء اليد، ونفسي رياً بكل أمل، وتفتحت عليّ أبواب الرزق، وجمعت إجماعة<sup>(٥)</sup> كبيرة خضراء دنانير.

قال الجيلوهي: وحديث هذا الرجل ذو شجون، على أنك إذا أنصفت لم تجد له نظيراً في دهرك، ومتى بليت به طلبت الخلاص منه ولو بفرك.

قال: وما أخوفني أنني إذا دُفعت إلى غيره بعده تمنيته، فأكون كما قال الأول<sup>(٦)</sup>:

عَبْتُ عَلَى بَشْرٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ وَجَرَبْتُ أَقْوَامًا بَكَيْتُ عَلَى بَشْرٍ  
هَكَذَا أَنْشَدَ، وَغَيْرُهُ يُنْشَدُ: «عَلَى عَمْرٍو»؛ وَالصَّحِيحُ «عَلَى سَلْمٍ» وَهَذَا حَدِيثٌ.

قال: ومن خواص ما فيه حُبُّ للعامة، وذاك بقدر بُغْضِهِ للخاصة. وقد قال يوماً: أنا أعلم أن الحجاب قبيح وبغيض، والصبر عليه متعذر، وهو الذي يورث العداوة الشديدة، ويبعث على القالة الشنيعة، ويمحو كل حسنة، ويهجن كل نعمة، ويثير كل نعمة، ويبيد كل عورة، ويبرز كل سؤا؛ وقد دُهي الناس منه قديماً وحديثاً، لكنني

(١) أهاتيه: أعاطيه.

(٢) يتأطر: يتثنى في مشيته. يظهر العجز وعدم الفهم.

(٣) أرفان: سكن بعد نفور.

(٤) ارجحن: سقط.

(٥) الإجماعة: إناء تُغسَل فيه الثياب.

(٦) هو نهار بن نوسعة كما ذكر أبو حيان في الصداقة، والرواية فيها «على سلم».

أَتَلَذَّذَ بِهِ، وَلَسْتُ أَجِدُ طَعْمَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْعَلِيَّةِ، وَلَا أَعْرِفُ ثَمْرَةَ هَذِهِ الْحَالِ السَّنِيَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أُحْتَجِبَ وَيَقِفَ النَّاسُ عَلَى مَنَازِلِهِمْ بِالْبَابِ، وَأَعْلَمُ أَنَّ صَدُورَهُمْ تَغْلِي بِالغَيْظِ، وَأَلَسْتَهُمْ تَجْرِي بِالْعَيْبِ، وَأَهْوَاءَهُمْ تَأْتِلِفُ عَلَى الْقَلْبِ وَالْبُغْضِ؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ يَنْحَرِقُ بِكُلِّ مَعْنَى إِلَى سُوءٍ، وَلَكِنْ لَا أَسْمَحُ بِحُلَاوَةِ الدَّوْلَةِ، وَبِجَلَالَةِ الصَّوْلَةِ، وَبِهَيْبَةِ الْمَكَانَةِ، وَبِمَا إِنْ سَهَوْتُ عَنْهُ صِرْتُ إِلَى الْمَهَانَةِ.

قال هذا الشيخ:

وهذا قولٌ من نصِّ الله عَلَيَّ خِذْلَانِهِ، وَأَسْلَمَهُ إِلَى حَوْلِهِ، وَأَنْطَقَهُ بِلِسَانِ إبْلِيسِ الَّذِي هُوَ عَدُوُّ اللَّهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ مِنْ عِلَامَاتِ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَأَيَاتِ الْخُسْرَانِ فِي الْعَاقِبَةِ، وَلَنْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ قَدْ سَمَحَ بِعَرَضِهِ، وَاسْتَهَانَ بِشَنْعِ الْقَالَةِ فِي نَفْسِهِ وَأَبِيهِ وَعَمِّهِ وَأُسْرَتِهِ، وَجَمِيعٍ مَنْ ضَرَبَ فِي مَذْهَبِهِ بِسَهْمٍ، وَشَابَهَهُ بِوَجْهِهِ.

وحدثني ابن التَّلَاجِ الْمُتَكَلِّمِ<sup>(١)</sup>، وَكَانَ دَيِّنًا صَدُوقًا، قَالَ: الْعَجَبُ أَنَّ ابْنَ عَبَادٍ يَدَّعِي أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيَّ شَيْخَنَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيِّ<sup>(٢)</sup>، وَلَقَدْ كَذَبَ فِي دَعْوَاهِ وَفَجَّرَ فِي قَوْلِهِ. لَقَدْ وَرَدَ عَلَيْنَا بَغْدَادَ وَهُوَ يَنْصُرُ ابْنَ كُلابٍ<sup>(٣)</sup> عَلَيَّ حِدِّ الْمُبْتَدِّئِينَ، فَحَمَلَهُ مِسْكَوِيهِ إِلَيَّ، ثُمَّ دَخَلَ الْوِاسِطِيَّ عَلَيْهِ وَفَتَحَ بَابَ الْمَذْهَبِ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ<sup>(٤)</sup> لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَعُدُّهُ، لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَدْرِي مَا يَكُونُ مِنْهُ وَيَصِيرُ إِلَيْهِ

فِي الثَّانِي.

(١) ابن التَّلَاجِ الْمُتَكَلِّمِ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ الْبَغْدَادِيِّ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّاهِدِ، وَلِدَ سَنَةَ ٣٠٧ هـ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٣٨٧ هـ، تَنْظُرُ تَرْجُمَتَهُ فِي تَارِيخِ بَغْدَادَ (١٠/١٣٥-١٣٨).

(٢) هُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمِ الْبَصْرِيِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَعْرُوفُ بِالْجَعْلِ وَبِالْكَاغِدِيِّ، مُتَكَلِّمٌ مَعْتَزَلِيٌّ نَابَهُ الذِّكْرُ، لَهُ مَصْنُوعَاتٌ كَثِيرَةٌ. عُمُرُ ثَمَانِينَ عَامًا حَيْثُ وَلِدَ سَنَةَ ٢٩٢ هـ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٣٦٩ هـ.

(٣) هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ الْقَطَّانِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، مُتَكَلِّمٌ جَدَلِيٌّ، لَهُ مَنَاطِرَاتٌ مَعَ الْمَعْتَزَلَةِ وَرَبِمَا وَافَقَهُمْ، تَوَفَّى فِي حُدُودِ سَنَةِ ٢٤٠ هـ.

(٤) يَعْنِي أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيِّ.

وما قَدَّرُ كويتبٍ يَرِدُ مع صاحِبِهِ، لا سِنَّ له ولا شُهْرَةً، ولا إِفْضال ولا تَوْشُّع، ولا حاشيةً ولا حَشَم؟

ودارت الأيام ودالت الأحوال، فكتب هذا الشيخ<sup>(١)</sup> إلى هذا الإنسان بعماد الدين؛ وأنا أبرأ إلى الله من دين هذا عمادُه؛ وكتب هذا إلى ذلك بالشيخ المرشد، وأبي إرشادٍ كان عنده؟ وكيف يكون مُرشدًا من ليس برشيد؟ وكيف يكون رشيدًا من لا يفارق الغي؟ إن كنت تشك في أمره فانظر إلى غلمانته: الرّازي، وابن الغازي، وابن طرخان، والبزاز، والنّصبي أبي إسحق، والصّيرفي، والهّمذاني، والدّامغاني. عصابة الكفر، ما فيهم من يرجع إلى ورع وتقى، أو إلى مُراقبة وحياء أو هدى.

ولقد رأيتُ أبا عبد الله البصري في مجلس عزّ الدولة سنة ستين في شهر رمضان، والجماعة هنا: أبو حامد المروزي<sup>(٢)</sup> وأبو بكر الرّازي، وعلي بن عيسى، وابن نبهان، وابن كعب الأنصاري والأبهرى، وابن طرارة، وأبو الجيش شيخ الشيعة، وابن معروف، وابن أبي شيبان، وابن قريعة، وناسٌ كثير، وهو في إيوان فسيح في صدره من حَضَرُوا من أجله، وأبو الوفاء المهندس نقيب المجلس ومُرتّب القوم.

فَسُئِلَ البصري عن مسألة فأظهر أنه في بقية علته، وأنه لا يقدر على الكلام.

ثم قام علي بن عيسى الشيخ الصالح وقال: هذا مجلسٌ يُنتهى<sup>(٣)</sup> بحضوره لشرفه، ويُفتخر بالكلام فيه لكثرة من يعرف ويُنصف، والمغالطة فيه مأمونة وليس في كل أوّان يتفق هذا الجمع، وبيننا وبين هذا الشيخ، يعني أبا عبد الله، مسألة من أجلها ومن أجل نظائرها قد استجاز تكفيرنا وتفسيقنا والتشنيع علينا وتنفير المقتبسِين منا، وها أنا قد ابتديتُ سائلاً فليُنصّر مذهبه كيف شاء، وإنما هو دينٌ، فيجب أن نبحث عنه من العارفين.

(١) يعني أبا عبد الله البصري.

(٢) المروزي أبو حامد أحمد بن بشر بن عامر، العلامة، شيخ الشافعية، مُفني البصرة، وصاحب التصانيف. تُوفي في ربيع الآخر سنة ٣٦٢ هـ، وقد قارب التسعين.

(٣) انتهى: افتخر.

فقال عزُّ الدولة: كَلَامٌ مَنْصِفٌ، مَا أَسْمَعُ بِأَسَا وَلَا أَرَى ظِنَّةً. يَحْتُ بِذَلِكَ عَلِيٌّ الْجَوَابُ.

فاصفرَّ أبو عبد الله وقلِقَ، وفطِنَ أبو الوفاءِ وكان ضَلَعُهُ<sup>(١)</sup> مَعَهُ، وَصَفُوهُ لَهُ، فَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَمِيرِ وَقَالَ: الشَّيْخُ عَلِيلٌ، وَإِنَّمَا حَضَرَ لِلخِدْمَةِ، وَبَعْضُ غُلَمَانِهِ يَنْوِبُ عَنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَبَ فِيحْمَى جِسْمِهِ، وَيُخَافَ نَكْسُهُ، وَيَصِيرُ مَا قُصِدَ مِنْ قِضَاءِ حَقِّهِ فِي التَّجْمُلِ بِحُضُورِهِ سَبِيًّا لِلتَّأَلُمِ.

ثُمَّ أَقْبَلَ أَبُو الْوَفَاءِ عَلِيَّ بْنَ عَيْسَى فَقَالَ: يُكَلِّمُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ غُلَمَانِهِ مِنْ تَحِبِّ.

فَقَالَ: لَا حَاجَةَ إِلَى الْكَلَامِ مَعَ غُلَمَانِهِ، إِنَّمَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَهُ هُوَ الْقَصْدُ، لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ بَيْنَنَا يَقِلُّ، وَلِأَنَّ الْخُصُومَةَ تَكُونُ مَعَهُ الْفَيْصَلُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُكْتَبُ كَلَامِي سَائِلًا، وَكَلَامُهُ مُجِيبًا، ثُمَّ لَا نِزَاعَ.

فَأَمَّا أَصْحَابُهُ فإِنَّهُمْ يَكَلِّمُونَ أَصْحَابِي وَذَلِكَ قَائِمٌ بَيْنَهُمْ، وَكَانَتِ الْبَغِيَّةُ قَطَعَ الْمَادَّةَ، وَحَسَمَ الشَّغْبَ، وَبَلَّوْغَ الْحَدِّ، وَإِذَا وَقَعَ الْإِبَاءُ فَلَا لِحَاجَ، وَإِذَا عُرِفَ الْمَرَادُ فَلَا حِجَاجَ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ الدَّوْلَةُ: هَاتُوا شَيْئًا آخَرَ قَبْلَ أَنْ يَتَصَرَّمَ النَّهَارُ بِمَا لَيْسَ لَهُ دَرٌّ. وَكَانَ فَصِيحًا. فَأَعْرَضَ<sup>(٢)</sup> أَبُو الْجَيْشِ الْخِرَاسَانِيَّ وَكَانَ مُتَكَلِّمَ الشَّيْعَةِ، فَسَأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ وَقَالَ: أَرُونِي مِنَ الْقُرْآنِ تَنْزِيلَهُ عَلَى هَيْئَتِهِ الْأُولَى حِينَ نَزَلَ بِهِ جَبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَلَاهُ عَلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهِ، فَإِنِّي أَجِدُ عِنْدَ حَمَلَتِهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا فِي تَحْرِيفِهِ وَتَصْحِيفِهِ، وَنَقْصِهِ وَزِيَادَتِهِ، وَإِعْرَابِهِ وَغَرِيبِهِ وَوَضْعِهِ وَتَرْتِيْبِهِ؛ وَلِهَذَا وَأَشْبَاهِهِ اخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ، وَشُكِّ فِي تَنْزِيلِهِ، وَكَثُرَ خَوْضُ النَّاسِ فِيهِ وَفِي تَفْسِيرِهِ، وَالِاحْتِجَاجَ لَهُ. وَقَدْ سَبَقَ عِلْمِي أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَا يَكُونُ فِي حَكْمِ كَلَامِ عِبَادِهِ، وَأَنَّ مَا يَجُوزُ عَلَى ذَلِكَ لَا يَجُوزُ

(١) ضَلَعُهُ: مِيلُهُ. ضَلَعَ مَعَ صَدِيقِهِ: آيَّدَهُ، عَاوَنَهُ، شَارَكَهُ، مَالَ إِلَيْهِ.

(٢) أَعْرَضَ: ظَهَرَ.

عَلَى هَذَا، لِأَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ كَرِيمٌ رَحِيمٌ، وَالْحِكْمَةُ وَالكَرَمُ وَالرَّحْمَةُ تَأْتِي مَا تَصِفُونَ بِهِ كِتَابَ رَبِّكُمْ، وَتَسْتَجِيزُونَهُ فِي كَلَامِ خَالِقِكُمْ.

قال: وهذا الذي قلتُ بَيْنَ معروف؛ القَرَأَةُ<sup>(١)</sup> تَخْتَلِفُ ضَرْبًا مِنَ الْاِخْتِلَافِ، وَالنَّقْلَةُ تَخْتَلِفُ ضَرْبًا آخَرَ، وَالْفَقْهَاءُ تَخْتَلِفُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ ضَرْبًا آخَرَ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْكَلَامِ؛ وَحَتَّى أَفْضَى هَذَا إِلَى طَعْنِ الزَّنَادِقَةِ فِيهِ، وَأَنْجَرَ عَلَيْهِ قَدْحَ الْمَلْحِدِينَ بِهِ، وَقَالَ كَلَامًا كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ، فَكُلُّهُمْ كَاعٌ<sup>(٢)</sup> عَنِ الْجَوَابِ، وَكَادَ أَبُو الْجَيْشِ بَعْدَ تَدَرُّعِهِ بِالْقَوْلِ يَشْمَتُ وَيَبَالِغُ فِي التَّشْنِيعِ.

فقال عَزَّ الدَّوْلَةُ: يَا أَبَا الْجَيْشِ أَنْتَ فِي مَعْرَكَةٍ لَا مُبَارٍ لَكَ فِيهَا، فَافِرٍ كَيْفَ شِئْتَ وَذِرٍ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ.

فانْبَرَى أَبُو حَامِدٍ وَتَكَلَّمَ بِمَلءِ فِيهِ، وَمَحَقَّ أَبَا الْجَيْشِ وَبَيَّضَ وَجْهَهُ النَّاسِ.

فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْهَاشِمِيِّ: لَقَدْ دَعَمْتَ الْإِسْلَامَ بِدِعَامَةٍ لَا يُزْعِزُهَا الزَّمَانُ، وَلَقَدْ حَصَّنْتَ الدِّينَ حَصَانَةً اللَّهُ يَجْزِيكَ عَنْهَا، وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكَافِئُكَ عَلَيْهَا.

وَلَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لَا تَحْتَمِلُ الْمَسْأَلَةَ وَالْجَوَابَ بِمَا فِيهَا مِنْ فُنُونِ الْقَوْلِ لِأَتَيْتُ بِالْمَجْلِسِ عَلَى وَجْهِهِ.

فَهَذَا كَانَ اقْتِدَارَ الْبَصْرِيِّ جُعَلٌ<sup>(٣)</sup> فِي الْمُنَازَرَةِ، وَقُوَّتَهُ عِنْدَ لِقَاءِ الْخَصْمِ وَنُصْرَةَ الْمَذْهَبِ وَالِدِّينِ.

وَلَقَدْ ذَكَرْنَا عَيْنًا عِشْرِينَ سَنَةً عَلَى صَاحِبِ بَغْدَادٍ لِصَاحِبٍ...<sup>(٤)</sup> حَتَّى آلَتْ الْأُمُورُ إِلَى مَا عَرَفَهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ بِأَصْحَابِهِ أَصْحَابِ الْمَحَابِرِ وَالْأَقْلَامِ وَالْكَرَارِيسِ.

(١) القَرَأَةُ: جَمْعُ الْقَارِئِ.

(٢) كَاعٌ عَنِ الشَّيْءِ: هَابَةٌ وَجُبْنٌ عَنْهُ.

(٣) جُعَلٌ: بُوْزَنُ هُبَلٍ، لُقِبَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيِّ، وَقَدْ سَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ عِنْدَ التَّرْجُمَةِ لَهُ.

(٤) نَقَصَ بِالْأَصْلِ.

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ قَلَّةِ دِينِهِ أَنَّهُ صَنَّفَ رِسَالَةً ذَكَرَ فِيهَا الدَّلَالََةَ عَلَيَّ أَنَّهُ هُوَ الْمَهْدِيُّ الْمُنْتَظَرُ. قَالَ: فَإِنْ مَعْنَى الْمَهْدِيِّ أَنَّ اللَّهَ هَدَاكَ، وَهَدَى أَهْلَ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ لَكَ؛ وَأَمَّا الْمُنْتَظَرُ فَلَأَنَّا كُنَّا نَنْتَظِرُكَ بِالْعِرَاقِ. وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ مَشْهُورَةٌ آخِرُ مَا رَأَيْتُهَا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمَذْهَبِ مَكْتُوبَةٌ بِالذَّهَبِ، وَحُمِلَتْ فِي جُمْلَةِ الْهَدَايَا إِلَى قَابُوسٍ (١).

وَسَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الْفَرَّغَانِيَّ الْحَنيفِيَّ يَقُولُ: مَا خَلَوْتُ بِفِكْرِي فِي أَمْرِي وَمُتْلَاظِمِي هَذَا الرَّجُلِ - يَعْنِي الْبَصْرِيَّ - إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرْسِلُ عَلَيَّ صَاعِقَةً أَوْ يَجْعَلُنِي آيَةً وَعِبْرَةً بَاقِيَةً.

وَأَمَّا ابْنُ أَبِي كَانُونَ (٢) فَإِنِّي قُلْتُ لَهُ يَوْمًا: مَا لِي أَرَاكَ وَاجِمًا مِنْ غَيْرِ عَارِضٍ، وَطَوِيلَ السَّكُوتِ مِنْ غَيْرِ عِيٍّ، وَكَثِيرَ الْفِكْرِ مِنْ غَيْرِ سُوَّاسٍ، وَشَدِيدَ الْحُزْنِ مِنْ غَيْرِ إِفْلَاسٍ؟ لَيْسَ لَكَ أُنْسٌ بِالْجَمَاعَةِ، وَلَا نَفْكُهُ بِالْمَحَادَثَةِ، وَلَا اسْتِمْتَاعٌ بِالْمَجَالِسَةِ، بَعْدَ مَا عَهَدْتُكَ فِي حَدِيثَانِ مَقْدَمِكَ وَأَنْتَ تَتَّقِدُ كَالنَّارِ، وَتَزَخَّرُ كَالْبَحْرِ، وَتَأْرُنُ (٣) كَالْمُهْرِ، وَتَذَكُو كَالْعَنْبَرِ.

فَقَالَ: وَمَنْ أَوْلَى بِالْبَالِ الْكَاسِفِ وَالْغَمِّ الطَّوِيلِ وَالْأَرْقِ الدَّائِمِ مَنِّي؟ فَارْقَتْ وَطَنِي وَأَهْلِي وَإِخْوَانِي وَمَعَارِفِي وَجَمِيعَ مَا كُنْتُ أَلْفُهُ وَأَحْيَا بِهِ، وَأَشْتَمُّ رُوحَ الْعَيْشِ مِنْهُ، وَتَجَرَّعْتُ مَرَارَةً بَعْدِي عَنْهُمْ، وَصَبِرْتُ نَفْسِي عَلَيَّ مَا نَالَهُمْ بِخُرُوجِي مِنْ بَيْنِهِمْ وَسُلُوتِي دُونَهُمْ، وَمَا نَزَلَ بِي بَعْدَهُمْ مِنْ جَفَاءِ الْغُرْبَةِ وَوَحْشَةِ الْوَحْدَةِ، وَشِظْفِ الْعَيْشِ بِالْقِلَّةِ - كُلُّ ذَلِكَ طَمَعًا فِيمَا أُبْرِدُ بِهِ غَلِيلَ قَلْبِي فِي الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ، وَأَنْفِي بِهِ الْحَرَجِ مِنْ صَدْرِي وَأَسْعَدُ، وَأَنْ أَخْذُ مِنْ هَذَا الشَّيْخِ مَا أَهْتَدِي بِهِ وَأَسْكُنُ إِلَيْهِ، وَأَجْعَلُهُ عُدَّةً لِآخِرَتِي. وَالْآنَ

(١) هو شمس المعالي قابوس بن وشمكير الديلمي صاحب جرجان، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ.

(٢) ذكره أبو حيان في الصداقة، قال:

«ولقد قلت لابن أبي كانون: لِمَ لَا تَخَالِطُ أَصْحَابَ ابْنِ الرَّازِيِّ؟ فَأَنْشُدْ:

إِنَّ السَّلَامَةَ مِنْ سَلْمَى وَجَارَتِهَا  
أَنْ لَا تَمْرُؤًا بُوَادِيهَا عَلَى حَالٍ»

(٣) أَرْنُ: نَشِطٌ وَمَرِحٌ.

قد حصلتُ - بعد الدراسة الطويلة والمنازعة الشديدة وبعد البحث والنظر والكشف والجدل، وبعد اعتبار هذا الشيخ في نفسه وسيرته وما عليه أصحابه والمقدمين عنده - على حالٍ عسراء، وغاية عمياء، وما أراه إلا صاحبَ دُنيا يعمل للعاجلة، ولا أرى أصحابه المُطيفين به إلا كذلك، وإن هذا مما يؤلم القلب، ويُفِرِّق البال، ويحشد الهمم، وينفر الناس، ويوقع اليأس؛ فلذلك ما تراني على غير ما عهدتني عليه.

وأما ابن بُنان الوراق فإني سمعته يقول:

لقد خَطَبَ البصريَّ على الإسلام بما لا يقدر عليه الروم والتَّرك.

قلت: وكيف ذاك وأنت لا ترى اليوم ببغداد مجلساً أبهى من مجلسه، لما يجتمع فيه من مشايخ العراق وشبان خراسان، وفقهاء كل مَصر، وما في هؤلاء أحدٍ إلا وهو يصلح أن يكون داعيةً صُقعٍ وإمامَ بلد؟

فقال لي: صدقت، فهل تعرف فيهم من إذا ذُكر الله وجل قلبه وأقشعرَّ جلده، واطمأن صدره؟ أو إذا سمع موعظةً دمعت عينه وخشعت نفسه أو سُمع نسيجه؟ وإذا عرضت له منالَةٌ عفت نفسه؟ أو إذا هاجته شهوةٌ اتقى عندها ربَّه؟ أو إذا لزمه إنكارٌ أمرٌ بدَّل فيه وسعَه؟

أما ترى اللَّعب والمِزاح والسفَه والقِحة والتَّجْلِيح<sup>(١)</sup> والفِسقَ والفجورَ فاشيةً فيهم، وغالبةً عليهم، وظاهرةً بينهم؟

أما لك في الرّازي أبي الفتحِ عبرة؟

أما لك بابن طرخانِ خبرة؟ فما زال يقول هذا وأشباهه حتى سَدَدْتُ وقطعتُ عليه.

(١) التَّجْلِيحُ: الإقدام الشديد والتصميم في الأمر والمُضِي.

وكان أبو إسحاق النَّصِيبِيَّ (١) من أَفْسَقِ الفاسقين، وهو يُلقَّبُ بمُقَعَّدَةٍ (٢)، لا أَعْلَمُ في الدنيا قاذورةً إلا أتاها، ولا خساسةً إلا أظهرها وجاهر بها، هكذا كان ببغداد، ثم بالدَّيْنُورِ عند أبي عمرو كاتب فخر الدولة الإصبهاني، وحديثه بإصبهان مشهور. وكذلك بالصَّيْمَرَةِ، وكيف أَكَلَ في نهار شهر رمضان من غير عُذْرٍ، وكيف تهتَّك بجماعةٍ من الأحداث. نعوذُ بالله من الخذلان.

وحدثنا أبو سليمان محمد بن طاهر السَّجِسْتَانِي، وكان بعيداً من التَّزْيِيدِ شديد التَّوْقِي، قال: حضرتُ وليمةً في قطعة الربيع، فلقيني فيها البصريُّ أبو عبد الله، فجلس إلى جانبي، وتصرَّف في الحديث معي، وأرخى عنانه إليَّ إلى أن قال لي: يا أبا سُليمان، هل وجدتم في فلسفتكم شيئاً تسكنون إليه، وتعتمدون عليه؟ فأنا من الكلام ومذاهب أهل الجدَلِ على غرور (٣).

قال: فسكتُ من أجل الموضوع، وقلتُ:

الناس أخيافٌ وشتَّى في الشَّيْمِ وكلهم يجمعهم بيتُ الأَدَمِ (٤)  
فقال: آخرُ ما عندي أن الأدلة تتكافأ، وأن المذاهب والآراء والنَّحلَّ جاريةٌ بين  
أربابها على قُوَّةِ النتائجِ وضعفها، وجودة العبارة ورداءتها.

قال: وقلتُ له: ما بعدَ نظركَ نظر، ولا بعدَ تحصيلك تحصيل، وانتهى.

وأمثلُ من شاهَدناه عندنا ببغداد: الواسطيُّ أبو القاسم. وكان يبرأ إلى الله من البصريِّ جُعَلٍ، ويلعنه عند الوليِّ والعدوِّ تقرباً إلى الله.

(١) هو إبراهيم بن علي المتكلم المعتزلي، كان من غلمان أبي عبد الله البصري، وكان الصاحب بن عباد قد طلب من البصري أن ينفذ إليه رجلاً يدعو بعلمه وعمله إلى مذهب المعتزلة، فأنفذ إليه البصري النصيبي هذا، وكان حسن اللفظ جيد الحفظ، ولكنه يرقُّ للصاحب لشراسة خلقه، فأكرمه وأمره بالانصراف. قال عنه أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة (١/١٤٤): «وأما أبو إسحق النصيبي فدقيق الكلام، يشك في النبوات كلها، وقد سمعتُ منه فيها شُبُهًا، ولغته معقدة، وله أدب واسع».

(٢) في الإمتاع: ولغته معقدة.

(٣) على غرور: على باطل.

(٤) أخياف: أمهم واحدة وآباؤهم شتَّى.

وكان ابن التلاج يقول: حَكَمَ اللهُ بيننا وبينَ ابنِ عبَّادٍ وفلان، فإنَّهما سلَّطَا هذا الإنسانَ في هذا المكانِ حتَّى أفسدَ مَنْ أجابه إلى المذهب، ونفَّرَ من أراد أن ينظرَ في «العَدْلِ والتوحيد».

وسمعتُ الفرغانيَّ يقول: لولا أنني لا أعرف في جميع المذاهب أقوى من مذهب المعتزلة لناديتُ على أصحابي بمخازيهم التي يشتَمِلون عليها ويُجاهرون بها، في الأسواق والشوارع، بل في المحاضِر<sup>(١)</sup> المشهورة والمنابر الرِّفِيعَة، ولكن لهم حُرْمَة الدعوى وذمام النَّسَبِ إلى المقالة، ورجاءٌ في الإقلاع والتَّوبَة، فإنَّ اليأسَ غيرُ غالبٍ ما دامت الاستِطاعةُ موجودةً، والنُّزوعُ ممكناً، والتَّلافيُّ مظنوناً.

ذاك حديثُ ابنِ عبَّاد، وهذا حديثُ شيخه وإمامه ومُرشدِه برَّعمه، وهو المرشد والهادي لمن أخذ عنه واقْتدى به. يا قوم! أين يذهب بكم؟! ما هذا العمى الذي قد غلبَ عليكم، والهوى الذي قد أصمَّ آذانكم وأعمى أبصاركم؟ وما هذا الأمرُ الذي قد حالَ دون العيان، وطمسَ وجه الرُّشد، وقلَّبَ أثر الحسِّ؟ أليس هذا القائل في مُجونه وتلعبه بدينه:

مِنَ عَمَلِي مِن عَمَلِي نيكُ الرِّجالِ البُزَّلِ  
وإنما أنيكمهم لأنني مُعتزلي  
تلميذُ شيخِ فاضلٍ مُلقَّبٍ بالجُعَلِ

أفهل هذا يكون من كان عماد الدين، وناصر الإسلام والمسلمين؟ الويلُ له، ثم الويل لمن يتولاه وينصُرُه.

قال يوماً لابن فثيشا صاحب مَصْطَبَةِ المُكْدين بالرِّيِّ:

لا تُبْطِئَنَّ عن اللذاتِ إنْ حضرتِ لكن تَبَنَّكَ ولا تحفل بتأنيب<sup>(٢)</sup>

(١) المحاضر: المحافل والمجتمعات.

(٢) تَبَنَّكَ بِالْمَكَانِ: أقام وتمكَّن، تَبَنَّكَ فِي عَزِّهِ: تمكَّن.

ولا تَزُقْ إِذَا مَا نِلْتَ ذَاكَ وَبِتْ مَعَ شَوْزَرٍ وَافِرِ الْأُرْدَافِ مَحْبُوبِ<sup>(١)</sup>  
 فَالصَّمِي وَالْمَتْرُ مِنْ بَعْدِ الْقُشَامِ بِهِ طِيبُ الْحَيَاةِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ الطَّيِّبِ<sup>(٢)</sup>  
 خذ في القُشَامِ وَخِذْ فِي الصَّمِي بِالْكُوبِ فَالذَّهْرُ يَمْزِجُ تَكْسِيحًا بِتَهْرِيْبِ  
 أَفْهَذَا كَلَامٍ مِنْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ، وَيُجْرَى عَلَى طَرِيقَتِهِ، وَيَكُونُ  
 ذَرِيعَةً بَيْنَ اللَّهِ وَالْعَبْدِ؟

هذا - عافاك الله - باللعنة أولى، وبالبراءة منه ومن أصحابه أحق. ما أقلَّ حياءَ  
 هؤلاءِ وأشدَّ تكاذبهم ومكابرتهم!  
 وَإِذَا ضَرَبْتَ عَنِ بَابِ الدِّينِ، وَرَجَعْتَ إِلَى الْكُفَايَةِ الَّتِي زَعَمَ أَنَّهُ بِهَا تُكْفَى، وَأَنَّهُ  
 كَافِي الْكُفَاةِ، وَأَنَّهُ وَاحِدُ الدُّنْيَا.

هل كان يعرف من الحساب بأبًا؟

هل عقد جماعة؟

هل عقدت له فتكلم عليها؟

هل قرأ مؤامرة<sup>(٣)</sup>؟

هل عُرف منها حد؟

هل أمكنه أن يحتج على عامل أو يناظر ناظرًا؟

أَن يُخَاطَبَ مُشْرِفًا، أَوْ يَرَسُمَ فِي الْعَمَلِ رَسْمًا، أَوْ يُجِيبَ عَنِ كِتَابٍ وَاحِدٍ فِي

العمالة؟

(١) الشوزر: الغلام الأمد.

(٢) الصمي: الصهياء من الخمر، المتر: النكاح. القشام: أكل الرديء من الطعام.

(٣) في مفاتيح العلوم للخوارزمي: والمؤامرة: عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع (رزق الجند) ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك، وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استثمار واستدعاء توقيع.

وفيما يتعلق بأبواب النظر في العمارة، هل ناظر خائناً مُقْتَطِعًا، أو استدرك مالا مُختلَسًا؟

هل فَصَلَ حُكُومَةً<sup>(١)</sup> بين كاتِبَيْنِ، أو قَطَعَ خصومةً بين جُنْدِيَيْنِ؟ هل رأينا ثَمَّ إِلَّا الرِّقَاعَةَ والتَّنْدِيقَ<sup>(٢)</sup>، والجَنُونَ والهِذْيَانَ، والتَّسَائِيلَ والتَّمَايِلَ<sup>(٣)</sup>، والبَقْبِقَةَ والطَّقِطَقَةَ<sup>(٤)</sup>، والقرقرة والبربرة؟ إِلَّا أَنَّهُ غُلِطَ فِيهِ وَوُثِقَ بِهِ، وَوُكِّلَ إِلَيْهِ الرَّأْيَ، وَلَمْ يُوذَنَ لِأَحَدٍ فِي تَحْرِيكِهِ بِكَلِمَةٍ، وَلَا فِي مُضَادَّاتِهِ بِحَرْفٍ، حَتَّى تَمَّ لَهُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِأَسْهَلِ وَجْهِهِ مَعَ الْجَدِّ الْمُوَاتِي، وَالْأَمْرِ الْمُتَنَادِّ، وَحَبَّ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ كِفَايَةِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحِذْقٍ فِي الْعَمَلِ، وَسَعَةِ عِلْمٍ بِالْكِتَابَةِ الدِّيَوَانِيَّةِ وَالرُّسُومِ الْخِرَاجِيَّةِ.

وسئل يوماً عن قول الشاعر:

سَقَوْنِي النَّسِيَّ ثَم تَكْتَفُونِي عُدَاةَ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ  
فقال: الخمرُ تسمى نَسِيًّا.

ف قيل له: ولم؟

فقال: ليس للأسماء علل.

فلما خلوت بالزرعفراني الشاعر قال لي: أخطأ، فإن الأسماء ضربٌ منها مُبتدأً، فالغرض فيه اختصاصُ العين به ليقع التمييز بينه وبين غيره، وضربٌ آخر يؤخذ من أصل الفعل وهو الذي سمي مُشتقاً لتكون فيه دالتان: دلالةٌ كدلالة الأول في اختصاص العين، ودلالةٌ على النعت.

والنسي في أسماء الخمر من الضرب الثاني، لأن الخمر تنسأ العقل أي تؤخره، وقال: هذا قاله بعض العلماء.

(١) حكومة: حُكْم وقضاء يصدر في قضية: قبلنا حكومتك بيننا.

(٢) التندق: الاعوجاج.

(٣) كأنه يعني المياعة والتخنث.

(٤) البقبقة: كثرة الكلام. الطقطقة: الضجيج والضوضاء.

فقلتُ له: هَلَّا قُلْتَ هذا في المجلس؟

فقال: لو قلتُ هناك لما وجدتني عندك قاعدًا مطمئنًا.

قلتُ: صدقتَ، الرجلُ حَسُودٌ.

فقال: ولربِّه كَنُودٌ<sup>(١)</sup>، ولآياته عَنِيدٌ<sup>(٢)</sup>، كأنه من اليَهُودِ أو من بَقِيَّةِ ثَمُودِ.

ولقد غَضِبَ يوماً من شيءٍ رَوَاهِ المِصْرِيُّ، وَحَجَبَهُ أَيامًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ رَوَى أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وَعَاءٌ، وَحِجْرِي لَهُ حِوَاءٌ، وَثَدِي سِقَاءٌ، وَزَعَمَ أَبُوهُ أَنَّهُ يَنْزِعُهُ مِنِّي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكَحِي»<sup>(٣)</sup>.

وَكَانَ غَضَبُهُ مِنَ الحَسَدِ، لِأَنَّهُ رَوَى هَذَا فِي عُرْضِ حَدِيثٍ بِفِصَاحَةٍ وَتَسَهُّلٍ.

وَلَهُ مِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ، كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ أَحَدٍ كَلَامًا مَنْظُومًا.

قال لأبي السلم مسلم الأعرابي يوماً: ما خَبَرُكَ مع فلان؟

قال: انقلبتُ عنه خاسئًا وأنا حَسِيرٌ.

قال: لا تَتَّبِعْ أَمْثالَهُ.

قال: أَيُّهَا الصَّاحِبُ، مَا أَعْلَمَنِي بِمِظَانِ الرَّجَاءِ وَالخَيْبَةِ! وَلَكِنِّي رَبَّمَا اغْتَرَرْتُ بِالشَّكِّ اغْتِرَارًا، وَانجَرَرْتُ عَلَى الشُّوكِ انجِرَارًا، وَأَخْرَجْتُ دَعْوَايَ أَنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَقْطَعْ أَمَلِي مِنْ خَيْرِهِ حَتَّى غَمَرَنِي بِأَيَادِي غَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَنْتَ.

وَكَانَ حَسَدُهُ لغيره عَلَى فَصْلِ حَسَنٍ، وَلَفْظٍ حَرٍّ، بِقَدْرِ إِعْجَابِهِ بِمَا يَقُولُهُ وَيَكْتَبُهُ؛

كَتَبَ يَوْمًا إِلَى إِنْسَانٍ:

(١) إشارة إلى الآية (٦) من سورة العاديات.

(٢) إشارة إلى الآية (١٦) من سورة المدثر.

(٣) أخرجه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٢٧٦) وقال: حسن.

«وَأَقْسِمُ أَنَّكَ لَوْ كَتَبْتَ بِأَجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ عَلَيَّ جِبَاهِ الْحُورِ الْعِينِ، مُسْتَمِدًّا مِنْ أَحْدَاقِ الْوَلْدَانِ الْمَخْلَدِينَ، جَوَازًا عَلَيَّ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ لَمَا حَسَّنَ هَذَا الْبَخْلُ».

فَأَخَذَ يُعِيدُ هَذَا وَيُبْدِيهِ، وَيَقُولُ: كَيْفَ تَرُونَ؟ وَكَيْفَ تَسْمَعُونَ؟ وَهَلْ قَرَأْتُمْ شَبِيهَهُ؟ وَرَوَى فِي مَجْلِسِهِ يَوْمًا ابْنَ ثَابِتِ الْبَغْدَادِيِّ حِكَايَةَ الْخَلِيلِ، فَأَحْسَنَ سِيَاقَتَهَا وَإِمْرَارَهَا، فَحَجَبَهُ أَيَّامًا وَأَخَّرَ عَنْهُ رَسْمَهُ. وَقَالَ: تَبَسَّطَ فِي مَجْلِسِنَا، وَاسْتَحْفَرَ<sup>(١)</sup> بِحَضْرَتِنَا، وَتَرَكَ تَوْقِيرَنَا وَهَيْبَتَنَا. حَتَّى تَشَفَّعَ فِي أَمْرِهِ أَبُو الْحَسَنِ الطَّيِّبِ وَغَيْرُهُ فَعَادَ لَهُ عَلَيَّ تَشَفُّؤًا.

وَأَنَا أَسُوقُ حِكَايَةَ الْخَلِيلِ حَتَّى تَكُونَ فَائِدَةٌ فِي هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي نَشِبْنَا فِيهِ. قَالَ الْخَلِيلُ: دَخَلْتُ عَلَيَّ سَلِيمَانَ بْنَ عَلِيٍّ وَهُوَ وَالِي الْبَصْرَةَ فَوَجَدْتُهُ يُسْقِطُ فِي كَلَامِهِ، فَجَلَسْتُ حَتَّى انصَرَفَ النَّاسُ.

فَقَالَ: هَلْ مِنْ حَاجَةٍ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟

قُلْتُ: أَكْبَرُ الْحَوَائِجِ.

قَالَ: قُلْ، فَإِنَّ مَسَائِلَكَ مَقْضِيَّةٌ، وَوَسَائِلُكَ قَوِيَّةٌ.

قُلْتُ: أَنْتَ سَلِيمَانَ بْنَ عَلِيٍّ، وَكَانَ عَلِيٌّ فِي الْعِلْمِ عَلِيًّا، وَكَانَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ الْحَبْرَ وَالْبَحْرَ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ بِنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَ سَامِعَهُ مَا يَأْخُذُ النَّشْوَانَ عَلَيَّ نَقْرَ الْعِيدَانِ؛ وَأَرَأَيْكَ تُسْقِطُ فِي كَلَامِكَ، وَهَذَا لَا يُشْبِهُ مَنْصِبَكَ وَمَحْتَدَكَ.

قَالَ: فَكَأَنَّمَا فُقِيَ فِي وَجْهِهِ الرِّمَانُ خَبَلًا.

فَقَالَ: لَنْ تَسْمَعَهُ بَعْدَهَا، فَاحْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ بَرَهَةً، وَأَكْبَبَ عَلَيَّ النَّظَرَ، ثُمَّ أَذِنَ

(١) اسْتَحْفَرَ الْخَطِيبُ: اتَّسَعَ فِي كَلَامِهِ.

للناس في مجلسٍ عامٍّ، فدخلتُ عليه في ثَمَّةٍ من الناس، فوجدته يُفصح حتى خَلتُه  
معدَّ بن عدنان. فجلست حتى انصرف الناس.

فقال: كيف رأيتَ أبا عبد الرحمن؟

قلت: رأيتُ كلَّ ما سرَّ في الأمير، وأنشدته:

لا يكون السَّرِيُّ مثلَ الزَّرِيِّ      لا ولا ذو الذِّكَاءِ مثلَ الغَبِيِّ  
لا يكون الأَلَدُ ذو المِقْوَلِ المَرِّ      هَفَ عند الخِصَامِ مثلَ العَبِيِّ  
قيمةُ المرءِ كلُّ ما يُحسِنُ، المَرِّ      ءُ قِضَاءٌ مِنَ الإِمَامِ عَلِيٍّ  
أَيُّ شَيْءٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى ذِي السِّدِّ      زُو أَبْهَى مِنَ اللِّسَانِ السَّرِيِّ  
يَنْظُمُ الحِجَّةَ الشَّتِيَّةَ فِي السُّلْدِ      كَ مِنَ القَوْلِ مِثْلَ نَظْمِ الهَدِيِّ  
وَتَرَى اللِّحْنَ فِي لِسَانِ أَخِي الهِمَّةِ      مِثْلَ الصِّدَا عَلَى المِشْرِفِيِّ  
فَاتْلُبِ النِّحْوَ لِلقُرْآنِ وللشَّعْرِ      مُقِيمًا وَالمِسْنَدَ المِزْوِيِّ  
وَالخِطَابُ البَلِيغُ عِنْدَ حِجَاكِ الِ      قَوْمِ يُزْهِى بِمِثْلِهِ فِي النَّدِيِّ  
كُلُّ ذِي الجَهْلِ بالفنون يُعَادِبُ      هَا وَيَزِرِي مِثْلَ بَغِيرِ الزَّرِيِّ

قال: وانصرفتُ. فشيَّعني غلامُه على كَتفه بَدْرَةَ فرددتها عليه، وكتبت إليه:

أَبْلَغُ سَلِيمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي سَعَةٍ      وَفِي غِنَى غَيْرِ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالِ  
سَخَى بِنَفْسِي أَنِّي لَا أَرَى أَحَدًا      يَمُوتُ هَزَلًا وَلَا يَبْقَى عَلَى حَالِ

\*\*\*

وَالرِّزْقُ عَنِ قَدَرٍ لَا العَجْزُ يَدْفَعُهُ      وَلَا يَزِيدُكَ فِيهِ حَوْلٌ مِثَالِ

وقال يوماً: «فَعْلٌ وَأَفْعَالٌ» قليل، وزعم أصحابنا التَّحْوِيُونَ أنه ما جاء إلا زند  
وأزناد، وفرخ وأفراخ، وفرد وأفراد.

فقلت: أنا أَحَفَظُ ثَلَاثِينَ حَرْفًا كُلِّهَا «فَعْلٌ وَأَفْعَالٌ».

قال: هَاتِ يَا مُدْعِي! فَسَرَدْتُ الحُرُوفَ وَدَلَّلْتُ عَلَى مَوَاضِعِهَا مِنَ الكُتُبِ.

ثم قلت: وليس للنحوي أن يجزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبُّحر والسَّماع الواسع، وليس للتقليد وجهٌ إذا كانت الرواية شائعة، والقياسُ مطردًا، وهذا كقولهم: فعيلٌ على عشرة أوجه، وقد وجدته أنا على أكثر من عشرين وجهًا، وما انتهيت في التَّبَع إلى أقصاه.

فقال: خروجك من دعواك في فعل يدلُّنا على قيامك بالحُجَّة في فعل، ولكننا لا نأذن لك في اقتصاصك، ولا نهبُ آذاننا لكلامك، ولم يفِ ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا وتبسُّطك بحضرتنا.

فهذا كما ترى.

وسألني عن أبي حامدٍ المروزي<sup>(١)</sup>. فوصفتُ له نباهته وتقدُّمه وحفظه وبيانه. فقال: ما تحفظ عنه؟ قلت: أشياءٌ مُختلفة، فإنه أقام عندنا ببغداد في آخر أيامه سنتين، ولقد رأيتُه في مجلس أبي الفرج محمد بن العباس في أيام وزارته، بعد أبي الفضل العباس بن الحسين، وهو يتدقق بالكلام مع ابن طرارة.

فلما انتهى قال له أبو الحسن إسحاق الطبري: ارسم لنا كلامًا خفيًا في الدليل، والحُجَّة، والبرهان، والبيان، والقياس، والعلة، والحكم، والاسم، والحرف، والنص، والظاهر، والباطن، والتأويل، والتفسير، والفحوى، والاستحسان، والتقليد، والافتداء، والإجماع، والأصل، والفرع، والوجوب، والجواز.

فاندفع فقال:

الدليل: ما سلكك إلى المطلوب.

والحُجَّة: ما وثقك من نفسه.

والبرهان: ما أحدث اليقين.

والبيان: ما انكشف به الملتمس.

(١) سبقت ترجمته.

والقياس: ما أَعَارَكَ شِبْهَهُ من غَيْرِهِ، أو استعار شِبْهَهُ غَيْرَهُ من نَفْسِهِ.  
والعِلَّةُ: ما اقْتَضَى أبدأً حَكْمًا بِاللُّزُومِ.  
والحَكْمُ: ما وَجِبَ بالعِلَّةِ.  
والاسْمُ: ما صَحَّتْ به الإِشَارَةُ إلى مُشَارٍ إليه.  
والفِعْلُ: ما شَاعَ في الزَّمَانِ.  
والحَرْفُ: ما اتَّكَلَفَ به اللفظُ.  
والنَّصُّ: ما أَعْنَى بِنَفْسِهِ لاسْتِقْلَالِهِ.  
والظَّاهِرُ: ما سَبَقَ إلى النَّفْسِ بلا جَالِبِ.  
والبَاطِنُ: ما غِصَّ عَلَيْهِ بالتَّفْسِيرِ.  
والتَّأْوِيلُ: الجِهَةُ المَتَّبَعَةُ عن المَرَادِ، ومع ذلك فَهِيَ مَشْمُولَةٌ تارةً بالقَصْدِ، وتارةً  
بغير القَصْدِ.  
وَالفَحْوَى: الجِهَةُ القَرِيبَةُ.  
والتَّفْسِيرُ: عِبَارَةٌ عن عِبَارَةٍ على طَرِيقِ الخِلَافَةِ.  
وَالاسْتِحْسَانُ: القَوْلُ الأَوَّلَى والأَشْبَهُ في ظَاهِرِ الحَالِ.  
والتَّقْلِيدُ: قَبُولٌ بلا بَيَانِ.  
وَالاِقْتِدَاءُ: سَلُوكٌ مع عَالِمٍ سَالِفِ.  
وَالإِجْمَاعُ: اتِّفَاقُ الآرَاءِ الكَثِيرَةِ.  
وَالأَصْلُ: ما لَمْ يَنْظُرِ إلى ما قَبْلَهُ، لأنَّهُ بِنَفْسِهِ قَبْلَ غَيْرِهِ.  
وَالفِرْعُ: ما انشَعَبَ عن الأَوَّلِ.  
وَالوَجُوبُ: ما لَمْ يَسَعِ الإِضْرَابُ عَنْهُ.  
وَالجَوَازُ: ما وَقَفَ بَيْنَ الوَاجِبِ وَبَيْنَ غَيْرِ الوَاجِبِ.  
وكاد لا يَسْكُتُ.

فقال له أبو الفرج: ما كان أبو محمد المهلب يثني عليك جزافاً، ولا يشغف بك على طريق الهوى.

فقال لي: كيف حفظت هذا؟

قلت: كنا جماعة نتعاون على ذلك، ونرسم في ألواح.

فقال لي: إني لشديد الحسرة على فوت لقائه، ومما يزيدني عجباً به أنه كان على مذهب أصحابنا، ولو نصر في الأحكام مذهب أبي حنيفة لكان قدوة لأهل زمانه.

وقال له بعض الغرباء:

إذا قلت عشي الرجل كما تقول: عمي الرجل، وتقول: يعشى كما تقول يعمي، وقلت أعشى كما تقول: أعمى، فهلاً قلت: امرأة عشيء كما قلت عمياء، ولك مع ذلك شفة لمياء وفاه<sup>(١)</sup> ظمياء؟

قال: فهكذا أقول.

قال له: قد خالفت العلماء، لأنهم نصوا عشواء كما قالوا: ناقة عشواء.

فقال: في هذا نظر.

وأخطأ. وأي نظر في المسموع؟

وحدثني محمد بن المرزبان قال: كنا بين يديه ليلة فنعس، وأخذ إنسان يقرأ «والصافات»، فاتفق أن بعض هؤلاء الأجلاف من أهل ما وراء النهر نعس أيضاً، وضرط ضرطة منكرة، فانتبه وقال: يا أصحابنا نمنا على «والصافات»، وانتبهنا على «المرسلات». هذا من ملاحظاته.

وحدثني أيضاً قال:

انفلتت ليلة أخرى ضرطة من بعض الحاضرين، وهو في الجدال، فقال على حديثه

(١) هكذا بالأصل، ولعلها: «وشفاه».

وجنونه: «كَانَتْ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ»، خُذُوا فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ، يَعْنِي «كَانَتْ فَلْتَةً» لِأَنَّهُ قِيلَ فِي بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ «كَانَتْ فَلْتَةً».

أَفْهَذَا مِنَ الْمَجُونِ الْمَسْتَطَابِ؟ أَوْ مِنْ جِنْسِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَحْكِيًّا عَنِ الرُّؤَسَاءِ الدِّيَّانِينَ وَالْكُبْرَاءِ الْمَسْتَبْصِرِينَ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْفَضْلَ وَالْمُرُوَّةَ وَالِدِيَانَةَ، وَاحْتِقَارِ النَّاسِ؟

وَقَالَ لَهُ ابْنُ ثَابِتِ الْحَوِيِّ<sup>(١)</sup> يَوْمًا: أَنَا أَكَلْتُ التَّمْرَ عَلَيَّ أَنَّهُ كَانَ مَرَّةً رُطْبًا، يَتَمَلَّحُ مَعَهُ، أَيَّ أَمِيلٍ إِلَى الْحَدِيثِ وَإِنْ بَقِلَ وَجْهُهُ، لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ مَرَّةً أَمْرَدًا. فَقَالَ لَهُ: فَكُلْ الْخَرَاعَةَ عَلَيَّ أَنَّهُ مَرَّةً كَانَ هَرِيْسَةً. وَسَمِعْتُهُ يُنْشِدُ فِي الشَّاعِرِ الْمَلَقَّبِ بِالْمَشُوقِ:

وَدِيْثُوْثٍ يُقَالُ لَهُ الْمَشُوقُ لَهُ مِنْ عِرْسِهِ كَسْبٌ وَسُوْقُ  
فَكَمْ خَيْرٍ يُسَاقُ إِلَيْهِ مِنْهَا وَكَمْ أَيْرٍ إِلَى حِرِّهَا يَسُوْقُ  
وَكَانَ يُنْشِدُ فِي شَيْخٍ كَاتِبٍ مِنْ أَهْلِ جُرْجَانَ:

جَزَعْتُ مِنْ أَمْرِ فُظِيْعٍ قَدْ حَدَثَ  
ابْنَ تَمِيْمٍ وَهُوَ شَيْخٌ لَا حَدَثَ  
قَدْ حَبَسَ الْأَصْلَعَ فِي بَيْتِ الْحَدَثِ

وَرَأَيْتُ شَيْخًا قَدِمَ مَعَ الْحَاجِّ مِنْ خُرَاسَانَ يُعْرِفُ بِالْخُشُوعِيِّ، مِنَ الْكِرَامِيَّةِ<sup>(٢)</sup> أَصْحَابِ الْبِرَانِسِ، حَضَرَ مَجْلِسَهُ وَنَظَرَ فِي مَسْأَلَةِ الْجِسْمِ، وَكَانَ يَقُولُ، وَهُوَ مَذْهَبُ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ فِي الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ: لَمَّا كَانَ مُتَبَيِّنًا بِالْعَقْلِ دُونَ غَيْرِهِ، وَكَانَتْ لَا أُثْبِتُ بِالْعَقْلِ إِلَّا مَعْقُولًا، كَمَا لَا أُثْبِتُ بِالسَّمْعِ إِلَّا مَسْمُوعًا، وَكَمَا لَا أُثْبِتُ بِالْبَصَرِ إِلَّا

(١) هَكَذَا بِالْأَصْلِ.

(٢) الْكِرَامِيَّةُ: أَصْحَابُ مُحَمَّدِ بْنِ كِرَامٍ، يَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ وَالتَّصْدِيقُ بِاللِّسَانِ دُونَ الْقَلْبِ، وَأَنْكَرُوا أَنَّ تَكُونَ مَعْرِفَةَ الْقَلْبِ أَوْ شَيْءٍ غَيْرِ التَّصْدِيقِ بِاللِّسَانِ إِيْمَانًا، وَزَعَمُوا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا مُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ هُوَ الْجُحُودُ وَالْإِنْكَارُ لَهُ بِاللِّسَانِ. (مَقَالَاتُ الْإِسْلَامِيِّينَ: ١/ ٢٣٣).

مُبَصَّرًا؛ وكان إثباتُ العقل لمن هو غيرُ جسمٍ في المشاهدة غيرَ معقول، وَجَبَ أَنْ يكونَ جسمًا لأنه قد كان دخل في قسمة المعقول؛ وَإِنْ بطلَ أَنْ يكونَ جسمًا بطلَ أَنْ يكونَ معقولًا، وقد ثبتَ أَنَّهُ مَعْقُولٌ؛ فَإِذَا قد ثبتَ أَنَّهُ جِسْمٌ.

فقال ابن عباد: هاتوا مسألةً أخرى، فسماعُ كلامِ الحُكَلِيِّ<sup>(١)</sup> أَرَجَعَ بالفائدة من هذا، وأخذَ في مسألةٍ أخرى.

وحكى قومٌ منهم أبو طاهر الأنماطي والقطن أنه قد سُدِّه ولم يحضره في الحالِ شيء، وكان الخَصْمُ أَلَدَّ إذا سلاطةٍ قليلٍ الاكتراث، حضر غير طائع، وتكلم غير متروِّع. وعاد هذا الشيخ في مجلسٍ آخر، فقال له:

أَتَقُولُ إِنَّ اللَّهَ جِسْمٌ؟

قال: نَعَمْ.

قال: فَإِذَا كانَ جِسْمًا جازَ أَنْ يكونَ فوقه شيءٌ أو تحته شيء، أو عن يمينه شيء، أو عن يساره شيء.

قال: نَعَمْ.

قال: فما تُنكرُ أَنْ يكونَ معبودك الآن في هذا الصندوق؟

فخمد الخراساني خَمْدَةً ثم اشتعل فقال: أليس عندك أن الله متكلم بكلامٍ يَفْعَلُهُ في الأحوال المختلفة؟

فقال: بلى.

قال: فما تُنكرُ أَنْ يكونَ هذا الحمار يُنْعِظُ، فيُحِلُّ اللهُ كلامه في جُرْدَانِهِ، فيقول: أنا ربكم الأعلى، وتسمع ذلك منه.

(١) حَكَى عليه الأمرُ: أَشْكَلَ والتبس. واختكَل فلانٌ: تعلَّم العجمية بعد العربية. يريد صاحب أنه يتكلم بما يُلبس ويُشكَل.

فانخرزل<sup>(١)</sup> ابن عباد وقال: خذوا في غير هذا.

والسخرُ والجرأةُ وسوءُ الأدبِ وإطلاقُ اللسانِ بما لا يجوزُ ديناً ومروراً غالباً على أصحابِ الكلام؛ والتقى والرَّهبةُ والورعُ بعيدةٌ من هذه الطبقة.

وحكى يوماً في نوادره الفاترة ما يدلُّ على قلةِ دينِ القومِ وسوءِ استبصارهم وشدةِ استهانتهم بما يقولونه مُحَقِّينَ ومُبْطِلِينَ، وأنَّ الدَّيْدَنَ هو الهَدْيَانِ والرَّقَاعَةُ والتعصُّبُ والإيْهَامُ، وليس لوجهِ الله في ذلك شيءٌ، لا فيما يَجْدُونَ به، ولا فيما يهزلون فيه، لا حشمةً ولا تقوى، ولا مُراقبةً ولا بُقياً<sup>(٢)</sup>؛ قد جعلوا الله عُرْضَةً لِلْخُصُومَاتِ بالسَّوْسِ، ودينه منديلاً لكل يدٍ.

سأل ملحدٌ موحدًا فقال: ما الدليلُ على أن للعالمَ صانعًا؟

فقال: الدليلُ على ذلك شِعْرَةُ أَمِّكَ، لأنها كلَّمَا نَتَفَتَّهَا بِالذَّبْقِ<sup>(٣)</sup> نَبَتَتْ؛ فلو لم يكن هناك مُنْبِتٌ لما نَبَتَتْ.

فقال الملحد: هذا ينقلب عليك لأنه يقال لك: الدليل على أن العالم ليس له صانع نواةُ أَمِّكَ، لأنها إذا قُطعت مرةً لم تنبت بعد ذلك.

وحكى يوماً آخر فقال: اجتمع رجلان؛ أحدهما يقول بقول هشام، والآخر يقول بقول الجوالقي.

فقال صاحب الجوالقي لصاحب هشام: صف لي ربك الذي تعبده. فوصفه، فقال في وصفه: هو جسمٌ ولكن لا يد له ولا جارية ولا آلة.

فقال له صاحب الجوالقي: أيسرُّك أن يكون لك بهذه الصفة ابنٌ؟

قال: لا.

(١) انخرزل: انقطع، وانخرزل فلان عن الأمر: ارتدَّ وضعف.

(٢) بقيا: ما فضل، أو ما أدخر: نَشَدْتُكَ اللهُ والبُقيا: أن تستبقى المودة والتواصل.

(٣) الذَّبْقُ: الدَّبوق، مادة لزجة يُصاد بها الطيرُ والذبابُ ونحو ذلك.

قال: أفما تستحبي أن تصف ربك بصفة لا ترضاها لولدك؟

ثم قال صاحب هشام: قد سمعت قولنا، فصيف لي أنت ربك. فوصف فيما وصف: أنه جعد قِطْطٌ في أتمِّ تمامٍ وأحسنِ حُسنٍ وأحلى صورةً وأعدل هيئةً وأجمل شارةً. فقال له صاحب هشام: أفيسرك أن تكون لك جارية بهذه الصفة تطؤها؟ قال: نعم.

قال: أفما تستحبي من عبادة من تحبُّ مِباضَعته؟ وذلك أن من أحبَّ مِباضَعَةً مثله فقد أوقع عليه الشَّهْوَةَ.

تعالى الله عن هذه السخافات والجهالات، وإن قوماً يلهجون بهذا وأشباهه لفي بعد من الهدى والنهى.

وسمعه يسبُّ أصحاب الهندسة ويقول: جاءني بعض هؤلاء الحمقى ورغبني في الهندسة، فابتدأ، وقال: فأثبت خمسةً وعشرين، وخطَّ خطًّا، ووضع شكلاً، وطول وزعم أنه يعمل برهاناً على ذلك. فقلت له: إني كنتُ أعرف أن خمسة في خمسة خمسةً وعشرون ضرورة، وقد شككت الآن، فأنا مجتهدٌ حتى أعلمه بالاستدلال. وهذا هو الخسار والدمار.

ولو كان له سهم يسيرٌ من العقل ما باح على نفسه بهذا القول، ولو سُمع من غيره لوجب إنكاره، ولو حَقَّق قول القائل: من جهل شيئاً عاداه. أترأه ما سمع كلام ابن ثوابة في مثل هذا، وكيف نُسب فيه إلى الرقاعة، وكيف رحمه أهل الحكمة، وكيف هزئ به قومٌ وجدوا طريقاً إلى ذلك.

وأنا أحكي لك في هذا المكان ذلك الكلام وإن تنفست الرسالة، لتعلم أن من شاء حمق نفسه، وأن الله إذا شاء خذل عبده وأشمت به أعاديته.

حدثنا أبو بكر الصِّمَرِيُّ<sup>(١)</sup> قال: حدثنا ابن سَمَكَةَ<sup>(٢)</sup> قال: حدثنا ابن مُحَارِب<sup>(٣)</sup> قال: سمعتُ أحمد بن الطَّيِّبِ<sup>(٤)</sup> يقول: إن صديقًا لابن ثوابة الكاتب أبي العباس يُكنى أبا عُبيدة قال له ذات يوم:

إنك رجلٌ - بحمد الله ومَنه - ذو أدبٍ وفصاحةٍ وبراعةٍ وبلاغةٍ؛ فلو أكملت فضائلك بأن تُضيف إليها معرفة البرهان القياسي، وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت كتاب «أقليدس» وتدبرته؟ فقال له ابن ثوابة: وما «أقليدس»؟

قال له: رجل من علماء الروم يُسمى بهذا الاسم، وضع كتابًا فيه أشكال كثيرة مختلفة تدلُّ على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبية، يشحذ الذهن ويدقق الفهم، ويُلطِّف المعرفة، ويصنِّي الحاسة، ويثبت الروية؛ ومنه انفتح الخط وعُرفت مقادير حروف المعجم.

فقال له أبو العباس بن ثوابة: وكيف ذلك؟

قال: لا تعلم كيف هو حتى تشاهد الأشكال وتعاين البرهان.

قال له: فافعل ما بدأ لك. فأتاه برجل يقال له قويري<sup>(٥)</sup> مشهورٌ مقدّم، ولم يعد إليه بعد ذلك.

(١) أحمد بن سيار، القاضي أبو بكر الصِّمَرِيُّ. المتوفى سنة ٣٦٨ هـ. ولي القضاء ببعض بغداد في سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وحُمدت سيرته، ثم ولي قضاء الحريم وغيره. وكان له يد طولی في الآداب والشعر.  
(٢) أحمد بن إسماعيل بن سمكة بن عبد الله؛ أبو علي: بجلي، من أهل قم، كان من أهل الفضل، والآداب، والعلم، وعليه قرأ محمد بن الحسين بن العميد، وهو علامة مصنف شهير.  
(٣) وصفه أبو حيان في المقابسات (٨) بأنه فيلسوف.  
(٤) أحمد بن محمد الطيب السرخسي، العلامة الشهير، قرأ على الكندي الفيلسوف، وقتله المعتضد سنة ٢٨٦ هـ.  
(٥) القويري: إبراهيم أبو إسحاق القويري البغدادي الأستاذ المنطقي المتوفى في حدود سنة ٢٩٥ هـ. صنف من الكتب: تفسير قاطيغورياس، كتاب أنالوطيقا الأولى مشجر. كتاب أنالوطيقا الثاني مشجر. كتاب بارير مينياس مشجر.

قال أحمد بن الطيّب: فاستطرفت ذلك وعجبت منه، وسألت المُخْبِرَ عن انصراف قُوَيْرِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ سَبَبُهُ؟ فَأَجَابَنِي بَانَ لَا أَعْلَمُ، فَكَتَبْتُ إِلَى ابْنِ ثَوَابَةِ رَقْعَةً نُسَخْتُهَا:

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اتَّصَلْ بِي - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - أَنْ رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِكَ أَشَارَ عَلَيْكَ بِتَكْمِيلِ فَضَائِلِكَ وَتَقْوِيَتِهَا بِمَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنَ الْقِيَاسِ الْبُرْهَانِيِّ، وَطَمَأْنِينَتِكَ إِلَيْهِ، وَأَنَّكَ أَصْغَيْتَ إِلَى قَوْلِهِ وَأَذِنْتَ لَهُ، وَأَنَّهُ أَحْضَرَكَ رَجُلًا كَانَ غَايَةً فِي سُوءِ الْأَدَبِ، مُعَدِّنًا مِنْ مَعَادِنِ الْكُفْرِ، وَإِمَامًا مِنْ أُمَّةِ الشَّرْكِ؛ لَا سِتْفِزَاذَكَ وَاسْتِغْوَائِكَ، يَخَادِعُكَ عَلَى عَقْلِكَ الرَّصِينِ، وَيُنَازِلُكَ فِي ثِقَافَةِ فَهْمِكَ الْمَتِينِ، فَأَبَى اللَّهُ الْعَزِيزُ إِلَّا جَمِيلَ عَوَائِدِهِ الْحَسَنَةَ قَبْلَكَ، وَمِنْهُ السَّوَابِقُ لَدَيْكَ، وَفَضْلُهُ الدَائِمُ عِنْدَكَ، بَانَ أَتَى عَلَى قَوَاعِدِ بُرْهَانِهِ مِنْ ذُرُوتِهِ، وَحَطَّ عَوَالِي أَرْكَانِهِ مِنْ أَقْصَى مَعَاقِدِ أُسُسِهِ، فَأَحْبَبْتُ اسْتِعْلَامَ ذَلِكَ عَلَى كَهْنِهِ مِنْ جِهَتِكَ، لِيَكُونَ شُكْرِي لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ حَسَبَ لَوْمِي لِصَاحِبِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَإِلَّا تَلَفَى الْفَارِطَ فِي ذَلِكَ بِتَدْبِيرِ أُسُسِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قال: فأجابني ابنُ ثوابة برُقعة نُسختها:

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّتْ رُقْعَتَكَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - وَفَهَمْتُ فِحْوَاهَا، وَتَدَبَّرْتُ مُضْمَنَهَا، وَالْخَبْرُ كَمَا اتَّصَلَ بِكَ، وَالْأَمْرُ كَمَا بَلَغَكَ. وَقَدْ لَخِصَّتَهُ وَبَيَّنَّتَهُ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَنَا وَشَاهِدُنَا. فَأُولُ مَا أَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَلِيِّ النِّعَمِ، وَالْمَتَوَحَّدِ بِالْقِسْمِ، إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ؛ وَإِيَاهُ أَسْأَلُ إِيزَاعَ<sup>(١)</sup> الشُّكْرَ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى مَا مَنَحْنَا مِنْ وُدِّكَ وَإِتْمَامِهِ بَيْنَنَا بِمَنَّةِ.

(١) إيزاع: مصدر أوزع بمعنى أغرى أو أروع.

وما أَحْبَبْتُ إِعْلَامَكَ وَتَعْرِيفَكَ مِمَّا تَأْدَى إِلَيْكَ، أَنْ أَبَا عُيبِدة -عليه لعنةُ الله تَتْرَى-  
 بِنَحْسِهِ وَدَسَّهِ وَدَحْسِهِ<sup>(١)</sup> اغْتَالَنِي لِيَكْلِمَ دِينِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ، وَيَنْقُلَنِي عَمَّا أَعْتَقَدُهُ  
 وَأَرَاهُ وَأُضْمِرُهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَطَّدَ لِي  
 الزُّنْدَاقَةَ بِتَزْيِينِهِ الْهِنْدَسَةَ، وَأَنَّهُ يَأْتِينِي بِرَجُلٍ يُفِيدُنِي عِلْمًا شَرِيفًا تَكْمِلُ بِهِ فُضَائِلِي - فِيمَا  
 زَعَمَ - فَقُلْتُ: عَسَى أَنْ أُفِيدَ بِهِ بَرَاعَةً فِي صِنَاعَةٍ، أَوْ كِمَالًا فِي مُرُوءَةٍ، أَوْ نُسْكًَا فِي دِينٍ،  
 أَوْ فُخَارًا عِنْدَ الْأَكْفَاءِ. فَأَجَبْتُهُ بِأَنْ هَلُمَّ بِهِ! فَأَتَانِي بِشَيْخِ دِيرَانِي شَاخِصِ النَّظَرِ، مَنْتَشِرِ  
 عَصَبِ الْبَصَرِ، طَوِيلِ مَشَدَّبِ، مَحْزُومِ الْوَسْطِ، مَتَزَمِّلٍ فِي مَسْكِهِ، فَاسْتَعَدَّتْ بِالرَّحْمَنِ إِذْ  
 نَزَعَنِي الشَّيْطَانُ، وَمَجْلِسِي قَدْ غَصَّ بِالْأَشْرَافِ مِنْ كُلِّ الْأَطْرَافِ، كُلُّهُمْ يَرْمُقُهُ وَيَتَشَوَّفُ  
 إِلَى رُفْعِي مَجْلِسَهُ وَإِدْنَائِهِ وَتَقْرِيبِهِ، وَيَعْظُمُونَهُ وَيُحْيُونَهُ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ.  
 فَأَخَذَ مَجْلِسَهُ، وَلَوَى أَشْدَاقَهُ، وَفَتَحَ أَوْسَاقَهُ<sup>(٢)</sup>، فَتَبَيَّنْتُ فِي مُشَاهَدَتِهِ النَّفَاقَ، وَفِي  
 أَلْفَاظِهِ الشَّقَاقَ.

فقلتُ له: بلغني أن عندك معرفةً بالهندسة، وعلماً واصلاً إلى فضل يفيد الناظر فيه  
 حكمةً وتقدماً في كل صناعة؛ فهلّم أقدنا شيئاً منها عسى أن يكون عوناً لنا على دين أو  
 دنياً، وزيناً في مرُوءةٍ أو مُفَاخِرَةٍ لدى الأكفاء، ومفيداً نسكاً وزهداً، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ  
 الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:  
 ١٨٥]. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧].

قال: فأحضرتني دواةً وقرطاساً. فأحضرتُهما، فأخذَ القلمَ فنكتَ به نُكْتَةً نَقَطَ مِنْهَا  
 نَقْطَةً، فَخَيْلَهَا بِصُرِي وَلِحْظَهَا طَرْفِي كَأَصْغَرَ مِنْ حَبَّةِ الدَّرِّ، فزَمَزَمَ عَلَيْهَا بَوْسُوسِهِ،  
 وَتَلَا عَلَيْهَا مِنْ مُحْكَمِ أَسْفَارِ أَبَاطِيلِهِ، ثُمَّ أَعْلَنَ عَلَيْهَا جَاهِرًا بِإِفْكَهِ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ:  
 أَيُّهَا الرَّجُلُ! إِنَّ هَذِهِ النُّقْطَةَ شَيْءٌ مَا لَا جِزءَ لَهُ.

(١) دَحَسَ الصُّفُوفَ: دَسَّ نَفْسَهُ فِي دَاخِلِهَا، وَدَحَسَ بِالشَّرِّ: دَسَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ، وَدَحَسَ بَيْنَ الْقَوْمِ: أَفْسَدَ  
 بَيْنَهُمْ.

(٢) أَوْسَاقُ جَمْعُ وَسْقٍ، وَهُوَ: حِمْلُ الْبَعِيرِ أَوْ الْعَرَبَةِ وَالسَّفِينَةِ.

فقلت: أَضَلَّلْتَنِي وَرَبَّ الكَعْبَةِ! وما الشيء الذي لا جُزءَ له؟

فقال: كالبسيط. فأذهلني وحيرني، وكاد يأتني على عقلي وحلمي لولا أن هداني ربي؛ لأنه أتاني بلغة ما سمعتها والله من عربي ولا عجمي، وقد أحطت علمًا بلغات العرب، وقيمت بها واستثرتُها جاهدًا واختبرتها عامدًا، وصرت فيها إلى ما لا أحسب أحدًا يتقدمني إلى المعرفة به، ولا يسبقني إلى دقيقه وجليله.

فقلت له: وما الشيء البسيط؟

فقال: كالله تعالى وكالنفس.

فقلت له: إنك من المُلحدِين، أتضرب لله أمثالًا؟ والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

لعن الله مُرشدًا أَرشدني إليك، ودالًّا دلني عليك، فما ساقك إلي إلا قضاء سوء، ولا كسحك نحوي إلا الحين، أعوذ بالله من الحين، وأبرأ إليه منكم ومما تُلحدون، والله ولي المؤمنين ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ٧٨]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فلما سمع مقالتي كره استعاذتي فاستخفه الغضب، فأقبل علي مستبسلاً فقال: إني أرى فصاحة لسانك سبباً لعجمة فهمك، وتذرّعك بقولك آفة من آفات عقلك.

فلولا من حضر - والله - المجلس وإصغائهم إليه مستصوبين أباطيله، مُستحسنيين أكاذيبه، وما رأيت من استهوائه إياهم بخدعه، وما تبينت من توازهم<sup>(١)</sup> لأمرت بسل لسانه اللكع الألكن.

وأمرت بإخراجه إلى حر نار الله وسقره وغضبه ولعنته.

فنظرت إلى أمارات الغضب في وجوه الحاضرين، فقلت: ما غضبكم لنصراني

(١) توازهم: تآزرهم.

يشرك بالله ويتخذ له من دونه الأنداد، ويُعلن بالإلحاد؟ ولولا مكانكم لَنَهَكْتُهُ عَقوبَةً.

فقال لي رجل منهم: إنه إنسان حكيم. فغاضني قوله.

فقلت: لعن الله حكمة مشوبةً بكُفْرٍ.

فقال لي آخر: إن عندي مُسَلِّمًا يتقدّم أهلَ هذا العلم.

فرجوت - مع ذكره الإسلام - خيرًا فقلت: ائتني به، فأتاني برجل قصير دَحْداح مَجْدُورٍ أدمٍ أخفش العينين أجحَ أفضس سيئ النَّظَرِ قبيح الزِّيِّ، فسلمَ فرددتُ عليه السلام، ورفعتُ مجلسه وأكرمتُه، وقلتُ له: ما اسمُك؟

فقال: أعرَفُ بكنيةٍ قد غلبت عليّ.

فقلتُ: أبو من؟

فقال: أبو يحيى.

فتفاءلتُ بملك الموت عليه السلام، وقلتُ: اللهم إني أعوذ بك من الهندسة، فاكفني اللهم شرّها، فإنه لا يصرف السوء إلا أنت، وقرأت «الحمد»، و«المعوذتين»، و«قل هو الله أحد» ثلاثًا، وقلتُ له: إن صديقًا لي جاءني بنصراني يتخذ الأنداد، ويدعي أن لله الأولاد ليغويني ويستفزني ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصفات: ٥٧]، فصرفته أقبح صرْف. ثم ذكرتُ لي فرجوت - بذكر إسلامك - خيرًا.

فهلّم أقدنا شيئًا من هندستك، وأقبسنا من طرائف حكمتك ما يكون لنا سببًا إلى رحمة الله ووسيلةً إلى غفرانه، فإنها أربح تجارةً وأعوذ بضاعةً.

فقال: أحضرنى دواةً وقرطاسًا.

فقلت: أتدعو بالدواة والقرطاس، وقد بليتُ منهما بليّةً كلّمها لا يندمل عن

سويداءِ قلبي؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قلت له: إن النّصراني نَقَطَ لي نَقْطَةً كَأَصْغَرَ مِنْ سَمِّ الخِيَاطِ، وقال لي: إنها معقولة كَرَبِّكَ الأَعْلَى، فوالله ما عدا فرعونَ في إفكِهِ وكُفْرِهِ.

فقال لي: فإني أُعْغِفُكَ، لَعَنَ اللهُ فُؤَيْرِي وما كان يصنع بالنُّقْطَةِ؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة؟

فقلت: استجهلني ورب الكعبة، وأنا قد أخذت بأزمة الكتابة، ونهضت بأعبائها، واستقلت بثقلها يقول لي: لا تعرف فحوى النقطة، فنازعني نفسي في معاجلتها بغليظ العقوبة، ثم استعطفني الحلم إلى الأخذ بالفضل.

ودعا بعلامه وقال: اتيني بالتخت، فوالله ما رأيت مخلوقاً بأسرع إحضاراً له من ذلك الغلام، فأناه، فتخيلت به هيئة منكرة ولم أدر ما هو، وجعلت أصوب الفكر فيه تارةً وأصعد أخرى، وأجيل الرأي ملياً وأطرق طويلاً، لا أعلم أي شيء هو، أصندوق هو؟ فإذا ليس بصندوق، أتخت هو؟ فإذا ليس بتخت، فتخيلته كتابوت لحد. فقلت: لحد الملحد يلحد به وبالناس عن الحق. ثم أخرج من كُمه ميلاً<sup>(١)</sup> عظيماً فظننته متطبياً وإنه لمن شرار المتطبيين.

فقلت له: إن أمرك لعجب كله، ولم أر في أميال المتطبيين كميلك، أنفقاً به الأعين؟ فقال: لست متطبياً ولكني أخطُّ به الهندسة على هذا التخت.

فقلت له: إنك وإن كنت مبيئاً للنصراني في دينه، إنك لمؤازره في كُفْرِهِ، أتخطُّ على تخت بميلك لتعدل بي عن وضح الفجر إلى غسق الليل؟ وتميل بي إلى الكذب باللوح المحفوظ وكاتبه الكرام؟ أياي تستهوي؟ أم حسبتني ممن يهتز لمكايدهم؟ فقال: لست أذكر لك لوحاً محفوظاً ولا مضيئاً، ولا كاتباً كريماً ولا لثيماً، ولكني أخطُّ به الهندسة، وأقيم عليها البرهان بالقياس والفلسفة.

فقلت: اخطط.

(١) الميل (بكسر الميم): ما يجعل به الكحل في العين.

وأخذ يخطُّ وقلبي مُروَّعٌ يَجِبُ وَجِيئًا<sup>(١)</sup>.

فقال لي غير مُستعظمٍ: إن هذا الخطُّ طولٌ بلا عَرَضٍ، فذَكَرتُ صِراطَ رَبِّي المُستقيم، وقلتُ له: قاتلكُ الله، أتدري ما تقول؟ تعالَى صِراطُ رَبِّي عن تَخْطِيطِكَ وتَشْبِيهِكَ وتَبْدِيلِكَ وتَخْرِيفِكَ وتَضْلِيلِكَ، إِنَّه لَصِراطُ مُستقيمٍ، وإنه لأَحَدُ من السِّيفِ الباتِرِ، والحُسامِ القاطِعِ، وأدقُّ من الشَّعْرِ، وأطولُ مما تَمَسِّحون، وأبعدُ مما تَذرَعون، ومَدَاهُ بعيد، وهَوْلُهُ شديد؛ أَتَطْمَعُ أن تُزَحِّزِحَنِي عن صِراطِ رَبِّي أم حَسَبْتَنِي غُمْرًا غَبِيًّا لا أَعْلَمُ ما في باطنِ أَلْفاظِكَ ومَكْنونِ مَعانِيكَ؟ والله ما حَظَّطتِ الخَطُّ وأخبرتُ أَنه طولٌ بلا عَرَضٍ إلا حِيلَةً بالصِراطِ المُستقيمِ لَتُزَلَّ قَدَمِي عنه، وأن تُرَدِّدَنِي في نارِ جَهَنَّمَ. أَعُوذُ بالله وأَبْرَأُ إليه من الهندسة، ومما تُدُلُّ عليه وتُرشدُ إليه، وإِنِّي بَرِيءٌ من المهندسين وما يُعلنون ويُسرُّون، ومِمَّا به يَعْمَلون؛ ولَبِئسَ ما سَوَّلتَ لَكَ نَفْسُكَ أَن تكونَ من خَزَنَتِها بل من وَقودِها، وإِنَّ لَكَ فيها لَأَنْكَالًا وسَلاسِلَ وأَعْلالًا، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٣]. قُمْ إلى لَعْنَةِ الله وَغَضَبِهِ!

فأخَذَ يتكَلَّم. فقلتُ: سُدُّوا فَاهُ مَخافَةَ أن يَبْدُرَ مِنْهُ مِثْلُ ما بَدَرَ من المَضَلِّ الأَوَّلِ، وَأَمَرْتُ بِسُحْبِهِ فَسُحِبَ إلى أَلِيمِ عَذَابِ الله ونارِ ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

ثم أَخَذتُ قَرطاسًا وكتبتُ بيدي يَمِينًا أَلَيْتُ فيها بِكُلِّ عَهْدٍ مُؤَكَّدٍ، وَعَقَدٍ مُرَدَّدٍ، وَيَمِينٍ لَيْسَتْ لَهَا كَفَّارَةٌ - أن لا أَنْظَرَ في الهندسة أَبَدًا، ولا أَطْلُبُها، ولا أَتَعَلَّمُها مِنْ أَحَدٍ سِرًّا ولا جَهْرًا، ولا عَلَيَّ وَجَهٍ من الوجوه، ولا بِسَبَبٍ من الأسباب؛ وأَكَّدتُ بِمِثْلِ ذلكِ عَلَيَّ عَقْبِي وَعَلَيَّ أَعْقَابِ أَعْقَابِهِمْ: أن لا يَنْظُرُوا فيها ولا يَتَعَلَّمُوها ما قامتِ السَّمواتُ والأَرْضُ، إلى أن تَقومَ السَّاعَةُ ﴿لِيَمِيقَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨].

فهذا بَيانٌ ما سَأَلتُ - أعزك اللهُ - عنه مما دُفِعْتُ إليه وامْتَحنتُ به، ولتَعَلَّمْ ما كان

(١) وجب القلب: خَفَقَ واضطرب ورجف.

مَنِّي، ولولا وَعَكَّةُ أَنَا فِي عَقَابِيلِهَا<sup>(١)</sup> لَحَضْرَتِكَ مُشَافِهَا، وَأَخَذْتُ بِحَظِّي الْمُتَمَنَّى مِنْ الْأُنْسِ بِكَ، وَالِاسْتِرَاحَةِ إِلَيْكَ. فَمَهَّدَ عَلَيَّ ذَلِكَ عُذْرِي، فَإِنَّكَ غَيْرُ مُبَايِنٍ لِفِكْرِي، وَالسَّلَامِ.

رسالةُ أَبِي العباسِ أحمد بن يحيى بن محمد بن ثوابةٍ إلى أَبِي العباسِ أحمد بن الطَّيِّبِ هَذِهِ، فِيهَا مُعْتَبَرٌ وَاسِعٌ، وَإِشْرَافٌ عَلَى عَقْلِ مَدْخُولٍ، وَهِيَ شَقِيقَةٌ قَوْلِ ابْنِ عَبَّادٍ فِي الْحِكَايَةِ الَّتِي جَرَتْ قَبْلَ هَذِهِ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَرَّ بِالْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ فَصِيحَ الْعِبَارَةِ، كَثِيرَ التَّشْقِيقِ، مَدِيدَ النَّفْسِ، قَادِرًا عَلَى السَّجْعِ، سَهْلَ الْارْتِجَالِ؛ فَقَدْ يَأْتِلِفُ هَذَا كُلُّهُ وَالْعَقْلُ نَاقِصٌ، وَقَدْ يُفْقَدُ هَذَا كُلُّهُ وَالْعَقْلُ رَاجِحٌ.

وَقُلْتُ لِأَبِي سَعِيدِ السِّرَافِيِّ شَيْخِ الدُّنْيَا: قَالَ أَبُو زَيْدٍ: يُقَالُ إِنَّهُ لَكَثِيرٌ فَضِيضُ الْكَلَامِ<sup>(٢)</sup>، أَيَرَادُ بِهَذَا مَدْحُ الْمَذْكُورِ أَمْ الزَّرَايَةُ عَلَيْهِ؟

فَقَالَ لِي: هُوَ إِلَى الزَّرَايَةِ أَقْرَبُ؛ لِأَنَّ الْفَضَّ كَسْرٌ، وَمِنْهُ: فَضَضْتُ خَتَمَ الْكِتَابِ، وَمِنْهُ: ضَرَبَهُ فَصَارَ فَضَاضًا؛ وَالصَّحِيحُ خَيْرٌ مِنَ الْمَكْسُورِ، وَكَأَنَّهُ يُرَادُ بِهَذَا أَنَّهُ يَرْمِي بِالْكَلامِ مَكْسَرًا غَيْرَ صَحِيحٍ.

وَإِنَّمَا أَتَيْتُ بِهَذَا لِأَنِّي سَأَلْتُ مَرَّةً أَبَا السَّلْمِ عَنْ ابْنِ عَبَّادٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَكَثِيرٌ فَضِيضُ الْكَلَامِ، ثُمَّ مَرَّبِي لِأَبِي زَيْدٍ.

وَكَانَ ابْنُ عَبَّادٍ يَقُولُ كَثِيرًا: مَا مَدَحَنِي شَاعِرٌ بِأَوْجَزٍ وَأَمْلَحَ مِنْ أَبِيَاتٍ وَافْتَنِي مِنْ شَاعِرٍ يَنْتَسِبُ لِسَجِسْتَانَ؛ فَإِنَّهَا تَدَلُّ عَلَى قُدْرَةِ صَاحِبِهَا وَغَزَارَةِ قَاتِلِهَا وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِيهَا، وَهِيَ:

يَا مَنْ أَعَادَ رَمِيمَ الْمَلِكِ مَنْشُورًا      وَضَمَّ بِالرَّأْيِ أَمْرًا كَانَ مَنْشُورًا  
أَنْتَ الْوَزِيرُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتِ مَنْشُورًا      وَالْأَمْرُ بَعْدَكَ إِنْ لَمْ يُؤْتَمِنْ شُورَى

(١) العقبائل: مفرد العقبول وهو بقية العلة والعداوة والعشق.

(٢) إنه لكثير فضيض الكلام: وصف للشخص بأنه كثير الكلام مهذار.

وقال ابن نباتة<sup>(١)</sup> والخال<sup>(٢)</sup> وابن الجلبات: ليس في هذه الأبيات ما وجب له هذا الإعجاب كله، ولكن الرجل طريف المرأى والمخبر، عجيب المبرر والمنظر؛ مداره على الهوى، كيفما سرح له جنح إليه، وأينما برح به طرح عليه.

وكان ابن عبّاد إذا تكلم في مسألة ثم رأى في خصمه فتوراً نفش لحيته بأصابع يده وعبث بها، وقتل رأسه ولوى عنقه، وشنّج أنفه، وعوّج شدقه، وقال منشداً:

إذا المشكلاتُ تصدّين لي كَشَفْتُ حقائقها بالنظرِ  
وإن برزت في مخيل الصوا ب عمياء لا تجتليها الفكرُ  
مقنعةً بخفي الشكو ك وضعتُ عليها حُسام النظرِ  
لساناً كشقشقة الأرحب ـ ي أو كالحسام اليماني الذكّر<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

ولستُ بذِي وقفةٍ في الرجا ل أسائل هذا وذا ما الخبرُ  
ولكنني مدرّه الأصغرِ ن أقيس بما قد مَضَى ما غيّر<sup>(٤)</sup>

وكان لا يبعثه على هذا النمط إلا الذهاب بنفسه والتيه الذي يحول بينه وبين عقله. والعجيب أنه كان يعيب غيره بجزء من هذا الباب لا يتجزأ، ويقول: انظروا إلى تيهه وصلفه ومدحه لنفسه واستبداده برأيه - وعلى هذا، حتى إذا صار إلى نفسه وحديثه وخواص أمره جهل وذهل، وخرج في مُسكٍ من لم يسمع بشيء من ذلك، ولم يفتن له، ولم يأبه لقبیحه، ولم يأنف من شنيعه.

(١) هو عبد العزيز بن عمر بن نباتة السعدي أبو نصر الشاعر المتوفي سنة ٤٠٥ هـ.

(٢) هو الحسين بن أبي جعفر علي بن محمد الخال الرافقي، نحوي أديب شاعر وله مصنفات. توفي سنة ٣٨٠ هـ.

(٣) الشقشقة: شيء كالرثة يُخرجهُ الجملُ من فيه إذا هاج وهدر. أرحب: بطن من همدان، تنسب إليه النجائب الأرحبية.

(٤) المدره: السيد الشريف. و المدره زعيم القوم وخطيبهم المتكلم عنهم. الأصغران: القلب واللسان.

وهذا من الأسرار في الأخلاق، ولهذا طال كلامُ الأولين في الأخلاق، وجاءت الشريعة واللغة واضعةً كلاً في موضعها، وناعتهً لمختارها ومردُّولها، وباعثةً على حسنها وجمالها، وداعيةً إلى رفض قبيحها ومنكرها.

والكلامُ في هذا طويل الذيل مَيَّاس<sup>(١)</sup>، وما أحسن ما قال الشاعر:

لا تَلْمُ المرءَ عَلَى فعلِهِ وَأَنْتَ مَنْسُوبٌ إِلَى مِثْلِهِ  
 مِنْ دَمِّ شَيْئًا وَأَتَى مِثْلَهُ فَإِنَّمَا يُزْرِي عَلَى عَقْلِهِ  
 والبيت السائر:

لا تَنَّهُ عن خُلُقٍ وتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ - إِذَا فَعَلْتَ - عَظِيمٌ  
 فهذا هذا.

حدثني العتّابي قال: قال قومٌ من أهل أَصْفَهان لابن عَبَّاد: لو كان القرآن مخلوقاً لجاز أن يموت، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان؟ فقال: لو مات القرآن كان رمضان أيضاً يموت، ويقول: لا حياة بعدك، ولا نُصلي التراويح، ونستريح.

وسأله الدامغاني يوماً عن قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَبَّآ بُرْهَنَ رَبِّهٖءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، أتقول إن يوسف همَّ بالمعصية؟ فقال: الكلام معطوف بعضه على بعض بالتقديم والتأخير، فكأنه قال: لولا أن رأى برهان ربه لقد كان يهيم بها، ولكنه لم يهيم، وهذا كقول القائل: إني غرقت لولا أنه خلصني فلان.

فحدثت بهذه الجملة ابن المراغي ببغداد، فقال: لو سكّت عن هذا كان أحسن به، هذا تقدير لاعب بكتاب الله، لا يحلّ نظم الكلام على تحريفه؛ لأن ذلك جرأة؛ أما سمعت الله يقول: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

(١) مَيَّاس: مائل (من الفعل ماس) والمراد: متسع ومتشعب.

إِنَّمَا الْمَرَادُ بِهِ عَلَيَّ سَجِيَّةَ الْكَلَامِ: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ هَمَّهَا اللَّاتِقُ، وَهَمَّ بِهَا هَمَّ الْبَشَرِ الَّذِي لَا بَرَاءَةَ لَهُ مِنْ هَمِّهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، وَالْبُرْهَانُ كَانَ ذَلِكَ التَّوْفِيقَ.

وما في الهمم؟ الله أكرم من أن يؤاخذ به، وإنما ذكر ذلك ليعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم في نبوته غير مكتفٍ بها دون أن يكتفاه الله بعصمته، ويتغمده برحمته.

وسئل ابن عباد يوماً عن قوله عز وجل: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ (٣٥ - ٣٦)، فقيل: كيف يجوز أن يعد هذا في الآلاء والنعم، وهو إحراق بالنار، ولا ألم بعده، ولا عذاب فوقه؟

فقال: أقول ما قال شيخنا أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله، فإنه قال: إن الله جعل جهنم سوطاً ساق به عباده إلى الجنة؛ واللفظ عن الحسن - علي ما عنينا بجمع كلامه عن الرواة - «إن الله خلق جهنم ليحوش بها الخلق إلى طاعته».

فقال أصحابنا: فرعنا إلى الحكاية عن الحسن حاكم بأنه مفلس، وقد قال العلماء في ذلك، وإنما قول الحسن ترقيق<sup>(١)</sup>، وكلام يدخل في الوعظ ولو حُقق لقلق.

وسأله الدامغاني يوماً عن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ﴾<sup>(٢)</sup> [الأعراف: ١٥٤] أي موضع لهذا السكوت، والسكوت ضد الكلام كما أن السكون ضد الحركة؟ فما أحلى ولا أمر، وتغافل إما كبيراً وإما جهلاً.

وسمعت ابن بابويه يقول في هذا: هو مما حُرِّفَ لآثته نزل: «وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ» بالنون<sup>(٣)</sup>.

(١) ترقيق القلوب: تليينها لتقبل الموعدة.

(٢) في تفسير الكشاف للزمخشري: هذا مثل، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألتي الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلا فما لقراءة معاوية ابن قرة «ولما سكن عن موسى الغضب»، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة، وطرفاً من تلك الروعة.

(٣) انظر الهامش السابق.

فقلت له: وما دركُ المحرّف في هذا؟

فقال: هو ما قلتُ لك، وقد صحّ عندنا ذلك عن الصادق.

فأمسكتُ عنه؛ والجوابُ أبينُ من ذلك.

وقال يوماً الحصري: أيها الصاحب! ما أقول لخصمي إذا قال لي: حدُّ الظلمِ

وضَع الشيء في غير موضعه؟

قال: قل له يجب على هذا إذا أخذ الرجلُ عمامته المكوّرة فوضّعها على ركبته أن

يكون ظالمًا.

قال أبو سليمان: أخطأ، لأن العمامة قد توضع على الركبة لغرض صحيح وحاجة

بادية، في وقتٍ مقتضٍ لذلك، وزمانٍ يليق به ذلك، ويكون حسنًا عدلًا، ويكون ذلك

مكانها؛ والرأس أيضًا جعل مكانها لغرض معروف، والأعراض تختلف وتأتلف.

وقيل له يومًا: ما أنكرت أن يكون الرزق ما يأكله المرزوق دون غيره؟

فقال: على هذا لو رزقك الله خفًا لكنت تأكله.

حكيت هذا لأبي سليمان فصرّف القول في الرزق وفي أقسامه وعِلله وأسبابه

وغرائبه؛ وقد أخرته لمكان آخر، فإن هذا الكتاب يضيق عنه، ويخرج عن الأمر

المتحرّى به.

وقال له أبو عاصم البصريّ يومًا: أليس المتكبر هو الذي يتعظّم زائدًا على ما

يستحقّه ويحسّن به، ومن أجل ذلك ذمّوه بهذا الاسم إذا أطلقوه؟

فقال: بلى!

قال: فما معنى وصفِ الله نفسه بالتكبر؟ ونحن إنما نفينا عنه التكبر لقبحه عندنا

وعند المعروف به بيتنا، فلو ساغ أن يُنعت بالتكبر ساغ أن يُنعت بالتكذب.

فاشْتَطَّ وانتَفَخَ وترَبَّدَ وجْههُ ودرَّ وَرِيْدُهُ<sup>(١)</sup> وكاد يَزِنْدُ<sup>(٢)</sup>، ثم تدفَّقَ بكلام كثير ليس من مسألة أبي عاصم في شيء، حفظتُ منه قوله:

أحدُّهم لا يعرف اللُّغَةَ عَلَى طرائقها ودقائقها وحقائقها من ناحية مَجازها وسَعَتها، ولا من جهة سلامتها وصِحَّتْها. ولا يُفَرِّق بين ما يجوز عَلَى الله وبين ما لا يجوز عَلَى الله. وَيَقْصِدُ إِلَى المسائل المُشْكِلَةِ، والمعاني المُعْضِلَةِ، والأبواب الغامضة، والألفاظ المتعارضة، فيسأل عنها، وَيُعْجَبُ بها.

لَيْتَكَ عرفتَ هذا بعد أن تَعْرِفَ معنى قول العرب: «صَابَتْ بَقْرٌ»<sup>(٣)</sup> وما المراد بقولهم: «عَوْدٌ يُعْلَمُ العَنْجُ»<sup>(٤)</sup>، وما معنى قولهم: «لكلِّ جابِهٍ جَوْزَةٌ ثم يُؤَدِّنُ»<sup>(٥)</sup>، ومن جَمَعَ القرآن عَلَى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومتى توفي المبرمان<sup>(٦)</sup>، وما البديع، وما بديع البديع، وما المخترع، ومن صاحب البيت السائر:

وبي مثل الذي بكِ غير أني الأُمُّ عَلَى البكاءِ وتُعْذِرِينَا  
ولقد صدق الأعرابيُّ في قوله: كُنْ كالضَّبِّ الأَعْوَرِ يَعْرِفُ قدره ولا يفارق جُحْرَه.  
وأصاب عُمَرُ في قوله: لا تَحْمِلُوا النَّفْسَ عَلَى المَهْجُورِ فترتكو المَفْرُوضَ، ولا تتَجَنَّبُوا المَأْذُونَ لَكُمْ فيه فتركبوا المنهْيَ عنه.

(١) درَّ وَرِيْدُهُ: انتفخ من الغضب.

(٢) يزند: يشتعل ويحترق.

(٣) أَي نَزَلَتْ النَّازِلَةُ فِي مُسْتَقَرِّهَا، يُضْرَبُ عِنْدَ نَزْوِلِ الشَّدَّةِ وَإِصَابَتِهَا.

(٤) العود: البعيرُ المُسِنَّ، والعنج/ ضرب من الرياضة يعلمه البعير، وهو أيضاً مثل معناه: جَلَّ البعيرُ - بما أسنَّ - عن تعلم الرياضة.

(٥) جاء في مجمع الأمثال: قَالَ: جَبَّهْتُ المَاءَ جَبَّيْهَا، إِذَا وَرَدَتْه، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَدَاتُهُ وَلَا دَلَاؤُهُ، وَالجَوْزَةُ: السَّقِيَّةُ، وَلَا فَعْلٌ مِنْهُ فِي الثَّلَاثِي، وَالجَوَازُ: المَاءُ الَّذِي تُسْقَاهُ الماشية، يُقَالُ: اسْتَجَزْتَهُ فَأَجَازَنِي، إِذَا سَقَاكَ مَاءً لِأَرْضِكَ أَوْ ماشيتِكَ، وَقَوْلُهُمْ «ثُمَّ يُوَدِّنُ» يُقَالُ: أَذْنَتْهُ تَأْذِينًا، أَي رَدَّتْهُ، وَتَلْخِصُ المَعْنَى لِكُلِّ مَنْ وَرَدَ عَلَيْنَا سَقِيَّةً ثُمَّ يُمْنَعُ مِنَ المَاءِ وَيُرَدُّ. يَضْرَبُ لِلنَّازِلِ يُطِيلُ الإِقَامَةَ.

(٦) المبرمان هو محمد بن علي بن إسماعيل أبو بكر النحوي، وهذا لقبه. توفي سنة ٣٤٥ هـ.

يَحْضُرْنَا قَوْمٌ لَهُمْ دَفْرٌ كَصُنَانِ التَّيُوسِ<sup>(١)</sup> أَعْيَا عَلَى الْمَسْكِ وَالْغَالِيَةِ، يَسْأَلُونَ عَمَّا لَا يَعْنِيهِمْ وَلَا يَلِيقُ بِقَدْرِهِمْ، وَلَوْ سَأَلْتَ وَاحِدًا مِنْهُمْ عَنْ كُنْيَةِ أَعْشَى هَمْدَانَ<sup>(٢)</sup> أَوْ عَنْ دُعْمِيصِ الرَّمْلِ<sup>(٣)</sup>، وَمَا اسْمُ التَّمُودِجِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَكَيْفَ يُجْمَعُ الْعِجَانُ<sup>(٤)</sup>، وَكَيْفَ يَصْرَفُ الْهِجَانُ<sup>(٥)</sup>، وَمَا الْأَقْدُ وَالْمَرِيشُ<sup>(٦)</sup>، وَمَا الْخِجَاءُ وَالْعَرِيشُ<sup>(٧)</sup>، وَمَا الْمَشُوقُ وَالْحَرِيشُ<sup>(٨)</sup>، وَمَا الْمَشُوفُ وَالْخَرِيشُ<sup>(٩)</sup>، وَمَا الرَّئِيَّةُ وَالْفَرِيشُ<sup>(١٠)</sup>، وَمَا الْكَصِيصَةُ وَالْقَصِيصَةُ<sup>(١١)</sup>، وَالْخَرْبِصِيصَةُ وَالْهَلْبَسِيصَةُ<sup>(١٢)</sup>، وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ: مَا أَنْتَ أَخَانَا فَنَكْرَمَكَ، وَبَيْنَ مَا أَنْتَ أَخَانَا فَنَهِيئُكَ، الْأَوَّلُ بِالنَّصْبِ وَالثَّانِي بِالرَّفْعِ، وَمَنْ الَّذِي يَقُولُ:

(١) دفر: رائحة تنن الإبط. الصَّنَانُ: الريح الكريهة.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث بن نظام بن جشم الهمداني. شاعر اليمانيين، بالكوفة وفارسهم في عصره. ويعد من شعراء الدولة الأموية. كان أحد الفقهاء القراء، وقال الشعر فعرف به وكان من الغزاة أيام الحجاج، غزا الديلم وله شعر كثير في وصف بلادهم ووقائع المسلمين معهم. ولما خرج عبد الرحمن ابن الأشعث انحاز الأعشى إليه واستولى على سجستان معه وقاتل رجال الحجاج الثقفي. ثم جيء به إلى الحجاج أسيرًا بعد مقتل الأشعث، فأمر به الحجاج فضربت عنقه.

(٣) أَدَلُّ مِنْ دُعْمِيصِ الرَّمْلِ. هو اسم رجل، كان دليلًا خريئًا داهيًا. يضرب به المثل، فيقال: هُوَ دُعْمِيصٌ هَذَا الْأَمْرِ، أَي عَالِمٌ بِهِ.

(٤) الْعِجَانُ: بكسر العين، والجمع أعجنة وعجن، والعجان هو الجزء ما بين الدبر وأصل القضيب.

(٥) هِجَانٌ: جمع هِجَانٌ وَهِجَانٌ وَهُجْنٌ: أجود كل شيء وأكرمه أصلًا (يستوى فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والجمع) إبل هِجَانٌ: إبل كرام بيض، رجل هِجَانٌ: كريم النسب، أرض هِجَانٌ: كريمة التربة.

(٦) الْأَقْدُ: السَّهْمُ لَا رِيشَ لَهُ، وَالْمَسْتُوي الْبَرِّي لَا مِيلَ فِيهِ، وَالْمَرِيشُ: السَّهْمُ عَلَيْهِ رِيشٌ.

(٧) الْخِجَاءُ: بَيْتٌ مِنْ وَبَرٍ أَوْ شَعْرٍ أَوْ صُوفٍ، يَكُونُ عَلَى عَمُودَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ. الْعَرِيشُ: مَا يُسْتَقَلُّ بِهِ.

(٨) الْمَشُوقُ: الْمَشْتَاقُ. الْحَرِيشُ: حَيَوَانَاتٌ مِنْ كَثِيرَاتِ الْأَرْجْلِ الشَّفُويَةِ، وَتَسْمِيهَا الْعَامَّةُ: أَمَّ أَرْبَعَةٌ وَأَرْبَعِينَ.

(٩) الْمَشُوفُ: الْمَجْلُوفُ، وَمِنْ الْإِبِلِ: الْمَطْلِي بِالْقَطْرَانِ، وَالْجَمَلِ الْهَائِجِ. وَالْخَرِيشُ: الْمَخْدُوشُ.

(١٠) الرَّئِيَّةُ: وَجَعُ الْمَفَاصِلِ أَوْ الرُّكْبِ أَوْ الْأَطْرَافِ. الْفَرِيشُ مِنَ النَّبَاتِ: مَا انْبَسَطَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَمْ يَقُمْ عَلَى سَاقٍ. وَالْفَرِيشُ: الثَّوْرُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي لَا سَنَامَ لَهُ.

(١١) الْكَصِيصَةُ: مَصْبِدَةٌ يَصَادُ بِهَا الْغَزَالُ.

وَالْقَصِيصَةُ: الْبَعِيرُ أَوْ الدَّابَّةُ يُتَّبَعُ بِهَا الْأَثَرُ. وَالزَّامِلَةُ الضَّعِيفَةُ يَحْمَلُ عَلَيْهَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ لضعفها. وشجرة تنبت في أصلها الكمأة ويتخذ منها الغسل، والجمع قَصَائِصٌ وَقَصِيصٌ.

(١٢) يقال: جاءت وما عليها هَلْبَسِيصَةٌ وَلَا خَرْبِصِيصَةٌ أَي شَيْءٌ مِنَ الْحَلِيِّ. وَمَا عِنْدَهُ هَلْبَسِيصَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ. وَمَا فِي السَّمَاءِ هَلْبَسِيصَةٌ أَي شَيْءٌ مِنْ سَحَابٍ؛ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ، قَالَ: لَا يُتَكَلَّمُ بِهِ إِلَّا فِي النَّفْيِ.

فأرْمِيهَا بِجُلْمُودٍ وَتَرْمِينِي بِجُلْمُودِ  
فأرْمِيهَا وَتَرْمِينِي وَكُلْ هَالِكٌ مَوْدُ

ولكن صدق عمرو بن عُبيد شيخنا وشيخ الإسلام، وشيخ «العدل والتوحيد» حين قال: لن يكون العبد مستكماً لاسم الولاية حتى يسمع الكلمة العوراء فيجعلها دُبراً أذنه.

هذا مع قوله: تقويمُ الجاهل بما يُنكرُ أيسرُ من تعريفه ما يجهل، ولولا أن عُذري في تقويمك وتأديبك وتهذيبك وتربيتك يغمض على كثير ممن يسمع هذا الحديث لسألتُ شواتك<sup>(١)</sup>، وكسرتُ على رأسك دواتك، وألزمْتُ دكانك وأداتك، وأطعمتُك بولك وخراتك. اذهب فأنت طليق الجهل والقلة، عتيق الخيبة والذلة.

وكان إذا انتهى كلامه مع خصم يقول: النظرُ شعاري، والجدلُ دثاري، والحقُّ مناري، والبيانُ مداري، والله جاري<sup>(٢)</sup>.

وقال يوماً للحسين المتكلم:

ألي تقولي هذا، والجدلُ ردائي، والنظرُ حدائي، والعلمُ وطائي، والبلاغةُ عطائي، والذهبُ والفضةُ عطائي؟

وقال يوماً آخر لأبي صادق الطبري:

أنت يا أبا صادق خفيفُ الراس، شديدُ الإفلاس، إذا أبصرت النُّحار<sup>(٣)</sup> هذيت بالوسواس، وصدعت رؤوس الناس، بالتّمويه والإلباس.

وسمعتُهُ يوماً يقول لابن شاذان: يا أبا الحسن، توقِّ الرّسن، وانظرِ إلى المسنّ<sup>(٤)</sup>؛

(١) الشّوأة: جلدة الرأس.

(٢) أي الله نصري.

(٣) النُّحار: القتال.

(٤) المسنّ: الحجر يسن عليه.

فما أخوفني أن تُسن (١) بالقبیح لا بالحسن.

فقال له: أيها الصاحب! كَرَّم طبعك أمانٌ لي من بوائق سَجَعك.

وقال يوماً لابن حمزة:

الجدَل من قبلي، والنظر من خولي؛ هل هَضْبَةٌ تُوفي عَلَيَّ جَبلي؟ فاحفظ نفسك،

واعرف خصمك، وراجع فهمك، وجَرِّب بختك.

وكانت له تَعَسات كثيرة، لكنها كانت تُدْفَنُ ولا تُدَاع، رَهبةً ورَغبةً.

قال يوماً: «أطلع عليه»، ولا يجوز «إليه»، والمعنى يَقْتَضِي عليه لا غير.

فقال له الضرير النحوي: فما نصنع بقوله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ أَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾

[القصص: ٣٨]؟ فبرد.

ومن هذا الضرب قال يوماً: جَنَّ عليه الليل، [أي] كَنَّهُ الليل، ولا يجوز غير هذا.

فقال له أبو عمران الحسنكي: هذا لعمري في الفصيح، وإياه ذَكَرَ ثَعَلْبُ واختاره،

ولكن أين نحن من المَرَّارِ الفَقْعَسِيِّ (٢)، وهو أفصح من عالم صاحب «الفصيح»، فإنه

قال:

أَلَيْتُ لا أُخْفِي إِذَا اللَّيْلُ جَنَّنِي سَنَا النَّارِ عَن سَارٍ وَلَا مُتَنَوِّرٍ

فقال: يا أبا عمران! أنت جاهل بالعلم، ولذلك شوَّه الله وجهك، ووَكَّلَ المقت

والإدبار بك.

وَأَنشُدَ يَوْمًا لِشَاعِرٍ:

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا: جُودِي لَنَا خَرَجْتَ بِالصَّمْتِ مِنْ لَا وَنَعَم

(١) تسن: تطعن باللسان.

(٢) المرار بن سعيد بن حبيب الفقعي، أبو حسان. شاعر إسلامي، من شعراء الدولة الأموية. وهر القائل من

أبيات: (إذا افتقر المرار لم يره فقره.. وإن أيسر المرار أيسر صاحبه) وكان مفرط القصر، ضئيلاً. نسبته إلى

(فقعس) من بني أسد بن خزيمة. كان يهاجي المساور بن هند وقال المرزباني: كثير الشعر.

قلت: أصحابنا كذا يُنشدون، ويقال فيه تصحيف.

فقال: اسلح على أصحابك.

ولو كان سأل عن وجه التصحيف لكان أشبه بالفضل وأخلق بأخلاق الرؤساء.

وقيل له يوماً: ما القرحان<sup>(١)</sup>؟

قال: الذي لم يخرج به الجُدري.

قيل: ولم قيل ذلك؟

قال: ليسخن الله به عين السائل، ويسخّم وجهه، ويسمل عينه، وليقل دينه، ويدق ظهره، ويسلط عليه من يسد دبره.

واستؤذن يوماً للورّاق الطرسوسي فقال: الطرّ<sup>(٢)</sup> في لحيته، والسوس في حنطته، ما أصنع بطلعتة؟

وتكلم يوماً الخطيب في قول الرجل: «لا مال له قليل ولا كثير، ولا مال له قليلاً ولا كثيراً»، فلم يفهم عنه.

وقيل له: ما الفرق بين «با» و «تا» و «ثا» في مواضعها المخصوصة؟ فتحيّر. وكان السائل ابن المراغي.

وقيل له: لم جاز: إن زيدا منطلق وعمرو، ولم يجز: ليت زيدا منطلق وعمرو، والحرفان متضارعان في إيجاب النصب؟

فلم يكن عنده جواب.

ولقد سهرت معه ليلة في معرفة الفرق بين: «زيد أفضل إخوته وزيد أفضل الإخوة» وجواز أحدهما وبطلان الآخر، فكان كالحمار بلادة.

(١) القرحان، بالضم، من الإبل: الذي لم يصبه جرب قط، ومن الناس: الذي لم يمسه القرخ، وهو الجُدري، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث؛ إبل قرحان وصبي قرحان، والاسم القرخ.

(٢) الطرّ: القطع.

وقلت للحيلوهي: إنك تنال من عرض هذا الرجل جداً.

فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عَرَضَهُ وَظَهْرَهُ»<sup>(١)</sup> كما قال: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظَلَمٌ»<sup>(٢)</sup>.

قلت: إنما ورد هذا في الواجب، كالدين والثلمن وما أشبههما.

فقال: الأمل دين، والكرم مطلوب، وما رأس الله أحداً إلا وفرض عليه الإفضال والإحسان.

وقيل لعقيل بن علفة<sup>(٣)</sup>: لم تهجو قومك؟

فقال: إن الشاة إذا وردت الماء فلم يُصفر لها لم تشرب، أي إذا لم يُحرّضوا على المكارم لم يفعلوها.

قال: وأنا أستحسن قول الفضل بن يحيى<sup>(٤)</sup>: ما حثني أحد على الكرم كرجلٍ أنشدني بيتين وهما:

عُد لي بعادتك التي عودتني - روجي فداؤك - يا أبا العباس

(١) أخرجه البخاري معلّقاً بصيغة التضعيف قبل حديث (٢٤٠١)، وأخرجه موصولاً أبو داود (٣٦٢٨) واللفظ له، والنسائي (٤٦٨٩)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، وأحمد (١٧٩٤٦). وفي هذا الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْ الْوَاجِدِ»، أي: تأخّر الغني عن قضاء دينه، ومماطلته فيه «يُحِلُّ عَرَضَهُ»، أي: بإغلاط القول له، «وَعُقُوبَتَهُ»، أي: بحبسّه ومُعاقبته، «قال ابن المبارك» هو الإمام عبد الله بن مبارك، فسّر بعض الحديث، فقال: «يُحِلُّ عَرَضَهُ يُغْلِظُ لَهُ»، أي: بالقول، «وَعُقُوبَتَهُ يُحْبِسُ لَهُ»، أي: يَتِمُّ حُبْسُهُ عَقُوبَةً لَهُ.

وهذا بخلاف الأمر بإنظار المُعسر والحثّ عليه؛ لاختلاف الحالين؛ فالمُعسر لا يجد ما يقضي به ديونه وليس تأخيرُه عن مُماطلة، أمّا الغني فهو يجد ما يقضي به ولكنه يؤخّر حقوق الناس عمداً فاستحق العقوبة واللوم. (٢) أخرجه البخاري (٢٢٨٨)، ومسلم (١٥٦٤).

(٣) عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية اليربوعي المري الضبابي أبو العميس شاعر مجيد مقل، كان من بيت شرف في قومه وفيه خيلاء و غطرسة وكانت إحدى بناته اسمها الجرباء زوج للخليفة يزيد بن عبد الملك.

(٤) أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي الجواد المشهور، كان أخا الرشيد من الرضاع، ووزر له قبل أخيه جعفر بن يحيى، وولاه الرشيد خراسان فحسنت سيرته، توفي سنة ٢٠٨ هـ.

إِنَّ الدَّخَائِرَ - إِنْ أَرَدْتَ ذَخِيرَةً مِمَّنْ يُقْلِدُهَا - رِقَابُ النَّاسِ  
قال: وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرٍ فِيمَا رَوَاهُ الصُّوْلِيُّ: إِذَا مَدَحْتُمْ فَاخْتَصِرُوا، وَإِذَا  
هَجَوْتُمْ فَأَطِيلُوا؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَمْلُونُ الشَّرَّ.

ورأيتُه يوماً، وقد جرى وانقطع ظهره؛ فإنه قال:

قولهم: «إنها لإيل أم شاء»، معناه: بل شاء.

فقال الحسنكي: فما تصنع بقوله عز وجل: ﴿أَمْ آتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾؟ [الزخرف:

١٦] أترأه أراد به: بل آتخذ مما يخلق بنات، وهذا كفر؟

فما دار لسانه بشيء على حدته وكثرة هذيانه.

وحدثني العبسي، وقد جرى ذكر ابن عبّاد:

لقد أنا حديث ما نكذبه عن الرسول رويناه بإسناد

أن تطلب الخير ممن وجهه حسن فكيف تطلبه عند ابن عبّاد

مشوه الخلق لا دين ولا حسب كالقرود ما عنده خير لمرتاب

فقلت: لمن الشعر؟ فإنه واقع جداً.

فقال: هو لإدريس بن أبي حفصة.

قلت له: كأنه ما عنى غير صاحبنا.

وقال له يوماً ابن ثابت:

روى البخاري في «التاريخ» أن سعداً مولى أبي بكر روى أن رجلاً شكاً إلى النبي

صلى الله عليه وسلم صفوان بن المعطل، وقال: إنه هجاني.

فقال: دعوه، إنه خبيث اللسان طيب القلب.

فما تأويل: «خبيث اللسان وطيب القلب»؟

فقال: البخاري حشوي فشري، ليس عليه معول، ولا لقوله متأول.

وسئل يوماً عن قوله الله عز وجل: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، كيف نظّمه وتماّمه في المعنى واللفظ؟

فصاح على السائل وقال: أتسأل عن النّظم، وأنت لا تعرف الرّقم ولا العقم ولا الصّدم ولا الرّدم<sup>(١)</sup>؟

وأوصل إليه الوليديّ مسائل من جماعة من أهل نيسابور، كان فيها:  
ما معنى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥] قد علمنا أن من كذب فهو كاذب. وكان فيها:

ما معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا لِلْهَيْنِ آئِينَ﴾ [النحل: ٥١]، وقد علمنا أن الهين لا يكونان إلا اثنين؟ ولا قناعة لنا بقول من قال: هذا توكيد؛ فإن المطالبة فوق التوكيد؛ وأضعف المتكلمين في القرآن من زعم أن شيئاً منه زائد، وأن كذا وكذا لغو، وأن هذا على وجه التوكيد، ونحن وإن كنا نعلم أن التوكيد مذهب العرب، وكذلك الزيادة والحذف والإضمار، فالحكمة المطلوبة غير ذلك.

وعرض عليّ الوليديّ المسائل، وكان فيها:

ما معنى قول الله عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].  
وما وجه قول القائل: «لا تجعل» فيما لا يجعل؟ أو جائز أن يقال للإنسان: لا تنظر برجلك، ولا تمش بعينك؟ فإن قيل: لا، لأن هذا لا يخاف، قيل: وكذلك لا يجعل الله، أحداً مع القوم الظالمين، لأن هذا لا يخاف.

وما معنى قوله: ﴿مَا تَسْقِي مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ﴾ [الحجر: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْت عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]، وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]، وعن قوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(١) الرقم: الكتابة. العقم: ضرب من الوشي. الصدم: الدفع. الردم: سد الباب أو الثلمة، وما يسقط من الجدار.

وما معنى قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّالِئِينَ ﴾؟ [يوسف: ٧] خَبَّرْنَا  
عن «الآيات»، أكانت في أفعالهم أو في أبدانهم؟  
وما معنى: ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ  
يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ﴾؟ [المائدة: ٤١].

وخَبَّرْنَا عن قوله: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] وعن قوله:  
﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ [طه: ٨٥] وما معنى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ  
﴿ ١١٨ ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] أَلِالاختلاف أم للرحمة.

فإن قيل: للرحمة، قيل: فالمختلفون هم الذين خلقهم للرحمة، فما معنى: ﴿ وَلَا  
يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ﴾ ﴿ ١١٨ ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]؟ فقد أخرج من رحم من  
الاختلاف وللرحمة خلقهم، فإذا كان كلهم للرحمة خلِقوا فكلهم غير مختلفين، لأنه  
نفى عنهم الاختلاف وهم الجميع، فأين المراد بالآية؟

وقال: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال: ﴿ فَرِيقٌ  
فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ  
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَبِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٧-٨]، أفليس قد أخبر أنه لم يشأ أن  
يجمعهم على الهدى إذ أمرهم؟

وما معنى قوله: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾؟ [يوسف: ٢٤] فإن كان  
عمَّ بهذا الكفارَ والمؤمنين فما فضيلة يوسف؟ وإن كان خصَّ يوسف فهو قدح في  
النحلة.

وقال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣ -  
٢٤] ممَّا شاء الله فعله؟ فإن قيل: نعم، فكلُّ ما شاء الله كان، فهذا قولنا، وإن كان  
مما لم يشاء فلا يكون، فما وجه إيجاب الأمر بأن لا يقول لشيءٍ إنِّي فاعلٌ؟ إذا العباد  
يفعلون وإن لم يشأ الله.

وما تأويلُ قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨]، وقال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَ هُمْ﴾؟ [محمد: ١٦].

فبدأ بالطبع، ثم تني بالاتباع، وهذا يدفع تأويلكم في قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وما تأويلُ قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾؟ [آل عمران: ١٣٨] فهو بيانٌ للكفار، وهدى وموعظةٌ للمتقين دون الكافرين، فلم تعمون ما خصَّ الله، وتخصون ما عمَّ الله؟

وما تأويلُ قوله: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾؟ [الإسراء: ٨٢].

وما تأويلُ قوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؟ [الحشر: ٩].  
وما تأويلُ قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فخصَّ بهدايته أهل التقوى؟  
فإن قيل: هو هدى للكافر أيضا، فكيف وقد ختم القصة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، كيف يكون القرآن هدى لمن كان سواءً عليه أنذر أم لم يُنذر ويقال: قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، فهل زال فرض الله بختمه على قلوبهم؟

فإن قالوا: لا، فقد كلفوا أن يبصروا الهدى وقد ختم على قلوبهم، وأزالوا الفرض عن ختم الله على قلبه وعذروه بكفره، وجعلوه بمنزلة الصبي والمجنون.

وإن أبوا أن يقال: لو شاء الله لم يعص، لأن الله ذم الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا...﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية، قيل: فما تصنعون بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ

بَعْدِهِمْ ﴿ [البقرة: ٢٥٣]، واقتالهم معصية، ولو شاء الله ما عصوا بأن يمنعمهم، إذ خلى بينهم وبين معصيته؟

وما معنى قوله: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال الوليدي: وترددت شهورا ليُجيبَ عنه فما فعل.

وكان في المسائل أيضا:

كيف يُنفى العلم عن الله وقد أثبتته لنفسه في مواضع، والنص لا يُحذف ولا يُتأول؛ قال الله تعالى: ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ آخَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال: ﴿ ... وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر: ١١]، و﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأنعام: ٨٠].

ومن أعرض عن التنزيل فقد خلع رِبْقَةَ الدين.

وكان إذا رأى كاتبًا يقول له: «أَحْكَمْتَ «الفَصِيح»؟ هات: قَدَّتِ العَيْنُ (١) ماذا، وهات: لَحْمَ الرَّجُلِ وَشَحْمَ وما في بابه.

وإذا رأى صاحب لغة قال: ما معنى قول الشاعر:

وَأَقْدَرُ مُشْرِفِ الصَّهَوَاتِ سَاطٍ كُمَيْتٌ لَا أَحَقُّ وَلَا شَيْئٌ (٢)

وإذا رأى نحوياً يقول: على ماذا ينتصب ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣٦] فإذا أكثر من

هذا وشبهه أنشد:

أرى الناس أخلاطاً جميعاً وإنهم على ذاك شتى والهوى مُتَفَرِّقٌ

(١) قَدَّتِ العَيْنُ: وقع فيها القذى، وقَدَّتِ العَيْنُ: أخرجت قذاها، ورمت بما يتجمع فيها من إفرازات.  
(٢) فَرَسٌ أَقْدَرُ: تجوز حافراه رجله عند العدو، وذلك من صفات مَدْحِه، والسَّاطُ: الذي يرفع ذنبه في عدوه، وهو محمودٌ فيه أيضاً، والأحق: الذي يضع رجله موضع يديه، والشئيتُ من الخَيْلِ: العَنُورُ، والذي يَقْصُرُ حَافِرَا رِجْلَيْهِ عن حَافِرَيْ يَدَيْهِ.

ترى المرءَ إن جالسته ذا صناعةٍ وسائرُ ما فيه على ذاك أحرَقُ  
وتلقَى أصيلَ الرأي ليس لسانه بمُخرج ما في قلبه حين ينطقُ  
ورأيتُه مرةً يسألُ الحسنكي:

ما الطَّايَّةُ<sup>(١)</sup>، والثَّايَّةُ<sup>(٢)</sup>، والغاية، والآية، والرَّايَّةُ؟ وما الناقة القاصية<sup>(٣)</sup> والعاصية<sup>(٤)</sup>  
والعاطية<sup>(٥)</sup>؟

وكان سريعَ الردِّ على الإنسان شديدَ التَّعَجُّرف، وكان ذلك ربما انقلَبَ عليه.  
وقال يوماً لبعض العلماء في كلام سمعته منه: «أصْفَيْتُهُ كذا وكذا» لا يجوز، أما  
قرأت القرآن: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤٠] إنما يجب أن تقول: أصْفَيْتُهُ  
بكذا وكذا.

فقال العالم: هذا صحيح فصيح، وغيره جائز حسن، أما قرأت في الحماسة قول  
الشاعر في النسب:

لئن كنت أوطأتني عَشْوَةٌ لقد كنتُ أصْفَيْتُكَ الودَّ حيناً  
فقال بعجرفته: الشعر موضع ضرورة.  
وكذب، ليس هذا من ذلك.

وحدثني الثقة قال: قال يوماً المسيبي في حديثه: «وكان يخفر من ذاك ويستحيي».  
فقال له: سَخِنْتَ عَيْنَكَ، لا يُقال للرجل يخفر، الخفر للنساء.

فقال المسيبي: أيها الصاحب! التؤدة خير من العجلة، أين نحن من قول الشمردل  
في أرجوزته، رواها أبو حاتم:

- (١) الطَّايَّةُ: السطح، مربد التمر، صخرة عظيمة في أرض لا حجارة بها، القطعة أو الجماعة.  
(٢) الثَّايَّةُ: الحظيرة، حجارة ترفع فتكون علماً يُهتدى به، مظلة تتخذ من ثور وأعواد.  
(٣) القاصية: المنفردة عن القطيع.  
(٤) العاصية: التي لا تتبع أمها.  
(٥) العاطية: المنقادة.

لا يَسْبِقُ النَّائِلَ مِنْهُ الْمُنْكَرُ فَتَى شِتَاءً يَسْتَحِي وَيُخْفِرُ  
فقال: أَخَذْنَا فِي الْحِمَاقَةِ.

وقال مرّة: «ضَرَّهَ وَأَضَرَّ بِهِ»، ولا يجوز أَضَرَّهَ، كذا لا يجوز ضَرَّ بِهِ.

فقال له رجلٌ من خُرَاسان: فما تقولُ في قوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؟ [البقرة: ١٠٢].

فقال للرجل! اخسأ! أهذا من ذاك؟

وأخجلَ الرجلَ في صوابه، ولم يخجلَ هو من خطئه لسقوطه وجهله ومكابرته وحسده.

وقال يوماً: التَّكْثُ للعهد، والخُلْفُ للوعد، ولا يجوز: نَكَثَ الوعد، وكذا لا يجوز: أَخْلَفْتَ العهد.

وكان بيت القرآن والرواية حاضرًا أبو الحسن ابن شاذان فقال: هذا مرفوض بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠].

فبرد، وكان باردًا، لا رحم الله صداه ولا بلّ ثراء.

وقال في بعض الليالي: الاقتراف لا يكون إلا في القبيح، أما سمعت الكلام الذي هو كالمثل: «الاعتراف يمحو الاقتراف»؟

فقال له مقرئٌ قد حضر: التنزيلُ يَأْبَى هذا الحكم وينطق بغيره.

قال: وما ذاك؟

قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، فخرزي

وقام.

ورأيتُه يناظرُ أبا الفرجَ البغداديَّ الصُّوفيَّ، وكان في أذنه وقرٌّ، في وساوس الصوفية وخطراتهم، فقال له: يا أبا الفرج! إذا كانت البينونة مشعورًا بها في عرصة الحق - حيث

لا عبارة للخلق، ولا أمان للجبل والدق - بطنت وسائل المعرفة بحقائق المراد، واشتبهت  
أعلام الحال في تثبيت الإشارة، وبقيت العبارة على ألف الآلف، وعادة المتألف.

فأجابه أبو الفرج: لا ثبات لمناسب البينة في نهايات الاتحاد، لزوال شرائط  
رُسوم الخلق عند تصافي الأرواح بحقائق الحق.

قال ابن عباد: ما أنكر تلاشي المناسب في نهايات الاتحاد، إذا سطعت أنوار  
الحقيقة بالاتقاد؛ وإنما جررت الكلام إلى غاية تزلق فيها الأفهام، وتسيخ فيها الأوهام،  
ولا يُشرف عليها إلا من خصه الحق بخصائص التمام، ورفع معارفه عن معارف جملة  
العوام. ولولا الحال التي امتحنني الحق بها، وسحّني على غرائبها وعجائبها، في  
عرض صوادقها وكواذبها، مما هو مردود إليه، ومتوكل فيه عليه، لشققت معك  
جلباب صدر قد حُشي ودائع، وفتحت لك أبواب خزائن قد جمعت فيها بدائع؛  
ولكنني بما تراني أذنب<sup>(١)</sup> عليه مأخوذ، وبما تسمعني أذنب<sup>(٢)</sup> حوله محذوذ<sup>(٣)</sup>. وإلى  
الله المشتكى، فهو الغاية والمنتهى.

ثم قال: يا أبا الفرج! هل تعرف من أصحابك من يقول:

بليتُ بما لو يُبتلى أحده لأصبح كالعهن النفيش يطيشُ  
بعيشٍ وإعراضٍ وشوقٍ وغربةٍ ومحك الذي أهوى فكيف أعيش<sup>(٣)</sup>  
وأعجب من ذا أنني متصوّف ولكن صوف العاشقين حشيشُ  
وقلت لأبي السلم نجبة بن عليّ القحطاني الشاعر: قد لقيت ابن العميد، وها  
أنت تُشاهد ابن عباد، فصفهما لي، فإنك رجل بدويّ، وتنظر إلى كل شيء بفطرتك،  
وتنطق عن كل شيء بسابق فطنتك.

(١) أذنب: أتردد.

(٢) محذوذ: مقطوع.

(٣) المحك: عُسر الخلق والاستمرار في الخصومة.

فقال: أمّا ابن العميد - يعني أبا الفضل - فكان بحره لا يُنزَفُ<sup>(١)</sup> وبرّه لا ينسَفُ<sup>(٢)</sup>، وغبارُه لا يُشَقُّ، ونسيمه لا يُشَقُّ، وحبّه لا يفرك<sup>(٣)</sup>، وأديمه لا يعرك<sup>(٤)</sup>؛ على بخلٍ كان به أحوال نهاره ليلاً وألصق به ثبوراً وويلاً.

وأما هذا - يعني ابن عبّاد - فليس في استحسانه لإحسانه فضلٌ لاستحسانه لإحسان غيره، قد غرق في بحر نفسه، فليس يرفع طرفه إلى أحدٍ من بني جنسه؛ وهذا الذي يدلُّ على غاية نقصه.

وقلتُ للحيلوهي يوماً: كيف ترى ابن عبّاد؟  
فقال: كما قال الشاعر:

كَبْرُقٍ لَاحٍ يُعْجِبُ مَنْ رَأَهُ      وَلَا يَسْقِي الْحَوَائِمَ مِنْ لَمَاقٍ<sup>(٥)</sup>  
ونظر إليه يوماً وقد طلع في موكبه فتمثل بقول الشاعر:

وَأَنْتَ كَغَيْثِ السُّوءِ مِنْ يَرَبْرَقُهُ      يَشْمُهُ وَمَنْ يَحْلُلُ بِهِ فَهُوَ جَادِبُهُ<sup>(٦)</sup>  
ومن شعر ابن عبّاد، وهو يتملح به عند نفسه، قوله في رجل تزوّجت أمّه:

عَدَلْتُ لِتَزْوِيجِهِ أُمَّهُ      فَقَالَ: فَعَلْتُ حَلَالًا يَجُوزُ  
فَقُلْتُ: حَلَالٌ كَمَا قَدْ زَعَمْتَ      وَلَكِنْ سَمَحْتَ بِصَدْعِ الْعُجُوزِ  
وقال أيضاً:

زَوَّجْتَ أُمَّكَ يَا أَخِي فَكَسَوْتَنِي ثَوْبَ الْقَلْقِ  
وَالْحُرُّ لَا يُهْدِي الْحُرُّ      مَّ إِلَى الرِّجَالِ عَلَى طَبَقٍ<sup>(٧)</sup>

(١) لا ينزف: لا يفنى ماؤه.

(٢) لا ينسف: لا يختطى، والمقصود: لا يبرام لعزه.

(٣) لا يفرك: أي لا يدللك حتى لا ينقلع قشره عن لبه، والمقصود: لا يُسام الخسف.

(٤) عرك الأديم: دلّكه، وعركتهم الحرب: دارت عليهم.

(٥) الحوائم: العطاش. اللماق: البسير من الشراب والطعام.

(٦) جادبه: من الفعل (جدب) وجدبت الأرض: جدبت، بيست لاحتباس الماء عنها.

(٧) الحرّم: هو ما يحميه الرجل من أهله وأقاربه، وشددت الميم للوزن.

وقلت لأبي الفرج الصوفي البغدادي: أنت شيخ صوفي، ولك ذكرٌ جميل، لم تتعاطى لهذا الرجل - أعني ابن عباد - الكلام في الزهد والدقائق والأضمار والوساوس وتصفية الأعمال؟ هذا علم يُذكر به أصحاب الحرق، وأرباب الحرق.

فقال: هذا رجل رقيق رفيع، وله جاه ومال وهو مُطاع، ولست أصل إلى ما في يديه إلا بالرقاعة، وأنا ثقیل الظهر بالعيال محتاج إلى القوت، فأحتمق له ساعة حتى أنال منه هذا الحطام الذي قد تهالك عليه الخاص والعام، وقد قال الأول:

فحامقته حتى يقال سجيةٌ ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله

وسمعه يقول، وقد جرى حديث ابن العميد أبي الفضل، فقال: لم يكن له - مع فضله الشائع، وأدبه البارع - علم الدين، ولا كان عنده شيء من الشريعة. كان لا يعرف القرآن وأحكامه وغريبه وإعراجه، واختلاف العلماء فيه بضروب التأويل وغرائب التفسير. والرئيس إذا عري من هذا السربال فهو ممقوت عند الله تعالى، مقلبي عند الناس. وكان إذا سمع كلاماً في الدين ثقل عليه، وخنس عنه، وقطع على الخائض فيه، وكان إذا احتفل في العلم والحكمة وما يدل على الخصوصية قال:

لم صارت الأشياء المتعادية في حياتنا تتعادى بعد مماتها أيضاً وتتنافر؟ كمعى الذئب وجلد الشاة، وكسن السنور وعظم الفارة.

ولم الصبي إذا ولد أزرق فأرضعته حبشية عاد أشهل، فإن دامت عليه عاد أكحل؟ لا يتغلغل شعره كما اسودت حدقته؟

ولم ينسب الضب إلى العقوق، والهرة إلى البر، وهما يتشابهان في أكل أولادهما؟ قال: ويقول في دقيق علمه وغامض حكمته: قيل لسنورة: لم تأكلين جراءك على فرط حبك لها؟ قالت: يُخيل إلينا أن أكبادنا أولى بأن تكون فيها، من الأماكن التي تحويها.  
قال: ومن جملة ذلك أيضاً:

لم تموت السعلاة من الضربة الأولى، وتعيش بالضربة الثانية؟

ولم صَارَ الفَرَسَ لَا طِحَالًا لَهُ، وَالبَعِيرَ لَا مَرَارَةَ لَهُ، وَالظَّلِيمَ لَا مَخَّ لِعَظْمِهِ؟  
وَلَمْ لَيْسَ فِي السَّبَاعِ أَطْيَبُ أَفْوَاهًا مِنَ الكَلَابِ، وَلَا فِي الوَحْشِ أَطْيَبُ أَفْوَاهًا مِنَ  
الظُّبَاءِ؟

وَكَيْفَ صَارَ الأَسَدُ أَشَدَّ الحَيَوَانَ بَخْرًا وَكَذَلِكَ الصَّقْرُ؟  
وَلَمْ صَارَ الكَلْبُ أَسْبَحَ مِنْ سَائِرِ السَّبَاعِ؟  
وَلَمْ صَارَ حَيْتَانُ البَحْرِ لَا أَلْسِنَةَ لَهَا وَلَا أَدْمِغَةَ؟  
وَلَمْ صَارَ صَفَنَ البَعِيرِ لَا بِيضَةَ فِيهِ؟  
وَلَمْ صَارَتِ السَّمَكَةُ لَا رِئَةَ لَهَا؟  
وَلَمْ صَارَ فِي فَوَادِ الثَّوْرِ عَظْمٌ؟  
وَلَمْ صَارَتِ البِرَاغِيثُ تَجْتَمِعُ عَلَى السَّوْطِ مَتَى دُهْنٌ بِشَحْمٍ قُنْفَذٌ أَوْ مُسَحٌ بِمُضْرَانِ  
ابن عَرَسٍ؟

وَلَمْ صَارَ الزَّبُورُ يَمُوتُ فِي الزَّيْتِ وَيَعِيشُ فِي الخَلِّ، كَمَا تَمُوتُ الخُنْفَسَاءُ فِي  
الوَرْدِ وَتَعِيشُ فِي الرُّوْثِ؟

وَلَمْ صَارَ الضَّبُّ يَأْكُلُ الجِرَادَ وَيَسَالِمُ العَقَّارِبَ، وَهِيَ «أَشْبَهُ بِهَا مِنَ المَاءِ بِالمَاءِ»؟  
- فِي حِمَاقَاتٍ كَثِيرَةٍ، الجَهْلُ بِهَا أَحْمَدُ مِنَ العِلْمِ بِهَا.

هَذَا مِنْ تَشْنِيعِهِ عَلَى أَبِي الفَضْلِ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ رُبَّمَا قَالَ: كَانَ وَاحِدَ الدُّنْيَا؛ وَهَذَا  
كَمَا تَرَى، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي بَابِ المِنَاقِضَةِ.

وَالأَمْرُ الَّذِي تَشَدَّدَ فِيهِ - أَعْنِي ابْنَ عِبَادَ - وَبَلَغَ الحَدَّ الأَبْعَدَ مِنْهُ، وَزَادَ عَلَى جَمِيعِ  
النَّاسِ فِيهِ: بَابُ المَخَاطَبَاتِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَطَالِبُ أَصْنَافَ النَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِي الطَّاقَةِ وَلَمْ  
تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً، وَكَانَ يَقُولُ: هَذَا الَّذِي بِهِ أَجِدُ طَعْمَ وَلَا يَتِي، وَلَوْلَا هَذِهِ اللَّذَّةُ وَالشَّهْوَةُ مَا  
بَالَيْتُ أَن أَتَقَلَّبَ فِي مُرَقَّعَةٍ خَلَقْتُ، وَثُوبٌ رَثٌّ بَالٌ، أَجُوبُ بِلَادَ اللَّهِ، وَأَلْقَى عِبَادَ اللَّهِ،  
وَأَكَلَ رِزْقَ اللَّهِ.

ولقد خُدع في هذا عن أموال خطيرة اختلست فتغافل عنها، إمّا عن جهل وجُنون، وإمّا عن غيرهما. وأفسد البيان والبلاغة على الناس بهذا السبب، لأنه كان يسوم كل من كتب إليه أن يُكَنِّي عن نفسه بالعبودية، وعنه بالمولوية، ثم يعرض في هاتين الكنايتين، وكناية الحديث والأمر والشأن، ومن الحديث عنه، أو له، أو فيه، فربما تشاجرت كنايات وتداعت معانيها على الكاتب فلا يتخلص إلى تحقيق مُراد، واستبانة وجه، وهذا الذي أقوله يعرفه الذي دُفع إليه ودُهي به.

وقال لي ابن ثابت:

قلت له: كيف كان الخليفة يرضى بأن يقال له: أعزّه الله، وكذلك وليّ العهد، والوزير، ومن قاد الجيش وأغنى في الهبوة، ومن أمر على شطر الدنيا؟  
وكان ابن الزيات<sup>(١)</sup> يقال له يا أبا جعفر، وابن أبي دؤاد<sup>(٢)</sup> يقال له: يا أبا عبد الله.  
فقال: كان الناس في ذلك الوقت ضعاف العقول صغار الهمم، ولم تكن لهم مرائر مُعارة، ولا نفوس فيها غزارة.

هكذا قال. وهذا - حفظك الله - كلام جاهل لا خبرة له بشيء من أمور الدنيا والدّين، وهو مع ذلك دليل على النذالة والسقوط.

وجرى يوماً حديث المخاطبات عند القاضي أبي حامد المرورودي والترتيب فيها، وامتعض الناس من التصارُف الجاري بين أهلها، فقال: سبب هذا كله إحساس الناس بنقصهم القائم بهم، الراكد عليهم، الثابت فيهم؛ وطلب دفع ذلك بالترتيب، ونفيه بالخطاب؛ وليس الطريق إلى ذلك هذا، بل الطريق إليه الأخذ بأخلاق من سلف: من الحياء والكرم والدين والمروءة. انظر إلى السلف الصالح كيف كانوا، هل خاطبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا بيا رسول الله؟

(١) سبق الترجمة له.

(٢) سبق الترجمة له.

وبعدُ فهل يخاطبُ ربُّنا إلا بالتَّاءِ وإلا بالكافِ؟ وهل سمعتَ عبدًا لله قد أخلَصَ دينه له قال: إن رأى ربُّنا فعَلْ بعِبدِه كذا وكذا؟ وهل الخيرُ كلُّه إلا خَصَّ اللهُ به نبيّه وأُمَّتَه، وأشاعَ فيهم حكمتَه وبركتَه؟

ثم قال أبو حامد: وينبغي أن لا يكون بينك وبين أصدقائك صَرْفٌ<sup>(١)</sup>، لأنَّ الصِّدَاقَةَ فوق ذلك، بل المصارفةُ فيها تُقْذِرُها وتُفْسِدُها، وتحيلُ نضارتها، وتبدلُ غضارتها، وقد تستحيلُ الصِّدَاقَةَ بالمصارفةِ عداوةً، لأنَّ التَّجَنِّيَ والاستزادةَ يَعْتَوِرَانِها، والاعتدادُ والاحتجاجُ يَمَحَقَانِها؛ فأما النُّظراءُ والأَكفَاءُ فيكفي معهم أن يكون الجوابُ كالابتداءِ، والآخرُ كالأوَّلِ.

وكان أبو محمد الثُّبَاتِي يقول في هذا الباب كلامًا طيِّبًا، وأنا أَحْكِيه لأنَّه موضعه وإن تَنَفَّسَتِ الرِّسَالَةُ، فالغَرَضُ الفائدةُ، وإن كان سببُ إنشائها الغيظُ الذي فاض الصِّدْرُ به، ومَرِحَ اللِّسَانُ بوصفه، وقد قال ابن الرومي<sup>(٢)</sup>:

وَمَا الحِقْدُ إلا تَوَهُّمُ الشُّكْرِ في الفَتَى      وبعضُ السَّجَايا يَتَسَبَّنُ إلى بَعْضِ  
فحيثُ تَرى حِقْدًا عَلى ذِي إِسَاءَةٍ      فثمَّ تَرى شُكْرًا عَلى حَسَنِ القَرُضِ  
إذا الأَرْضُ أدَّت رَبِيعَ ما أنتَ زارِعُ      من البَدْرِ فيها فُهي ناهيك من أرضِ  
فهذا هذا.

قال: جميعُ ما يتقلَّبُ النَّاسُ فيه من هذه الأمورِ الفاسدةِ والأحوالِ الرَّدِيَّةِ، يرجعُ إلى أصولِ أربعةٍ، وهي: الحماقةُ والرِّقَاعَةُ والرُّعُونَةُ والجُنُونُ.

قال: فأما الحماقةُ فما عليه الكِتَابُ من المخاطباتِ المختلفةِ التي ليس فيها حقيقةٌ، ولا ترجعُ إلى صحَّةٍ، لا من جهةِ الديانةِ ولا من جهةِ رَسْمِ الأولينِ السَّادةِ، وإنما هو شيءٌ يُوَدِّي إلى القالِ والقيْلِ وإلى العداوةِ والمغالبةِ، ويبعثُ عَلى الوَحْشَةِ الشَّدِيدَةِ

(١) صَرْفَ الكلام: زَيْنَه. وهو منهى عنه لما فيه من التزيد والتكلف.

(٢) هو علي بن العباس بن جريح أبو الحسن، الشاعر المكثر المجيد. توفي سنة ٢٨٣ هـ تقريبًا.

بالاستشعار الرديي، والوسواس الموديي؛ لأن الترتيب إن كان بينك وبين من هو دونك فهو على الدلالة على محلك، وإن كان إلى نظيرك، فهو على غاية المماثلة بينه وبينك، وإن كان إلى من فوقك فهو على توفية ما يستحقه منك.

قيل له: هاهنا قسم آخر، والداهية كلها منه.

قال: وما هو؟

قيل: الذي يدعي أنه نظير لك وهو دونك، والذي هو فوقك وتدعي أنه في حدك، وهاهنا يشتد النزاع والفراع<sup>(١)</sup>، وتتحطم القنا ويتطاير الشرر، ويجد الشيطان مدخلا منه، وتسويلا به.

فقال: هذا من فقد التناصف في الأصل، وإلا فالحال مفضية في التحقيق إلى الكلام الأول.

ثم قال:

وأما الرقاعة فاتنفاش القضاة والشهود، ألا تراهم كيف يوسعون أكمامهم، ويعرضون جيوبهم، ويرخون أطواقهم، وينظرون إلى الأرض تعظما على من يكلمهم، وتبروا ممن يخالفهم؟ ألا ترى إلى دنياتهم وقرامعتهم<sup>(٢)</sup> وقلانسهم وعمائمهم وتحنبلهم<sup>(٣)</sup> وتقتلهم<sup>(٤)</sup>؟ فهم كما قال الشاعر:

وأنت بالليل ذئب لا حريم له وبالنهارة على سميت ابن سيرين  
وإذا تكلم أحدهم خفض صوته، وقطع حروفه، وسبح في خلال ذلك، وقال:  
عافاك الله اسمع! ويا هذا أصلحك الله! ويا عبد الله الصالح! قل خيرا، ولا قليل من

(١) الفراع: التشعب والتشتت.

(٢) هكذا بالأصل.

(٣) تحنبل: تطأطأ.

(٤) تقتلهم: خضوعهم.

الله، ويا فلان! اتَّقِ رَبَّكَ الَّذِي إِلَيْهِ مَعَادُكَ، أَمَا عَلَيْكَ حَفْظَةُ مَنْ قَبْلَ اللَّهِ؟ أَمَا لِلْإِسْلَامِ  
عِنْدَكَ حُرْمَةٌ؟ أَمَا تَوْمَنٌ بِاللَّهِ؟ أَمَا تُوقِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ؟

قال:

وَأَمَا الرُّعُونَةُ فَمَا عَلَيْهِ الشُّطَّارُ مِنْ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ الْجُلْدِ الَّذِينَ يَرْفَعُونَ الْحَجَرَ،  
وَيَدْعُونَ الْفُتُوَّةَ، وَيُكْثِرُونَ ذِكْرَهَا وَيَحْفَلُونَ بِهَا، وَيَسْمُونَهَا «الْجَوَامِرِدِيَّةَ»<sup>(١)</sup>، تَرَى  
أَحَدَهُمْ يُضَيِّقُ الْأَكْمَامَ وَيَحِلُّ الْأَزْرَارَ، وَيَفْتُلُ السَّبَالَ، وَيَمْشِي مَتَحَامِلًا، وَيَتَكَلَّمُ  
مَتَصَاوِلًا.

قال:

وَأَمَا الْجَنُونَ فَمَا تَجِدُ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ قَوْلَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ  
عَلِيٍّ، وَعَلِيٌّ خَيْرٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ؛ وَإِذَا حَلَفُوا قَالُوا: وَقَدَّرِ عَلَيَّ، وَحَقَّ الصَّدِيقُ؛ وَيَقُولُونَ:  
بَغْدَادُ أَطْيَبُ مِنَ الْبَصْرَةِ، وَبَادِيَةُ الْبَصْرَةِ أَخْفُ مِنْ بَادِيَةِ الْكُوفَةِ، وَالرَّازِقِيُّ<sup>(٢)</sup> خَيْرٌ مِنَ  
الْبَارِقِيِّ، وَالسُّونَائِيُّ<sup>(٣)</sup> أَحْلَى مِنَ الْكَرْخِيِّ، وَسَامِرَةٌ<sup>(٤)</sup> فَوْقَ «إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ»، وَفُلَانُ  
فَضْلِي، وَفُلَانُ مَرْعُوشِي<sup>(٥)</sup>؛ وَتَرَى لَهُمْ فِي هَذَا الطَّرِيقِ اهْتِمَامًا وَإِنْفَاقًا وَقُوَّةً وَمَغَالِبَةً  
وَمَشَاغِبَةً وَمَحَاكِمَةً وَمَلَاطِمَةً؛ وَهَكَذَا إِذَا جَرَى حَدِيثُ الشَّاعِرِ وَالشَّاعِرِ، كَالْعَوْفِيِّ  
وَالنَّاشِي، وَالْيَامِحِ، وَالْقَاصِ كَالْبَرْبَهَارِيِّ وَالْقَسْرِيِّ.

وَقَدْ صَدَّقَ هَذَا الشَّيْخُ، فَقَدْ سَمِعْنَا مِنْ هَذَا مَا لَا يُطَمَعُ فِي إِحْصَائِهِ.

(١) كلمة فارسية أصلها «جوانمرد» وتعني الكرم والمروءة.

(٢) الرَّازِقِيُّ: ضَرْبٌ مِنَ الْعَنْبِ (عنب الطائف) أَبْيَضٌ طَوِيلُ الْحَبِّ، أَوْ الْعَنْبُ الْمَلَاحِي.

(٣) السُّونَائِيُّ: نَسَبٌ إِلَى قَرْيَةٍ سُونَابَا الَّتِي كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْ بَغْدَادِ، وَيَنْسَبُ إِلَيْهَا الْعَنْبُ الْأَسْوَدُ الَّذِي يَبْكَرُ جَنَاهُ عَلَى  
سَائِرِ الْعَنْبِ.

(٤) هِيَ سَامِرَاءُ.

(٥) فَضْلِي وَمَرْعُوشِي: نَسَبٌ إِلَى فَضْلِ وَمَرْعُوشِ وَهُمَا سَاعِيَانِ كَانَا يَنْقَلَانِ الْبَرِيدَ السَّرِيعَ يَوْمِيًّا عَنْ مَعِزِ الدَّوْلَةِ  
إِلَى أَخِيهِ رَكْنِ الدَّوْلَةِ. وَقَدْ بَلَغَتْ سُرْعَتُهُمَا فِي السَّيْرِ مَبْلَغًا عَظِيمًا لَفَتَ إِلَيْهِمَا أَنْظَارُ الْعَامَةِ فِي بَغْدَادِ، وَكَانَ  
أَحَدُهُمَا سَنِيًّا وَالْآخَرُ شَيْعِيًّا، فَانْقَسَمَتِ عَامَةُ بَغْدَادِ فِي التَّعَصُّبِ لَهُمَا إِلَى «فَضْلِي وَمَرْعُوشِي».

وقال الزّعفراني الشاعر: كيف يكون هذا الرجل - يعني ابن عباد - دَيَّانًا ومتألِّهاً، وهو يَبْتَدِلُ العَلْوِيَّةَ والأَشْرَافَ، وَيُهَيِّئُهُمَ أَعْوَانَهُ، وهم يَعُدُّونَ بَيْنَ يَدَيْهِ فلا يُنْكَرُ ذلكَ منهم. ولقد قال يوماً، وهو يريد الرُّكُوبَ لبعض حُجَّابِهِ: نَظَّفِ الطَّرِيقَ مِن هَذِهِ الخَنَافِسِ والجُمَلَانِ والحِرابِيِّ والغِرْبَانِ.

فقلتُ لبعض من كان إلى جانبي: من يعني؟

فقال: يعني هؤلاء الواردين من الحجاز؛ لسواد ألوانهم وتفلفل شعورهم، ودَمَامَةِ وجوههم وانحطاط قلوبهم، وقلة دَمَائِهِمُ واختلاف حَرَكَاتِهِمُ وشَمَائِلِهِمُ.

قال: أفهذا من التَشْيِيعِ والولاءِ وما يجب لهذا البيت؟

ثم يدّعي أنه زَيْدِي، فإذا قَرَضَ قَصِيدَةً غَلامًا، وزاد على العَوْفِيِّ والنَّاشِي.

وأما أنا فما رأيت أحداً من خلق الله في حَدِّتِهِ وسفهِ لسانه. خرج يوماً من دار مؤيِّد الدولة من باب غامض هرباً من قوم كانوا يرقبونه على الباب المشهور من السَّحَرِ الأعلى، وهو وحده بين يديه ركابِيّ، فعرفته عَجُوزٌ فقامت في وجهه ودعت له، ومدت يدها بقصعة معها فقال: ما تريدين يا بظراء يا بخراء يا عفلاء يا فقماء<sup>(١)</sup>؟ على هذا إلى أن تباعدت فبقيت العجوزُ مبهوتةً، وقالت: مسكين هذا الرجل، قد جُنَّ.

فقلتُ لبعض أصحابه: ما هذا النَّدَلُ<sup>(٢)</sup> والفُحْشُ والخِيفَةُ والطَّيْشُ؟

فقال: هذا دأبه إذا جاع.

فقلتُ: أجاجَ اللهُ كِبَدَهُ وسَلَبَهُ نِعْمَتَهُ!

وحدثني العتّابي قال:

الرجل لا دين له؛ سمعته يقول في الخلوة، وقد جرى حديثُ المذهب: كيف أنزل عن هذا المذهب، يعني الاعتزال، وقد نصرته وشهرت به نفسي، وعاديتُ الصَّغِيرَ والكبيرَ عليه، وانقضَى عمري فيه؟

(١) الأفقم: من كانت ثنایاه العليا إلى الخارج فلا تقع على السفلى.

(٢) النَّدَلُ: الوسخ والقذارة.

قلت للعتابي: ومن أين وقع في هذا الإلحاد؟

فقال: لم يزل مترجِّحًا قليل الطمأنينة سيِّئ اليقين، ولكن أهلكه مُقَعَدَة الذي يقال له النَّصِيبِي أَبُو إِسْحَق.

وَصَدَقَ هَذَا الشَّيْخُ؛ كَانَ أَبُو إِسْحَقَ شَاكًّا فِي الثُّبُوتِ، وَكَانَ يُصَادِقُ بِهَذَا مِنْ صَافَاهُ وَوَثِقَ بِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ بِنَكَدِهِ وَخُبْثِهِ: لَوْ ظَفَرَ يَوْمَ الْجَمَلِ (١) طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ بَعْلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، دَارَ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ لَا يُعْوَلُ أَحَدُهُمَا فِي الْإِسْتِظْهَارِ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَّا بَأَنِّ يَتَزَوَّجُ عَائِشَةَ، ثُمَّ يَكْفِئُ صَاحِبَهُ بِهَا وَبِشِيعَتِهَا الَّذِينَ قَتَلُوا بَعْرَ جَمَلِهَا وَتَشَافَوْا بِهِ، وَتَحَاثُّوا عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَحْنُ نَكُوِّرُ عَمَائِمَنَا وَنَرْفَعُ طِيَالِسَنَا وَنَسْرِحُ لِحَانًا وَنَكْتَحِلُ وَنَحْتَفِلُ، ثُمَّ نَجْلِسُ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَامِعِ وَنَحْتَجِّجُ لِدَلِكِ التَّزْوِيجِ، وَنَتَأَوَّلُ كُلَّ قَوْلٍ، وَنَخْرِجُ كُلَّ خَبْرٍ، وَنَبْلُغُ كُلَّ غَايَةٍ بِكُلِّ حِيلَةٍ.

وَحَدِيثُ التَّاجِرِ الْمَصْرِيِّ مِنَ الطَّرَائِفِ. قَدِمَ شَيْخٌ لَهُ هَيْئَةٌ وَمَعَهُ ثِيَابٌ مِصْرَ، فَدَعَا بِهِ، وَاشْتَرَى مِنْهُ، وَتَقَدَّمَ بِإِكْرَامِهِ، وَرَفَعَ الْحِجَابَ عَنْهُ، وَقَالَ لَهُ: أَهْلُ مِصْرَ، أَيُّ شَيْءٍ يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ، وَبِرَسَائِلٍ مَنْ يَشْغِفُونَ؟

فَقَالَ التَّاجِرُ: لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ، وَنَصِيبٌ مِنْ كُلِّ أَدَبٍ، وَأَمَّا الرِّسَائِلُ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤَثِّرُونَ عَلَى مَا لَابَنُ عَبْدِ كَانِ الْكَاتِبِ أَبِي جَعْفَرٍ (٢) شَيْئًا. وَكَانَ نَجَاحُ الْخَادِمِ قَائِمًا، فَأَوْمَى إِلَى الْمَصْرِيِّ بِأَنِّ قُلْ: رَسَائِلُكَ هِيَ الْغَرِيبَةُ وَالْمَطْلُوبَةُ، وَهِيَ الْمَشْتَهَاةُ وَالْمُسْتَعْمَلَةُ، وَكَانَ إِيمَاؤُهُ بِالْيَدِ، وَالْإِصْبَعُ، وَالْحَاجِبُ، وَالشَّفَقَةُ، وَهَذَا كُلُّهُ لَا يُفْصِحُ

(١) موقعة الجمل حدثت سنة ٣٦ هـ بين قوات علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقوات معاوية بن أبي سفيان.  
(٢) ابن عبد كان الكاتب محمد بن عبد الله بن محمد بن مودود المعروف بابن عبد كان أبو جعفر الكاتب المنشئ صاحب الرسائل المدونة في عشر مجلدات، توفي سنة ٢٧٠ هـ، وكان على المكاتبات والترسل منذ أيام أحمد بن طولون ومكاتباته وأجوبته موجودة إلى آخر أيام أبي الجيش خمارويه بن أحمد، وقال الحافظ أبو القاسم: كان أول أمر ابن عبد كان أنه ولي البريد بدمشق وحمص ثم صار كاتب أبي الجيش خمارويه بن أحمد.

عن حرف، فلم يكن يفهم التاجر لشقائه معنى الإشارة؛ وانقبض عنه ابن عبّاد ولم يحاوره، وقام ذاك على حالة قد ناله فيها فتورٌ لا يدري ما سببه.

فلما كان بعد أيام حضر أيضاً وأعاد القول على الوجه، فأعاد المصريّ الجواب المتقدم، ونجاح الخادم على رسمه قائمٌ يُشير بمثل ما أشار إليه في المجلس الأول، وهذا لا يفتن، وفي أهل مصر سلامةٌ صدرٍ شبيهةٌ بغباوة طبع.

فالتفت ابن عبّاد إلى الخادم وقال: إذا كان صاحبك سخين العين قطيع الظهر، ابن بظراء، إيش يمكنك أن تعمل؟ وطرد المصري.

أفهل هذا إلا رقاعةٌ تحتها جنونٌ صرف، وسرطانٌ في الدماغ، وعلّةٌ في العقل، وفسادٌ في المزاج؟

واسمع ما هو أعجب من هذا!

ناظر بالريّ اليهوديّ رأس الجالوت<sup>(١)</sup> في إعجاز القرآن، فراجعه اليهوديّ فيه طويلاً، وثابته قليلاً، وتنكّد عليه حتى احتدّ وكاد ينقّد؛ فلما علم أنه سَجَرَ تنوره<sup>(٢)</sup> وأسعط أنفه، احتال طلباً لمُصاداته<sup>(٣)</sup>، ورفقاً به في مُخاتلته<sup>(٤)</sup>، فقال: أيها الصاحب! ولم تتقدّ وتشتطّ، ولم تلتهب وتختلط؟ كيف يكون القرآن عندي آيةً ودلالةً على النبوة، ومعجزةً من جهة نظمه وتأليفه؟ وإن كان النظم والتأليف بديعين غريبين، وكان البلغاء، فيما تدّعي، عنه عاجزين، وله مُدّعين، وهما أنا أصدّق عن نفسي وأقول: عندي أن رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلّفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك أو مثل ذلك، أو قريبٌ منه؛ وعلى كلِّ حالٍ فليس يظهر لي أنه دونه، وأن ذلك يستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام، أو بمرتبةٍ من مراتب البلاغة.

(١) رأس الجالوت: رئيس اليهود.

(٢) سَجَرَ التنور: ملاه وقوداً وأحماء.

(٣) المصاداة: المدارة.

(٤) المُخاتلة: الخداع والمراوغة.

فلما سمع ابنُ عباد هذا فترَّ وخمد، وسكن عن حركته، وانخَمَصَ ورُمه به وقال: ولا هكذا أيضًا يا شيخ، كلامنا حسنٌ وبلِغ، وقد أخذ من الجزالة حطًّا وافرًا، ومن البيان نصيبًا ظاهرًا، ولكنَّ القرآن له المزية التي لا تُجْهَل، والشرف الذي لا يُخْمَل؛ وأين ما خلقه الله تعالى على أتمِّ حُسنٍ وبهاء، مما يخلقه العبيد بتطلُّبٍ وتكلفٍ؟

هذا كله يقوله، وقد خبا حميُّه، وتراجع مزاجه، وصارت نازُه رمادًا، مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه، وفرح غالبٍ قد دبَّ في أسارير وجهه؛ لأنه رأى كلامه شُبُهَةً على اليهود وعلى عالمهم وخبرهم، مع سعة حيلهم وشدة جدالهم، وطول نظرهم وثباتهم لخصوصهم.

فكيف لا يكون شُبُهَةً على النَّصارى، وهم أليَن من اليهود عريكة، وأطفؤهم نائرة، وأقلُّهم مراء، وأكثرهم تسليمًا. وأنه إن جازَ هذا على اليهود والنَّصارى، وهم دَهْماء النَّاس، فما ظنُّك بالمجوس ونصبيهم من الجدال أقلَّ، وهم عن النظر أعجز، وعادتُهم في المحاجة أفسد؛ وهكذا الصَّابئون؟

انظر - أكرمك الله - إلى هذا الرَّجل العظيم الطاق الفسيح الرَّواق، الذي لا يرضى أحدًا، كم ينخدع وكم يذوب! مرةً للشاذيashi، ومرةً لليهودي، ومرةً للتاجر المصري، ومرةً للخراساني، ومرةً للبغدادي.

فهل هذا إلا التُّوك والرَّكاكة، وضَعْفُ النَّحِيْزَة، وسوءُ التَّخْيِيل، وقربُ العَوْر، وقلةُ العقل؟

قال أبو سليمان المنطقي<sup>(١)</sup>، وعنده يومئذ أبو زكرياء الصَّيمري، وقد قرأت عليه هذه الأحاديث:

(١) أبو سليمان هو محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيان في المنطق والحكمة والفلسفة. كان مجلسه حافلًا بالعلماء والحكماء، واسع الاطلاع في الفلسفة اليونانية وكان به عور وبرص يمنعانه من غشيان مجالس الأمراء والوزراء، وهو أكبر شيوخ أبي حيان في الفلسفة. مات على أغلب الظن في السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع الهجري.

هذا رجلٌ قد سَعِدَ في الدنيا سعادةً عَجِيبَةً مُذْ وليَ إلى الغاية، وهي شقَّةٌ عُمَرُه وآخر أمره، لم يُشكْ بشوكَةٍ، ولم ينكَبْ بنكَبَةٍ، ولم يسمَعْ من أحدٍ كلمةً عوراءَ، ولم يُدفع في حالةٍ إلى أبدة، وقد بلغَ في حياته ما شاء.

فقال أبو زكرياء: التَّحَسُّ الذي لحقَه في عقله حتَّى صارَ لذلك رَقِيعًا أهوجَ سَيِّءِ الأدبِ، حديدًا<sup>(١)</sup> كثيرَ الكذبِ، شديدَ التلُّونِ، عسيرَ المآئِي، ممقوتَ العُجبِ، عظيمَ الكِبَرِ، طويلَ الخُصومةِ، دائمَ المِرَاءِ، وقاعةٌ في أهلِ الفُضْلِ، حاسدًا لذوي الأدبِ، مغتاطًا على ذوي المروءاتِ، متانًا بالقليلِ، معظَّمًا للتافِه النَّزْرِ، وذويِّ الدينِ، مقرورًا بالأبْنِ - هو أعظُمُ من جميع ما أعطيه من المال الكثيرِ، والمرتبة العاليةِ، ومن الخيلِ المَسوِّمةِ، ومن الدُّورِ والقُصورِ، وما فيها من العينِ الحُورِ، والخزائنِ والذخائرِ، والفضَّةِ والذهبِ، والجواهرِ والخدمِ والعبيدِ؛ لأنَّ العقلَ إذا صحَّ فهو المَنِحة التي لا يُوازيها شيءٌ، وإذا اختلَّ فهو البلوى التي لا يتلافها شيءٌ. ولو كان مع هذا العقلِ عاريًا من جميع ما عدَدناه، لعلاه بعضُ العامة بكَيْسه ولُطفه، ولبرَزَ عليه بعضُ أصحابِ الخُلُقَانِ بمروءته وظرفه، «ولكنَّ الغني ربُّ غفور». ولهذا أحسن الذي يقول:

ذَرِينِي لِلغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الْفَقِيرُ  
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ أَمْسَى لَهُ كَرَمٌ وَخَيْرٌ<sup>(٢)</sup>  
وَيُقْصِيهِ النَّدِيُّ وَتَزْدَرِيهِ حَلِيلَتُهُ، وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ  
وَتَلْقَى ذَا الْغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ يَكَادُ فَوَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ  
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ وَلَكِنَّ الْغِنَى رَبُّ غُفُورٍ  
وَلَهُ مَعَ الْغِنَى أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَقُوَّةٌ وَسُلْطَانٌ، وَجَدُّ وَدَوْلَةٌ؛ فَكُلُّ عَيْبِهِ مَسْتَوْرٌ، وَكُلُّ فَضْلِهِ

مَنْشُورٌ.

(١) حديدًا: قاسيًا.

(٢) خير (بكسر الخاء): الأصل والشرف.

قال له أبو سليمان: صدقت؛ وهذا لأنَّ الإنسانَ لا يكون في هذا العالمَ مالكاً للتَّمام، جامعاً لأدوات الكمال؛ وسببُه أنَّه نتيجةٌ للكواكبِ العالية، والأجرامِ الشَّرِيفة، من الموادِّ المختلفة، والعناصرِ الصَّافية والكَدِرة؛ فمَتى نالته سعادةٌ بالمُشْتَرِي، وصلَ إليه نحسُّ من زُحَل، وكذلك الزُّهرةُ والمِريخُ. والعُلماءُ المتقدِّمون يقولون: المشتري والزُّهرة سَعْدَا الفلكِ، والزُّهرةُ مخصوصةٌ بالسَّعادةِ العاجِلة، والمُشْتَرِي مخصوصٌ بالسَّعادةِ الآجِلة.

قال: وهذا وإن كان في الجملة كما قالوا، فلالتباسِ الدُّنيا بالآخرة، فما يُستفاد من المشتري كثيرٌ من حظوظِ الدُّنيا، ويُستفاد من الزهرة كثيرٌ من حظوظِ الآخرة. ومن أسرارِ الزُّهرة أنها ربَّما هيأت الوحي، ومن أسرارِ المشتري أنه ربما هيأ اللُّهُو. ومرَّ له في هذا الفنِّ كلامٌ كثيرٌ مفيدٌ ندَّ عني، ولم يصحِّبْ ذهني إلا ما تسمع.

قال: ولهذا كان نحسُّ ابن العميد في بدنه، لأنه فقد الصِّحة في وسطِ عُمره، وحين الحالِ حَوِيل، والمالُ مَوِيل، والعِلْمُ نَزْرٌ، والفهمُ ناقصٌ، والبلاغةُ خَلقٌ، والكتابةُ شَمِطَاءٌ؛ فلما أخذت أحواله تَتَسَقِّقُ، وأسبابُ فضله تَسْتوسِقُ ضُرب في بدنه بالعِللِ الشَّدِيدة، والأمراضِ المختلفة، وسلب لذةِ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ، وبقيت حَسْرَةُ النِّعْمَةِ في نفسه إلى أن عطب؛ وقلةُ حظِّه منها هو الذي كان يبعثُه على قلةِ الإِنعامِ منها.

قال: ولهذا تجد آخرَ جيِّدِ العقلِ، صحيحِ البدنِ، محمودِ البيانِ، ولكنك تجد مع ذلك شديدَ الفقرِ، سيِّئَ الحالِ، مَرحومَ الجملة. وعلى هذه الجديلة كلُّ من اعتبرت حاله، وعرفت ما سلبه ممَّا وهبَ له، وما أعطيه ممَّا حرَّمه، وهذا ليكون العبدُ أبداً في منزلةٍ من النَّقصِ، وحالٍ من العجزِ، يكون بهما ضارِعاً إلى خالقه، طالباً لعنايته من مالِكِه، وليكون بين العبدِ المعجُوبِ مِنَ الطَّيْنِ وبين الله مُدبِّرِ الخَلْقِ فَرْقٌ.

وذَهَبَ في هذا الفصلِ كلُّ مذهبٍ، وشفَى كلُّ غليلٍ، وأبكى كلَّ عينٍ، وكان ذا قوةٍ عجيبةٍ في هذا الطَّرِيقَةِ، وذا اطلاعٍ على أسرارِ الخافية.

فأما حديثي معه، فإني حين وصلت إليه قال لي: أبو من؟  
قلت: أبو حيان.

قال: بلغني أنك تتأدب.

قلت: تأدب أهل الزمان.

قال: فقل لي، أبو حيان ينصرف أو لا؟

قلت: إن قبله مولانا لا ينصرف.

فلما سمع هذا تنمّر وكأنه لم يُعجبه، وأقبل عليّ واحدٍ إلى جانبه فقال له بالفارسية  
سَفَهًا، على ما فسّر لي.

ثم قال لي: الزم دارنا، وانسخ لنا هذا الكتاب.

فقلت: أنا سامعٌ مطيع.

ثم قلت في الدار لبعض الناس مُسترسلاً: إنما توجّهت من العراق إلى هذا الباب،  
وزاحمتُ منتجعي هذا الرّبع، لأتخلّص من خَرَزَةِ الشُّوم؛ فإن الوراقة لم تكن ببغداد  
كاسدة.

فُنمّي إليه هذا أو بعضه، أو على غير وجهه، فزاده تنكراً؛ وكان الرجل خفيف  
الدماغ، لا يعرف الحلم إلا بالاسم؛ والشؤدّد لا يكون ولا يكمل ولا يتم إلا بعد أن  
يُنسى جميع ما يُسمع، ويُتأوّل ما يُكره، ويؤخذ بالأسدّ فالأسدّ.

وقال أبو سعيد السيرافي: الحلم مشارك لمعنى الحُلم؛ فصاحب الحلم هو الذي  
يُعرض عمّا يرى ويسمع كالحالم، واللفظ إذا واخى اللفظ كان معناه قريباً من معناه،  
وهذا الخلق والخلق، والعدل والعدل، وسست الرجل، وسست<sup>(١)</sup> المرأة.

وقال لي يوماً آخر، أعني ابن عبّاد: يا أبا حيان! من كنتك أبا حيان؟

(١) هكذا بالأصل.

قلت: أَجَلُ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ، وَأَكْبَرُهُمْ فِي وَقْتِهِ.

قال: من هو وملك؟

قلت: أنت.

قال: ومتى كان ذلك؟

قلت: حين قلت لي: يا أبا حَيَّان.

فَأَضْرَبَ عَنِ هَذَا الْحَدِيثِ وَأَخَذَ فِي غَيْرِهِ عَلَيَّ كَرَاهَةً ظَهَرَتْ عَلَيْهِ.

وقال لي يوماً آخر، وهو قائم في صحن داره، والجماعة قياماً: منهم الزعفراني، وكان شيخاً كثير الفضل، جيّد الشعر، مُمتع الحديث؛ والنممي المعروف بسبطل وكان من مصر؛ والأقطع، وصالح الوراق، وابن ثابت، وغيرهم من الكتاب والندماء: يا أبا حَيَّان! هل تعرف فيمن تقدّم من يُكنى بهذه الكنية؟

قلت: نعم، من أقرب ذلك أبو حَيَّان الدارمي.

حدثنا أبو بكر القاضي محمد بن محمد الدقاق، قال: حدثنا ابن الأنباري، قال: حدثنا ابن ناصح، قال: دخل أبو الهذيل العلاف<sup>(١)</sup> على الواثق، فقال له الواثق: لمن تعرف هذا الشعر:

سَبَاكَ مِنْ هَاشِمٍ سَلِيلُ	لَيْسَ إِلَيَّ وَضْلُهُ سَبِيلُ
مَنْ يَتَعَاطَى الصِّفَاتِ فِيهِ	فَالْقَوْلُ فِي وَصْفِهِ فُضُولُ
لِلْحُسْنِ فِي وَجْهِهِ هِلَالُ	لِأَعْيُنِ الْخَلْقِ مَا يَزُولُ
وُطْرَةٌ لَا يَزَالُ فِيهَا	لِنُورِ بَدْرِ الدُّجَى مَقِيلُ
مَا اخْتَالَ فِي صَحْنِ قَضْرٍ أَوْسُ	إِلَّا تَسَجَّى لَهُ قَتِيلُ
فَإِنْ يَقِفُ فَالْعَيُونَ نُضِبُّ	وَإِنْ تَوَلَّى فَهِنَّ حَوْلُ

(١) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي البصري المعتزلي المتكلم، توفي سنة ٢٦٦ هـ أو ٢٢٧ هـ.

فقال أبو الهذيل: يا أمير المؤمنين! هذا لرجلٍ من أهل البصرة يُعرف بأبي حيان الدارمي، وكان يقول بإمامة المفضول. وله من كلمة يقول فيها:

أفضله والله قدمه على صحابته بعد النبي المكرم  
بلا بغضة -والله- مني لغيره ولكنه أولاهم بالتقدم  
وجماعة من أصحابنا قالوا: أنشدنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي لأبي  
حيان البصري:

يا صاحبي دعا الملامة واقصرا ترك الهوى يا صاحبي خساره  
كم لمت قلبي كي يفيق فقال لي: لجت يمين ما لها كفاره  
أن لا أفيق ولا أفتّر لحظة إن أنت لم تعشق فانت حجاره  
الحب أول ما يكون بنظرة وكذا الحريق بداؤه بشراره  
يا من أحب ولا أسمي باسمها إياك أعني واسمعي يا جاره

فلما رويت الإسناد، وأنشدت الشعر، وريقي بليل، ولساني طلق، ووجهي متهلل،  
وقد تكلفت ذلك وأنا في بقية من غرر الشباب وبعض ريعانه، فملأت الدار صياحاً  
بالرواية والقافية، فحين انتهيت أنكرت طرفه، وعلمت سوء موقع ما رويت عنده.

قال: ومن تعرف أيضاً؟

قلت: روى الصولي - فيما حدثنا عنه المرزباني: أن معاوية لما حضر أنشد يزيد  
عند رأسه متمثلاً:

لو أن حياً نجاً لفات أبو حيان لا عاجز ولا وكل  
الحول القلب الأريب وهل تدفع صرف المنية الحيل

قال الصولي: هذا من المعمرين المعقلين.

وانتهى الحديث من غير هشاشة منه عليه، ولا هزة ولا أريحية، بل على اكفهار  
الوجه، ونبو الطرف، وقلة التقبل. وجرت أشياء آخر، وكان عقبها أنني فارقت بابه

سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام، بغير زادٍ ولا راحلة، ولم يعطني في مُدَّة ثلاثِ سنين درهماً واحداً، ولا ما قيمته درهم واحد. فاحمِلَ هذا على ما أردت.

ولما نالني منه هذا الحرمان الذي قصدني به، وأحفظني عليه، وجعلني من بين جميع غاشية ورده فرداً، أخذتُ أتلافِي ذلك بصدق القول عنه، في سوء الثناء عليه، والبادي أظلم، وللأمور أسبابٌ، وللأسباب أسرار، والغيب لا يُطَّع عليه، ولا قارع لبابه.

وسألت العماري عنه فقال: الرجل ذو خَلَّة<sup>(١)</sup>، ولقد سأله ليلةً شيخٌ من خراسان في الموسم عن قوله عز: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] ما مرتبة الصَّلاح المذكور في الثاني من النبوة الثابتة في الدنيا؟ فأضرب عن المسألة ودافع بصدرها، ولم يُجرِ كلمةً فيها.

وسأله هذا الشيخ ليلةً أخرى عن قوله عز وجل: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وعن الفريق بين هذا الاقتصاص وبين قوله: ﴿وَإِذْ وَوَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، فما أعاد ولا أبدأ.

ولما عاد من همدان، قيل له:

كيف رأيت أبا الوفاء<sup>(٢)</sup>؟

قال: سرّاً ببيعة.

قيل: فكيف وجدت عبد العزيز بن يوسف<sup>(٣)</sup>؟

فقال: نكدًا وخديعة.

(١) الخَلَّة: بالفتح، النقص والخلل.

(٢) هو أبو الوفاء المهندس البوزجاني. من كبار علماء زمانه، بلغ المحل الأعلى في الرياضيات، وكان أحد الأئمة المشهورين في علم الهندسة، ويعد من كبار مترجمي وشرّاح إقليدس وبطليموس.

(٣) هو عبد العزيز بن يوسف الجكّار (الحكّار) أبو القاسم الشاعر المنشئ، من كُتّاب آل بويه، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة، ثم وزر لابنه بهاء الدولة. توفي سنة ٣٨٨ هـ.

قيل: فكيف وجدتَ المجوسي؟

قال: تمثالاً في كنيسة أو بيعة.

قيل: فابن سعدان<sup>(١)</sup>؟

قال: ضخم الدسيعة<sup>(٢)</sup>، له من نفسه حراً<sup>(٣)</sup> وسيعة.

فهذا حديثه في دينه، ورأيه وعلمه وعقله ومرؤته وصناعته ومذهبه. وقد طال وكثر، ولعلّ التقصي لو وقع لآزداد طولاً، فإنه تنفست أيامه وترددت أحاديثه.

سألت ابن الجلبات الشاعر عنه، فقال: ما أدري ما أقول في رجل من قرنه إلى قدمه عيبٌ وخزيٌّ وندالة ورفاعة، على أن الطبع النكد أملك له، والعادة القبيحة أغلب عليه؛ والإقلاع عن المنشأ المَعان بالطباع صعب وعسير، ولعله ممتنع.

وسألت الحاتمي عنه، فقال: رأيت رجلاً مدخولاً في جميع الفضائل، مردوداً على كلِّ التأويلات؛ لتيهه وإعجابه، وحسده ولوثته، وقلة مضافاته، وسوء رعايته، وفساد دخلته، ووقاحة وجهه، وشدة تعيره، وفسوؤ أبتته، وقبح سيرته في مذهبه، ونصرتة لما لا يعتقد بقلبه.

وسألت البديهي عنه، فقال: خذ حديثه بما تسمع مني، وقس عليه. رأيت يوماً على بابهِ شيخاً من أهل الكتابة والأدب ذكر أنه ورد من مصر، وأنه أقام بها زمناً، وأن أصله من بلاد العجم، فلما خرج إليه رفع قصبة كتب على رأسها: عبّاد بن أحمد، فأخذ ونظر، ثم قال:

(١) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان كان وزيراً للصمصام الدولة بن عضد الدولة من ٣٧٢ وقلته سنة ٣٧٥ هـ. لُقّب بالعارض، وهو كما في الأنساب للسمعاني: من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها إليهم، ويعرض العسكر على الملك إذا احتيج إلى ذلك. والظاهر أنه لقب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة، أو كان هذا لقباً لأسرته. وقد اتصل التوحيدي بابن سعدان وسامره زمناً فتألف من مجموع مسامراته له كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

(٢) الدسيعة: المائدة الكريمة، والعطية الجزيلة.

(٣) الحرا: جناب الرجل وساحته.

مَنْ سَمَّاكَ عِبَادًا بِاسْمِ الْأَمِينِ<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

وَمَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذَا اسْمُكَ الَّذِي اخْتِيرَ لَكَ عِنْدَ الْوِلَادَةِ؟

وَمَا هَذَا التَّقَرُّبُ بِالتَّكْذِبِ؟

وَمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَسْمَاءِ السَّادَةِ الَّذِينَ بَانُوا بِهَا كَالسَّمَاءِ بِكَوَاكِبِهَا، وَالْأَفْلاكِ  
بِعَجَائِبِهَا؟

أَمَا كَانَ لَكَ بغيرِ هَذَا الْاسْمِ الَّذِي ادَّعَيْتَهُ دَرْكٌ؟ وَلَا كَانَ ذَلِكَ دُونَ التَّكْثُرِ بِهِ سَبَبٌ؟  
مَا أَحْوَجُكَ إِلَى نِقَافِ<sup>(٢)</sup> يُوجِعُ يَافُوخَكَ، وَنِتَافٍ يَقْلَعُ شَامُوخَكَ!

وَسَأَلْتُ الصَّابِيَّ أَبَا إِسْحَقَ عَنْهُ فَقَالَ: إِنَّ صِدْقَتُ فِي وَصْفِهِ سَاءَ قَوْمًا، وَإِنْ كَذَبْتُ  
فِي وَصْفِهِ سَاءَنِي؛ وَلِأَنَّ أَنْفَرِدَ بِالمَسَاءَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ؛ وَبَعْدُ فَنَحْنُ مَعَهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَنَعْتَبُ أَحْيَانًا عَلَيْهِ وَلَوْ مَضَى لَكُنَّا عَلَيَّ الْبَاقِي مِنَ النَّاسِ أَعْتَبَا

وَقَلْتُ لِلضَّبْعِيِّ: كَيْفَ تَرَى هَذَا الرَّجُلَ وَقَدْ خَبَّرْتَهُ؟

فَقَالَ: أَمَا جَدُّهُ<sup>(٣)</sup> فَيُرِينِي أَنَّهُ وَاحِدُ الدُّنْيَا، وَأَمَا جَدُّهُ فَيَنْطِقُ بِأَنَّهُ أَنْذَلُ مَنْ فِي هَذَا

الْوَرَى.

وَبَعْدُ:

نِعْمَةُ اللَّهِ لَا تُعَابُ وَلَكِنْ رَبِّمَا اسْتُقْبِحَتْ عَلَيَّ أَقْوَامٌ  
وَقَلْتُ لِلْمَأْمُونِيِّ: أَصْدَقْتَنِي عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَقَدْ عَرَفْتَ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَاللَّيْلُ أَصْدَقُ

عَنْ خَبَايَا الْإِنْسَانِ مِنَ النَّهَارِ.

فَقَالَ: فِي الْجَمَلَةِ الرَّجُلُ بِلَادَيْنِ، لِفِسْقِهِ فِي الْعَمَلِ وَارْتِيَابِهِ فِي الْعِلْمِ.

وَسَأَلْتُ أَبَا صَادِقَ الطَّبْرِيِّ عَنْهُ فَقَالَ:

(١) الأمين: لقب والد الصاحب.

(٢) النِّقَافُ: الضَّرْبُ بِالسِّيفِ عَلَى الرَّأْسِ.

(٣) الْجَدُّ (بفتح الجيم): الحظ. وبكسرهما: ضد الهزل.

سل عن البُخت، والله ما له سَمْتُ يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ مِنْهُ، ولا بابٌ يُعْتَمَدُ مِنْهُ عَلَيْهِ؛ بَيْنَا هُوَ لَكَ، إِذْ صَارَ لَعْدُوكَ، حَالُهُ أَحْوَالُ، وَشَأْنُهُ شُؤُونُ، وَكُلُّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى الْجُنُونِ.

وقلت لابن المَراغي: كيف تراه؟

قال: والله ما يَشْفِي الغليلَ مِنْهُ هَجُوءٌ ولا مَلَامٌ، ولا ما هو مَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِ، إِلَّا أَنْ يَسْقُطَ مِنْ ذِرْوَتِهِ فَيُرَى فِي حَالِ سِقْطِهِ مَتَرِدًّا بَيْنَ خَبْطَتِهِ وَوَرِطَتِهِ.

وقلت للشيخ العالم: أَمَا أَنْتَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ فَقَدْ حَظَيْتَ عِنْدَهُ، وَنَلْتَ مِنْهُ.

فقال: لو عَرَفْتَ مَا يَتَّقِدُ عَلَى فُؤَادِي مِنَ الْغَيْظِ عَلَيْهِ لَرَحِمْتَنِي فِي بَلَائِي بِأَكْبَرَ مِمَّا تَحْسُدُنِي عَلَيْهِ فِي ظَاهِرِ أَمْرِي.

قلت: وما تُنْكِرُ مِنْهُ؟

قال: لست أَنْكِرُ مِنْهُ شَيْئًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا أَنْكِرُهُ كَلَّهُ.

وقلت لأبي جعفر الوراق: ما أراك تَخْرُجُ مِنْ حَضْرَةِ هَذَا الرَّجُلِ إِلَّا وَأَنْتَ سَاهِمٌ الْوَجْهَ، مَغِيظُ النَّفْسِ؛ كَأَنَّكَ لَسْتَ تَخْرُجُ مِنْ عِنْدِ مَنْ كُلُّ أَحَدٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَنْطِقَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْ يَصْنَعَ بِهِ حَالَهُ؟

فقال: والله لولا التخرج لوصفته بكلام كان فيه برد حرارة صدري، ولكن التخرج مانع من ذلك، هذا، والخوف أيضا عامل عمله، وآخر ما أقول: إنه ساقط من عين الله عز وجل، والويل له من الله يوم التجازي والقصاص.

وقلت لأبي الفضل الهروي: كيف ترى هذا الرجل؟

قال: أراه - والله - عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ نَازِلَةً بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالتَّكْرَمِ، وَلَيْتَنَّا عَلِمْنَا بِأَيِّ ذَنْبٍ عَوقَبْنَا فَكُنَّا نَنْتَهِي عَنْهُ وَلَا نُصِرُّ عَلَيْهِ، فَمَا عِنْدِي أَنْ اللَّهُ يَبْتَلِي عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ بِخِدْمَتِهِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْزِعَ عَنْهُ الْعِصْمَةَ، وَيُوكِّلَ بِهِ النَّقْمَةَ، وَيُحَرِّمَ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ.

وقلت للزَّعفراني الشاعر: بالله صِفْ لِي هَذَا الرَّجُلَ.

فقال: لو أمكنتني الوصف بالنظم كان أعجب إليّ؛ فإني رجلٌ شاعر، ولكن الخوف من ذلك حائل.

وقلت للتميمي: أمّا أصحابك فقد عرفتُ عقائدَ قلوبهم في هذا الرجل. فأين أنت منه؟

فقال: أحرى اعتقادي فيه أنه خنزير قد أُعطي قوة أسد؛ فهو يفترس يُمَنَّةً وشامةً، وكنت أرى فيما مضى أن الشرَّ مكسوب بالقصد حتى شاهدتُ هذا فتحولت عن الرأي الأول، وقلت: بل الشرُّ في بعض الناس لاصقٌ بالطبع.

وقلت لأبي سعيد الأبهري: بين لي أمرَ هذا الرجل، ففي نفسي أن أعمل كتاباً في أخلاقه.

فقال لي: لقد حاولت عسيراً. أنستطيع أن تصف إبليسَ بجميع ما هو فيه؟

قلت: لا والله، إنما أعوذ بالله منه فقط.

قال: فعُدَّ بالله من هذا قبل أن تعودَ بالله من إبليس؛ فإن إبليس - وإن كان شريراً - فهو عاقل، وهذا يزيد عليه لأنه شريّر وهو أحمق.

وقلت لأبي طاهر الأنماطي: كل أحد له على هذا الرجل كلام، وفي نفسه موجدة سواك؛ فإنك واصلٌ إليك إذا أردت، ونائلٌ من ماله وجاهه إذا أحببت، فما قولك فيه؟ فقال: صبري على رقاوته قد نغص عليّ جميع ما أنا عليه معه، على أن رقاوته مُرشحةٌ بجنون، وحنونه صادرٌ عن قدرة، فالرَّهبةُ منه قد كدّرت عين الرّغبة فيه، والغيطُ عليه قد منع من الاستمتاع به.

وسألت ابن زُرعة الفقيه فقلت: ما أحوَجني إلى فتياك في هذا الرجل!

فقال: قد -والله- جُبْتُ الآفاق، ولقيتُ أصنافَ النَّاسِ في الشَّرْقِ والغرب، فما رأيتُ رجلاً في جنونه أعقل منه، ولا في عقله أجنَّ منه، وإنه لأعجوبة؛ عدوُّه هالكٌ

لسلطانه، ووليّه خائف من كثرة ألوانه. لا عهد له ولا وفاء، ولا صدق ولا لطف، كله هزل، وجميعه جهل.

وقلت لابن فارس صاحب اللغة: بِمِ تحكُم على هذا الإنسان؟  
فقال: بأنه لله عدو، وللأحرار مهين، ولأهل الفضل حاسد، وللعمامة مُحِبّ، وللخاصة مُبغض.

فأما عداوته لله فلقلّة دينه.

وأما إهانته للأحرار فهي شهيرة كهذا النهار.

وأما حسده لأهل الفضل فجرّب ذلك بكلمة تبديها.

وأما حبه للعمامة فيمنظرته لهم وإقباله عليهم.

وأما بغضه للخاصة فلاذلاله لهم وإقصائه إياهم.

\*\*\*

فأما ابن العميد أبو الفضل، فإنه كان باباً آخر، وطامّة أخرى، وكان فضله من جنس ليس لابن عباد فيه نصيب، ونقصه من ضرب لم يكن له فيه ضريب. كان يُظهر حلماً تحته سفه، ويدّعي علماً هو به جاهل، ويُرِي أنه شجاع وهو «أجبن من المنزوف ضرطاً»، وكان يدّعي المنطق وهو لا يفِي بشيء منه، ولم يقرأ حرفاً على أحد، ويتشبع<sup>(١)</sup> بالهندسة وهو منها بعيد، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب، وكان أجهل الناس بالدخل والخروج، ولقد بقي ما بقي في أيامه فما قعد يوماً في الديوان ناظراً في عمل، أو فاصلاً لحكم، أو مُخلّصاً لمشكل، وكان قد وضع في نفس صاحبه<sup>(٢)</sup> - بالحيل الدّقيقة، والأسباب الخافية - أنه واحد الدنيا وأن ملوك الأرض يحسدونه عليه، وأنه لسان الرّمان، وخطيبُ الدهر؛ وأن قلّمه فوق السّيف،

(١) يتشبع: يتكثر.

(٢) هو أبو الفداء ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي، المتوفى سنة ٣٦٦ هـ.

وتدبيره فوق الجيش، ونظره في الدولة والمملكة وأحوال الأولياء وذوي التصيحة كالوحي والنبوة. وكان معوله في الأعمال على أبي علي البيع؛ وكان مع هذا سيئ السيرة، قليل الرحمة، شديد القسوة، وارم الأنف، عظيم التيه، شديد الحسد لمن نطق ببيان، أو أفصح بالعربية. وسيتبين بعض هذا بما أذكره لك بشاهد عدل، وراو ثقة.

ورد أبو طالب الجراحي الكاتب بالرّي من العراق، ولم يكن في عصره أنطق منه لساناً وقلماً، وهو من بيت علي بن عيسى الوزير، فعرض نفسه عليه، فلما رأى بسطته ولسانه وخطه وطلاقته ولطافته وأبوته وصناعته، حسده وابتاط منه، وضائق الدنيا به، وعمل على أن يسّمه، ففطن أبو طالب وكان فطناً، فطوى الأرض، ووقع إلى أذربيجان، وصار إلى ملك الديلم المرزبان بن محمد، فعرف قدره، وبسط يده، وأعلى كعبه، ونوّه باسمه، واستطال على ملوك النواحي بمكانه.

ثم انظر إلى ما جرّ أبو طالب عليه لخصته ولؤمه ونقصه وسقوطه، وهكذا يفعل من انصرف من باب عزيز ذليلاً ومن فناء موسر مذموماً. وقد كان يمكنه اصطناعه وتقديمه وإكرامه واستخدامه بأسهل غرامة وأيسر مؤونه، وأهون مرزية<sup>(١)</sup>؛ ولكنه حسده وأبعده، وليته مع ذلك زوده ما يوجب شكراً، ويكون بلاغاً، ويبقى حديثاً مأثوراً وذكرًا جميلاً.

ولقد كتب إليه أبو طالب بعد هذا الحديث كتاباً قرأتُ فصلاً منه يقول فيه:

«حدّثني بأيّ شيءٍ تحتجّ إذا طولت بشرائط الرياسة التي انتحلّتها وأكرهت الناس على تسميتك بها؟ أتدري ما الرياسة؟ الرياسة أن يكون بابُ الرئيس مفتوحاً، ومجلسه مغشياً، وخيره مدركاً، وإحسانه فائضاً، ووجهه مبسوطاً، وكنفه مزوراً، وخادمه مؤدّباً، وحاجبه كريماً، وبوابه رقيقاً، ودرهمه مبدولاً، وخبزه مأكولاً، وجاهه معرّضاً، وتذكرته مسودة بالصّلات والجوائز، وعلامات قضي الحوائج.

(١) أهون مرزية: أقل كلفة.

وَأنت! فبأبك مقفل، ومجلسك خال، وخيرك مقنوطٌ منه، وإحسانك مُنصرف عنه، ووجهك عابس، وبئانك يابس، وكنفك حرج، وخادمك مذموم، وحاجبك هرّار، وبوابك كلب، ودرهمك في العيوق<sup>(١)</sup>، ورغيفك في مُنقطع التراب، وجاهك موفور عليك، وتذكرتك محشوةً بالقبض على فلان، وباستئصال فلان وبنفي فلان، وبسم فلان، وبالذس على فلان، وبحط مرتبة فلان.

هل عندك أيها الرجل المدعي للعقل، المفتخر بالمال، والمتعاطي للحكمة، إلا الحسد والنذالة، وإلا الجهالة والضلالة؟

تزعم أنك من شيعة أفلاطون وسقراط وأرسطوطاليس، أو كان هؤلاء يضعون الدرهم على الدرهم، والدينار على الدينار، أو أشاروا في كتبهم بالجمع والمنع، ومطالبة الضعيف والأرملة بالعسف والظلم؟ فيا مسكين استحي، فإنك لا مع الشريعة ولا مع الفلسفة، وقد خسرت الدنيا والآخرة. هذا عقلك الذي يخاطب الناس برفعك التراب على رأسك والسخام في وجهك.

أمن كرمك وحزمك أن يفد عليك مثلي؛ رجل من آل الجراح بيت الوزارة والسؤدد، ينبري لمعروفك، ويخطب الخدمة بين يديك، والقيام بأمرك ونهيك؛ بحظ ميسور، ونائل مزور، فتحسده وتبعده، وتخمله وتهمله وتواطئ على سمه وقتله؟ يا ويلك! فمتى كنت أنت وأباؤك تستحقون خدمة رجل من آل الجراح؟ كأن بيتك بقم ما سألنا عنه، ولا وقفنا عليه؟ أليس أبوك كان قوآداً، وأبوه كان نخالاً؟

ها أنا قد انقلبتُ عنك خائباً، أفضعتُ وبُرتُ وكسدتُ؟ لا والله، بل قيض الله لي ملكاً من ملوك الدنيا حتى اشتمل عليّ، ونظر بعين الكفاية إليّ، وأهلني لمحل زائد على محلك، وربني في حال هي أشرف من رُبتك، والله أكرم من أن يُضيع مثلي أو يُحوجني إلى مثلك.

(١) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها، والمعنى المقصود هنا أن دراهمه بعيدة المنال.

فَبُؤِ الْآنَ بِخَسَاسَتِكَ، وَالصَّبَقُ بِالذَّقْعَاءِ<sup>(١)</sup> نَدَمًا عَلَى فِعْلِكَ، وَثِقَ بِأَنْ لِسَانِي وَقَلَمِي لَا يَزَالَانِ يَبْرِيانَ عِرْضِكَ، وَيَخْطَبَانِ بِذَمِّكَ، وَيَلْهَجَانِ بِهَتِّكَ سِتْرَكَ، وَيَبِيعَثَانِ النَّاسَ عَلَى مَعْرِفَةِ خَزِيكَ وَسَقُوطِكَ.

أَتَظَنَّ - يا جاهل أَنَّهُ إِذَا رَكِبَ قُدَّامَكَ حَاجِبٌ، وَسَارَ مَعَكَ رَاكِبٌ، وَقَالَ النَّاسُ: أَيُّهَا الرَّئِيسُ - أَأَنْتَ قَدْ مَلَكَتِ الْكَمَالَ، وَاسْتَحَقَقْتَ خِدْمَةَ الرَّجَالِ، مِنْ غَيْرِ إِسْعَافٍ وَلَا إِفْضَالٍ؟ هِيَهَاتَ! الْمَجْدُ أَحْشَنُ مَسًّا مِنْ ذَاكَ. وَسَأَشُقُّ<sup>(٢)</sup> النِّظْمَ وَالنَّثَرَ فِي أَكْنَافِ الْأَرْضِ بِمَا يَنْكَشِفُ بِهِ لِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ نَقْصُوكَ، وَتَزُولُ الشَّبَهَةُ عَنِ الْقُلُوبِ فِي أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

هذا أفادنيه جريح، وكان شاعرًا من أذربيجان. فهذا هذا.

قلت للخليلي: لِمَ كَانَ يَصْبِرُ أَبُو الْفَضْلِ عَلَيَّ ابْنِ ثَابِتِ الْكَاتِبِ الْهَمْدَانِيِّ وَهُوَ آفَةٌ وَنَكَالٌ، لَا حِظًّا وَلَا مَعْرِفَةً وَلَا أَدَبًا وَلَا صِنَاعَةً؟

فقال: لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ غَيْرَهُ لَا يَصْبِرُ عَلَيَّ ذَلِكَ الرَّزْقِ الْوَتِّحِ<sup>(٣)</sup> وَالْجَدْوَى الْقَلِيلَةَ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ مِسْكُويهِ:

يَقُولُونَ إِنَّ ابْنَ الْعَمِيدِ مُحَمَّدًا يَأْوِلُ إِلَى رَأْيِي وَثِيقِ الْمَنَابِتِ  
فَقُلْتُ: دَعُوهُ قَدْ عَرَفْتُ مَكَانَهُ بَطْلَعَةَ مَنْصُورٍ وَحِظَّ ابْنِ ثَابِتِ  
وَمَنْصُورٌ هَذَا خَادِمٌ رَأَيْتُهُ، كَانَ مِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ وَجْهًا كَثِيرَ الْهَذَرِ، سَيِّئُ الْأَدَبِ،  
وَكَانَ مِنْ قُمَّ مِنَ الْأَحْرَارِ<sup>(٤)</sup>. وَلَمَّا ذَمَّهُ صَاحِبُهُ وَوَلِيَّ نِعْمَتِهِ بِسَبَبِ هَذَا الْخَادِمِ لِلشُّهْرَةِ  
الْفَاضِحَةِ، وَالتَّهْتُّكِ الشَّائِعِ، قَالَ أَبُو الْفَضْلِ بِحِكْمَتِهِ: مَا أَصْنَعُ؟ وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُ فِي هَذِهِ  
الْمَدَّةِ لِأَيْرِي غَلَاظًا مِثْلَهُ، وَلَا بَدَلِي مِنْهُ، فَلَيْلُمَ مَن شَاءَ، وَالهُوَى لَا يَحِلُّوْا إِلَّا مَعَ الْعَدَلِ.

(١) الدَّقْعَاءُ: التُّراب.

(٢) أَشُقُّ النِّظْمَ: أَفْرَقَهُ وَأَذْبَعَهُ.

(٣) الْوَتِّحُ: (بِسُكُونِ النَّاءِ وَكسْرِهَا)، الْقَلِيلُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ.

(٤) مِنَ الْكِنَايَاتِ الَّتِي كَانَتْ شَائِعَةً وَقَتْنَدُ: «فُلَانٌ مِنَ الْأَحْرَارِ» إِذَا كَانَ مَلْحَدًا خَارِجًا عَنِ رِبْقَةِ الشَّرِيعَةِ.

انظر بالله ربك إلى هذا الحكيم بزعمه، واسمع قوله، وهو يزعم مع هذا أن أرسطاطاليس لو رآه لرجع عن آراء كثيرة ببيانه، ولغير كثيرًا من كتبه بمشورته.

وكان يقول بقبحته وقلة اكرائه وتهاؤنه بمن حوله: أما الموسيقى فإنه يموت بموتي ويفقد بفقدى، هذا وهو لم يقرأ حرفاً منه على أحد من خلق الله، وما أوحى إليه به، ولا يجوز أن يفتح مغلقه جزافاً عليه أو على غيره؛ وإنما كان يستجيز هذا القول في الموسيقى خاصة لأنه لم يبق منذ دهر من يدل من هذه الصناعة على حرف بتحقيق، أو يأتي فيها بوصف تام، لذهابه ودروسه.

والعلم كله - أبقاك الله - قد دخله الضيم، وغلب عليه الذهاب لقلة الراغبين، وفقد الطالبين، وإعراض الناس عنه أجمعين. والموسيقى من بين أجزاء الفلسفة فقد حمله، لأنه لا يوجد علمه إلا بعمل، ولا يكمل عمله إلا بعلم، والعلم والعمل في صناعة واحدة قلما يجتمعان على التناسب الصحيح.

وكان يعمل كتاباً سماه: «الخلق والخلق» فمات سنة ستين وهو في المسودة، وقد رأيت ورقات منه، ونقلت إلى «البصائر» حروفاً كانت فيها أفادنيها أبو طاهر الوراق. ولم يكن الكتاب بذاك، ولكن جعس الرؤساء خبيص<sup>(١)</sup>، وصنان الأغنياء ند<sup>(٢)</sup>، وخنفساء أصحاب الدولة رامشنه<sup>(٣)</sup>.

وقلت للغويري<sup>(٤)</sup>: حدثني عن ابن عباد، فإنك قد عرفت ليله ونهاره وخافيه وباديه، وعن ابن العميد فقد اختببت ورقه، وانتجعت صوبه.

فقال: في ابن عباد قحة مأبون، ولوثة مأفون، وهو ابن وقته معك، ونتيجة ساعته لك، لا يعرفك إلا عند امتلاء العين بك، ولا يعطيك شيئاً إلا إذا أخذ أكثر منه منك،

(١) جعس الرؤساء خبيص: رجيع الرؤساء حلواء.

(٢) الند: نوع من الطيب يخلط فيه المسك مع الكافور.

(٣) رامشنه: ورقة الآس.

(٤) كان من خواص صاحب وأحد شعرائه، واسمه أبو الحسن الغويري، من شعراء أصبهان.

يشترى عرضك، ولا يُؤليكَ حقك، ويبلغ بلسانه ما لا يسمح لك بعشره من فعله، ثم الويلُ لك إن أصبت في كلامك، والويلُ لك إن أخطأت، على أن الخطأ يعطفه عليك بالرحمة، والصواب يحمله في معاملتك على الحسد والانتقام، يريد منك أن لا تذكر فاضلاً عنده وإن ذكرته فضّلته عليه<sup>(١)</sup>. وإن ذكر الشعر فقل: أين مُسلم بن الوليد منك؟ وإن ذكر النحو فقل: وصلت إلى ما لم يصل إليه سيبويه، وإن ذكر البيان فقل: فيك أعراق متواشجة من قس بن ساعدة، أو لعله كان في قس عرق من آبائك الفرس، وإن ذكر الكلام فقل: لو رآكَ النَّظَامَ لَلَزِمَ بِأَبِكَ وَحَمَلَ عَاشِيَتِكَ، وإن ذكر الفقه فقل: أين أبو حنيفة عن هذا التحقيق والتدقيق؟ وأين صاحبه: محمد، وأبو يوسف عن هذا التطبيق والتعميق؟ فأما الجاحظ فما وزنه عند مثقالك؟ وأين شراره من نارك؟ وهل يسبح في بحرك؟ وهل يتناول إلى سمائك؟ لو رآكَ لرشاك، ولو شاهدك لما انتسب إلا إليك.

وأما إبراهيم بن العباس الصولي فأحسن ما يُختار له أن يكون من المختلفين إليك، ومن الحاذين على مثالك، والآخذين عنك. وأما الدواوين فالكلوادي يسلمها لك، ويتبرأ من الأعمال بسببك، ويطرح الرسوم القديمة معك، ويأخذ فيما تبذره وتضعه، لأنه إن نازعك افتضح على يدك، والعامل لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولو وثق أنك تقبل مُصانعته لصانعك، ولو علم أنك تُبقي عليه لخدمك.

وأما الخطّ فابن مُقلّة وابن أبي خالد والبربري ومن تقدّم وتأخر أعطوك الضمة فيه، وأظهروا لك الانقياد به.

قال: ومن مناقبه في مثالبه أنه يقنع منك في مدحك بالنفاق، وفي ثنائك عليه بالرياء، وفي نصرة سيرته بالحيلة، ويرضى في هذا كله بعفوك دون جهدك، وبما يخف دون ما يثقل. وليس كذلك ابن العميد؛ فإنه لا يحب أن تمدحه إلا بأكرم الخصال، وأشرف

(١) يعني ابن عباد.

الفعال، وأن يكون قولك عن عقد، ووصفك عن يقين، وإخبارك عن تعجب، وتعجبك عن استبصار، واستبصارك عن معاينة، وفيه مع ذلك كِيادٌ مُخَنَّتٌ مَجْفَوٌّ، وَسَفَهُ ضَرَّةٌ رَعْنَاءٌ، وَنَمِيمَةٌ كَنَّةٌ سَلِيْطَةٌ.

وحدثنا القاضي ابن عبد الرحيم، وكان خصيصاً به، وقهرمان داره ومُشْرِفاً على غوامض أمره، قال: قصده شاعر في بعض الأيام ووصل إليه، وأنشده وأصغى إليه، وانصرف بأمل، وتردد على ذلك فلم ير ما يُحِبُّ، وتعلَّقَ بي.

فقلت له: صاحبه روبين<sup>(١)</sup> أغلب الناس عليه، وأوجههم عنده، فلو لذت به رجوت لك. فلزمه وسأله الكلام في أمره، فوعده بذلك.

قال روبين فقلت له -يعني ابن العميد-: هذا الشاعر البائس قد سمعت منه شعره، وأسمنت أمله، وهو على ذلك يَغْدُو ويروح ويشكو وينوح، فلو أمرت له بشيء كان أقطع لشعبه وأجلب لشكره، وأدعى إلى السلامة من عبته؛ وهؤلاء يردون الآفاق، ولهم الإلحاح والطلب والتذرع باللسان، والتوصل إلى كل حال بكل حيلة.

فقال: وما يُريد؟ إن شاء أحبته عن قصيدته في رويها بعدد أبياته وعروضه وأعيان معانيه، وأزيد. وإذا رددت شعراً بشعر فليس عليّ بعد ذلك لوم ولا أنا مُقَصِّر ولا ظالم.

قال: فقلت له: هذا سمج شنيع، والناس لا يقارون عليه، ولا يرضون به ولو ذهبَت أرواحهم وتلفت أنفسهم.

فقال: يا هذا! هون عليك، وأقل من حديثك، فقد ضيعنا في هذا مالا، وإننا بعد في لذع الحسرة على ذلك، لأن الشباب له عرام، ولم يكن لي في تلك الحال تجربة، ولا يقظة، ولا معرفة بحق المال والقيام بحفظه إذا حصل، والشغل بجمعه إذا انتقل، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور.

(١) روبين: حاجب أبي الفضل، وكان شجاعاً شهماً ذا مروءة.

المال - عافاك الله - عديلُ الروح، وكمالُ الحياة، وقوامُ الظهر، وسرورُ القلب، وزينةُ العيش، ومِجَنُّ الحوادث، وحبُّ اللذات، ومُتعةُ الإنسان، ومادَّةُ البقاء؛ ومن لا مالَ له لا عقلَ له، ومن لا عقلَ له فلا حياةَ له، ومن لا حياةَ له فلا لذةَ له، ومن لا لذةَ له فهو في قبيلِ المَعدومِ.

قال رويين: فعلمتُ أن بعدَ هذه الخطبة لا يَسمحُ بدرهمٍ واحدٍ. فوصَلتُ الرجلَ من مالي بشيءٍ واعتدرتُ إليه؛ وبلغني أن ذلك الشاعر مَرَّقَ عِرْضه، وهتَكَ ستره. ولقد شاهدتُ في مجلسه شاعراً من الكرخ يعرف بممويه، وكان جيِّدَ اللسان، يقول له:

أيها الرئيس! قد لزمْتُ فِئاءَكَ لزومِ الظلِّ، وذللتُ لك ذلَّ النعلِ، وخدمتُ أَملي فيكَ خدمةً ناصحٍ لنفسِي فيما التَمستُ من الصَّلَة والجائزَة، ولك فيما أوفَدتُ عليك من الثناءِ والمدحِ، وما بي - والله - أَلَمُ الحرمانِ، ولكن شماتةُ قومِ صدقوني فاتَّهَمْتهم، ونصَّحوني فاغتَشَشْتهم؛ بأيِّ وجهٍ ألقاهم، وبأيِّ حُجَّةٍ أدافعهم؟ وهل حصلتُ من مَدِيحٍ بعد مَدِيحٍ، ومن نظمٍ بعد نثرٍ، ومن رواحٍ بعد بكورٍ، ومن غَسَلٍ أطمارٍ وإِخلاقٍ سِرْبالٍ، ومن تَأَفُّفٍ لازمٍ، وضَجَرٍ دائمٍ إلا على ندمٍ مُؤلمٍ ويأسٍ مُسقمٍ؟ فإن كان للنجاحِ علامةٌ فما هي، وأين هي؟ قد - والله - طالت غيبتِي عن أهلي، وعن السائلين عن حالي، في هذه المُعاملة التي عاقبتُها الحَيِّية بعد المَطلِّ، والحرمانُ بعد الإِطْماعِ، والتَحسُّرُ بعد الوعدِ؛ وقد بسَطَ اللهُ كَفَّكَ، وجعلَ الخَيْرَ والجودَ والكرمَ جاريةً في أسرارها<sup>(١)</sup> ونابغةً من جوانبها. فَفَضَّ أَيُّها الرئيسُ فإنما أنت بحرٌ، واسكُبَ فإنما أنت سَحابٌ، واطلَعُ فإنما أنت شَمْسٌ، واتَّقَدَ<sup>(٢)</sup> فإنما أنت نَجْمٌ، ومُرَّ فإنما أنت مُطْماعٌ، وهَبَ فإنما أنت واجِدٌ، واهتَزَّ فإنما أنت ماجِدٌ، وصِلَ فإنك جَوادٌ.

(١) الأسرار: الخطوط في جانب الكف.

(٢) اتَّقَدَ: تَلَأَأَ.

والله ما يَقْعُدُ بك خَوْرٌ في الطَّبَاعِ، ولا نَعْلٌ<sup>(١)</sup> في العِرْقِ، ولا قَدْحٌ في الأَصْلِ. المُخُّ قَصِيدٌ<sup>(٢)</sup> والحَبْلُ حَصِيدٌ<sup>(٣)</sup>، والزَنْدُ وارٍ، والفَرَوَةُ خَضْرَاءُ<sup>(٤)</sup> والعُودُ مُورِقٌ، والمال جَمٌّ، والأمرُ أَجَمٌّ، والسلكُ دَقِيقٌ، والنسيجُ صَفِيقٌ، والطَّرَازُ أُنِيقٌ؛ وما هو إلا أن تقول حتى تُسْمِعَ، وما هو إلا أن تأمر حتى يُمَثَّلَ، لأن أمرَكَ عَلَى الفَورِ، وحكمك ماضٍ بالعدل والجور؛ فما الذي يثني عزمك عن الكرم؟ ويُفْلُ حُدَّكَ في الجود؟ ويُقَصِّرُ باعَكَ عن المجد؟ ويسدُّ أذُنَكَ عن أحاديث غد؟ إن الذين تَكَرَّهُ لهم ما هُجُوا به كانوا مثلك، وإن الذين تحسدهم على ما مَدِحُوا به كانوا من طيبتك؛ فزاحم بمنكبك أضخمهم سنامًا وزد على من كان أكبرهم كاهلاً، وأعلاهم يفاعاً<sup>(٥)</sup>، وأسطعهم شُعاءً، وأزهرهم ناراً، وأكثرهم زواراً!

فلَمَّا بَهَرَ هذا الكلام الشَّهِيَّ في ذلك المجلس البَهِيِّ شُدِّهِ وَعَلِهِ<sup>(٦)</sup> ولم يَدْرُ ما يقول، وأطرق هُنيهةً، ثم قال:

هذا وقتٌ يَضِيقُ عن الإِطالة منك في الاستِزادة<sup>(٧)</sup>، وعن الإِطالة مِنِّي في المَعْدِرَةِ. فإذا تَوَاهَبْنَا في الحالِ ما قَد دُفَعْنَا إِلَيْهِ، اسْتَأْنَفْنَا في الثَّانِي ما نَتَحَامَدُ عَلَيْهِ. فقال الشاعر: أَيُّهَا الرَّئِيسُ! هَذِهِ نُفَاتَةٌ صَدْرٌ قَد جَوِيَ<sup>(٨)</sup> مِنْذُ سَنَةٍ، وَفَضْلَةٌ لِسَانٍ قَد قَدَّمَ<sup>(٩)</sup> مِنْذُ زَمَانٍ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ العَمَلُ، وَالجِزَاءُ مَوْقُوفٌ، وَالرَّجَاءُ عَليْلِ، وَالأَمَلُ غَادِرٌ، وَالحالُ بَعْرَضٍ سَوَاءٌ، وَالشَّامِتُ قَد شَمَّرَ لِلتَّائِبِ، وَلَا صَبْرٌ لِمُقِلٍّ عَلَيَّ مُدِلٍّ إِلَّا عَلَيَّ

(١) نَعْلٌ: فساد في النسب، نَعْلُ المَوْلُودُ: وُلِدَ عَن زَنَى.

(٢) القَصِيدُ: العَظْمُ ذُو المَخِّ، وَمخ قَصِيدٌ: سَمِينٌ، وَهم بِسْتَعِيرُونَ السَّمِينِ لِلجودَةِ.

(٣) الحَصِيدُ: مُحْكَمٌ.

(٤) الفَرَوَةُ: الجِلْدَةُ ذاتِ الشَّعْرِ، واخضُرارُ الفَرَوَةُ كناية عن الخصبِ وَسَعَةِ الررزقِ.

(٥) يَفَاعًا: ارْتِفاعًا.

(٦) شُدِّهِ: دَهَشَ بالأمرِ وَتَحَيَّرَ. عَلِهِ: ذَهَبَ فزَعًا.

(٧) الاستِزادة: العَتَبُ.

(٨) جَوِيَ العاشِقُ: اشْتَدَّ عَشْقُهُ فَأَوْرَثَهُ الحُزْنَ.

(٩) دُمُ الرِّجْلِ: ضَعْفَ فَهْمِهِ. قَدَّمَ: حَمَقَ وَجَفَأَ.

وجهٍ يُحتمل. فإن رأيتَ قدّمتَ المتأخّر، وقربتَ الشّاسع، وجعلتَ إجزال العطية في تعجيلها، وإكرام طالبها في تسهيلها، فلا مانع إن لم يكن ذلك من سدة جد، أو تقاعس جد.

فقال: يا هذا قد كرّرت العتب، واجتررت الملام، وما أستوجب هذا من أحد من خلق الله. ولقد نافرت العميد بدون هذا حتى ثار من ذلك عجاج قاتم، وانتهينا منه إلى قريّ عاتم<sup>(١)</sup>. ولست وليّ نعمتي فأحتملك، ولا صنيعتي فأغضبي عليك. وإن بعض ما قرّرت في أذني لِمما ينقض مرّة الحلم<sup>(٢)</sup>، ويبدد شمل الصّبر. ولست ممن يطيش لأدنى سانح، ويتطير لأول بارح. والله ما دعوتك إليّ، ولا أعريتك بي، ولا سألتك تقريظي، ولا أتعبتك في قصدي. وإن الظلم منك، وكذاك العتب منك. وأنا على كلّ حال مالي؟ فلا تجمع بين الظلم والتظلم، والجنابة والتجني، وخذ نفسك بالنزاهة والعفاف فإنهما لا يقفانك هذا الموقف، ولا يعرضانك على هذا المجلس، ورزق الله مُنتابٌ وغاد، واطلب الغنى منك فإنه عندك أكثر منه عند من تظلمه وهو لم يظلم، وتعاقبه وهو لم يجرم.

فقال الرجل: ما كرّرت العتب حتّى أكلت النوى المحرّق في انتظار صلتك، ولا اجتررت الملام حتّى خانني صبري في توقّع جائزتك؛ والغني إذا مظلّ ظلم، والواجد إذا لوى أثم، والجواد إذا منع ليم.

ولعمري ما دعوتني إليك، ولا أعريتني بك بكتاب خصصتني وربّبتني فيه، ولا سألتني تقريظك، ولا أبغيتني في قصدك برسول أرسلته إليّ؛ ولكن لما جلست في صدر هذا الإيوان<sup>(٣)</sup> بأبْهتكَ وعظمتك وكبرياتك وجبروتك؛ وقلت: لا يخاطبني

(١) قريّ عاتم: طريق مظلم.

(٢) المرّة: قوّة وشِدّة وإحكام في كلّ شيء، ومرّة الجبل: طاقته. ونقضه: فسخه.

(٣) الإيوان: مجلس كبير على هيئة صُفّة واسعة لها سقف محمول من الأمام على عقد يجلس فيه كبار القوم.

أحدٌ إلا بالرياسة، ولا يُنازِعُنِي أحدٌ في حُقوقِ السِّيَاسةِ. فإني كاتبُ رُكنِ الدَّولةِ، وزَعِيمُ الأولياءِ بالحَضرةِ، والقَيِّمُ بمصالحِ المَمْلَكةِ - فقد أَهَبْتُ<sup>(١)</sup> النَّاسَ إلى بابك، وأغرَيْتَهُم بِخِدمَتِكَ، وأطمَعْتَهُم في مالِكَ، وكأَنَّكَ قد خاطَبْتَهُم بلسانِ الحالِ، وإن لم تكن خاطبتَهُم بلسانِ المقالِ. فأنا ذلك السَّامِعُ برياستِكَ، والشَّاهِدُ بِفَضْلِكَ، والراغِبُ في خِدمَتِكَ، والراجي لِخَيْرِكَ؛ سمعتُ فَأَجَبْتُ، وحضرتُ فمدحتُ، ووقفتُ فَأَثْنَيْتُ، وأصغيتُ فقبِلتُ، وأدَيْتُ فاستحسنتُ. ولم يبقَ بعدَ هذا كلُّه إلا أن لا يكونَ عطاؤُكَ حِرمَاناً، ووعدُكَ لِياناً، ولا جُودُكَ انتحالاً، ولا فُتوتَكَ اقتيالاً<sup>(٢)</sup>، ولا ماؤُكَ سَراباً، ولا جُودُكَ ضَباباً؛ ولا خِدمَتِكَ مَندمةً، ولا الحاصِلُ من مُعامَلَتِكَ مَظلمةً.

وإنَّ الرَّجُلَ الحَرَمَتِي عَلمَ أن صاحِبَهُ لئيمُ الطَّباعِ، خَسيسُ الخُلُقِ، مرَقَعُ المنصِبِ، ملبوسُ المَحَدِّدِ، وأنَّ اللهَ تعالى لم يَجعَلْهُ من معادِنِ الرِّزْقِ، ولا من أبوابِ التَّجاحِ، فإنَّه لا يطمَعُ فيهِ، ولا يتواضَعُ لهُ، ولا يَعدُّهُ فيمن يَعدُّ، ولا يَشغَلُ لسانَهُ بِمدحِهِ، ولا يُعقُّ أملَهُ بِقصدِهِ، ولا يَضِيعُ قولُهُ في وُصفِهِ؛ بل يرى أن اقتحامَ الجَمَرِ، وسَفِّ التُّرابِ، ونزَعِ الرُّوحِ أَهونُ من ذلكَ وأَعزَّ.

ولَعَنَ اللهُ الأَدبَ إذا كان بائِعُهُ مُذِبِلاً لهُ، ومُشترِيهِ مُهيناً لِقَدْرِهِ، ومُماكِساً فيهِ.

وتَقَوَّضَ المجلسِ، وقامَ النَّاسُ، وانصَرَفَ الشاعِرُ.

فحدَّثني شمسُويهِ أَنَّهُ طلبَهُ بعدَ ذلكَ ليصِلَهُ، فرجعَ إليه أَنَّهُ ذهبَ بينَ سَمعِ الأَرْضِ وبصَرِّها.

وسألتُ الجُرْجانيَّ عن ابنِ عَبادِ وابنِ العَمِيدِ.

(١) أهبت: دعوت.

(٢) اقتيالاً: ادعاءً.

فقال: ما يبنيان بكرم كبير، وفعال<sup>(١)</sup> مشهور؛ ولا فائدة في نشر لؤمهما وخساسة طباعهما. بلغ من فلسفة هذا أنه أمر بقطع لسان رجل شتم بلد قم غضباً لبلده، وتيهاً بوطنه، وشد آخر في داره إلى شجرة وما زال يضرب إلى أن مات، وطرحه في جوبة<sup>(٢)</sup> حتى أكلته الكلاب؛ فقال صاحبه<sup>(٣)</sup>: انظروا إلى هذا الذي قلنا إنه أعقل الناس. حدثني بهذا الهروي.

ثم قال: وكان ابن عباد - كما قال أصحابنا - هو ابن سجب ليس عنده إلا القال والقيل، والكبر والتخيل<sup>(٤)</sup>؛ يُحبّ العامة ويرفع نفسه عنها، ويحسد الخاصة ويجعل نفسه منها، ويستطيل بالعلم وهو قريب القعر فيه، ويدعي الرد على الأوائل وهو لا يعرف حرفاً من نمطهم، ويتحلى بالعدل والتوحيد قولاً، ويتحلى بالجور فعلاً، ويتشبع بالأدب وهو سيء الأدب. يتهكم بلسانه مستطيلاً، ويتقحم الجرائم<sup>(٥)</sup> مستهيناً، لو وقع عليه الخضم لجرده للناس، وأظهره للصغار والكبار، لكنّه في خفارة جده، وحسن دولته؛ على أن الجهاذة قد نقدوه وبهرجوه وتركوا التعامل به، وإنما هو وميض برق وهبوب ريح، وخفق راية. فإذا قرت الأمور قرارها، وعطفت الفروع على أصولها ألفتته مطرّحاً مع نظائره، حامل الذكر، وضع القدر، قصير الشبر، مهتوك الستر.

قال: وجملة الأمر أن ابن العميد كان حسن الكتابة، غزير الإنشاء، جيد الحفظ، ولم يكن له في كتابته حساب ولا تحصيل لوجوه الأموال، ولا معرفة بالدواوين، ولكنّه كان بفضل الكيس يتأتى له ويتلطف.

(١) فعال (بفتح الفاء): اسم للفعل الحسن.

(٢) جوبة: حفرة.

(٣) يعني ركن الدولة.

(٤) التخيل: التلبس على الناس.

(٥) الجرائم: مفرد الجرثومة: الأصل؛ وجرثومة كل شيء أصله ومُجتمعه، ويتقحم الجرائم: يلقي نفسه في النار.

قال: وله شعر صالح في الغزل والمعاتبة؛ ولأنه مشهورٌ لا طائلَ في روايته، ومن ذلك قوله:

قَلْبِي دَامَ بِهِ نُدُوبٌ      يَكَادُ مَمَّا بِهِ يَنْدُوبُ<sup>(١)</sup>  
 قَدْ كُنْتُ أَخْفِي الْوِشَاةَ جَهْدِي      فَتَمَّ مَنِي بِهِ الْوَجِيبُ  
 فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِمَسْتَهَامٍ      عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِهِ رَقِيبُ  
 يَعْمِدُ مَا سَاءَ نِي ضِرَارًا      مَا هَكَذَا تَفْعَلُ الْقَلُوبُ  
 يَقْتَادُنِي لِلصَّبَا غَرِيرٍ      كَأَنَّهُ شَادَن رَيْبُ  
 جَرَى مَعَ الدَّهْرِ فِي عَنَانٍ      فَهُوَ لِأَحْكَامِهِ نَسِيبُ  
 فَكُلُّ مَحْبُوبِهِ بَعِيدٌ      وَكُلُّ مَكْرُوهِهِ قَرِيبُ  
 وَكَيْفَ يُرَجَى بَقَاءَ صَبِّ      نَاكَدِهِ الدَّهْرِ وَالْحَبِيبُ

وكان ابنه أبو الفتح أشعر منه وأحسن خطأ، واستفاد بدخول بغداد شيئاً فات والده. وكان<sup>(٢)</sup> لذلك يغمز على البغداديين ويتعتتهم، وكان نزر العطاء، شديد المنع، لا يقبل صنفاً من الناس، وإنما غرم شيئاً يسيراً على العامري، لأن العامري خدعه وطلاه وصبغه ودخل من باب غامض عليه وقال: لقد قصدتك من خراسان لأقرأ عليك علم الحيل وجرّ الثقل، ومراكز الأثقال، وهو في أواخر علم الهندسة. بهذه الدعوى وبخلافته أيضاً، وبعضر عينيه عند سماع كلامه، وكان يقول له: ضاع عمري ولم أوفق لرشدي في أول أمري، ولو وُفقت لوقعت إلى كنز علمك وروضة بيانك قبل هذه السنين.

ولما رآه أبو الفضل على هذا، قال: لست في قراءتك جرّ الثقل عليّ بأحوج مني في قراءة الإلهيات عليك، فإنك في هذا الفن بحر لا يتغلغل إلى قعره، وجبل لا يتوقل إلى مصاده<sup>(٣)</sup>.

(١) ندوب: جروح.

(٢) عاد الحديث عن أبي الفضل بن العميد.

(٣) يتوقل: يصعد، وقّل في الجبل: صعد فيه. والمصَادُ: الهضبة العالية والجمع: أمصدة، مُصَدَان.

وكان هذا تساخراً منهما، وتكاذباً بينهما، لأنهما كانا لا يعرفان من هذين العُلمين لا قليلاً ولا كثيراً.

وما ينقضي عجبى من تكاذب العقلاء، ومن تجاذب<sup>(١)</sup> الجهّال. وخب<sup>(٢)</sup> هذا الإنسان خب<sup>(٣)</sup> فائت، والإحاطة به ممتنعة.

وأما الهروي فإنه ارتبطه بأمر ركن الدولة، وكان يمُدّه من ماله، لأنه حُمِد في طبه الذي كان يتكثّر به بعد هُندسته التي كان فيها أبرع، وبها أعرف.

وأما مسكويه فإنه اتخذَه خازناً لكتبه، وأراد أيضاً أن يقَدح ابنه به، ولم يكن من الصنائع المقصودة والمهمّات اللازمة؛ وكان أيضاً ما يُقيم عليه شيئاً نزرًا لا يقنع به إلا من لا نفس له ولا همّة، وكان يحتمل ذلك لبعض العزّازة<sup>(٣)</sup> بظله والتظاهر بجاهه.

وأما ما تكلفه لأبي جعفر الخازن فإنه كان لأسبابٍ طويلة؛ منها أن ركن الدولة أعظمه، فلزمه أن يقتدي به.

ومنها أنه طمع في اقتباس علمه.

ومنها أن العيون كانت تنظر إليه في أمره، والناس يحسبون ما يأتيه في بابه، لأنّه وقع إلى الرّي مع صاحبه الصّاعاني أبي عليّ حين طلب الأمان، والحديث معروف. فأما ابن فارس فإنه استخدمه ليعلم ولده.

وأما ابن أبي الثياب البغداديّ فإنه قرّبه ليسترق منه المنطق، فلما علم بذلك أبو محمّد نفس<sup>(٤)</sup> بما معه، وتكاسل؛ وقيل له: كيف تعاصيت؟

(١) تجاذب: منازعة.

(٢) خب: خبث وفساد.

(٣) العزّازة: الاعتزاز.

(٤) نفس: ضنّ وبخل.

فقال: كان سيء الانبعاث في هذه الفنون، وكان شديد التشبّع بها، يُحب أن يختلس الحكمة، ويمتّهن أربابها بفضل المقدرة.

وأنشدني في هذه القصة:

إلى الله أشكو ريب دهرٍ كأنما يرى كل ما يجري بمكروها فرضاً  
يؤمّل مني أن أدلّ لموسرٍ لئيم ونفس الحرّ بالذلّ لا ترضى  
قلت: لمن الشعر؟ قال: أنشدني ابن أبي البغل لنفسه.

وأراغه أبو الفضل على المنادمة فأنف، وما زال يترصد وقتاً ينفلت فيه حتى كان من أمر ابن العميد ما كان من خروجه إلى أرجان، فطوى فجاج الأرض، وجاب البلاد إلى بخارى، وولي بها البريد إلى أن قضى.

وأما أبو طاهر الوراق فإنه رتبته في النسخ، وكان قوي الحظ كثير الصبر على النقل، ولم يكن من الصنائع ولا من حملة النعمة، ولا ممن يطالب بالحمد ويبحث على الشكر.

وأما ابن بُندار فإنه كان فدمًا غليظًا، غليظ الكلام جافيًا جاسيًا مقيتًا، وكان وزر بأذربيجان لجستان، فأحب أن يري من نفسه أنه على مائدته من وزر.

فأين الصنائع والمداح؟ وأين المنتجعون والزائرون؟ وأين من مرّ به محتاجًا إلى زادٍ ونفقة فطلبه وقربه، وأعطاه ووصله، وأضافه وأكرمه، وتصفح ما معه واقتبس مما عنده؟ سقى الله ابن عبّاد! فإنه وقف نفسه على الغرباء وطلبهم بأكثر مما تعرّضوا له، وسأل عنهم بأكثر مما رجوه فيه. ولولا أنه كان يفسد هذه الأفعال بالرقاعة والتخيل<sup>(١)</sup> والعجب والتطاؤل، وذكر الطعام والمائدة، وما يُعطى ويهب، لكان قليله أكثر من كثير ذلك، وصغيره أكبر من كبيره؛ ولكن لكل حسن مقبّح، ولكل عزيز مُذل، ولكل جديد مُبل.

(١) التخيل: التباهي والإعجاب بالنفس.

وحدَّثني ابنُ عبد الرحيم القاضي قال:

قال<sup>(١)</sup> يوماً لصاحبِ طعامه: حدَّثني عن هذا الخبزِ المكسَّرِ على الطَّبَقِ، والملوَّثِ، وما تتجافى عنه الأيدي، وما يُصيبه اللحم والمرق والثريد - ما تصنعون به؟ وابتدأ هذا القول وهو في جوف خَرَكَاه<sup>(٢)</sup>، وظنَّ أن لا أذن هناك.

فقال له الرَّجل في جوابه، بعد أن تكرر قوله، وقد حال عن مزاجه لغيظه من سؤاله: ندَّسه في حر امرأة من يسأل عنه.

قال: وهذا بالفارسيَّة قاله، وهذا تفسيره.

قال: فانكسر وانخزل، وعلم أنه قد باء بالخزي، وعاص على سواده، وأن الخطأ منه في المسألة أفحش من الخطأ عليه في الجواب.

فقال له: أنت مجنون، اخرج لا بارك الله فيك.

وهذا كما تسمع. والموت بهذا الرئيس على الخشبة صلباً أحسن من هذا الحديث. وكان الرَّجل من فرط كَيْسِه لا يقع إلا مكبوباً، ولا يذكر إلا مسبوباً.

ولقد بلغ من لؤمه وشؤمه أنه قتل من أكل عنده؛ وذلك أن أبا المحاوش ورد إلى الرِّيِّ، وكان بدويًّا، أو من هذه المزالف<sup>(٣)</sup> متبادياً، وشهر بشدة الضرس وكثرة الأكل، وتكرر حديثه عنده، وما وُصف به من طيب كلامه، وحسن وصفه للقدر والطبيخ والألوان، فدعا به، وتقدم بإحضار شيء كثير من الخبز والحلوى، فاكتمسحه كله، وطلب الزيادة، وكثر أبو الفضل في وجهه، وأظهر استملاحه على تفقؤ فؤاده ونار صدره؛ ثم وهب له دريهمات وخريقات وشملة؛ وقال: أكثر عندنا واقترح ما في

(١) يعني أبا الفضل ابن العميد.

(٢) خَرَكَاه: طلعة فارسية تعني «خيمة».

(٣) المزالف: القرى التي بين البر والبحر، كالأنبار والقاسية ونحوهما.

نفسك على صاحبنا المطبخي. فكان المسكين يحضر في الفَرَط<sup>(١)</sup>، فيطلب شيئاً ويأكل وينصرف.

فقال ذلك على أبي الفضل، واغتاظ منه، وغلبَ طباعه، فقال لصاحب مطبخه: اجمع هذا الذي يقال له لالكات<sup>(٢)</sup> التي قد أخلقت وتقطعت، وقطعها صغاراً كالبنادق، وقدمها إليه في عجة وافر، ببيض كثير، وسمن وافر، حتى ننظر إلى أكله، وهل يفتن؟

وإنما كان كيداً، ففعل وأحضر؛ وأقبل أبو المحاوش عليها وتذرع<sup>(٣)</sup> في أكلها، وأعظم اللقمة، ودارك الرفع والوضع، ووجدها وطية ناعمة، فلما ألقع عنها وانصرف، وشرب الماء وجاء وقت الثلث<sup>(٤)</sup>، انقد<sup>(٥)</sup> بطنه فخرج فيه نفسه.

فهذا لما تكرم بالإطعام، وحتت على الأكل، ورغب في الرغيب. وهذا الفعل يجمع إلى النذالة قلة الدين، وإلى اللؤم سُخفَ العقل، فالويل له ثم الويل له. وكان إذا رأى ابن بُندار يقول: جاءكم أسد الغريف<sup>(٦)</sup> على الرغيف.

والرئي جادة الدنيا، ومنهج المشرق والمغرب والجوالين في الآفاق، فكان يكثر أهل الانتجاع من كل صقع، فلم يكن لأحد منهم عنده مقيط ساعة ولا مبيت ليلة، ولا زاد مرحلة ولا هشاشة ولا بشاشة.

وقد اجتاز به أبو إسحاق الفارسي، وكان من غلمان أبي سعيد السيرافي، وكان

(١) الفَرَطُ أن تلقى الرجل بعد أيام.

(٢) لالكات: كلمة فارسية تعني جلوداً.

(٣) تذرَع: أفرط.

(٤) الثلث: الغائط غير المتماسك.

(٥) انقد: انشق.

(٦) الغريف: الشجر الكثير الملتف من أي شجر كان.

فَيَمَّا بِالْكِتَابِ<sup>(١)</sup>، وَقَرَضَ الشَّعْرَ، وَصَنَّفَ وَأَمَلَى وَحَفِظَ الطَّمَّ وَالرَّمَّ<sup>(٢)</sup> فَمَا زَوَّدَهُ دِرْهَمًا، وَلَا افْتَقَدَهُ بَرَغِيفَ بَعْدَ أَنْ أَدِنَ لَهُ حَتَّى حَضَرَهُ وَسَمِعَ كَلَامَهُ وَعَرَفَ فَضْلَهُ، وَاسْتَبَانَ سَعْتَهُ.

قال الخليلي: وكيف يُرَجَى خَيْرُهُ، أَوْ يُؤَمَّلَ رُشْدُهُ، أَوْ يُسَاقُ طَمَعٌ إِلَيْهِ، أَوْ يُوفَدُ ثَنَاءً عَلَيْهِ، أَوْ يُشَامَ لَهُ بَرَقٌ<sup>(٣)</sup>، أَوْ يُقَطَّعُ دُونَهُ حَرْقٌ<sup>(٤)</sup>، وَقَدْ عَقَّ أَبَاهُ، وَسَعَى بِهِ فِي أَوَّلِ أَيَامِهِ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْهُ ذَلِكَ الشَّيْخُ وَهَرَبَ إِلَى خُرَاسَانَ، وَاسْتَكْتَبَ هُنَاكَ، وَلُقِّبَ بِالْعَمِيدِ. وَكُتِبَ إِلَى قَاضِي أَصْفَهَانَ كِتَابًا بَرِيءٌ مِنْهُ فِيهِ.

وَأَنَا أُرَوِي قِصَّتَهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ لِيَكُونَ أَذْهَبَ فِي الْعَجَبِ. وَكَانَ عَقُوقَهُ مِنْ وَجْهِ عَجِيبٍ؛ جَاءَ إِلَى ذَخِيرَاتٍ<sup>(٥)</sup> فِي مَوَاضِعَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَعَرَّفَ صَاحِبَهُ مَكَانَهَا، وَخَطَّ خَطْوَهُ عَلَيْهَا، وَزَوَى<sup>(٦)</sup> ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ شَيْخِهِ وَعَنْ جَمِيعٍ مِنْ كَانُوا لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ، إِمَّا بِحَقِّ الْإِرْثِ أَوْ بِحَقِّ الْهَبَةِ، حَتَّى قَامَتْ قِيَامَةُ ذَلِكَ الشَّيْخِ، فَدَعَا عَلَيْهِ، وَفَضَحَهُ عِنْدَ النَّاسِ، وَبَرِيءٌ مِنْهُ، وَقَدَحَ فِي وَلَا دَتَهُ.

والرسالة:

(١) أي كتاب سيبويه في النحو.

(٢) الطَّمُّ وَالرَّمُّ: أَي الشَّيْءُ الْكَثِيرُ وَالْقَلِيلُ.

(٣) شام البرق: أي تطلب مكان إبطاره.

(٤) حَرْقٌ: فَلَائَةٌ وَاسِعَةٌ.

(٥) ذَخِيرَاتٍ: مَا يَدْخُرُهُ الْإِنْسَانُ.

(٦) زَوَى: صَرَفَ.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القاضي، أطال الله بقاءه، وأدام نعماه، أجل محل من مواهب الله فيه وعوائده عنده، في الدين والدنيا والعصمة والخير والفضيلة، وحسن التأني في كل فصيلة<sup>(١)</sup>، وجميل اللفظ في جميع الحكومة؛ ولي في الشكوى إليه ومبائته<sup>(٢)</sup>، وذم الزمان عنده والاستعداد عليه لديه، استراحة وتخفيف للثقل، وتفرج<sup>(٣)</sup> من حرج الصدر؛ وأنا المتمسك به تمسك - كان - بالوالد والعم، واثق بأن نصيبي من شفقتك تام، ومن مشاركته وافر، والله لا يُعدمني، ويحفظني بمواصلة النعم عنده إليه بقدرته.

والكلوم - أدام الله عز القاضي - ضروب، والندوب فنون؛ وأعسرها بُراءً وأصعبها داء، وأعزها دواء، ما جرحته يد القريب، وجلبته أفعال الأهل؛ فإن ذلك يصل إلى حبة القلب، وصميم الفؤاد، وبصير قدى في إنسان العين، وشجى معترضاً في الحلق، ويترام على الأيام، ويتكاثف على الدهر، فيكون نكء القرح بالقرح أو جع، ومتى تنفس الممنوء<sup>(٤)</sup>، وشكا المملوء غيظاً وحنقاً اجتمع إليه من عشيرته وأسرته شيخ ضعيف، أو طفل صغير، أو امرأة باكية، أو عورة بادية، أو ذو قرابة؛ فاستغفر هذا واستصفح، وسأل وتشفع. ثم رويت أخباراً في قطيعة الرحم، وعُدت آثاراً في صلة القربى، فضاق النفس، واشتد الحنق، وتجرع هذا المظلوم الغيظ وصبر، وأنف واحتمل، واحتسب وعفا وغفر، والشر عتيد، والبلاء يزيد، والطبع أغلب، والعادة لا تنزع، والجاهل لا يقلع.

(١) فصيلة: مسألة يحكم فيها.

(٢) مبائته: إطلاعه على السر.

(٣) تفرج: وجدان فرجة تريحني.

(٤) الممنوء: المبتلى.

فَهَلْ دَوَاءٌ هَذَا، إِذَا اتَّصَلَ وَطَالَ، وَامْتَدَّ وَتَتَابَعَ، وَزَادَ وَتَضَاعَفَ، إِلَّا الصَّرِيمَةَ  
وَالْإِعْرَاضَ، وَالْقَطِيعَةَ وَالْانْقِبَاضَ؟ فَدَوَاءٌ مَا لَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ تَعْجِيلَ الْفِرَاقِ.

وَأَنَا - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَ الْقَاضِي - ذَلِكَ الْمَلَأَنَّ الْمَغْتَاظُ الَّذِي قَدْ عِيلَ صَبْرُهُ وَضَاعَ  
حِلْمُهُ، وَضَاقَتْ نَفْسُهُ، وَقُرِحَ قَلْبُهُ، وَنَضِجَتْ كَبِدُهُ، وَقَلَّتْ حِيلَتُهُ، وَعَظُمَتْ بَلِيَّتُهُ.

وهذا الجاهل ابني، وما هو بابني، مَنْ انتهَى بي إلى هذه الشكوى، وقصدني بهذه  
البلوى، وعقني وخالفني، وبغى عليّ وباغضني؛ وارتكب معي ما لا يحلّ، بعد أن  
ربّيته صغيراً، وأعزّزته كبيراً، وأولّيته جميلاً، وأملّيته<sup>(١)</sup> جسيماً، وضمّنته شديداً،  
وحطّته دهرًا طويلاً، وخضتْ دونه الأهوال، وقاسيت في حمايته الأغوال<sup>(٢)</sup>. أجمه<sup>(٣)</sup>  
وأتعب، وأقلّده وأتعطلّ، وأعزّه وأذلّ، وأغترّب ليقيم، وأنعمه وأشقى، وأتحمل عنه  
ليرضى، فما يعرف لي حقًا ولا يتأتى، ولا يرعى ذمامًا ولا يهدي، ويتهنأ<sup>(٤)</sup> متعرّضًا  
مستخفًا بي، ولو أمنت ملال القاضي - أدام الله أيامه - لعددت مقابحه، وذكرت  
مساويه، ووصفت ما يرتكبه من عظام، هي به متصلة وإليّ منسوبة، أنا أفزع من  
يسيرها، وأجزع من قليلها، ولا أحب أن أراها وأعاينها في جارٍ أو قريب.

وقد زجرت ووعظت، وقلت وراسلت، وكاتبْتُ وشافهت، وعاتبْتُ وخاطبت،  
وشدّدت وهوّلت، ورغبت وأوجعت؛ وضربتُ الأمثال، وذكرتُ السّير، وخوفت  
وحذّرت، فما انتفعت. وجرائمه تكثُر، وجرائره تغلظ؛ ولا فضلَ فيّ، ولا احتمالَ  
معِي، ولا بَقِيَّةَ للإغضاء عِنْدِي.

وغرضي في هذه المخاطبة، ومغزاي من هذه الشكوى والمبائة، أن يشهد القاضي  
أني بريء منه، قاطع له، عادل عنه، غير راضٍ بقوله ولا فعله، نازع ما ألبسته من بُنوة،

(١) أملّيته: وسّعت عليه.

(٢) أغوال، وغيلان، المفرد غول: كلُّ ما أخذ الإنسان من حيث لا يدري فأهلكه.

(٣) أجمه: أريحه.

(٤) يتهنأ: يستلذ.

مُطَرِّحٌ لَهُ دِينًا وَدُنْيَا؛ لَيْسَ مِنِّي وَلَا إِلَيَّ، قَدْ تَبَرَّأْتُ مِنْهُ وَصَرَمْتُهُ، وَوَكَّلْتُهُ إِلَى اخْتِيَارِهِ، وَرَفَعْتُ عَنْهُ يَدِي، وَأَسْلَمْتُهُ إِلَى اللَّهِ لِيَأْخُذَهُ بِحَقِّي، وَيَقْبَلَ بِهِ دُعَائِي، وَلَا يَحْفَظَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَيَّ.

اللَّهُمَّ اسْمَعْ وَاشْهَدْ، وَكُنْ حَسِيبَ الظَّالِمِ، وَاحْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، يَا خَيْرَ حَاكِمٍ. وَهَذِهِ شَهَادَةٌ لِي عِنْدَ الْقَاضِي يَحْفَظُهَا كَمَا يَحْفَظُ إِلَيْهِ مِنْ حُقُوقِ عَمَلِهِ، فَإِنِّي مُطَالِبُهُ بِهَا يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ<sup>(١)</sup> وَكَفَى بِاللَّهِ الْعَلِيِّ شَهِيدًا.

وهذه -أبقاك الله- رسالةٌ تدلُّ على قُرْحَةٍ دَامِيَةٍ، وَعَيْنِ بَاكِيَةٍ هَامِيَةٍ، وَنَفْسٍ قَدْ وَلِهَتْ عَمَّا حَلَّ بِهَا. وَإِنْ غُلَامًا يُحَوِّجُ أَبَاهُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْبَرَاءَةِ وَالشُّكُوفِ مِنْهُ وَالتَّأَلُّمِ، لَغُلَامٌ سُوءٌ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَحْبِرَهُ<sup>(٢)</sup> فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُسَعِدَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَكُلُّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ عَارٍ مِنَ الدِّيَانَةِ، سَلِيبُ الْمُرُوءَةِ، وَقَدْ رَضِيَ بِظَاهِرِ حَالِهِ وَإِنْ لَمْ تَدُمْ لَهُ، وَلَهَا عَنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهَا.

وَحَدَّثَنِي أَبُو الْعَادِي الصُّوفِي قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ الْعَمِيدِ بُبْخَارِي، وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ ابْنِهِ أَبِي الْفَضْلِ فَقَالَ: كُنْتُ أَشْكُ فِي وِلَادَتِهِ قَبْلَ هَذَا. وَالآنَ فَقَدْ تَحَقَّقَ عِنْدِي مَا كَانَ يُرِيدُنِي مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْإِنَاءَ رَشَّاحٌ بِمَا فِيهِ.

ثم أفادنا حمزة المصنّف جوابَ القاضي للعميد، وذلك أنه كتَبَ:

(١) إشارة إلى الآية ٥١ من سورة غافر.

(٢) يَحْبِرُهُ: يَسِرُّهُ وَيَنْعَمُهُ.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّ كِتَابَ الْعَمِيدِ، أَعَزَّ اللَّهُ جَلالَتَهُ، وَوَفَّرَ عَلَيْهِ كَرَامَتَهُ، وَأَدَامَ لَهُ نِعْمَتَهُ وَحَيَاةَ تَهْ؛ وَأَنْسَ وَصُولَهُ، وَأَوْحَشَ مَحْصُولَهُ؛ وَيَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ كِتَابَهُ - بَعْدَ عَهْدِ دَارِسٍ وَدَهْرٍ مُتَقَادِمٍ - مُنْبِتًا عَنْ قَرَائِحِ صَدْرِهِ، وَجَرَائِحِ فُؤَادِهِ. وَقَدْ - وَاللَّهِ - زَادَ عَجَبِي مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ كُلِّهِ، وَشَرَكْتُهُ فِي جَمِيعِهِ، وَسَأَلْتُ اللَّهَ اللَّطِيفَ فَيْتَةً هَذَا الْغُلَامِ إِلَى حَظِّهِ، وَنَظَرًا إِلَى قَلْبٍ قَدْ أَضْرَمَ فِيهِ نَارَ الْعُقُوقِ، وَأَفْرَجَ عَنْ لَوَازِمِ الْحُقُوقِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا وَفَّقَ لِذَلِكَ كَانَ فِيهِ صَلَاحٌ مَعاشِهِ الَّذِي هُوَ عَاجِلْتُهُ، وَسَلَامَةٌ مَعادِهِ الَّذِي هُوَ آجِلْتُهُ. هَذَا مَعَ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ الَّذِي يَنْتَشِرُ لَهُ، وَبِرَكَّةٍ دُعَاءِ شَيْخِهِ إِذَا عَادَتْ عَلَيْهِ.

وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْفَتَى - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - بِمَا إِنْ هَدِي لِرُشْدِهِ وَوَفَّقَ لِحَظِّهِ غُبَطٌ وَاعْتَبَطٌ، وَإِنْ كَثُرَ مِنْهُ اللَّجَاجُ وَالْمَحْكُ (١) خَبَطٌ (٢) وَاخْتَبَطُ؛ وَاللَّهُ يَفْتَحُ بَصَرَهُ، وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيَعْلَمُ مَا فِي الْبِرَاءَةِ مِنَ الْبُنُوَّةِ وَالتَّعَرِّيِّ مِنَ الْأَبْوَةِ مِنَ الْهُجْنَةِ الشَّنِيعَةِ وَالْفَضِيحَةِ الْفَطِيحَةِ.

وَلَمْ أَفْنَعْ بِالْكِتَابِ، وَبِمَا تَصَرَّفَتْ فِيهِ مِنْ لَوَازِعِ الْعِتَابِ، حَتَّى كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَرِيشِ، وَسَأَلْتُهُ إِحْضَارَهُ وَمُنَاطَرَتَهُ، وَاسْتِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُ مَعَ التَّهْجِينَ الشَّدِيدِ، وَشَوْبَ ذَلِكَ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَغَالِبُ ظَنِّي أَنَّ تِلْكَ الْقَسْوَةَ تَحُولُ رِقَّةً، وَتِلْكَ الْفِظَاطَةَ تَعُودُ لِينًا. وَلَوْ كُنْتُ فِي مَقَرِّهِ، أَوْ كَانَ فِي صُقْعِي لَكَانَ لِي فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ جِدٌّ وَانْكَمَاشٌ يَحْمَدُنِي عَلَيْهِمَا الْعَمِيدُ، وَلَكِنِّي مِنْهُ بَعِيدٌ. وَإِنْ - وَعَائِدٌ بِاللَّهِ - تَقَاعَسَ وَعُظِي عَنَّهُ، وَنَبَأَ نَصْحِي دُونَهُ، بَعْدَ التَّلَطُّفِ وَالِاجْتِهَادِ، فَالْأَسَى وَالْأَسْفُ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُرْسَلَ وَرَاءَهُ، أَوْ يُقَامَا إِزَاءَهُ. وَالْوَلَدُ قَدْ يَمُوتُ بَارًّا وَيَفُوتُ عَاقًا، فَلْيَطِبْ قَلْبُ الْعَمِيدِ عَنهُ فَائِتًا، كَمَا تَسْلُو النَّفْسَ عَنِ الْعَزِيزِ مَائِتًا، وَلَعَلَّ الْعَتَبَ يُسْفِرُ عَنهُ بِمَا يَسْرُ مِنْهُ؛ فَلِلزَّمانِ فِي تَقَلُّبِهِ غَرَائِبٌ، وَلِلدَّهْرِ فِي تَصَرُّفِهِ عَجَائِبٌ.

(١) المحك: اللجاج والتماذي في الخصومة.

(٢) خبط: ركب جهالة وسار على غير هدى.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ لَا يُخْلِنِي مِنَ الْعَمِيدِ عُمْدَةً، وَلَا يُرِيئِي فِيهِ وَمِنْهُ سُوءًا وَغُمَّةً؛  
وَرَأْيُهُ - فِي مَوَاصِلَتِي بَكْتُبِهِ الْمُتَحَمَّلَةَ بَرَّهُ وَتَفْضَلَهُ بِمُبَاتَّتِي وَتَصْرِيْفِي عَلَيَّ تَكَالِيفِهِ -  
مُتَوَقَّعٌ مَشْكُورٌ، وَأَنَا عَلَيْهِ حَامِدٌ شَكُورٌ.

ثم قال الخليلي: وجده - مع هذا - ساقطٌ يُلقَّبُ بـكُلِّه، وهو كناية عن شيء قبيح  
على زعمه، كان نخالاً في سوق الحنَّاطين، أو حمالاً أو مُنْقِيًّا<sup>(١)</sup>، وكان يحرس السوق  
أيضاً بالليل، والعرق لا ينَام ولا بدُّ للأصل من أمارَةٍ في الفرع، كما لا بُدَّ في الفرع  
من إشارةٍ إلى الأصل، والأصل والفرع متشابهان، إلا أن هذا الخافي ينطق عند ذلك  
البادي، وذلك البادي يشهد له هذا الخافي؛ ولهذا قالت العرب: لكلِّ إناءٍ رَشْحٌ، ولكلِّ  
سِقَاءٍ نَضْحٌ، ولكلِّ شجرةٍ سُوس<sup>(٢)</sup>، ولكلِّ دَوْحةٍ عَيْص<sup>(٣)</sup>.

وكنت إذا نظرت إلى أبي الفضل تجده غضباناً من غير مُغْضِبٍ، شَنِجِ الأنف<sup>(٤)</sup>  
متخازر<sup>(٥)</sup> الطرف، كالح الوجه،

«كَأَنَّمَا وَجْهُهُ بِالْخَلِّ مَنْضُوحٌ»<sup>(٦)</sup>

كَأَنَّهُ يَعَافُكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، أَوْ يَتَقَرَّرُ مِنْكَ إِذَا كَلَّمَكَ. يَتَجَعَّدُ عَلَيْكَ قَبْلَ أَنْ تُتَلَطَّفَ،  
وَيَرُدُّكَ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُ، وَيُؤْيِسُكَ قَبْلَ أَنْ تَرْجُوَهُ، وَيَحْرِمُكَ قَبْلَ أَنْ تَمْتَرِي مَعْرُوفَهُ،  
وَيَسْفِكُ دَمَكَ إِنْ أَكَلْتَ حُبْرَهُ؛ وَالْوَيْلُ لِمَنْ أَعْرَبَ عِنْدَهُ، وَاسْتَمَرَ فِي كَلَامِهِ مَعَهُ، أَوْ  
تَخَيَّرَ لَفْظَةً لَهُ، أَوْ نَشَرَ أَدَبَهُ.

(١) مُنْقِيًّا: ينقي الطعام مما فيه من تراب وغيره.

(٢) السُّوسُ: الأَصْلُ.

(٣) العَيْصُ: مَنبِتُ خِيَارِ الشَّجَرِ، العَيْصُ: الأَصْلُ.

(٤) شَنِجِ الأنفِ: مُتَقَلِّصُ الأنفِ.

(٥) خَزَرَ: نَظَرَ بِلِحْظِ العَيْنِ.

(٦) من قول نهار بن توسعة:

وكان يقول لمن يراه بارع اللفظ، خفيف الروح، لذيد الحديث، خفيف اللسان: يا قَسَّ بن ساعدة! هات حديثك، يا سحبان وائل! مرَّ في هزارك<sup>(١)</sup>، يا سعيد بن حميد! لا تحفل بنظارتك.

كُلُّ هذا بهُزءٍ وسُخريةٍ وتهافتٍ وكشَرٍ عن نابٍ أقالح<sup>(٢)</sup>، ومَضغٍ للكلام، ولَيِّ الشَّفَّةِ والشُّدْقِ كأنَّه ثلجٌ جامد، أو شيءٌ تارز<sup>(٣)</sup>. ولهذا قال ابن أبي الثيَّاب:

أبا الفضل لا في الجنِّ أنت ولا الإنسِ وطبُّعُك طنُّعُ الموتِ يُورد في اليسِ  
فهذا هذا.

وحضرتُ مجلسه ذاتَ عَشيةٍ في شهرِ رمضان مع الفقهاء والزَّعيمِ ابنِ شاذان، وهو على القضاء؛ فلما كادت الشمسُ تَجِبُ<sup>(٤)</sup> وهي حيَّةٌ بعد، وقَفَ حاجِبٌ له حيالَ الجماعة، وأشار بالقيام والانصراف، فقطَّعوا متنَّ مسألةٍ كانوا فيها وتَرَكوها بتراء، وتبادروا إلى الخروج من الباب، وقعد عنهم شيخٌ طبريٌّ في كساءٍ عليه خَلَق.

فقال له الحاجب: قم يا شيخ والحق بأصحابك، ما تأخرت عنهم، ولماذا أنت لازِمٌ مكانك من بعدهم؟

فقال الطبري: هذا فضلٌ من الكلام، أنا رجلٌ غريبٌ قدِمْتُ اليومَ من بلدي، ومحلِّي من العلمِ قد بان في هذا المشهد العظيم الشرف، الكبير الفائدة، وهذا هو المساء، وأنا صائم، وإن خرجت أعجزُ عن مصلحتي في هذه العَشية، والغريبُ أعمى، ولست أعدم هاهنا، إن شاء الله، ما يُمسِكُنِي إلى غد، ثم أغدو لشأني وما لا بُدَّ منه لغريبٍ مثلي في بلد الغربة.

(١) هزارك: تغريدك وتطريبك.

(٢) القلح: صُفرة تعلق الأسنان.

(٣) تارز: جامد ميت، ويابس.

(٤) تَجِبُ: تغيب.

فقال له الحاجب: أنت طبريٌّ وليس في قلنسوتك حشوٌ ولا قطن، والكلام معك يصدع<sup>(١)</sup>، وأقبل بغضب، وجذب يده بعنف حتى أخرجَه من المجلس بعد أن شتمه وخبث القول له، ووكلَّ به من ألقاه وراء الباب مدفوعًا في ظهره، مدقوقًا في فناه، مشتومًا في وجهه.

وكلُّ هذا بعين الرئيس الخسيس وسمعه، لأنه كان بهيئته في صدر مجلسه على حشية قد استلقى، وهو يسمع ويرى، فما قال في ذلك كلمة سوداء ولا بيضاء.

فلو شاهدت الطبريُّ البائس على الباب، وقد احتوشه المارة<sup>(٢)</sup> يقولون له: يا شيخ! ما جنايتك؟ وما الذي دهاك؟

قال: يا قوم! ذنبي أنني طمعت في عشاءهم، ورغبت في المبيت عندهم، وأن أكون ضيفًا نازلًا بهم.

فقال له رجلٌ منهم: أنت مجنون، لقد تخلصت بدعاء والدتك الصالحة، وسلمت سلامةً عجيبه، أطمع في طعام الأستاذ الرئيس، وإبليس لا يحدث نفسه بهذا، والشياطين لا يقدرون على ذلك؟ ولقد أراد أن يطير ابنه من رأس الجوسق<sup>(٣)</sup> لأنه طلب زيادة رغي في وظيفته.

وصبَّ على هامة أبي الفضل في تلك العشيَّة من نوادر العامة، وسخافات الحشوية من ضروب الكذب والصدق ما لا يحصل. وللرازيين جرأة على الكلام، وتخرق<sup>(٤)</sup> في النوادر. ومن ذا الذي ردَّ أفواه الغوغاء والأوباش؟ ولو افتدى من هذا كله برغيفين وقدرة لحم لكان الربح معه، ولكن «الشقي بكل حبلٍ يُخنق»<sup>(٥)</sup>.

(١) يصدع: يوجع.

(٢) احتوشه المارة: أحاطوا به.

(٣) الجوسق: القصر الصغير، الحصن والجمع: جواسق.

(٤) تخرق: توسع وإمعان في الكذب.

(٥) اقتباس من قول المساور بن هند:

شقيت بنو أسدٍ بشعرٍ مساورٍ إنَّ الشقيَّ بكل حبلٍ يُشنقُ

قال الخليلي مرةً: لا تَنْظُرِ إِلَى نَقَاءِ الثَّوْبِ، وَحُمْرَةِ الْوَجْهِ، وَفَرَاهَةِ الْمَرْكَبِ، وَإِلَى الضَّفَفِ<sup>(١)</sup> وَالْحَشْدِ، وَالخَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ الْعِتَاقِ، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى عِرْضِ الرَّجُلِ كَيْفَ هُوَ؟ وَإِلَى الشُّكْرِ لَهُ كَيْفَ هُوَ؟ وَإِلَى دِرْهَمِهِ مِنْ أَيْنَ وَجْهَهُ وَإِلَى أَيْنَ تَوَجُّهَهُ؟ وَاجْهَدْ أَنْ تَسْأَلَ مِنْ تَحْتِ مُصَلَّى الرَّئِيسِ أَوْ مَخَدَّتِهِ أَوْ دَوَاتِهِ تَذَكِّرْتَهُ، وَانظُرْ فِيهَا، فَإِنْ كَانَ قَدْ كَتَبَ بِخَطِّهِ: يُتَفَقَّدُ فَلَانٌ بِكَذَا، أَوْ يُسْأَلُ عَنْ فَلَانٍ لِيُنظَرَ فِي مَصْلَحَتِهِ، وَيُحْمَلُ إِلَى فَلَانٍ شَيْءٌ مِنَ الْحِنِطَةِ وَشَيْءٌ مِنَ الثِّيَابِ وَشَيْءٌ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَيُوفَدَ فَلَانٌ عَلَى فَلَانٍ لِيُصِيبَ خَيْرًا، وَيُؤَلَى جَمِيلًا، وَيُقَلَّدَ فَلَانٌ لِيُنَجِّبَ قَلِيلًا، وَيُعْفَى عَنْ فَلَانٍ وَإِنْ كَانَ عَظِيمَ الْجُرْمِ، وَيُسْتَصَلَحَ أَمْرُ فَلَانٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ سَدَّ طَرِيقَ ذَلِكَ، وَيَكَلِّمَ الْأَمِيرَ فِي بَابِ فَلَانٍ حَتَّى يَجِدَّ الرِّضَا عَنْهُ.

فَإِنْ كَانَتِ التَّذَكُّرَةُ مُشْتَمَلَةً عَلَى هَذِهِ وَأَشْبَاهِهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ اسْتَخْلَفَ صَاحِبَهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَجَعَلَهُ مَنَارًا لِلْمُحْتَاجِينَ فِي بِلَادِهِ. وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ هَذَا، فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ بِالْأَشْنَانِ الْبَارِقِيِّ، وَلَا تَحْجَّجْهَ بِأَمْلِكِ، وَلَا تُقَدِّسْهُ بِثَنَائِكَ، وَلَا تَعْصِرِ رَبَّكَ بِحُسْنِ ظَنِّكَ فِيهِ، وَعُدَّهُ فِي الْمَوْتَى. وَمَا أَجُودَ مَا قَالَ الْقَائِلُ:

مَنْ ضَنَّ بِمَعْرُوفٍ عَدَدْنَاهُ مِنَ الْمَوْتَى

فَكَانَتْ رَاحَةً مِنْهُ وَمِنْ سَوْفٍ وَمِنْ حَتَّى

فَهَلْ يَكُونُ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - فِعْلُ ابْنِ الْعَمِيدِ بِالشَّيْخِ الطَّبْرِيِّ إِلَّا فِعْلٌ مِنْ خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَسْلَمَهُ مِنْ يَدَيْهِ، وَلَمْ يُوَهِّلْهُ لِخَيْرٍ يُجْزَى بِهِ وَيَكُونُ هُوَ سَبَبًا لِتَمَامِهِ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا فِعْلٌ مَنْ فِي أَصْلِهِ خَبْثٌ، وَفِي مَنْشئِهِ دَخَلٌ، وَفِي طَبَاعِهِ خِسَّةٌ وَلُؤْمٌ، مَعَ قِحَّةِ الْوَجْهِ، وَنَذَالَةِ النَّفْسِ، وَقِلَّةِ الْاِكْتِرَاثِ، وَالطُّغْيَانِ الَّذِي هُوَ بَابُ الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ حُسْرَانُ الْعَاجِلَةِ وَالْأَجَلَةِ.

وَقَدْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَدْبَرَ ذَلِكَ الشَّيْخَ الْبَائِسَ بِأَقْرَبِ شَيْءٍ وَأَسْهَلِهِ، وَلَعَلَّهُ كَانَ عِنْدَ

(١) الضَّفَفُ: كثرة العيال والحشم.

الله أBR مِنْهُ وَأَزَكَى . وَكَانَ يَنْتَقِي أَنْ يُنْتَى (١) عَنْهُ مِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي مَسْمُوعُهُ يَغِيظُ ،  
فَكَيْفَ مَشْهُودُهُ؟

وَإِنْ طِينَةٌ تَكُونُ مَبْلُوءَةً بِهَذَا الْمَاءِ ، مَوْضُوعَةٌ فِي هَذَا الْهَوَاءِ ، مَذْكُورَةٌ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ  
وَالْأَسْمَاءِ ، أَعْتَقِدُ أَنَّ لِلْكَلْبِ وَالْقِرْدِ وَالْحَنْزِيرِ مَزِيَّةً عَلَيْهَا .

هَذَا ، وَهُوَ صَاحِبُ الْمَالِ الْمَجْمُوعِ ، وَالذَّخْرُ الْكَثِيرِ ، وَالضُّيَاعُ الْفَاشِيَةُ ، وَالصَّامِتُ (٢)  
الْوَاسِعُ ؛ مَعَ الْاِقْتِطَاعِ وَالْاِحْتِجَانِ (٣) ، وَالسَّرِقَةُ وَالْبَهْتُ (٤) ؛ كَانَ وَرَقُهُ فِي السَّنَةِ أَلْفَ  
أَلْفِ دِرْهَمٍ يَرُدُّهَا فِي الْخَرَاكِ ، وَكَانَ ارْتِفَاعُهُ يَزِلُّ عَنِ الْحِسَابِ (٥) وَيَفُوتُ التَّحْصِيلَ .  
وَفِيهِ قَالَ ابْنُ عَبْدَانَ الْإِصْفَهَانِي :

الاسْتَاذُونَ فِي الدُّنْيَا كَثِيرٌ وَمَا فِيهِمْ سِوَى نَذْلِ حَسِيْسٍ  
وَكُلُّهُمْ أَرَاهُمْ عَنْ قَرِيبٍ فِدَا الْأَسْتَاذِ سَيِّدِنَا الرَّئِيسِ  
وَسَيِّدِنَا الرَّئِيسِ فِدَاءُ كَلْبٍ فَمَا هُوَ بِالرَّئِيسِ وَلَا النَّفِيسِ

وَالْعَجَبُ مِنْ بُخْلِ هَذَا الرَّجُلِ وَنَذَالَتِهِ ، مَعَ تَفَلُّسُفِهِ ، وَتَكَثُّرِهِ بِذِكْرِ أَفْلَاطُونَ وَسُقْرَاطِ  
وَأَرْسُطُوطَالِيسِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُمْ ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ تَكَلَّمُوا فِي الْأَخْلَاقِ وَحَدَّدُوهَا  
وَأَوْضَحُوا خَفَايَاهَا ، وَمِيَزُوا رَدَائِلَهَا ، وَبَيَّنُّوا فَضْلَهَا ، وَحَثُّوا عَلَى التَّخَلُّقِ بِهَا ، وَسَاقُوا  
ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالقَّنَاعَةِ بِالْيُسَيْرِ مِنْ حُطَامِهَا ، وَبَدَّلَ الْفُضُولَ مِنْهَا  
لِلْمُحْتَاجِينَ إِلَيْهَا وَالْمُنْتَجِعِينَ بِسَبَبِهَا ، وَالْاِقْتِصَارَ عَلَى مَا تَمَاسَكَ بِهِ الرَّمَقُ مِنْ جَمِيعِ  
زَخَارِفِهَا ، وَتَحْصِيلَ السَّعَادَةِ الْعُظْمَى بِرَفْضِ الشَّهَوَاتِ الْقَلِيلَةِ وَالْكَثِيرَةِ فِيهَا ، وَالْإِحْسَانَ  
إِلَى النَّاسِ وَغَيْرِ النَّاسِ بِغَيْرِ امْتِنَانٍ وَلَا اعْتِدَادٍ ، وَلَا طَلْبِ جَزَاءٍ وَلَا اسْتِحْمَادٍ ؛ كَأَنَّهُ لَمْ

(١) يُنْتَى : يُذَاع .

(٢) الصَّامِتُ مِنَ الْمَالِ : الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ .

(٣) اِحْتِجَنَ مَالٌ غَيْرٌ : اِقْتَطَعَهُ وَسَلَبَهُ بِالْمِجْحَنِ ، وَهُوَ أَدَاةٌ مَعْوِجَةٌ الرَّأْسِ تُجَذَّبُ بِهَا الْأَشْيَاءُ كَالْحُطَّافِ .

(٤) الْبَهْتُ ، وَالْبَهْتَانُ : الْكَذِبُ الْمُفْتَرَى .

(٥) يَزِلُّ عَنِ الْحِسَابِ : يَخْرُجُ عَنِ نِطاقِ الْعَدَدِ .

يَسْمَعُ بِمَا قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، أَوْ سَمِعَ، وَلَكِنْ حَمَقَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الصَّوَابَ فِيمَا قَالَ، وَالْحَزْمَ مَعَ مَا اخْتَارَ.

حكى العتبي قال:

قال عبد الملك لأُمَيَّةَ بن عبد الله بن خالد بن أسيد: ما لك ولا بن حُرثان حيث يقول فيك:

إِذَا هَتَفَ الْعُصْفُورُ طَارَ فُؤَادُهُ وَلَيْتَ حَدِيدُ النَّابِ عِنْدَ الثَّرَائِدِ  
قال: يا أمير المؤمنين، وجب عليه حدٌّ فأقمته.

قال: فهل درأته بالشبهات؟

قال: كان الحدُّ أبيض، وكان رُغْمُه أهون.

قال عبد الملك: يا بني أُمَيَّةُ! أَحْسَابِكُمْ أَنَسَابِكُمْ، لَا تُعَرِّضُوهَا لِلجَهَّالِ؛ فَإِنْ كَلَامَهُمْ بَاقٍ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ. وَاللَّهِ مَا يَسْرُنِي أَنِّي هُجِيتُ بِمِثْلِ هَذَا الْبَيْتِ وَأَنَّ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ:

تَبِيتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بَطُونُكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرْنِي يَبْتَنَ حَمَائِصًا  
ثم قال: وما على من مدح بهذين البيتين أن لا يمدح بغيرهما، وهما لرُهير:  
هَنَالِكِ إِنْ يُسْتَخْبَلُوا الْمَالَ يُخْبَلُوا وَإِنْ يُسَأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَسِيرُوا يُغْلُوا<sup>(١)</sup>

\*\*\*

عَلَى مُكْثَرِهِمْ حَقٌّ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ  
قال الأندلسي: استفدنا من رواية هذا الشيخ أن هذا الخليفة روى:

«يُسْتَخْبَلُوا الْمَالَ يُخْبَلُوا»

فإنه كان عندنا: «يُسْتَخُولُوا الْمَالَ يُخُولُوا»

(١) اسْتَخْبَلَهُ نَاقَةٌ أَوْ نَحْوَهَا: اسْتَعَارَهَا مِنْهُ لِيَتَفَعَّلَ بِهَا.

ولكل وجه، ولكن الأنس بهذه الرواية أكثر.

وصدق عبد الملك في مناقلته لحُرثان، ودلَّ عَلَى الكرم المنافسِ عليه، ونهَى عن متابَعَةِ الهوى وقلة المبالاة، وسوء النَّظَرِ في العاقبة. وإن بعضَ الفتيانِ البطالة إذا قال: «والله لأتعرضنَّ لجناية أُضربُ عليها ألف سوطٍ فيصحَّ عند الفتيانِ صبري» لأعذرُ عند الناسِ ممن يتعرضُ لحرمانٍ مختبِطٍ لمعروف، ومنعٍ لمتجعٍ خير، وإساءةٍ قرى طارق، وتكليحٍ وجهٍ في وجهٍ سائل.

وما أسهل قولَ الإنسان: دَعِ الشاعِرَ فليقل ما شاء، ودَعِ الزائرَ فليفرِّقْهُ<sup>(١)</sup> كيف أَحَبَّ! ولكنَّه إذا زلَّ القول، وطار الحديث، وتَمَّتِ النادرَة، فأين المتدارك؟ وأين المعتذر؟ وأين المتلافى؟ هيهات! والعربُ تسمي رجلين مُخْلِداً؛ أحدهما: مَنْ يتأخَّرَ شيبه، فتقول: هذا مُخْلِد، والآخِر هو الذي يمدِّح بعد موتِه.

ومَنْ لم يرعَب في الثناء فقد رغب عن مِلَّةِ إبراهيم خليلِ الرَّحمن، لأن الله تعالى أخبر أَنَّهُ سألَهُ ذلك، وما سألَهُ إلا بعد أن أذن له، وما أذن له إلا بعد أن عَلِمَ أَنَّهُ الخُلُقُ الأَسْنَى والاختيار الأَعْلَى، والطريقة المثلى، فقال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٨].

ثم وضع الله من أقدار قوم وأبقى ذمهم في الغابرين فقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، فرأى ذلك نهايةً في تهجينهم والغضِّ من أخطارهم، وأن يتحدَّثَ عنهم بما يبعث على الاعتبار بمن أساءَ لنفسه النَّظَرُ والاختيار، قال الشاعر:

ثَمَنُ المَعْرُوفِ شُكْرٌ وَيَدُ الإِحْسَانِ ذُخْرٌ  
وثنَاءُ الحَيِّ لِلأَمِّ وَا تِ فِي الأَحْيَاءِ عُمُرٌ

وقال أبو هفان في ابن عباد:

(١) فلانٌ يفرِّي الفري: إذا أجدَّ عمَلَه وأتى فيه بالعجيب.

لِلهِ دَرْكٌ قَدْ أَكْمَلَتْ أَرْبَعَةً مَا هُنَّ فِي أَحَدٍ مِنْ سَائِرِ الْبَشَرِ  
 الْعَرَضُ مُمْتَهَنٌ وَالنَّفْسُ سَاقِطَةٌ وَالْوَجْهُ مِنْ سَفَنٍ وَالْعَيْنُ مِنْ حَجَرٍ<sup>(١)</sup>  
 أَنْشَدَ بَعْضُهُمْ فِي ابْنِ عَبَّادٍ، وَذَمَّ سَجَعَهُ وَعَقْلَهُ وَخَطَّهُ وَقَالَ:  
 مُتَلَقَّبٌ كَافِي الْكُفَاةِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَافِرٌ الْكُفَّارِ  
 السَّجْعُ سَجْعٌ مُهْوَسٌ وَالخَطُّ خَطٌّ مُنْفَرَسٌ وَالْعَقْلُ عَقْلٌ حَمَارِ  
 وَقُلْتُ لِلتَّيِّفِ الْمُتَكَلِّمِ: أَرَى ابْنَ عَبَّادٍ كَثِيرَ الْخَلْوَةِ بِهِؤْلَاءِ الْعَفَّارِيتِ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا  
 حَدَّ الْعُلُومِيَّةِ<sup>(٢)</sup>، أَتَرَى ذَلِكَ لِفَحْشَاءٍ وَتُهْمَةٍ؟ فَقَالَ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:  
 كَمْ حَرْبَةٍ فِي الْقَوْمِ صَارَتْ جَعْبَةً فَاسْتُرَ عَلَيْهِ فَالْحَدِيثُ يَطْوُلُ  
 وَإِذَا الْفَتَى حَامَى عَلَى ذِي لَحِيَةٍ حُبَّالَهُ فَوَرَاءَهُ عَاقُولُ<sup>(٣)</sup>  
 وَكَانَ قَلِيلَ التَّحَاشِي مِنَ الْقَاذُورَاتِ، وَهُوَ الَّذِي أَلْصَقَ بِهِ الرَّبِيَّةَ، وَسَوَّغَ فِيهِ الْغِيْبَةَ،  
 وَصَارَ الْإِنْسَانُ إِذَا ذَكَرَ مَسَاوِيَهُ لَا يَخَافُ مَأْتَمًا، وَلَا يَرْتَقِبُ لَائِمًا. عَلَى أَنْ مَسَاوِيَهُ  
 تَفُوتُ الْحَضْرَ، وَتَنْدُّ عَنِ التَّحْصِيلِ.

قال ابن عَبَّادٍ لِنُدْمَائِهِ: مَا أَوَّلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

«وَأَنْ غَدًّا لِلنَّاطِرِينَ قَرِيبٌ»

فَقَالَ الْخَوَّارُزْمِيُّ: أَوَّلُهُ:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَوْمَ أَسْرَعُ ذَاهِبٍ».

وقال ابن الأعرابي: تَمَامُهَا لِنَصِيحِ بْنِ مَنْظُورِ الْفَقْعَسِيِّ، وَهُوَ:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقْلُ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ  
 فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) السَّفَنُ: جلد غليظ خشن.

(٢) الْعُلُومِيَّةُ: الْغَلَامِيَّةُ، اغْتَلَمَ الْغَلَامُ: بَلَغَ حَدَّ الْعُلُومَةِ.

(٣) الْعَاقُولُ: مَا التَّبَسُّ مِنَ الْأُمُورِ.

فَأَحْسِنِ وَأَجْمَلِ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا بَقْرَضِكَ تُجْزَى وَالْقُرُوضُ ضُرُوبٌ  
فَلَا تَكُ مَغْرُورًا تَعَلَّلُ بِالْمُنَى وَقُلْ إِنَّمَا أَدْعَى غَدًا فَأَجِيبُ  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَوْمَ أُسْرِعُ ذَاهِبٍ وَأَنَّ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ  
وَأَنَّ الْمَنِيَا تَحْتَ كُلِّ ثَنِيَّةٍ لَهُنَّ سِهَامٌ مَا تَزَالُ تُصِيبُ  
ذَهَبِينَ بِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ فَأَصْبَحَتْ لَهُنَّ عَلَيْنَا نَوْبَةٌ سَتَنْوُبُ  
فَأَقْبِلْ عَلَيْهِ بَوَجْهِ كَالِحٍ أُرْبِدُ<sup>(١)</sup>، وقال: أَعْرِفَكَ نَدْلًا جَاهِلًا، مَأْبُونًا بَاطِلًا، إِنَّمَا تُرِينَا  
مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ تَحْفَظُ وَتُحْسِنُ. التُّرَابُ فِي فَيْكِ يَا كَلْبُ، وَمَتَى نَبَتْ، وَمَنْ أَبُوكَ،  
وَعَمَّنْ أَخَذْتَ، وَإِلَى مَنْ اخْتَلَفْتَ؟

بَلَى، اخْتَلَفْتَ عَلَيْكَ أُمُورٌ، وَأُنْفَقْتَ فِي دُبْرِكَ أَيُّورٌ، أَنْتَ بِمَخَازِيهَا مَشْهُورٌ، وَقَوَّادُكَ  
بَعْدُ مَا مَاتَ، وَجَذْرُكَ<sup>(٢)</sup> بَعْدُ مَا نُسِيَ؛ مِثْلُكَ يَجْتَرِي فِي مَجْلِسِنَا؟ وَيَقَابِلُ بَوَجْهِهِ  
وَجْهَنَا؟ وَاللَّهِ لَوْلَا رِعَايَتُنَا الَّتِي جَرَّتْ بِهَا عَادَتُنَا لَعَرَفْتُنَا وَعَرَفْتَ نَفْسَكَ بِنَا. وَعَلَى هَذَا  
وَمَا كَادَ يَسْكُتُ.

فَكَانَ جَنُونُهُ غَرِيبًا فِي أَنْوَاعِ الْجُنُونِ، لِأَنَّ الْجُنُونَ إِذَا زَا حَمَهُ الْعَقْلُ، وَالْعَقْلُ إِذَا طَلَّاهُ  
الْحُمَقُ لَمْ يَكْمَلِ الْإِنْسَانُ؛ وَأَنْتَ إِذَا قِسْتَ هَذَا إِلَى الْعَاقِلِ، وَإِلَى الْأَحْمَقِ، وَإِلَى الْعَاقِلِ  
الَّذِي يَعْتَرِيهِ الْحَمَقُ، وَإِلَى الْأَحْمَقِ الَّذِي يَعْتَرِيهِ الْعَقْلُ.  
فَهَذَا كَمَا تَرَى.

وَمِنْ تَحَلَّى بِالسِّيَادَةِ، وَسَامَ النَّاسَ الْإِنْقِيَادَ لَهُ بِالطَّاعَةِ، يَحْتَاجُ إِلَى خِصَالٍ كَثِيرَةٍ  
يَكُونُ مَطْبُوعًا عَلَيْهَا سِوَى خِصَالٍ أُخْرَى يَكُونُ مَشْغُوفًا بِهَا وَبَاكْتِسَابَهَا مِنْ أَصْحَابِهَا،

(١) أُرْبِدُ: مَا اخْتَلَطَ سَوَادُهُ بِنَقَطِ حُمْرَاءٍ وَبِضَاءٍ.

(٢) الْجَذْرُ: أَجْرُ الْمَغْنِيِّ، وَهُوَ هَاهُنَا بِمَعْنَى أَجْرِ الْبَغِيِّ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى فِي شَرْحِ مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ لِمِثْلِ «حِينَ تَقْلِينَ تَدْرِينَ»، حَيْثُ قَالَ: أَصْلُ هَذَا أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ إِلَى قَعْبَةٍ وَتَمَتَّعَ بِهَا وَأَعْطَاهَا جَذْرَهَا وَسَرَقَ مَقْلَى لَهَا فَلَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ قَالَتْ لَهُ: قَدْ غَبَيْتُكَ، لِأَنِّي كُنْتُ إِلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ أَحْوَجَ مِنْكَ وَأَخَذْتُ دِرَاهِمَكَ، فَقَالَ لَهَا: حِينَ تَقْلِينَ تَدْرِينَ. يَضْرِبُ لِلْمَغْبُوتِ يَظُنُّ أَنَّهُ الْغَابِنُ غَيْرُهُ.

بالمُجَالَسَةِ وَالسَّمَاعِ وَالقِرَاءَةِ وَالتَّقَبُّلِ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ فِي صِفَةِ السَّيِّدِ  
حِينَ سُئِلَ: مَنْ السَّيِّدُ؟

فَقَالَ: السَّيِّدُ هُوَ الْأَخْرَقُ فِي مَالِهِ، الدَّلِيلُ فِي عِزِّهِ، الْمَطْرَحُ لِحَقْدِهِ، الْمَعْنِيُّ بِأَمْرِ  
جَمَاعَتِهِ.

وَهَذَا جُمَاعُ الْكِرَمِ وَنِظَامُ الْمَجْدِ.

وَكَانَ ذُو الْكِفَايَتَيْنِ يَقُولُ: خَرَجَ ابْنُ عَبَّادٍ مِنْ عِنْدِنَا، يَعْنِي الرَّيِّ، مَتَوَجِّهًا إِلَى  
أَصْفَهَانَ، وَمَنْزِلُهُ وَرَامِينَ، فَجَاوَزَهَا إِلَى قَرْيَةِ غَامِرَةَ عَلَى مَاءٍ مَلْحٍ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِيَكْتُبَ  
إِلَيْنَا: كِتَابِي مِنَ النَّوْبَهَارِ<sup>(١)</sup>، يَوْمَ السَّبْتِ نِصْفَ النَّهَارِ.

يَا قَوْمُ! هَلْ هَذَا إِلَّا الرَّقَاعَةُ؟

وَاعْلَمْ - حَاطَكَ اللَّهُ - أَنَّ الْكَمَالَ عَزِيزٌ، فَإِنَّ مَا رَبِحَهُ أَبُو الْفَضْلِ بِالْعَقْلِ خَسِرَهُ  
بِالْبُخْلِ، وَكُلُّ مَا زَادَ ابْنَ عَبَّادٍ بِالسَّخَاءِ نَقَصَ بِالْحَمَقِ، عَلَى أَنْ الْعَقْلَ لَا يَكُونُ تَأَمُّمًا  
وَهُنَاكَ خَسَاسَةٌ، وَالسَّخَاءُ لَا يَكُونُ مَحْمُودًا وَهُنَاكَ حِمَاقَةٌ، وَابْخُلُ فِي الْجُمْلَةِ غَالِبٌ  
عَلَى الْمُتَفَلِّسِينَ، كَمَا أَنَّ الْحِمَاقَةَ غَالِبَةٌ فِي الْجُمْلَةِ عَلَى الْمُنْشِئِينَ.

وَسَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْمَنْجَمِ<sup>(٢)</sup> يَقُولُ، وَكَانَ مَحْذِقًا حُلُوَ الْحَدِيثِ، وَقَدْ سُئِلَ: لِمَ  
غَلَبَ الْبُخْلُ عَلَى كُلِّ مَفْلِسِفٍ؟ فَقَالَ:

وَجَدْنَا الْغَالِبَ عَلَى النَّاطِرِينَ فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ، وَالبَاحِثِينَ عَنْ أَسْرَارِ الدُّهُورِ،  
وَهُمُ الْمَوْسُومُونَ بِطَلَبِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ الْفَلَسَفَةُ، التَّمَسُّكَ بِكُلِّ عَرَضٍ يَمْلِكُونَهُ،  
حَتَّى إِنْهُمْ لَا يُفْرَجُونَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَلَا يَجِدُونَ أَلَمَ الشُّحِّ وَابْخُلِ،

(١) النَّوْبَهَارُ: فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ (٨/ ٣٢٠ - ٣٢٣): قَالَ أَبُو الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ: «خَرَجَ ابْنُ عَبَّادٍ ... نِصْفَ النَّهَارِ»  
فُنُسِبَ الْقَوْلُ إِلَى أَبِي الْفَضْلِ كَمَا تَرَى.

(٢) هُوَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى الْمَنْجَمِ، شَاعِرٌ وَرَاوِيَةٌ لِلشَّعْرِ وَنَدِيمُ الْخُلَفَاءِ، وَوُلِدَ فِي  
بَغْدَادَ سَنَةَ ٢٧٧ هـ، لَهُ كُتُبٌ مِنْهَا (شَهْرُ رَمَضَانَ) أَلْفُهُ لِلرَّاضِي الْعَبَّاسِيِّ، وَ(الرَّدُّ عَلَى الْخَلِيلِ) فِي الْعُرُوضِ،  
وغيرهما. تُوُفِيَ سَنَةَ ٣٥٢ هـ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ خُلِكَانَ فِي الْوَفِيَّاتِ (١/ ٣٥٦).

ولا يأنفون من عارهما؛ وطلبنا العلة في ذلك مع ما يقتضيه مذهبهم من الزهد والبذل والإيثار والتكرم، فوجدناها في آثار النجوم والنظر في دلالتها؛ وذلك أن الذي يدل على علم الحقائق والغوص فيها، واستيفاء الفكر فيها زحل مع عطارد بالاشتراك. وزحل يوجب مع شهادته الأولى الحصر والحسد والضيق والبخل؛ لأن البخل يكون من جهة الخوف من الفقر، وزحل يوجب عجز النفس، وخضوعاً عند الحاجات، وإشفاقاً على الفئات لعسر آثار زحل وكثرة تغير أموال عطارد.

قال:

وهذه الدلالة موافقة لما في الطبيعيات، وذلك أن البرد واليبس، من آثار زحل، يوجبان عوارض السوداء. وأخلاق النفس تابعة بالنظر الأول لمزاج البدن، فلذلك يستحيل إليه، وكذلك حال عطارد في خصوصيته باليبس، ولأن الحرارة معدومة في زحل وعطارد، والسخاء من جنس الشجاعة المشاكلة لقوة الحرارة، والبخل من جنس الجبن المشاكل لقوة اليأس الذي يوجب العجز وضيق الصدر والخوف في الحاجات.

قال:

ولأن الزهرة لها من الأمور الإلهية والدلالة على الوحي وطهارة الأخلاق مع ما توجبه من الشهوة والتعمه والبذل والقوة الانفعالية بسبب الرطوبة الغالبة عليها؛ فهي إذا أعطت أعطت الحقائق بغير تكلف، بل على سبيل الوحي، وتميل النفس إلى طهارة الأخلاق والتهاون بالمال للمباينة الواقعة بين الأمور الإلهية والأمور الطبيعية التي بها يطلب المال ويتمسك به، فالذي يشرك في تدبيره بين العلوم والخلق الزهرة، ويكون صاحبها مصادقاً للحقائق عفواً مَبْغِضاً للمال طبعاً.

والذي يَغلب على تدبيره في العلم والخلق زُحَل، وعطارد يتكَلَّف العلم ويحبّ المال، ويكون مَغلوبًا بالبُخل.

وكان جريح المقل إذا جرى حديثُ أبي الفضل قال:

«صَبُورٌ عَلَى سُوءِ الثَّنَاءِ وَقَاحٌ»<sup>(١)</sup>

وَأُنشَدَ فِيهِ:

وَلَا يَسْتَوِي عِنْدَ كَشْفِ الْأُمُورِ بِأَذْلِ مَعْرُوفِهِ وَالْبُخِيلِ  
وَلَا تَعَجَّبْ مِنْ إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذَا فِي ذَوِي الرِّيَاسَةِ، فَإِنَّهُ مَسْبُوقٌ إِلَيْهِ فِي الْقَدِيمِ  
وَالْحَدِيثِ؛ هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ الْجِرَّاحِ عَمُّ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى الْوَزِيرِ سَاقٍ فِي كِتَابِهِ فِي «أَخْبَارِ  
الْوَزَرَاءِ» فَقَالَ:

كَانَ آلُ بَرْمَكٍ أُنْدَى مِنَ السَّحَابِ، وَآلُ وَهَبٍ أَحْسَسَ مِنَ الْكِلَابِ، وَأُنشَدَ جَرِيحُ  
المقل فِي أَبِي الْفَضْلِ:

لَنَا فِيلَسُوفٌ عَالِمٌ بِالطَّبَائِعِ يُخَبِّرُنَا مِنْ طَبِّهِ بِالْبَدَائِعِ  
رَأَى الْبُخْلَ حَذَقًا فَهُوَ يَحْمِي وَيَحْتَمِي فَلَسْتَ تَرَى فِي دَارِهِ غَيْرَ جَائِعِ  
وَيَزْعَمُ أَنَّ الْفَقْرَ فِي الْجُودِ وَالنَّدَى وَأَنَّ لَيْسَ حِظٌّ فِي اكْتِسَابِ الصَّنَائِعِ  
سَتَعْلَمُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَنَّكَ نَادِمٌ وَأَنَّ الَّذِي خَلَّفْتَ لَيْسَ بِنَافِعِ  
لَقَدْ أَمِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَخْشَ صَرْفَهَا وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَرْءَ رَهْنُ الْفَجَائِعِ  
وقال:

كَانَ يَدْعِي لَهُ الْعَقْلَ وَهُوَ لَا يَرْجِعُ إِلَى دِينِ، وَكُلُّ مَنْ فَسَدَ دِينُهُ فَسَدَ عَقْلُهُ. قَدْ أَعْجَبْتَهُ  
فَلَسْفَتُهُ الَّتِي لَا يَحْظِي مِنْهَا بِطَائِلَ، وَلَا يَتَّبِعُ بَيْنَ أَهْلِهَا بِحَقِيقَةٍ. أَمِنَ الْعَقْلُ أَنْ يُنْشَدَ كُلُّ  
شَعْرٍ لِمَلْحَدٍ، وَيُرَدَّدَ كُلُّ لَفْظٍ غَثٌّ وَمَعْنَى؟ أَنْشَدَ يَوْمًا قَوْلَ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ:

(١) عجز بيت لشاعر لم يذكر اسمه في البيان والتبيين (٣/٣٣٣) وصدوره:

«أَكُولُ لِأَرْزَاقِ الْعِبَادِ إِذَا شِئْنَا»

يُخَبِّرُنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةَ أَصْدَاءِ وَهَامٍ (١)  
أَيَقْتُلُنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا وَيُحْيِينِي إِذَا رَمَتْ عِظَامِي  
وَأَنْشُدَ لآخر:

أَصْبَحْتُ جَمَّ بِلَالِ الصَّدْرِ وَأَبَيْتَ مَنْطُوبًا عَلَى غَمْرِ  
إِنْ بُحْتُ طُلَّ دَمِي وَإِنْ أَسَكْتُ يَضِقُ بِذَاكُمُ صَدْرِي  
وقال: هذا لصالح بن عبد القدوس العاقل المُجيد، أما سمعت قوله الآخر:  
بأح لسانِي بمضمر السرِّ وذاك أني أقول بالدهر  
وليس بعد الممات مُنْقَلَبٌ وإنما الموتُ بيضة العُقر  
وهذه أمورٌ قبيحة من سفلة الناس، فكيف من عليتهم؟ وإذا سكَّت الناس عنهم في  
حياتهم خوفًا منهم، نطقوا بعد موتهم تقربًا إلى الله تعالى بالصدق عنهم.  
فلا يَهْدِنَكَ (٢) ما تسمع؛ فإن الله تعالى لا يُفِيضُ لِلْمُحْسِنِ إِلَّا الْمُحْسِنَ، كما لا  
يُلْجِئُ الْمُسِيءَ إِلَّا إِلَى الْمُسِيءِ.

ورأيتُ العَسْجَدِيَّ يَقُولُ لجريح المقل: كيف وجدتَ هذا الرجل؟ يعني أبا الفضل.  
فقال: يابس العود، ذميم المعهود، سيئ الظن بالمعبود، ومثله لا يَمُجِّدُ ولا يَسُودُ.  
فقال له العسجدي: أفلا ترى هذه الأبهة والصَّيت والغاشية والموكب؟

(١) أبو كبشة هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي، زوج حليلة مُرضعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأبو  
كبشة هو: أبو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، وحاضن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كانت  
قريش تنسبه إليه، فتقول: قال ابن أبي كبشة.

وقيل إنَّ أبا كبشة رجل من خزاعة خالف قريشًا في عبادة الأوثان وعبدة الشعريِّ العَبُورِ، فسَمَّى المشركون  
سيدنا رسول الله، صلى اللهُ عليه وسلم، ابنَ أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبيهًا به، كما  
خالفهم أبو كبشة إلى عبادة الشعريِّ؛ معناه أنه خالفنا كما خالفنا ابنَ أبي كبشة.  
وقال آخرون: أبو كبشة كنية وهب بن عبد مناف جدِّ سيدنا رسول الله، صلى اللهُ عليه وسلم، من قِبَلِ أمِّه  
فنسب إليه لأنه كان نَزَعَ إليه في الشبه.

(٢) يَهْدِنَكَ: يفرعك.

فقال: هذا وإن كان من الدولة، فهي غير السؤدد، والسلطان غير الكرم، والجد غير المحمّدة. أين الزوار والمنتجعون؟ وأين الآملون الشاكرون، وأين المثنون الحامدون؟ وأين الواصفون الصادقون؟ وأين المنصرفون الرّاضون؟ وأين دار الضيافة والخدم المرتبون للخدمة؟ هيهات! لا تجيء بالطّقة والرّققة<sup>(١)</sup>؛ أما تسمع الشعر؟

أبا جعفرٍ ليس فضلُ الفتى إذا راح في فرطٍ إعجابه  
ولا في فراهةٍ بزؤونه ولا في نظافة أثوابه  
ولكنه في الفعّال الجَميدِ لِحسبِ الأشرفِ النَّابه  
وكان أبو الفضل يُطريُّ البُحترى ويُعجب من غزله وتشيبيه ويستسهل في الجملة  
طريقته، ورجلٌ حاضرٌ يُخالفه في ذلك، فقال أبو الفضل:

البُحترى يرومُ غايةَ شعره من لا يقيم لنفسه مِصراعاً  
أنى يرومُ مثاله ولو ابتغى تقويمَ قافيةٍ له ما استطاعاً  
جذب العلاء بضبعه فأحلّه بين المجرّة والسّمك رباعاً  
وغدوت ملتزم الحضيض فكلمّا فرع العلاء باعاً هبطت ذراعاً  
قال: فخزي الرجل وسكت.

وحدّثني أبو الطّيب الكميائي قال: قلت لأبي الفضل - بعد أن سمّ الحاجب النّيسابوريّ، وبعد أن خطب على حمّد، ودسّ إلى ابن هندو<sup>(٢)</sup> وغيرهم من أهل الكتابة والمرّوة والنّعمة: لو كفت، فقد أسرفت.

فقال: يا أبا الطّيب، أنا مضطرّ.

فقلت: أي اضطرار هاهنا؟ والله إنّ مُخادعتنا لأنفسنا في نفعنا وضرّنا لأعجب من

(١) بالطّقة والرّققة: كناية عن الضجيج والمظاهر الزائفة.

(٢) هو علي بن الحسين بن هندو، الكاتب الأديب الشاعر، كان أحد كتّاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة، وكان متفلسفاً له مؤلفات طُبعت منها «الكلم الروحانية».

مُكَابَرَةٌ غَيْرِنَا لَنَا فِي خَيْرِنَا وَشَرِّنَا، وَهَذَا وَاللَّهِ رَيْنُ الْقَلْبِ وَصَدَأُ الْعَقْلِ، وَفَسَادُ الْاِخْتِيَارِ وَكَدْرُ النَّفْسِ، وَسُوءُ الْعَادَةِ، وَعَدَمُ التَّوْفِيقِ.

فَقَالَ: يَا أَبَا الطَّيِّبِ! أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِالظَّاهِرِ، وَأَنَا أَحْتَرِقُ فِي الْبَاطِنِ.

فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ عُدْرُكَ فِي هَذِهِ السُّيْرَةِ الْمَخَالَفَةِ لِأَهْلِ الدِّيَانَةِ وَأَصْحَابِ الْحِكْمَةِ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا الْوُضُوحَ وَالْجَلَاءَ فَإِنَّكَ مَعذُورٌ عِنْدَنَا، وَلَعَلَّكَ أَيْضًا مَاجُورٌ عِنْدَ اللَّهِ مَالِكِ الْجِزَاءِ. وَإِنْ كُنْتَ تَعَلَّمَ فِي حَقِيقَتِهِ غَيْرَ مَا تُرَاجِعُنِي عَلَيْهِ الْقَوْلَ، وَتُنَاقِلُنِي (١) فِيهِ الْحِجَاجَ فَإِنَّكَ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ قَدْ بَاءُوا وَابْغَضُوا مِنَ اللَّهِ عَلَى مَذَاهِبِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ. فَبَكَى.

فَقُلْتُ: الْبِكَاءُ لَا يَنْفَعُ إِنْ كَانَ الْإِقْلَاعُ مُمْكِنًا، وَالنَّدَمُ لَا يُجْدِي مَتَى كَانَ الْإِصْدَارُ قَائِمًا. هَذَا كُلُّهُ بِسَبَبِ ابْنِكَ أَبِي الْفَتْحِ؛ وَاللَّهِ إِنْ أَيَّامَ ابْنِكَ لَا تَطُولُ، وَإِنْ عَيْشُهُ لَا يَصْفُو، وَإِنْ حَالَهُ لَا يَسْتَقِيمُ وَلَهُ أَعْدَاءٌ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْهُمْ؛ وَقَدْ دَلَّ مَوْلَدُهُ عَلَى ذَلِكَ. وَإِنَّكَ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ قِضَاءَ اللَّهِ، وَهُوَ لَا يُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. فَعَلَيْكَ بِخُوبِصَةِ نَفْسِكَ.

\*\*\*

وهذا موضع يُرَوَى عنه بعض ما هو فائدة من الأدب والحكمة، وإن كان استيعاب ذلك شاقًا؛ فإن الرجل كان كثير المحفوظ جيد الاقتضاب.

حدَّثني ابنُ فارس: جَرَى بَيْنَ يَدَيْهِ أَسْمَاءُ الْفَرْجِ وَكَثْرَتُهَا، فَقَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ: مَاذَا أَرَادَتْ الْعَرَبُ بِتَكْثِيرِهَا مَعَ قُبْحِهَا؟ فَقَالَ: لَمَّا رَأَوْا الشَّيْءَ قَبِيحًا جَعَلُوا يَكْتُمُونَ عَنْهُ، وَكَانَتِ الْكِنَايَةُ عِنْدَ فُشُوِّهَا تَصِيرُ إِلَى حَدِّ الْأَسْمِ الْأَوَّلِ فَيَنْتَقِلُونَ إِلَى كِنَايَةِ أُخْرَى، فَإِذَا اتَّسَعَتْ أَيْضًا رَأَوْا فِيهَا مِنَ الْقُبْحِ مِثْلَ مَا كُنُوا عَنْهُ مِنْ أَجْلِهِ، وَعَلَى هَذَا، فَكَثُرَتْ الْكِنَايَاتُ، وَلَيْسَ غَرَضُهُمْ تَكْثِيرُهَا.

(١) تُنَاقِلُنِي: تَنَازَعُنِي وَتَجَادَلُنِي.

وحدّثني الهروي قال: سألت يوماً ابنه أبا القاسم -أخا كان لذي الكفّيتين مات قبله- عن قول الشاعر:

فما لكم طُلستِ الثياب كأنكم ذئبُ الغصا والذئبُ بالليل أطلسُ<sup>(١)</sup>  
فقال ولده: هو ظاهرٌ إلا أن يكون تحته معنى.

فقلت مماًزحاً له: أهو ظاهرٌ لك أو ظاهرٌ عنك أي غائب. ومعنى ظاهر عنك أي مُجانب لك بارزٌ عنك. ومنه قول الهذلي<sup>(٢)</sup>:

وعيرها الواشون أني أحبُّها وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها  
وفسر البيت فقال: يقول: ما لكم مجاهرين لي بالعداوة ولا تُجاملوني في حال،  
فالذئب أصلح منكم لأنه بالليل أطلس أي مجاهر بالليل فقط، ومُداجٍ بالنهار؛ فهو  
مجاهر في وقتٍ ومُداجٍ في وقت، وأنتم مُصرون على العداوة.

وكان يحفظ فقراً لابن المعتز، ويرويه في مجلسه في الوقت بعد الوقت،  
وكان يؤهم من حضر أنه من اقتضابه.

منها قوله:

إن في الحكم: أن المتواضع من طلاب العلم والحكم أكثرهم حظاً، كما أن المكان  
المتطامن من أكثر البقاع ماءً.

وأنس الأمن يذهب بوحشة الوحدة، ووحدة الخوف تذهب بأنس الجماعة.

ومنع الحافظ خيراً من عطاء المضيّع.

وإذا طرت فقع قريباً.

(١) الأطلس: الذئب الأعمط في لونه غبرة إلى سواد. والأطلس: الأسود.

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد بن محرت أبو ذؤيب من بني هذيل بن مدركة، شاعر فحل ومخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن في المدينة واشترك في الغزو والفتوح وعاش إلى أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة، وقد على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة وفاته، فأدركه وهو مُسجى وشهد دفنه.

والرَّجَالُ يُفِيدُونَ الْمَالَ، وَالْمَالُ يُفِيدُ الرَّجَالَ.

إِذَا أَبْصَرَتِ الْعَيْنُ الشَّهْوَةَ عَمِيَ الْقَلْبُ عَنِ الْاِخْتِيَارِ.

مَنْ رَأَى الْمَوْتَ بَعِينَ أَمَلِهِ رَأَهُ بَعِيدًا، وَمَنْ رَأَهُ بَعِينَ عَقْلِهِ رَأَهُ قَرِيبًا.

الْعَقْلُ صَفَاءُ النَّفْسِ، وَالْجَهْلُ كَدْرُهَا.

لا تلبس السلطان في وقت اضطراب الأمور عليه، فإن البحر لا يكاد راكبه يسلم في حال سُكُونِهِ، فكيف مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه.

وإن الله تعالى أضاف إلى كل مخلوق ضده ليدل على أن الوحدة له وحده.

كَرَّمَ اللَّهُ لَا يَنْقُضُ حِكْمَتَهُ. وَلِذَلِكَ لَمْ تَفْعِ الْإِجَابَةَ لِكُلِّ دَعْوَةٍ.

لِلطَّالِبِ الْمُنْحَجِّ لَذَّةُ الْإِدْرَاكِ، وَلِلطَّالِبِ الْمَحْرُومِ لَذَّةُ الْيَأْسِ.

وَمَنْ صَحِبَ السُّلْطَانَ فَلْيَصْبِرْ عَلَى قَسْوَتِهِ كَصَبْرِ الْغَوَاصِ عَلَى مَلُوحَةِ مَاءِ الْبَحْرِ.

وَالْعَالِمُ يَعْرِفُ الْجَاهِلَ لِأَنَّهُ كَانَ مَرَّةً جَاهِلًا، وَالْجَاهِلُ لَا يَعْرِفُ الْعَالِمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ

مَرَّةً عَالِمًا.

وَمَنْ جَعَلَ الْحَمْدَ خَاتَمًا لِلنِّعْمَةِ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلْمَزِيدِ.

لَوْ تَمَيَّزَتِ الْأَشْيَاءُ لَكَانَ الْكُذِبُ مَعَ الْجُبْنِ، وَالصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ، وَالرَّاحَةُ مَعَ

الْيَأْسِ، وَالتَّعَبُ مَعَ الطَّمَعِ، وَالْحَرْمَانُ مَعَ الْحَرَصِ، وَالدُّلُّ مَعَ الدِّينِ.

وَمَالُ الْمَيْتِ يُعْزِي وَرِثَتُهُ عَنْهُ.

كَيْفَ تُرِيدُ مِنْ صَدِيقِكَ خُلُقًا وَاحِدًا وَهُوَ ذُو أَرْبَعِ طَبَائِعٍ؟

تُرْقِعُ خَرْقَ الدُّنْيَا وَيَتَّسِعُ، وَتَشَعْبُهَا وَتَنْصَدِعُ، وَتَجْمَعُ مِنْهَا مَا لَا يَجْتَمِعُ.

وَكَانَ مَلِيًّا بِهَذَا النَّمَطِ وَيَفْرِغُ فِي قَالِبِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ إِلَّا لُقْعَةٌ<sup>(١)</sup> اللِّسَانِ،

وَصَدَى الصَّوْتِ، وَتَقْطِيعُ اللَّفْظِ. فَأَمَّا التَّحْلِي وَالْعَمَلُ فَكَانَ مِنْهُمَا عَلَى بُعْدٍ؛ وَالْعَقْلُ

(١) اللُّقْعَةُ: مَنْ يَرْمِي بِالْكَلَامِ وَلَا شَيْءَ عِنْدَهُ وَرَاءَ ذَلِكَ الْكَلَامِ.

متى لم يُثمر كرمًا فهو وبال، والحكمة متى لم تُورث عملاً فهي خبال. والكرم ما قاله الأعرابي حين سُئل عنه، فإنه قال:

أما الكرم في اللقاء فالبشاشة، وأما في العشرة فلهشاشة، وأما في الأخلاق فالسماحة، وأما في الأفعال فالنصاحة، وأما في الغنى فالمشاركة، وأما في الفقر فالمواساة.

قلت لأبي السلم نجبة بن علي:

أبْنُ عِبَادٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ ابْنُ الْعَمِيدِ؟

قال: ما فيهما حبيبٌ، على أني برقاعة هذا أشدُّ انتفاعاً مني بعقل ذلك. هذا يغضب إذا ترقعت عن عطائه، وقبضت يدك عن قبول برّه، ومشيت ناكباً عن بابه وقصده. وذلك كان يحقد إذا رجوته وتعرضت له، ويغضب إذا أثنت عليه وطمعت فيه. وهذا يكذب مُتماجناً، وذاك كان يصدق مع الدمائه ويغيط. وهذا يفعل الخير وإن قاله وأفشاه وبجح<sup>(١)</sup> به وسحب ذيله عليه، وذاك كان لا يُقلع عن الشرّ وإن قرع في وجهه باللائمة، وكشط عرضه بالمدمة. وهم هذا في الأخذ والإعطاء، والإبعاد والإدناء. وكان دأب ذلك الجمع والمنع والتفلسف ليقع اليأس منه، ويتلذذ بالخيبة عليه. وهذا يقول ويفعل بعض ما يقول متجلداً، وكان ذلك لا يهّم ولا ينوي ولا يظن ولا يحلم، فضلاً عن القول المُطمع والعمل النافع. وعيبُ هذا أنه يذوب حتى لا يحصل لك منه شيء. وكان عيبُ ذلك أنه يجمد حتى لا تنتفع منه بشيء.

وقلت لأبي السلم يوماً، وقد خرج من دار ابن عبّاد:

كيف ترى الناس؟

فقال: رأيت الداخل ساقطاً، والخارج ساقطاً، وأخذ من قول شبيب<sup>(٢)</sup>؛ فإنه خرج

(١) بجح به: فرح به وفخر.

(٢) هو شبيب بن شيبه، كان أحد الخطباء البلغاء، وقد ذكره الجاحظ في البيان، وقال: «إن الناس كانوا يتناقلون خطبه ويحفظونها» وأورد لها فقراً بليغة. (البيان والتبيين: ١/٣١٨، ٣٥١).

من دَار المهلبي وقال: تركت الدَاخِلَ راجياً، والخارجَ راضياً.

وكان أبو السلم من فُصحاء النَّاسِ؛ سمعته يقول: الكسير يعثم<sup>(١)</sup> والحسير يوثم<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً: ما أحسن منقاد هذا الطائر، بالدال.

وقال للبديهي، لما رأى تعسّفه في العربية: يا هذا! الكلام لا يُواتيك قسراً ولا يُطيعك كارهاً، تكلم على سجية النفس، وعضو الطباع، وأطرح البقية جانباً، وجانب التكلف، وأتبع المعنى يتبعك اللفظ، والحظ العقل، فإنه نورك، والزم الجادة فهي مسلكك، ولا تذلن فتخزي، ولا تعزن فتقصي، وتحكم وأنت مبق، وخذ كأنك معط، وكسر لهاتك بتصاريف الكلام مُشققاً لا مُتشدّقاً، تبلغ إرادتك، وتملك عاداتك.

قلتُ له: كيف كان حديث ابن العميد؟

قال: «ألذ من السلوى إذا ما نشورها»<sup>(٣)</sup>.

وحديث ابن عباد أنتن من الصنان، وأنقل من الصدام<sup>(٤)</sup>، وأبغض من القرض<sup>(٥)</sup> في الطعام، وأوحش من أضغات الأحلام. يتشاحي<sup>(٦)</sup> كأنه صبي مترعرع، يظن أن الأرض لم تُقلّ غيره، وأن السماء لم تُظَلّ سواه، أما سمعته يشتم في هذه الأيام إنساناً فقال:

«لعن الله الأهوج الأعوج الأفلج الأفحج الحفلج»<sup>(٧)</sup>، الذي إذا قام لجلج

(١) عنم العظم عنماً: جبره على غير استواء.

(٢) الحسير: الدابة تعيا وتتعب، حسر الدابة: أتعبها حتى هزلت. ووئمت الحجارة رجله ونمًا، ووثامًا: أذمتها.

(٣) عجز بيت لخالد بن زهير الهذلي، وصدرة: «وقاسمها بالله جهداً لأنتم».

سلوى النحل: العسل. نشورها: نستخرجها ونجتها.

(٤) الصدام: داء في رؤوس الدواب.

(٥) القرض: حصي صغار مكسرة، وأحدته قضة.

(٦) يتشاحي: يفتح فمه.

(٧) الأفحج، الحفلج: المعوج الرجلين، كلاهما بمعنى واحد.

وإذا مشى تفتحج، وإن تكلم تلجلج، وإن تنعم تمجمج، وإن مشى تدرج، وإن عدا تفتحج (١)».

قال: فهل سمعت بكلام أنبي عن القلب وأسمج من هذا؟ نعوذ بالله من العجمة المخلوطة بالتعريب، ومن العربية المخلوطة بالتعجم.

ولو أن هذا النقص لم يدل إلا على اللفظ الذي معدنه اللسان لكان العذر أقرب، لكنه كاشف لعمرة العقل، هاتك لستر المعرفة، ومن استدرجه الله إلى هذه الحال فقد خذله وإن ظن أنه منصور، وأفقره وإن حسب أنه مثر.

وسمعه يقول لكاتب بين يديه، وقد كتب: «من إسماعيل بن عباد»، وكانت العين من إسماعيل قد تطلست، ولم يكن لها بياض المشقين يتعريف (٢) للكاتب والقلم.

فقال: يا هذا: عيني هكذا ينبغي أن تكتب بالله؟ أنت أعمى؟ أما ترى عيني؟ انظر إليها حسناً! أهي محلوسة، أهي مملوسة، أهي مطلوسة، أهي ممروسة، أهي ممسوحة، أهي منزوحة، أهي مسطوحة؟ وما كاد يسكت.

وهل هذا إلا رقاعة وجهل وكلام رقعاء المعلمين والمختئين؟!

وقال يوماً:

هاهنا أشياء لا حقيقة لها.

منها: إمام الرفضة، والاستطاعة مع الفعل، والبذل للنجار، والهيولى.

فقال الحسين المتكلم: والحال لأبي هاشم.

فقال: مما يوضح عندي معنى الحال أن مثلك لا يفهمه. وكان هذا الكلام بسبب

تنكر له شديد.

(١) لجلج: تردد. تفتحج: تفرقت رجلاه وساقاه عند المشي. تمجمج: استرخى وترهل. تفتحج: باعد بين رجليه عند المشي.

(٢) هكذا بالأصل.

فقلت: أنشدني الأندلسي أبو محمد<sup>(١)</sup> لبعض شعراء المغرب بيتاً ذكر فيه أشياء زعم أنه لا حقيقة لها.

فقال: وما ذلك البيت؟

فأنشدته:

الجود والغول والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم تُخلق ولم تُكن  
قال: أوفي المغاربة من له هذا النمط؟

قلت: سألته عن هذا فقال لي: في المغرب من يُقدّم نثره على نثر إبراهيم بن العباس الصولي، ويُقدّم نظمه على نظم أبي تمام.

فقال: فهل روى لك غير هذا؟

قلت: نعم، أنشدني لشاعر لهم يُعرف بأبي بكر محمد بن فرح في طفيلي يعرف بابن الإمام:

أفديك من مُتوجد غضبانٍ حتى يُلوح له ضباب دخانٍ  
يقتاده شَمُّ القتارِ بأنفه مثل اقتياد النجم للحيوان<sup>(٢)</sup>  
وعلا الدخانُ بثتّ طولة مُربياً يُبدي كمينَ مطابخ الإخوانِ  
وبحانة المُلهين جاسوسٌ له يُنبئه أينَ تناكح الزَّوجانِ  
صَبَّ إلى الطوفانِ مرتاحٍ إلى الـ جَوْلانِ مضطغنٌ على الخلانِ  
فترى الإماميين حول ركابه كالخيل صايعة ليوم رهانِ  
لو يسمعون بأكلةٍ أو شربة بُعمان أصبح جمعهم بعمانِ

(١) هو عبد الله بن حمود الزبيدي أبو محمد الأندلسي. من مشاهير أصحاب أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي. رحل إلى الشرق، ولم يعد إلى الأندلس. لازم ببغداد أبا سعيد السيرافي إلى أن توفي السيرافي فلازم أبا علي الفارسي، واتبعه إلى فارس. وكان إذا سمع كلام الجاحظ تخدّر وتسدّر عجباً به.  
(٢) القتار: دُخانٌ ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبخ أو الشواء، أو العظم المحروق، أو البخور.

زَارَ الْفَتَى الْقَرْشِيَّ لَا لِتَعَهْدٍ مِنْهُ، وَلَا شَوْقٍ إِلَى لَقِيَانِ  
 حَتَّى إِذَا وُضِعَ الْخَوَانُ تَسَاقَطُوا نَهْمًا عَلَيْهِ تَسَاقَطَ الذَّبَانِ  
 وَرَأَيْتَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَتَخَمِّطًا فِي لَقْمَةٍ كَتَخَمَطِ السَّكْرَانِ (١)  
 لَمْ يَنْصَرَفْ إِلَّا وَفِي أَكْمَامِهِ حَمْلٌ وَفِي أَعْفَاجِهِ حُمْلَانِ (٢)  
 وَأَخُو ثَقِيفٍ فَرَّ مِنْهُ قَاصِدًا جَيَّانَ لَوْ أَغْتَتُ قُرَى جَيَّانِ (٣)  
 لَوْ حَلَّ فِي نَجْرَانَ لَمْ يَبْعُدْ عَلَيَّ عَزَمَاتٍ يَتَّبِعُهُ مَدَى نَجْرَانَ  
 كَالْمَوْتِ تَسْعَى فِي التَّخْلِصِ جَاهِدًا مِنْهُ، وَتَلْقَاهُ بِكُلِّ مَكَانٍ

فعجب من الأبيات وقال: ماذا قال لك في تفسير شت طولة؟

فقلت: زعم أنها بليدة.

قال: فما جيان؟

قلت: زعم أنه مكان يعرف هكذا.

قال: اكتب الأبيات وأرفعها إلى نجاح، وكان خازن كتبه.

ثم قال: ما أنشدك شيئاً في الغزل؟

قلت: بلى! أنشدني لأبي عمر الأندلسي:

مَهَلًا فَمَا دِينَ الْهَوَى كُفْرًا وَلَا أَعْتَدُ عَذْلَكَ لِي مِنَ التَّنْزِيلِ

\*\*\*

مَنْ حَاكَمَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُولِي الشَّجْوُ شَجْوِي وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي  
 فَبِأَيِّ جَارِحَةٍ أَصُونُ مُعَذِّبِي سَلِمْتُ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ  
 إِنْ قَلْتُ فِي عَيْنِي فَتَمَّ مَدَامِعِي أَوْ قَلْتُ فِي كِبْدِي فَتَمَّ غَلِيلِي

(١) تَخَمَّطَ: اشتد غضبه وهاج.

(٢) العَفِجُ: الكرش والمعى.

(٣) جيان: مدينة بالأندلس.

وَأَنشَدَنِي لِهَذَا الشَّاعِرِ بَعِينَهُ أَيضًا:

وَأَحْوَرَ إِن كَلَّمْتَهُ فَهُوَ شَاعِرٌ بَيَانًا، وَإِن لَّاحْظْتَهُ فَهُوَ سَاحِرٌ  
عَلَى خَدِّهِ لِلْيَاسَمِينِ غَلَائِلٌ عَلَيْهَا مِنَ الْوَرْدِ النَّضِيرِ ظَهَائِرُ  
حُسَامٌ بَعِينِهِ وَنِطْعٌ بِخَدِّهِ وَصَبِغٌ دَمِ الْعُشَاقِ فِي النَّطْعِ ظَاهِرُ  
وَلابن رَشِيقٍ أَيضًا:

وَلَمْ أَدْخُلِ الْحَمَامَ سَاعَةً بَيْنَهُمْ طِلَابَ نَعِيمٍ، قَدْ رَضِيتُ بِبُوسِي  
وَلَكِن لِّتَجْرِي دَمْعَتِي مُسْتَهْلَةً فَأَبْكِي وَلَا يَدْرِي بِذَاكَ جَلِيسِي  
فَقَالَ: كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ أَرَى أَبَا مُحَمَّدٍ هَذَا، وَلَوْ انْتَجَعْنَا لَبَلَّغْنَا لَهُ مُرَادَهُ.

وَأَعَدْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَيَّ أَبِي مُحَمَّدٍ سَنَةَ سَبْعِينَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ  
حَدِيثَهُ فَكَيْفَ أُؤَثِّرُ أَنْ أُبْتَلَى بِرِقَاعَتِهِ.

وَلَهُ مَعَ حَسِينِ الْمُتَكَلِّمِ جَوَابٌ آخَرٌ؛ تَنَاظَرَا فِي مَسْأَلَةٍ، فَلَمَّا حَمَى الْوَطِيسَ،  
وَالْتَحَمَتِ الْحَرْبُ قَالَ لِحَسِينِ الْمُتَكَلِّمِ: هَذَا كَلَامٌ مِنْ لَا يَعْرِفُ الْكَلَامَ.

فَقَالَ: أَيُّهَا الصَّاحِبُ! رَفَقًا فَإِنِّي أَعْرِفُ بِحَسِينِ الْمُتَكَلِّمِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ أَشْتَهَرَ بِشَيْءٍ  
لَّا أَكُونُ رَأْسًا فِيهِ.

فَقَالَ: وَمَا فِي هَذَا؟ هَذَا إِبْرَاهِيمُ الْمُسْلِمِ طَيْبُ الْمَارِسْتَانِ يُعْرِفُ بِالْمُسْلِمِ وَهُوَ بَعِيدٌ  
مِمَّا يُعْرِفُ بِهِ، قَرِيبٌ مِمَّا يُقْرَفُ بِهِ.

وَجَرَى لَيْلَةً حَدِيثُ أَبِي سَعِيدِ السِّيرَافِيِّ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّادٍ يَتَعَصَّبُ لَهُ، وَيَقْدِّمُهُ عَلَيَّ  
أَهْلَ زَمَانِهِ، وَيَزْعَمُ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَهُ، وَأَبَانَ عَنِ نَفْسِهِ فِيهِ، وَصَادَفَ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ طُودَ  
حِلْمٍ وَبِحَرِّ عِلْمٍ.

فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْمُعَلِّمُ؛ شَيْخٌ يَعْرِفُ بِالْحَسَنِيِّ: إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ فِي شَرْحِ كِتَابِ  
سَبْيُوِيهِ شَيْئًا.

فنظر إليه ابن عباد متنمرًا ولم يقل حرفًا. فعجبنا من ذلك. ثم إنني توصلت ببعض أصحابه حتى سأله عن حلمه عن أبي موسى مع ذبه عن أبي سعيد، فسأله فقال:

والله لقد مَلَكني الغيظ على ذلك الجاهل حتى عَزَبَ عَنِّي رأيي، ولم أجد في الحال شيئًا يشفي غلتي منه، فصار ذلك سببًا لسكوتي عنه، فشابهت الحال الحلم، وما كان ذلك حلمًا، ولكن طلبًا لنوع من الاستخفاف لائق به. فوالله ما يدري ذلك الكلب ولا أحد ممن خرج من قريته ورقةً من ذلك الكتاب، وهل سبق أحدٌ إلى مثله من أول الكتاب إلى آخره مع كثرة فنونه وخوافي أسراره.

وكان أبو موسى هذا من طبرستان. فعدَّ هذا التعصب من مناقب ابن عباد، وحُجِبَ أبو موسى بعدُ.

وكان ابن عباد يتطلب العِلل للحجاب، ويتعلق بالريح، وكان له تلذذ به، وقد حكيت ذلك آنفًا.

وما سمعت في تلافِي المحجوب كلامًا أَلطف من كلام حدثني به الخوارزمي عن السَّلامي صاحب تاريخ خراسان؛ قال السَّلامي: عاتبت أبا الفضل البلعمي وزير عبد الملك بن نوح بأبيات عَلى حِجاب نالني منه، فقال لي: لك عندنا - بما استعبتت - العُتبي<sup>(١)</sup>، وعَلى ما استعديت<sup>(٢)</sup> العَدوى. أما نهارنا فمقسوم بين حوائج الناس وإنما نفرغ بالليل للاستئناس بوجوه الأولياء والخواص، فاحضُر بالنَّهار مباسطًا ومخالطًا، وبالليل مؤانسًا ومجالسًا.

وكان ابن عباد ضدَّ هذا، لأنَّه كان يُشْتكى إليه فيقول: الشكوى إليَّ من الحجاب إغراء، والصبرُ عليه يعطِفتني إلى بعض ما يُلْتَمَس مني.

(١) الاستعتاب: طلبك إلى المسيء الرجوع عن إساءته، والعُتبي: الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضي العاتب.

(٢) استعداه على خصومه: استعانته، استنصره، واستعداه: استعانته واستنصره. والعَدوى: النُّصرة والمعونة.

وسمعته يقول: لله عندي أيادٍ متضاعفة، ونِعْمٌ مُتكَاثِفَةٌ<sup>(١)</sup>، ومن أَجَلَّهَا أَنَّهُ لَمْ يَغْمَسْنِي فِي مَذَاهِبِ الْإِمَامِيَّةِ<sup>(٢)</sup>. ومع هذا كَانَ إِذَا عَمِلَ قَصِيدَةً فِي أَهْلِ الْبَيْتِ غَلَا وَتَجَاوَزَ، وَغَضَّ مِنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ، وَادَّعَى عَلَى الشَّيْخِينَ الْبُهْتَانَ، وَعَرَّضَ وَصَرَاحًا. وهذا من فَعَلَاتِهِ الذَّمِيمَةِ، وَجَهَالَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ.

وَأَنْشَدَ ثَعْلَبٌ فِي الْحِجَابِ أَيْبَاتًا وَقَالَ: مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهَا. هَكَذَا سَمِعْنَاهُ فِيمَا قَرَأَ عَلَى ابْنِ مِقْسَمٍ الْعَطَّارِ النَّحْوِيِّ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةَ وَهِيَ:

إِذَا اعْتَصَمَ الْوَالِي بِإِغْلَاقِ بَابِهِ وَرَدَّ ذَوِي الْحَاجَاتِ ضَيْقُ حِجَابِهِ  
ظَنَنْتُ بِهِ إِحْدَى ثَلَاثٍ وَرَبْمَا نَزَعْتَ بظنِّ واقِعٍ بِصُوبِهِ  
فَقُلْتُ بِهِ مَسٌّ مِنَ الْعِيِّ حَاضِرٌ وَفِي إِذْنِهِ لِلنَّاسِ إِظْهَارٌ مَا بِهِ  
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِيَّ اللَّسَانَ فَعَارِضٌ مِنَ الْبُخْلِ يَحْمِي مَالَهُ عَنِ طَلَابِهِ  
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَذَلِكَ فَرِيئَةً يُصِرُّ عَلَيْهَا عِنْدَ إِغْلَاقِ بَابِهِ

وَحَدَّثَنِي الْمَرْزُبَانِيُّ قَالَ: لَقَدْ أَجَادَ الْبَصِيرُ فِي قَوْلِهِ:

رُبَّ فِتْيٍ تُحَمَّدُ أَخْلَاقَهُ وَتَسْكُنُ الْأَحْرَارُ فِي ذِمَّتِهِ  
قَدْ كَثُرَ الْحَاجِبُ أَعْدَاءَهُ وَسَلَّطَ الدَّمَّ عَلَى نَعْمَتِهِ

وَمِنْ طَرِيفٍ مِنْ حَدِيثِنَا بِهِ ابْنُ عَبَّادٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَلَاقَتْ فِيهِ الْعَسَاكِرُ بِقَصْرِ الْجِصِّ<sup>(٣)</sup>، قَالَ: كُنْتُ فِي مَقِيلِي فَأَتَانِي آتٍ قَالَ:

اسْقِنِي قَهْوَةً<sup>(٤)</sup> بَفَرْطٍ اخْتِيَارِي خَرَجَ الْمُلْكُ عَنِ يَدِي بِخِتَارِ

وَأَمَّا أَبُو الْفَتْحِ ذُو الْكِفَايَتَيْنِ فَإِنَّهُ كَانَ شَابًّا ذَكِيًّا مَتَحَرِّكًا<sup>(٥)</sup>، حَسَنَ الشَّعْرِ، مَلِيحَ

(١) مُتكَاثِفَةٌ: كَثِيرَةٌ.

(٢) يَقْصِدُ هُنَا الشَّيْعَةَ عَامَةً.

(٣) قَصْرُ الْجِصِّ: قَصْرٌ عَظِيمٌ قَرِبَ سَامِرَا فَوْقَ الْهَارُونِيِّ، بَنَاهُ الْمَعْتَصِمُ لِلنَّزْهَةِ، وَعِنْدَهُ قُتِلَ بِخِتَارِ بْنِ مَعزِ الدَّوْلَةِ ابْنُ بُوَيْهٍ، قَتَلَهُ عَضُدُ الدَّوْلَةِ ابْنُ عَمِهِ. مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ: ٣٥٧/٤.

(٤) الْقَهْوَةُ يَقْصِدُ بِهَا هُنَا الْخَمْرَ.

(٥) مَتَحَرِّكًا: خَفِيفًا ذَكِيًّا.

الكتابة، كثير المحاسن، ولم يظهر منه كل ما كان في قوته لِقَصْرِ أَيامه، واشتعال دولته وطفوها بسرعة.

ومن شعره:

إِنِّي مَتَى أَهَزَزَ قَنَانِي تَنَشَّرَ أَوْصَالُهَا أُنْبُوبَةً أُنْبُوبًا  
أَدْعُو بِعَالِيهَا الْعُلَا فُتْجِيئِي وَأَقِي بَحْدَ سَنَانِهَا الْمَرْهُوبَا

ومن شعره:

نَهَضْتُ تَنَنِّي فِي الْكَوَاعِبِ كَالْبَدْرِ هَادَتْهُ الْكَوَاكِبُ  
فَتَبَرَّجْتُ سُدْفَ الدُّجَى وَتَبَلَّجْتُ ظُلَمَ الْغِيَاهِبِ  
لِلَّهِ أَنْتَ وَهَنَّ إِذَا يَخْتَلُنُ مِنْ كَرَمِ صَوَاحِبِ  
مُتَالُفَاتٍ كَاللَّا لِي ضَمَّهَا عِقْدُ التَّرَائِبِ  
إِنِّي أَعْيَذُكَ أَنْ تَرُدِّي مُقْلَتِي بِمُنَى كَوَاذِبِ  
وَتَسْوُدِي وَجَهَ الرَّجَا ءِ وَتُغْلِقِي فَتَحَ الْمَذَاهِبِ  
أَوْ مَا تَرِينَ مَدَامِعِي سَحًّا سَحَابِئِهَا سَوَاكِبِ  
جَادَتْ دِيَارَكَ أَيْنَ كَا نَتْ مِثْلَهَا دِرُّرُ السَّحَابِ<sup>(١)</sup>  
مَوْصُولَةَ الْأَكْنَافِ حَيْ ث الْوَدْقِ صَابِئَةَ الْمَسَارِبِ<sup>(٢)</sup>  
مَحْلُولَةَ الْأَرْمَاقِ فَضْ مَاءَ الْعَرَى وَطَفَّ الْهَيَادِبِ<sup>(٣)</sup>  
وَعَدَّتْكَ دَاهِيَةَ اللَّيَا لِي وَالْحَوَادِثُ وَالنَّوَائِبِ  
لَا زِلْنِ مِنْكَ بِحَيْثُ أَنْ تِ مِنْ الشَّوَائِبِ وَالْمَعَايِبِ  
إِنِّي - إِذَا أُعْزَى إِلَي - كِ - مِنْ الْأَقَارِبِ أَوْ أَقَارِبِ

(١) لِلْسَّحَابِ دِرَّةٌ : صَبٌّ.

(٢) الْأَكْنَافُ: النواحي. صابئة: تصيب. المسارب: المراعي.

(٣) حَبْلٌ أَرْمَاقٌ: ضعيف خلق. فُضْمَاءُ: محلولة. العرى: عروة الدلو والكوز: مقبضه. وَطَفَّ السحابة: تدلَّت ذبولها. الهيدب: السحاب المتدلي الذي يدنو من الأرض ويرى كأنه خيوط عند انصبابه.

لا تَقْطِعي حَبْلَ القَريبِ بِ وَتَكْفُري حَقَّ المُناسِبِ<sup>(١)</sup>  
 فَتُفارِقِي حُلُقَ الكَريبِ مِ وَتَضْرِبِي مِثْلًا لِضارِبِ:  
 «إِنَّ الأَقْرابَ كالعَقا رِبِ بِلِ أَضْرُّ مِنَ العَقارِبِ»  
 لا تَبْخَلي إِنَّ الكَريبِ مةً مِنَ مَواهِبِها مَناهِبِ<sup>(٢)</sup>  
 كُفِّي السِيفَ عَنِ الحُدِّ وَفِ وَإِنْ أَطاعَها المَضارِبِ  
 لا تَرْغَبي عَنِ ماجِدِ سَمِحِ الخِلائِقِ وَالضَّرائِبِ  
 يُعزِي لِأَباءِ غَطا رِفةً وَأَماتِ نَجائِبِ<sup>(٣)</sup>  
 إِنِّي مِنَ النَفَرِ الكَرا مِ السَّادَةِ الشُّمِّ الذوائِبِ  
 يَقْظُ إِذا كَريِّ اللَّنا مٌ عَنِ العُلى كَكَرِي الأَرانِبِ<sup>(٤)</sup>  
 أَسَدٌ إِذا وَنَتِ القُرُومِ مٌ عَنِ الوَعى وَنِي الثَّعالِبِ<sup>(٥)</sup>  
 عَفُّ أَطيلَ ظَميئَتِي حَتَّى أَرى صَفوَ المِشارِبِ  
 وَأذِلُّ نَفْسي فِي الكَريبِ هةً أَوْ أَرى كَرمِ المُناسِبِ  
 وَإِذا تُسِيءُ عِصابَةٌ عَمَّمتُها شَرَّ العِصابِ  
 كَمِ مِنَ عَدُوٍّ كاشِحِ يَرنُو إِلَيَّ بِطَرفِ عاتِبِ  
 يُبْدي لِنا وَجَهَ المَشا جِرِ دُونَهُ صَدْرُ المَحارِبِ<sup>(٦)</sup>  
 مُتَقَلِّصِ الأَحْشاءِ مِنَ حَسَدِ دُؤِينِ الصَّدْرِ راتِبِ  
 لَوْ شِئْتُ أَحْرَقَ أَهْلَهُ مِنَ نَهْضَتِي نارُ الحُبابِ<sup>(٧)</sup>

(١) المُناسِبِ: المِشاركِ فِي النَسبِ.

(٢) مَناهِبِ: جَمعُ مَنهَبٍ، وَهُوَ ما يَنْتَهَبُ مِنَ الغَنيمَةِ أَوْ الهِديَةِ.

(٣) أَماتِ: أَمهاتِ.

(٤) كَريِّ: نَامِ.

(٥) وَنِي: ضَعْفِ.

(٦) المَشا جِرِ: المَنازِعِ.

(٧) نارُ الحُبابِ: ما تَطايِرُ مِنَ شَرِّ النَّارِ فِي الهِواءِ مِنَ تَصادِمِ الحِجارَةِ أَوْ نَحوِ ذلِكَ.

سَلَّمْتُهُ لِيَدِ الْحَوَا دِثِ وَالْأُمُورِ إِلَى عَوَاقِبِ  
 إِنْ لَمْ تَكُنْ فَوْقَ الْأَكْفِ يَدِي فَكَانَتْ لِلْمُعَالِبِ  
 أَوْ لَمْ تَكُنْ فَوْقَ الدُّرَى قَدَمِي فَأَعْيَتْهَا الْمَذَاهِبِ

وله كلام كثير ونظم ونثر. وله في وصف الفرس ما يُوفي على كل منظوم، ولو أبتفته الأيام لظهر منه فضل كبير.

ودخل بغداد فتكلف واحتفل، وعقد مجالس مختلفة، للفقهاء يوماً، وللأدباء يوماً، وللمتكلمين يوماً، وللمتفلسين يوماً، وفرق أموالاً خطيرة، وتفقد أبا سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرّماني وغيرهما، وعرض عليهما المصير معه إلى الرّي، ووعدهم ومناهم، وأظهر المباهاة منهم، وكذلك خاطب أبا الحسن الأنصاري ابن كعب، وأبا سليمان السجستاني المنطقي، وابن البقال الشاعر، وابن الأعرج النّمري وغيرهم.

ودخل شهر رمضان فاحتشد وبالغ، ووصل ووهب، وجرت في هذه المجالس غرائب العلم وبدائع الحكمة؛ وخاصة ما جرى للمتفلسين مع أبي الحسن العامري. ولولا طول الرسالة لرسمت ذلك كله في هذا المكان.

فمن طريف ما جرى، وفي سماعه فائدة واعتبار: ما أحكيه لك ها هنا.

انعقد المجلس في جمادى الآخرة سنة أربع وستين وثلاثمائة، وغص بأهله، فرأيت العامري، وقد انتدب فسأل أبا سعيد السيرافي فقال:

ما طبيعة الباء من «بسم الله الرحمن الرحيم»؟

فعجب الناس من هذه المطالبة، ونزل بأبي سعيد ما كاد يُشده به، فأنطقه الله بالسحر الحلال.

وذلك أنه قال: ما أحسن ما أدبنا به بعض الموقفين من المتقدمين! فإنه قال:

وَإِذَا خَطَبْتَ عَلَى الرَّجَالِ فَلَا تَكُنْ خَطِلَ الْكَلَامِ تَقُولُهُ مَخْتَالًا

واعلم بأنَّ من السكوت لبابَةٌ ومن التكلُّف ما يكون مُحالًا  
والله يا شيخَ لعينك أكبرُ من قرارك<sup>(١)</sup>، ولمرآك أوفى من دخلتك، ولمنشورك أبينُ  
من مطويك؛ فما هذا الذي طوّعت له نفسك، وسدّد عليه رأيك. إني أظنُّ السّلامةَ  
بالسُّكوت تعافك، والغنيمة بالقول ترعّب عنك. والله المستعان.

فقال ابن العميد، وقد أعجبَ بما قال أبو سعيد:

فتى كان يعلمو مفرقَ الحقِّ قوله إذا الخطباءُ الصّيدُ غصّك قيلها<sup>(٢)</sup>  
جَهيرٌ وممتدُّ العنانُ مُناقِلٌ بصيرٌ بعَوّراتِ الكلامِ خبيرُها  
وقال:

والقائلُ القولَ الرّفيعَ الذي يمرُّ منه البلدُ الماحلُ<sup>(٣)</sup>  
ثم التفت إلى العامريّ وأنشد:

وإن لسانًا لم تُعنه لبابَةٌ كحاطبٍ ليلٍ يجمع الرّدلَ حاطبه<sup>(٤)</sup>

\*\*\*

وذي حَطلٍ في القولِ يحسبُ أنه مُصيبٌ فما يلممُ به فهو قائله<sup>(٥)</sup>

\*\*\*

وفي الصّمتِ سترٌ للعيِّ وإِنما صحيفَةُ لبِّ المرءِ أن يتكلّمَا

\*\*\*

وفي الصّمتِ سترٌ وهو أبهى بذي الحِجبا إذا لم يكن للنطق وجهٌ ومذهبُ  
هاتوا حديثًا آخرَ فقد يَسِننا من هذا، ثم أقبل على ابن فارس معلّمه، فقال: يَسِننا من

(١) لعينك أكبرُ من قرارك: لمنظرِكَ أكبر من مخبرِكَ.

(٢) الصّيدُ: جمع أصيد، وهو الرافع رأسه زهوًا وتفاحرًا.

(٣) يمرُّ: يخصب بكثرة العُشب.

(٤) الرّدل: الرديء من كل شيء.

(٥) الحَطل: كثرة الكلام وخطؤه. فما يلمم به: أي ما حضره من شيء فهو قائله.

كلام أصحابك في الفُرْضة والشُّط.

فلما خرَجْنَا قَلْتُ لِأَبِي سَعِيدِ السِّرَافِيِّ: أَيُّهَا الشَّيْخُ! رَأَيْتَ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ  
الْحَاطِرِ عِنْدَنَا، الْكَبِيرِ فِي أَنْفُسِنَا؟

فَقَالَ: مَا دُهِيتَ قَطُّ بِمِثْلِ مَا دُهِيتُ بِهِ الْيَوْمَ، وَلَقَدْ جَرَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي بَشْرٍ مَتَّى (١)  
صَاحِبِ شَرْحِ كِتَابِ الْمَنْطِقِ سَنَةَ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةَ فِي مَجْلِسِ أَبِي الْفَتْحِ الْفَضْلِ  
ابْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْفُرَاتِ مَلْحَةً كَانَتْ هَذِهِ أَشْوَسَ وَأَشْرَسَ مِنْهَا.

وَلَوْلَا هَرَبِي مِنَ الْإِطَالَةِ، وَثِقَلِ النَّسْخِ، وَإِدْخَالِي حَدِيثًا فِي حَدِيثٍ، لِحَكَايَةِ  
الْمُنَازَعَةِ الَّتِي أُوْمِي إِلَيْهَا هَذَا الشَّيْخُ الَّذِي كَانَ إِمَامَ زَمَانِهِ وَعَالَمِ عَصْرِهِ، لِأَنَّهُ حَدَّثَنِي  
بِهَا بَزُورِبَهَا (٢)، وَكَانَتْ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ النُّحُوِّ وَالْمَنْطِقِ وَرَيْمٍ (٣) أَحَدَهُمَا عَلَيَّ الْآخَرَ،  
وَإِحْصَاءِ الْفَوَائِدِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا.

وَحَضَرْتُ الْمَجْلِسَ يَوْمًا آخَرَ مَعَ أَبِي سَعِيدٍ وَقَدْ غَصَّ بِأَعْلَامِ الدُّنْيَا، وَبُنُودِ الْآفَاقِ،  
فَجَرَى حَدِيثَ أَبِي إِسْحَاقِ الصَّابِيِّ، فَقَالَ ذُو الْكِفَايَتَيْنِ:

ذَاكَ رَجُلٌ لَهُ فِي كُلِّ طِرَازٍ نَسْجٌ، وَفِي كُلِّ فِضَاءٍ رَهْجٌ، وَفِي كُلِّ فَلَائَةٍ رَكْبٌ، وَفِي كُلِّ  
عِمَامَةٍ سَكْبٌ؛ الْكِتَابَةُ تَدْعِيهِ بِأَكْثَرِ مِمَّا يَدْعِيهَا، وَالْبَلَاغَةُ تَحْلِي بِهِ بِأَكْثَرِ مِمَّا يَتَحَلَّى هُوَ  
بِهَا. وَمَا أَحْلَى قَوْلَهُ:

حَمْرَاءُ مُصْفَرَّةُ الْأَحْشَاءِ بَاعِثَةٌ طَيِّبًا تَخَالُ بِهِ فِي الْبَيْتِ عَطَارًا  
كَأَنَّ فِي وَسْطِهَا تَبْرًا يُخْلَصُهُ قَيْنٌ يُضَرِّمُ فِي أَوْرَاقِهِ النَّارَ

وقوله:

(١) مَتَّى بن يونس القنائي، أبو بشر، نصراني نسطوري عاش في بغداد في زمن الخليفة الراضي بالله، وهو من أهل دير قنأ الذي يبعد ستة عشر فرسخًا عن بغداد. انتهت إليه رئاسة المنطق في عصره، توفي ٣٢٨ هـ.

(٢) بزوربها: بجمعها. أخذها بزوربها: بأجمعها.

(٣) الرِّيم: الزيادة.

ما زلتُ في سُكْرِي أَلْمَعُ كَفَّهَا وَذِرَاعِهَا بِالْقَرْصِ وَالْإِنَارِ  
 حتى تركتُ أديمها وكأنما غُرَزَ البَنْفُسُجُ منه في الجُمَارِ  
 وبلغ المجلسُ أبا إسحاق فحضر وشكر، وطوى ونشر، وأورد وأصدر، وكان  
 كاتبَ زمانه لساناً وقلماً وشمائل، وكان له مع ذلك يدٌ طويلة في العلمِ الرياضي.  
 وسمعت أبا إسحاق يقول: هو ابن أبيه، لله درّه! ثم أخذ في تعظيم أبيه، وقال:  
 وكان من أمانِي الكُبرِ لقاءه، وإني لكثير الإعجاب بكلامه، لأنني أجد فيه من العقل  
 أكثر مما أجد فيه من اللفظ، وإني لأظن أن عقل كلِّ أحدٍ كان ممزوجاً وكان عقله  
 قُرَاحًا.

قال: ولقد قرأتُ له فصلاً من كتابٍ له إلى أبي عبد الله المكي العلوي نديم عضد  
 الدولة يستحق أن يكتب بالذهب، وهو: ولأن تدعى من بعيدٍ مرّاتٍ خيرٍ من أن تُقصَى  
 من قريبٍ مرة، وليكن كلامك جواباً تتحرّزُ فيه، ولا تُعجبن بتأتي كلمةٍ محمودَةٍ  
 فيلجّ بك الإطنابُ توقُّعاً لمثلها؛ فربما عثرت بما يهدم ما بنته الأولى، ثم لا تسلّم من  
 تمثّل صاحبك بقولهم: «رَبِّ رمية من غيرِ رامٍ»<sup>(١)</sup>، وبضاعتك في الشر قليلة مُزجاةً،  
 وبالعقل يُزَمُّ اللسان ويلزَم السداد.

فلا تستفِرّنك طرْبَةُ الكريمِ على ما يُفِيئتك عقلك.

والشفاعة لا تعرضنّ لها، فإنها مُخلِقةٌ للجاه؛ وإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها  
 حتى تعرف وقتها، وتحصل وزنها؛ فيتقدّمك من يتكلّم فيها، فإن وجدت النفس  
 بالإجابة سَمحة، وإلى الإسعاف هَشّة، فأظهر ما في نفسك غير محقّق ولا مُوهِم أن في  
 الردِّ عليك ما يوحشك، وفي المنع ما يقبضك. وليكن انطلاقٌ وجهك إذا دُفعت عن  
 حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك، ليخفّ كلامك ولا يثقل على مُستمعه منك.

(١) ورد في معجم الأمثال للميداني ومعناه: رب رمية مصيبة حصلت من رام مخطيء، لا أن تكون رمية من غير رام، فإن هذا لا يكون قط.

أَنَا أَقُولُ مَا أَقُولُ غَيْرَ وَاِعْظُ وَلَا مُرْشِدٌ؛ فَقَدْ كَمَّلَ اللَّهُ خِصَالَكَ، وَحَسَّنَ خِلَالَكَ إِذْ فَضَّلَكَ فِي كُلِّ حَالِكَ، وَلَكِنِّي أُنَبِّئُ تَنْبِيَهُ الْمَشَارِكِ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِلذُّكْرِى مَوْقِعًا وَنَفْعًا. قُلْتَ لَهُ: وَقَدْ اسْتَحْسَنْتَ لَهُ حَسَنًا، وَلَهُ أَبْلَغُ مِنْهُ.

فَقَالَ: كَذَاكَ هُوَ.

قُلْتَ: فَإِنَّهُ مَعَ هَذَا قَدْ أَخْطَأَ فِي الْعَرَبِيَّةِ فِي مَوْضِعٍ، فَدَلَّلْتَهُ عَلَيْهِ.

فَقَالَ: لِلَّهِ أَبُوكَ.

وَلَمْ أَذْكَرِ الْمَوْضِعَ - أَيَّدِكَ اللَّهُ بِالْعِلْمِ - لِتَكُونَ أَنْتَ قَارِئَهُ، أَعْنِي أَنَّكَ تَقْرَأُ حَرْفًا حَرْفًا حَتَّى تُصَيِّبَهُ، فَلَيْسَ الْخَطَأُ الْمُسْتَدْرَكُ بِالتَّبَعِ كَالْمَعْتُورِ عَلَيْهِ بِالْهُجُومِ.

وَكَانَ ابْنُ عَبَادٍ يَرُوي لِأَبِي الْفَضْلِ كَلَامًا فِي رُقْعَةٍ إِلَيْهِ حِينَ اسْتَكْتَبَهُ لُبُوبِهِ، وَهُوَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَوْلَايَ وَإِنْ كَانَ سَيِّدًا بَهَرْتَنَا نَفَاسَتُهُ، وَابْنُ صَاحِبٍ تَقَدَّمَتْ عَلَيْنَا رِيَاسَتُهُ، فَإِنَّهُ يَعُدُّنِي سِنْدًا وَوَالِدًا كَمَا أَعُدُّهُ وَلَدًا وَوَاحِدًا، وَمَنْ حَقَّ هَذَا أَنْ يَعْضِدَ رَأْيِي رَأْيَهُ حَتَّى يَزِدَادَ إِحْكَامًا وَانْتِظَامًا، وَيَتَظَاهِرَ قُوَّةً وَإِبْرَامًا.

وَحَضَرْتُ الْيَوْمَ الْمَجْلِسَ الْمَعْمُورَ، فَكَانَ مِنْ مَوْلَانَا كَلَامٌ كَثِيرٌ، وَخَطَابٌ طَوِيلٌ، فَقُلْتُ إِنَّهُ لَمْ يَزِدْ عَلَى الْإِبَاءِ وَالِاسْتِعْفَاءِ، بَعْدَ التَّقْصِي وَالِاسْتِيفَاءِ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ إِجْبَارًا كَالْمَسْأَلَةِ، وَإِكْرَاهٍ كَالطَّلْبَةِ. وَأَقُولُ بَعْدَ أَنْ أَقْدِمُ مُقَدِّمَةً:

إِنَّ مَوْلَايَ - وَإِنْ كَانَ يَسْتَعْنِي عَنْ هَذَا الْعَمَلِ بِتَصَوُّنِهِ وَتَقَلُّلِهِ وَعُزُوفِ نَفْسِهِ عَنِ التَّكْثُرِ بِالْمَالِ وَتَحْصِيلِهِ - فَإِنَّ الْأَمْرَ مُفْتَقِرٌ إِلَى كِفَالَتِهِ، وَمُحْتَاجٌ إِلَى كِفَايَتِهِ. وَمَا أَقُولُ مَا أَقُولُهُ وَغَرَضِي إِِنْشَاءَ كِتَابٍ، أَوْ عَقْدَ حِسَابٍ، أَوْ تَفْرِيقَ مَالٍ وَجَمْعَ، أَوْ تَقْدِيمَ عَطَاءٍ أَوْ مَنَعٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مَقْصُودًا، وَفِي آلَاتِ الْوِزَارَةِ مَعْدُودًا، فَإِنَّ فِي كِتَابِهِ مَنْ يَبْقَى بِهِ وَيَسْتَوْفِيهِ، وَيُوفِي عَلَيْهِ بِأَيْسَرِ مَسَاعِيهِ، لَكِنْ مَوْلَانَا يُرِيدُهُ لِتَهْذِيبِ مَنْ هُوَ وَلِيُّ عَهْدِهِ، وَمَنْ يَرْجُوهُ لِيَوْمِهِ وَغَدِهِ، وَلَا بَدَّ - وَإِنْ كَانَ السُّنْخُ قَوِيمًا، وَالْمَحْتَدُّ كَرِيمًا، وَالْفَضْلُ

عَمِيمًا، والمَجْدُ صَمِيمًا، ومَرَكَبُ الْعَقْلِ سَلِيمًا - من مَنَابٍ مَن يَعْرِفُ مَا السِّيَاسَةُ، وكيف الرِّيَاسَةُ، وكيف تَدْبِيرُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْ أَيْنَ تُجْتَلَبُ الْأَصَالَةُ وَالْإِصَابَةُ، وبِمَاذَا تُعْقَدُ الْمَهَابَةُ، وكيف تُرْتَبُ الْمَرَاتِبُ وتُعَالَجُ الخُطْبُ، وكيف تَرَدُّ الخُطُوبُ إِذَا ضَاقَتِ الْمَذَاهِبُ، وتُعْصَى الشَّهْوَةُ لِتُحْرَسَ الْحِشْمَةُ، وتُهَجَّرُ اللَّذَّةُ لِتُحَصَّنَ الْإِمْرَةُ.

وَلَا غِنَى عَمَّنْ يَقُومُ فِي وَجْهِ صَاحِبِهِ فَيَرَادُهُ إِذَا بَدَرَ مِنْهُ الرَّأْيُ الْمُنْقَلَبُ، وَيَرَاغِبُهُ إِذَا جَمَعَ بِهِ اللَّجَاجَ الْمَرْتَكِبَ، وَيُعَارِضُهُ إِذَا أَلَحَّ عَلَيْهِ الْعُضْبُ الْمَلْتَهَبُ؛ فَمَا السَّبَبُ فِي أَنَّ هَلَكْتَ مَمَالِكُ جَمَّةٍ، وَبُلْدَانُ عِدَّةٍ، إِلَّا بِأَنَّ خَفِضْتَ أَقْدَارَ الْوِزَارَةِ وَانْقَبَضَتْ أَطْرَافُ الْإِمَارَةِ. وَلَيْسَ يَفْسُدُ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا - عَلَى مَا أَرَى - إِلَّا بِالرَّجُوعِ فِي مِثْلِ هَذَا إِلَى الْأَذْنَابِ.

فَلَا يَبْخَلَنَّ مَوْلَايَ بِنَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الدَّوْلَةِ، فَمِنْهَا جَرَى مَاءٌ فَضْلِهِ وَفَضْلُ الْأَمِينِ مِنْ قَبْلِهِ، فَإِنْ كَانَ مَسْمُوعًا كَلَامِي، وَمَوْثُوقًا بِهَاطَمِي فَلَا يَقَعَنَّ انْقِبَاضٌ عَنِّي، وَلَا إِعْرَاضٌ عَمَّا سَبَقَ مِنِّي. وَمَوْلَايَ مُحَكِّمٌ بَعْدَ الْإِجَابَةِ إِلَى الْعَمَلِ فِيمَا يَشْتَرِطُهُ، وَغَيْرُ مُرَاجِعٍ فِيمَا يَقْتَرِحُهُ، وَهَذَا خَطِي بِهِ، وَهُوَ عَلَى وَلِيِّ النِّعْمَةِ حِجَّةٌ لَا تَبْقَى مَعَهَا شَبْهَةٌ. وَسَأَتَّبِعُ هَذِهِ الْمَخَاطَبَةَ بِالْمَشَافَهَةِ إِذَا بِحَضُورِي لَدَيْهِ، أَوْ بِتَجَشُّمِهِ إِلَى هَذَا الْعَلِيلِ الَّذِي قَدْ أَلَحَّ النِّقْرُسُ عَلَيْهِ، وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ ابْنُ عَبَّادٍ يَحْفَظُ هَذِهِ النُّسْخَةَ وَيَرُويهَا وَيَفْتَخِرُ بِهَا. وَقَالَ لِي أَصْحَابُنَا بِالرَّيِّ، مِنْهُمْ أَبُو غَالِبِ الْكَاتِبِ الْأَعْرَجُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَخَاطَبَةَ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّادٍ افْتَعَلَهَا عَنْ ابْنِ الْعَمِيدِ إِلَى نَفْسِهِ تَشْيِيعًا بِهَا، وَنَفَاقًا بِذِكْرِهَا.

وَحَدَّثَنِي ابْنُ خَارِجَةَ قَالَ: كَانَ حَمْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو الْفَرَجِ الْكَاتِبُ مَكِينًا عِنْدَ رُكْنِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ أَبُو الْفَضْلِ لَا يُؤْفِيهِ حَقَّهُ، وَلَا يَحْسَبُ لَهُ تِلْكَ الْمَكَانَةَ، فَعَاتَبَهُ حَمْدٌ مَرَارًا مُصْرِحًا وَكَانِيًا، ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ رَقْعَةً طَوَّاهَا عَلَى آيَاتٍ، وَهِيَ:

مَالِكٌ مَوْفُورٌ فَمَا بِالْهَ أَكْسَبَكَ التِّيَّةَ عَلَى الْمُعْدِمِ

ولم إذا جئت نهضنا وإن جئنا تطاولت ولم تُتمم  
 وإن خَرَجنا لم نُقل مثلما نقول «قدم طرفه قدم»  
 إن كنت ذا علم فَمَن ذا الذي مثل الذي تعلم لم يعلم  
 أو كنت في الغارب من دولة فليست من دونك في المنسم<sup>(١)</sup>  
 وقد ولينا وعزلنا كما أنت فلم نصغر ولم نعظم  
 تكافأت أحوالنا كلها فصل على الإنصاف أو فاضرم  
 قلت لابن خازجة: أترى الأبيات لحمد؟

قال: نعم.

قلت: أفعاد له إلى محبوبه؟

قال: كان حرّونا، إذا أبي لا تأتي له، وإذا جمح لا حيلة فيه «أكسب» في البيت  
 الأول مردود، غير أن ابن الأعرابي أجازَه.

تصفح أيديك الله هذه الفِقر، واعرف تعبي بها وإفادتي منها واشتفائي<sup>(٢)</sup> بذكرها،  
 والسلام.

فأما أبو محمد بن أبي الثياب، وهو عبد الرزاق بن الحسين البغدادي، فإنه كان ذا  
 فضلٍ واسع، وشعر بارع، وعلم بكل شيء؛ كالمنطق وغريب اللغة.  
 وله رسالة من خراسان، لما استقرت به الدار ببخارى، كتبها إلى أبي الفضل، ولا  
 بأس بسردها ها هنا لتعلم أن الحر إذا ذاق الهوان ممن يستحق الكرامة عليه، شقَّ جيئه  
 مُستعَبًا<sup>(٣)</sup>، وأدرك طائلته مكافحًا ومُنِيًّا<sup>(٤)</sup>.

(١) الغارب من البعير: ما بين السنام والعنق، وهو الذي يُلقى عليه خطام البعير إذا أرسل ليرعى حيث شاء.  
 والمنسِم: طرف حُف البعير والنعامة والفيل ونحوها أو هو للإبل كالظفر للإنسان.

(٢) اشتفائي: انتفاعي.

(٣) استعَب المسيء: استرضاه، وطلب الرجوع عن إساءته.

(٤) مُنِيًّا: مؤثرا فيه بناه، يقال تيب السهم: أي عجم عوده، وأثر فيه بناه.

كتب:

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الرجل الذي اختار لنفسه الوصف بالرياسة، فطالب الصغار والكبار بها في المكاتبة والمخاطبة! ما يسرني حُسن ما أنت فيه بقبح ما أنت عليه، ولا يُعجبني ظاهر ما تدعيه بباطن ما تنقُضه به. ألزم فناءك هذه السنين على مفاصة كبرك وتجدد بنانك، وقلة التائل منك. مع تسيير فنون القريض فيك، ونثر أصناف البديع عليك، ومع التضاؤل لك، وإرافة ماء الوجه بين يديك، والصبر على مللك وصلفك، وتلون أخلاقك، ومع فتحك عليك أبواب المنطق، وهدايتي إياك إلى ضروب ما اقتبسته من أهل المغرب والمشرق؛ ثم يكون آخر أمرك في نظرك لي وإحسانك إلي أن تقرنني بغلام غر جاهل، ونكد عارم، يزيد عليك في البخل، وينقص عنك في الحلم، وتكلفني الصبر معه، والرضا بالخسف منه؟

ومن ذا الذي علم أن رزق الله منتاب منتاب وغاد، والمن فيهِ من سائق وحاد، غمس نفسه في حياض الذل، وفارق حسن التوكل على الله الذي بيده ملكوت كل شيء؟ والله ما اتخذت الليل جملاً هارباً من صقعك، زاهداً في ضررك ونفعك، إلا لقولك في انتشائك لأصحابك: «ابن أبي الثياب لازق ببابنا لزوق اللحم بالعظم، وجار معنا جري الدم في اللحم. ولو طردناه ما برح، ولو فاز بغيرنا ما فرح؛ وأين يجد جناباً أمرع من جنابنا، وفناء أخصب من فئاننا؟

أغرركم أنه يتلوى علينا وينحني لدينا؟ ذاك كله ريح، وهو يلبث في اللوح، إن يوجه إلى خراسان فما بها من ينقع ظمأته، وإن عاد إلى بغداد، فهي التي عرفها وعرفته، وإن تناول إلى الشام ومصر، فما بها من يجتلي غرته أو يقبس حكمته، أو يصبر على جشعه الفاضح وسؤاله المُلح».

فها أنا قد شَخَصْتُ إِلَى المَشْرِقِ، وَحَظَيْتِ عِنْدَ مَلِكِهِ، وَوَلَيْتِ البَرِيدَ لَهُ، وَغَلَبْتُ عَلَى مَجْلِسِهِ بِالمُؤَانَسَةِ، وَحَوْلِي الغَاشِيَةُ وَالصَّفَفُ، بَعْدَ مَا كُنْتُ أَعَانِيهِ عِنْدَكَ مِنَ الشَّظْفِ وَالجَعْفِ<sup>(١)</sup>. وَمَا كَانَ كَلَامُكَ ذَاكَ لِي إِلَّا إِغْرَاءً لِي بِطَلْبِ السَّعَادَةِ العَاجِلَةِ وَنِيلِهَا فِي سَهولَةٍ، مَعَ التَّخْلِصِ مِنَ الغَيْظِ الَّذِي كُنْتُ أَجْرَعُهُ عِنْدَكَ صَبَاحَ مَسَاءٍ، وَالكِذْبِ الَّذِي كُنْتُ أُنَمِّقُهُ فِيكَ فِي الجِدِّ وَالهَزْلِ، وَالخِسَاسَةِ الَّتِي كُنْتُ أَسْتُرُهَا عَلَيْكَ فِي الصَّحْوِ وَالسُّكْرِ، وَالتَّلَوُّنِ الَّذِي كُنْتُ أَحْتَمِلُهُ مِنْكَ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا.

هَذَا وَالمَنَالَةُ مِنْكَ دُونَ مَا يُمَسِّكُ الرَّمَقَ، وَالمَبْذُولُ عَلَيْهَا فَوْقَ مَا يَجِبُ لَكَ بِالحَقِّ؛ وَلَوْلَا أَنِّي - مَعَ مَا أَرَدَ مَلَّتَهُ<sup>(٢)</sup> مِنَ العَتَبِ عَلَيْكَ - أَرَجَعُ إِلَى حِفَاظِ لَا تَعْرِفُ مِنْهُ إِلَّا الأَسْمَ، لَكَانَ لِي فِي جِلْدِكَ حَزٌّ وَنَهْسٌ<sup>(٣)</sup>، وَعَلَى عِرْضِكَ جَمَزٌ<sup>(٤)</sup> وَرَقْصٌ.

وَمَا الَّذِي يُرَجِي مِنْكَ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ؟ وَوَلادَتُكَ مَشْهُورَةٌ وَمَنْشُوكٌ ظَاهِرٌ، وَمَبَادِيءُ حَالِكَ فِي ارْتِفَاعِكَ مَحْصَلَةٌ، وَالأَلْسِنَةُ بِحَقَائِقِهَا دَائِرَةٌ، وَالأَسْمَاعُ إِلَى عَجَائِبِهَا صَاغِيَةٌ، وَالقُلُوبُ فِي فِضَائِحِهَا مَتَعَجِّبَةٌ.

وَلَكَ فِي بَرَاءَةِ وَالدِّكِّ مِنْكَ كَافٍ، وَفِي حَدِيثِ وَالدَّتِكِ مَا هُوَ غَيْرُ خَافٍ؛ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى طَلْبِي البُقْيَا أَنِّي اقْتَصَرْتُ فِي مَكَاتِبِكَ عَلَى لَفْظِ مَنثورٍ. وَلَوْ نَظَّمْتُ ذَلِكَ لَكَانَ نَقِيقُكَ مِنْهُ يَجْرَعُكَ مَضْضُ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِيرِكَ مَعِي وَمَعَ نُظْرَائِي فِيمَا تَقَدَّمَ.

فَاذْكَرْ هَذِهِ اليَدَ لِي عِنْدَكَ فِي عَرَضِ مَا تَقْرَؤُهُ مِنْ هَذِهِ الرِّقْعَةِ إِلَيْكَ، وَقَدْ شَفِيتُ بِهَا فَوْادًا كَانَ يَنْلِظِي أَسْفًا عَلَى خِدْمَةِ ضَاعَتِ عِنْدَكَ، وَحُرْمَةِ بَارَتِ لَدَيْكَ. وَلَعَلِّي قَدْ أَطْرُتُكَ<sup>(٥)</sup> عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَلْزِمُ فَنَاءَكَ طَامِعًا فِي خَيْرِكَ، أَوْ يَشْقَى بِمَعْرِفَتِكَ ظَانًّا لِدَرْكِ المَطْلُوبِ

(١) الشَّظْفُ: الشَّدَّةُ وَالمَضِيقُ. الجَعْفُ: القِلَّةُ.

(٢) ملته: حرارته.

(٣) الحز: القطع. النهس: العض.

(٤) الجَمَزُ: الإسراع.

(٥) أَطْرُتُكَ: عطفتك، وأحلتك.

منك، ثم ينقلبُ عنك بقلبٍ أوقد من قلبي عليك، ولسانٍ أذرب من لساني في عرْضك.  
 عليك سلامٌ لا تواصلَ بعده فلا القلب محزون ولا الدمع سافح  
 والله لا حاق الشرُّ إلا بأهله، ولا لصق العارُ إلا بكاسبه، ولا قيل في الخسيسِ  
 التذللُ إلا دونَ ما يستحق، «ذق عُقق»<sup>(١)</sup> فقد فاتك من سَبَق.

أفادني هذه الرسالة أبو جعفر الخطيب النيسابوري، وقال لي: أنا أوصلت الكتاب  
 إلى أبي الفضل مختمًا بعد ما نسخته، قال: وعدت إليه أطلبه بالجواب، فقال لي: قد  
 كتبتُ الجواب قبلك، وكان ذلك تحاجزًا<sup>(٢)</sup> منه، لأنه كان قد انشوى بها حين قرأها.  
 ولقد أنشدني ابنُ أبي الثياب قصيدةً في أبي الفضل، وأنا أرويهما هاهنا لتعلم أنه  
 كان مظلومًا فيها وفي أخواتها، ولتقف على طريقته الحلوّة، ومعانيه السهلة، ولفظه  
 الخلوب؛ وقال لنا: كانت جائزتي عليها، بعد نظائر تقدّمتهَا، جائزة لا أستجيزُ ذكرها،  
 لأنها إن كانت تضع من صاحبها إنها لتضع مني أيضًا. القصيدة:

بَرْحُ اشْتِياقِ وادِّكارِ      ولَهيبِ أنفاسِ حِرارِ  
 ومَدامعِ عَبْرانِها      تَرْفُضُ عن نومِ مُطارِ  
 لله قلبِي ما يُجِـ      نُّ من الهمومِ وما يوارِي  
 لقد انقضى سُكرُ الشِّبا      ب وما انقضى وصَبُّ الخُمَارِ<sup>(٣)</sup>  
 وكَبِرتُ عن وُضلِ الصِّغا      ر وما سلوت عن الصِّغارِ  
 سَقِيًّا لتغليسي إلى      بابِ الرُّصافةِ وابتكارِي  
 أيامِ أخطِرُ في الصِّبا      نشوانَ مَسحوبِ الإزارِ  
 حَجِّي إلى حِجرِ الصِّرا      ة وفي حَدائِقِها اعتماري

(١) ذق عقق: أي ذق عقوبة عقوقك أباك يا عاق. وأصله أن رجلاً كان له ولدٌ يُعقُّه، فولد لولده ولدٌ يعقه، فقال له أبوه ذلك.

(٢) تحاجزًا: مسالمة وتباعداً.

(٣) وصَبُّ الخُمَارِ: الوصب: الوجع، والخُمَار: بقية السُّكر، وما يصيب من ألم الخمر.

ومواطينُ اللذاتِ أو طاني ودارُ الرّومِ داري  
 كم رُضت فيها من نفا ر محرم حلو النّفارِ  
 ورعيت من قُطْرُبُلِ روضِ الشقائق والبهارِ  
 ورفعتُها مسكيةً في ريطتي خرزٍ وقارِ  
 يُعطي النديمُ بزالتها ما شئت من نورٍ ونارِ<sup>(١)</sup>  
 كيف اعتدال مُعدّلٍ صحب العُوة بلا عذارِ<sup>(٢)</sup>  
 يَسْتَنُّ في طُرُقِ الصِّبا وَيَعِثُ في سُبُلِ الخَسارِ<sup>(٣)</sup>  
 فيصيد غزلانَ الكنا سِ وَيَدْرِي بقرِ الصُّوَارِ<sup>(٤)</sup>  
 من كل عطشانِ الوشا ح مميّلٍ شَرِقِ السَّوارِ  
 بيضٌ غريراتُ طُبْعِ ن من الدّلالِ على غرارِ  
 وعقائل تَضْفُو وحاً ف شعورهنّ على المَداري<sup>(٥)</sup>  
 هيفٍ يصلن من الرّوا دف بالزّنانيرِ القِصارِ<sup>(٦)</sup>

\*\*\*

وتعلقي من طاعة الأُسـ تاذبالحُبلِ المُغارِ  
 لقدِ اختلستُ مُنى الثُّفوى سِ من ايضاضٍ واحمرارِ  
 ولحظتُ ما فتر اللوا حظّ من فتور واحورارِ  
 يوم استقلّوا والدّموع تجود روضَ الجُلنارِ

(١) بزَل الخمر: ثقب إناءها بالميزل، وهي الحديدية يفتح بها الدن، وموضع الثقب: البرال.

(٢) المُعدّل: الملوّم.

(٣) اسْتَنَّ الفرسُ ونحوه: جَرَى في نشاطه على سَنِّه في جهةٍ واحدة.

(٤) يَدْرِي: يختل. الصُّوار: موضع بالمدينة.

(٥) شَعْرٌ وَحْفٌ: كَثِيفٌ أَسْوَدٌ.

(٦) هيف: جمع هيفاء، وإمرأة هيفاء: مَنْ دَقَّ خَصْرُهَا وَضَمَرَ بَطْنُهَا. والزّنارُ: حزامٌ يَشُدُّ على الوسط، والجمع

: زنانيرُ.

لَهْفِي عَلَى صُبْحِ الْجِبَا هِ يَشِي بِهِ لَيْلُ الطَّرَارِ (١)  
 وتواضع الخد الأسير ل لعطفة الصُدغِ المُدارِ  
 حُذْفِي هَزَارِكِ يَا غَلَا م فقد غَنِيْتُ عن الهَزَارِ  
 حَسْبِي بِالْحَانَ قَمَزُ تُ بهنَّ تَغْرِيدَ القُمَارِي  
 لم يَبُقَ لي عَيْشٌ يَلدُّ سِوَى مُعَاقِرَةِ العُقَارِ

\*\*\*

وَإِذَا اسْتَهَلَّ ابْنُ العَمِي دِ تضاءلت دِيمَ القِطَارِ  
 خِرْقُ صَفْتِ أَخلاقه صَفْوَ السَّبِيكِ مِنَ النُّضَارِ  
 فَكَأَنَّمَا رُفِدَتْ مَوَا هِبُهُ بِأَمْوَاجِ البَحَارِ  
 وَكَأَنَّ نَشْرَ حَدِيثِهِ نَشْرُ الخِزَامِي وَالعَرَارِ  
 وَكَأَنَّ مَا تَفَرَّقَ رَاحَتَاهُ فِي نِثَارِ  
 مَتَثَبَّتْ يَغْنَى بِمَحْدِ مَوَدِّ الأَنَاءِ عَنِ البِدَارِ  
 كَلِيفُ بَطِيِّ السَّرِّ تَحْدِ سَبِّ صَدْرِهِ لَيْلِ السَّرَارِ  
 يَا أَوْيَ إِلَى حِلْمِ يُعَا ذُ بِهِ وَرَأْيِ مُسْتَشَارِ  
 وَمُرَجَّبٌ يَلْقَى الحِوَا دِثٌ بِاحْتِمَالِ وَاضْطَبَارِ (٢)  
 يَرْبَابِهِ عَزُّ الفَخَارِ عَنِ التَّعَرُّضِ لِلْفَخَارِ  
 وَتَصَوُّنٌ مَسْمَعَهُ المَهَا بَةٌ عَنِ مُمَارَاةِ المُمَارِي  
 وَيَغْوُلُ أَيَسْرُ سَعِيهِ جَهْلَ المُنَافِسِ وَالمُبَارِي  
 كَمِ يَسْتُرِ البَاغِي عُلَا هِ وَمَا لَهْنٌ مِنَ اسْتِتَارِ  
 هِيهَاتَ لَا يَخْفَى عَلَى لِحْظِ العُيُونِ سَنَا النُّهَارِ

(١) الطَّرَار: مفرد الطَّرَّة: ما تَطَّرَه (تقطعه) المرأة من الشَّعْرِ المُوْفِي على جَبْهَتِهَا وتَصَفَّفُه؛ وهي القِصَّةُ.

(٢) مُرَجَّب: مُعْظَم.

قُلْ لِلْمَخْيِبِ وَشَمَكِي ر هَدَمْتَ مَجْدَ بَنِي زِيَارِ (١)  
 خَرَبْتَ دُورَ مُحَمَّدٍ فَأَبَى جِوَارِكَ لِلدِيَارِ  
 وَقَرَيْتَهَا نَارًا فَخَصَّ صَمِيمَ قَلْبِكَ بِالْأَوَارِ  
 جَلَبَ الْجِيَادَ إِلَى قَرَارِ رَكَ فَاجْتَشَّتْ مِنَ الْقَرَارِ  
 زُجَّ النَّسُورِ مِنَ الصَّفَا شُعْتَ الْمَسُوكِ مِنَ الْخَبَارِ (٢)  
 تَرْدِي كَغِزْلَانَ الْفَلَاةِ بِمِثْلِ جَنَّانِ الْقِفَارِ (٣)  
 كَكُوَاسِرِ الْعِقْبَانِ طَرِيقِ نِإِلِكَ بِالْأَسَدِ الضَّوَارِي  
 لَمَاطَلَعْنَ عَلِمْتَ أَنَّكَ مِنْ جُمُوعِكَ فِي اغْتِرَارِ  
 وَفُلِلْتَ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ نِإِلِشَدِّهِ ذَاتِ الْيَسَارِ  
 بِالْخَيْلِ صَانَ صَدُورَهَا فِي التَّبَتِّيِّ مِنَ الصُّدَارِ  
 وَمَغَاوِرُ يُغْزِيهِمْ مَن لَّا يَمَلُّ مِنَ الْغَوَارِ  
 لَيْثُ يَثُورُ فَيَسْتَثِيرُ رَقَسَاطِلِ النَّقْعِ الْمُثَارِ  
 فَكَأَنَّمَا هَبَّ أَوَاتُهَا حَرَقُ مِنَ الْعَيُوقِ هَارِ (٤)  
 فِي وَقْعَةٍ قَسَمْتَ كَمَا تَكُ لِلْمَنِيَّةِ وَالْإِسَارِ  
 وَفَرَرْتَ فَيَمْنُ لَّا يَعُدُّ لِمِثْلِهَا غَيْرَ الْفِرَارِ  
 مَتَسَرِّبًا مِنْ لُؤْمِ فَعَلِكَ خُطَّتِي خِزْيٍ وَعَارِ  
 هَذَا النَّكَايَةِ لَّا النَّكَايَةَ فِي الْبَنِيَّةِ وَالْجِدَارِ

- (١) هو ظهير الدين أبو منصور وشمكير بن زيار الديلمي ثاني الدولة الزيارية، ولي سنة ٣٢٣ هـ حين قتل الأتراك أخاه مرداويج، وكانت بينه وبين ركن الدولة، الذي كان ابن العميد وزيره، حروب متلاحقة من أجل الاستيلاء على بلاد الرِّيِّ وأصبهان والجبل، واستمر النزاع بينهما إلى أن توفي وشمكير سنة ٣٥٧ هـ.
- (٢) النسور: اللحمة الصلبة التي في باطن حافر الفرس، أو باطن الحافر، والجمع نسور. وزج النسور: طرف المحدد. شعث: مغبرة. الصفا: جمع صفاة، وهي العريض من الحجارة، والصخرة الملساء. المسوك: جمع مسك، وهو الجلد. الخبار: الأرض الرخوة اللينة.
- (٣) تردى: ترجم الأرض بحوافرها عند العدو. جنان: جمع جان، وهو الجن أو ضرب من الحيات.
- (٤) الهبوات: جمع الهبوة، وهي ريح تهبُّ بالغبار فيرتفع في الجوِّ. والحرقة: النار أو لهبها. هار: ساقط منقوض.

إِنَّ الْكِبَارَ مِنَ الْأُمُو رُتْنَالِ بِالْهَمِّ الْكِبَارِ

\*\*\*

وإلى أبي الفضل ابتعثتُ هواجسَ الهَمِّ السَّوَارِي  
ولقد تخيرتُ الرجا لَ فما دُفِعتَ عن الخِيارِ  
حتى سكنتُ ظلاله بعد ابتلاءٍ واختبارِ

\*\*\*

يَعْدُو عَلَى حُرِّ الْبَلَا دِ غُدُوٌّ مَطْلُوبٌ بِثَارِ  
فَتُذِيْلُهُ فَتَكَاتُهُ وَتُذِيْقُهُ طَعْمَ الصَّغَارِ

\*\*\*

فَتَرَاهُ فِي الْعُسْرِ الْمُضِرِّ يَجُودُ جُودَ أُولِي الْيَسَارِ  
مَتَهَلَّلًا لِلزَّائِرِ نَ مَرْحَبًا بِالْمُسْتَزَارِ  
إِنِّي اعْتَصَمْتُ بِئِمْنِهِ فَوُقِيتَ أَسْبَابُ الْعَثَارِ  
يَا مَنْ لَهُ طَيْبُ الْأُرُو مَ وَمَنْ لَهُ طَيْبُ التُّجَارِ (١)  
يَا مَنْ لَهُ نُورُ الْبَدُو رَ وَمَنْ لَهُ شَرَفُ الدَّرَارِي (٢)  
يَا مَنْ بِهِ مَرَضُ الْحَبَا ءِ وَمَنْ بِهِ حَصْرُ الْوَقَارِ  
يَا مَنْ لَدَيْهِ حَيَا الْعُفَا ةِ وَمَنْ لَدَيْهِ حِمَى الدَّمَارِ (٣)  
أَنْتَ الَّذِي وَهَبَ الْجِرَا ئَرَ عَنِ عُلُوِّ وَاقْتِدَارِ (٤)  
أَنْتَ الَّذِي ضَمِنَ الْوَفَاءَ لَجَارِهِ كَرْمُ الْجَوَارِ

(١) الأروم: جمع الأرومة. هُوَ طَيْبُ الْأُرُوْمَةِ: شَرِيفُ الْأُرُوْمَةِ مِنْ حَسَبٍ وَنَسَبٍ، وَأَصْلُ شَرِيفٍ: التُّجَارُ: الْأَصْلُ وَالْحَسَبُ.

(٢) الدَّرِّيُّ: الكوكب المتأللي الضوء والجمع: دراري.

(٣) حيا: ما يلزم للحياة. الدَّمَارُ: ما ينبغي حياطته والدُّودُ عنه، كالأهل والعرض.

(٤) الجرائر: الذنوب، جمع جريرة. وهبتها: كناية عن العفو عن مرتكبيها.

أنت الذي حاز الخِطَا رَ مضاًؤه يوم الخِطَارِ (١)  
 فحويت مضمّار العلا وجريت فيه بلا مُجَارِ  
 يفديك مَنْ ظنَّ المكا رَمَ في اقتصادٍ واقتصارِ  
 فعدها عن طَلَقِ الحِيا دِ سقوطه دون العِثَارِ (٢)  
 خذها ثمارَ عُلاك لا عَرِيَتْ عُلاك من الثمارِ  
 عذراءَ يُخجلُ حُسْنُها مافي من خَلَعِ العِذارِ  
 وحدثني جريح المقل الشاعر قال: لما قال أبو محمد:

يغدو على حُرِّ البلا دِ غدوً مطلوبٍ بشار  
 قلت له: ما أكذبتك! لحاك الله!

فقال: الذي يقبل هذا في نفسه أكذب مني.

وقال جريح المقل: قد جُبت الآفاق، وسبّرتُ أصنافَ الخلق في الأخلاق، فما رأيتُ أحسَّ من هذا الرجل، يعني أبا الفضل.

وحدثني أبو غالب الكاتب الأصبهاني قال: كان أبو الفضل يُحاجي بكلام له من رآه، وهو:

«سألت عمّن شفّني وجدي به، وشغفني حُبّي له، وزعمتُ أني لو شئت لذهلتُ عقله، ولو أردت لاعتضت منه،

«زعمًا، لعمر أبيك، ليس بمزعم» (٣)

كيف أسلو عنه وأنا أراه، أو أنساه وهو لي تجاه؟ هيهات! هو أغلب عليّ وأقرب

(١) الخِطَارِ الأول: جمع خَطُر، وهو السبق يتراهن عليه، والرهن نفسه، والخِطَارِ الثاني: المراهنة.

(٢) عدها: صرفه وشغله. طَلَقِ الجياد: الغاية التي تجري إليها الأفراس.

(٣) عجز بيت لعترة بن شداد، وصدرة:

«عَلَّقْتُهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا»

والزعم: الطمع، والمزعم: مكانه. يقول: طمعت حيث لا مكان للطمع.

إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرْخِيَ لَهُ عِزِّي، أَوْ يَخْلِينِي وَاخْتِيَارِي، بَعْدَ اخْتِلَاطِي بِمُلْكِهِ، وَانْخِرَاطِي فِي سَلْكِهِ. وَبَعْدَ أَنْ نَاطَ (١) حُبَّةَ قَلْبِي نَاطَطًا، وَسَاطَهُ (٢) بِدَمِي سَاطَطًا. فَهُوَ جَارٍ مِنِّي مَجْرَى الرُّوحِ فِي الأَعْضَاءِ، وَمَتَنَسَّمٌ مَعِي رُوحَ الهَوَاءِ، إِنْ ذَهَبَتْ عَنْهُ رَجَعَتْ إِلَيْهِ، وَإِنْ هَرَبَتْ مِنْهُ وَقَفَتْ عَلَيْهِ، مَا أَحَبَّ السُّلُوكَ عَنْهُ مَعَ هِنَاتِهِ، وَمَا أَوْثَرَ الخُلُوكَ مِنْهُ عَلَيَّ عِلَاتِهِ. هَذَا عَلَيَّ أَنَّهُ إِنْ أَقْبَلَ لَمْ يُهَنْتِنِي إِقْبَالُهُ، وَإِنْ أَعْرَضَ لَمْ يَطْرُقْنِي خِيَالُهُ، يَبْعُدُ عَلَيَّ مَنَالُهُ، وَيَقْرُبُ مِنْ غَيْرِي نَوَالُهُ، وَيَرُدُّ عَيْنِي خَاسِيَةً، وَيُثْنِي يَدِي خَالِيَةً، وَقَدْ بَسَطَ مَسَافَاتِ النَفْسِ المِتْقَارِبَةَ، وَصَدَّقَ مَرَامِي الظُّنُونِ الكَازِبَةَ، وَضَلَّهُ يُنْدِرُ بِضِدِّهِ، وَقُرْبُهُ يُؤْذِنُ بِبُعْدِهِ، يَدْنُو عَدْلًا مَا يَبْرَحُ، وَيَأْسُو مِثْلَ مَا يَجْرَحُ. فَحَالُهُ أَحْوَالُ، وَخَلَّتْهُ خِلَالُ، وَحَرْبُهُ سِجَالُ. الحُسْنُ مِنْ عَوَائِدِهِ، وَالجَمَالُ مِنْ مَنَائِحِهِ، وَالبَهَاءُ مِنْ فُصُولِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالسَّنَاءُ مِنْ نِعْوَتِهِ وَسِمَاتِهِ. اسْمُهُ طَبَقٌ لِمَعْنَاهُ، وَفَحْوَاهُ وَفَقَ لِنَجْوَاهُ، يَتَشَابَهُ حَالَاهُ، وَيَتَضَارَعُ قُطْرَاهُ، مِنْ حَيْثُ تَلَقَاهُ يَسْتَنِيرُ، وَمِنْ حَيْثُ تَغْشَاهُ يَسْتَطِيرُ؛ كَالْبَدْرِ بَيْنَ سُعُودِهِ قَدْ وَسَطَهَا وَحَفَّتْ بِهِ، يَقْدُمُهُ النَّسْرَانُ، وَيَتَلَوُّهُ نِطَاقُ الجَوْزَاءِ، هَكَذَا. وَلَوْ قُلْتُ إِنْ الوَاسِطَةَ الغَمِيضَاءَ (٣) لَهَا هَادٍ وَتَابِعٌ، إِنْ فَرَّقْتَهُمَا اتَّفَقَا، وَإِنْ أَلْفَتَهُمَا تَفَرَّقَا، يُقْبَلُ بِشَوْكِ السِّيَالِ (٤)، وَيُدْبِرُ بِسَفَى البُهْمَى (٥)، وَيَعْتَرِضُ بِسُودٍ قِصَارِ سِوَاسِيَةٍ كَأَسْنَانِ الحِمَارِ - لَصَدَقْتُ.

فَأَبْنِي لِي مَا قُلْتَهُ، فَهُوَ تَعْرِيبُ كَالْتَّصْرِيحِ، وَتَمْرِيبُ كَالْتَّصْحِيحِ، وَالسَّلَامُ.

وَحَدَّثَنِي أَبُو غَالِبِ الكَاتِبِ قَال: كَتَبَ أَبُو الفَضْلِ إِلَى أَبِي دُلْفِ الخَزْرَجِيِّ فِي أوَائِلِ عِلَّتِهِ الَّتِي نَهَكَتَهُ وَحَالَفَتَهُ، يُعَاتِبُهُ وَيَعَابِثُهُ فَقَالَ:

«الآن علمتُ، أَيُّهَا الشَّيْخُ، أَنَّكَ لِي مَكَايِدُ، وَإِلَى جَمِيعِ مَا أَنهَكَ عَنْهُ مُخَالَفُ،

(١) ناطط: ربط.

(٢) ساطط: خلط.

(٣) الغميصاء: حدى الشعرين؛ والأخرى العبور، وهما نجمان تيران بجوار الجوزاء.

(٤) السِيَال: شجر له شوك أبيض.

(٥) البُهْمَى: نبت له شوك مثل شوك السنبل. والسفى: شوك البُهْمَى، أو أطراف البُهْمَى.

وَعَلَى دَيْدَنِكَ الْمَعْرُوفِ ثَابِتٌ، وَبِفَضْلَةِ لِسَانِكَ مَسْجُورٌ، وَبِشَائِعِ حِلْمِي عَنكَ مَغْرُورٌ. وَلَيْتَ ثِقَّتَكَ بِذَلِكَ لَا تَخُونُكَ، وَتَطْوَلِي عَلَيَّ لَا يَتَاطُولُ بَكَ، وَاغْتِرَارُكَ بَغَيْرِي لَا يُزِلُّكَ، وَلَيْتَكَ، إِذْ قَدْ ضَلَلْتَ سِوَاءَ السَّبِيلِ فِي حَظِّكَ، شَاوَرْتَنِي فَكُنْتُ لَا أَبْخَلُ عَلَيَّ بِالْهِدَايَةِ.

يا هذا! شكوتُ إليك أوائلَ هذه العِلةِ التي قد تَخَوَّنْتَنِي وَنَهَكْتَنِي<sup>(١)</sup> وكان التَّلَافِي سَهْلًا، وَبَابُ الْعَافِيَةِ مَفْتُوحًا، فَوَعَدْتَ بِالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَبَدَّلْتَ النِّصِيحَةَ فِي تَدْبِيرِهَا، وَكُنْتَ لِشُكْرِي لَكَ عَلَى ذَلِكَ حَائِزًا، وَبِمُقْتَرَحِكِ مَنِي فَائِزًا، فَتَقَاعَسْتَ عَنِّي بِلا غُذْرٍ، وَوَقَفْتَنِي بَيْنَ وَضَلٍ وَهَجْرٍ، فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَخَاطِبُكَ، وَعَلَى مَاذَا أَعَاتِبُكَ؛ لِأَنِّي يَسْتُ مِنْ نُجُوعِ الْعِتَابِ فِيكَ، وَمِنْ إِحَاكَةِ الْخِطَابِ فِي قَلْبِكَ؛ وَلِأَنَّكَ مَشْهُورٌ بِقَحَّةٍ، وَمَذْكُورٌ بِسُلْطَانَةٍ، وَمَعْتَادٌ لِلْبَهْتِ، وَجَارٌ عَلَى الْكُذْبِ.

وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّكَ تَدْعِي بِنُؤَةِ مُحَمَّدِ بْنِ زَكْرِيَا مِنْ نَاحِيَةِ ابْنَتِهِ، وَقَدْ شَاهَدْتُ مُحَمَّدًا وَمَا خَلْفَ بِنْتًا، وَلَا وَوَلَدْتَ بِنْتَ لَمْ تَكُنْ لَهُ ابْنًا، وَلَوْ كَانَتْ لَهُ بِنْتُ وَوَلَدْتَ ابْنًا لَمْ يَكُنْ أَنْتَ، ذَاكَ لِلْغَوَائِلِ الْمَجْمُوعَةِ فِيكَ، وَالْعِيُوبِ الْمَتَنَاطِرَةِ عَلَيْكَ.

وَلَمْ تَكُنْ الْعِلَّةُ الَّتِي رَجَعْتُ إِلَيْكَ فِي تَدْبِيرِهَا صَرْعًا وَلَا صُدَاعًا، وَلَا جُنُونًا وَلَا جُدَامًا، وَلَا صَمَمًا، وَلَا بَكَمًا، وَلَا فَالِجًا، وَلَا لِقْوَةً، وَلَا سَكْتَةً، وَلَا زَمَانَةً، وَلَا سَلْدًا، وَلَا أَذْرَةً، وَلَا عِلَّةً لَا يَقُومُ بِبِرِّئِهَا إِلَّا الْمَسِيحُ الَّذِي هُوَ كَلِمَةُ اللَّهِ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا. وَلَمْ تَحْتَجْ فِي مُدَاوَاتِي إِلَى الرَّقِيِّ وَالْتِمَائِمِ، وَلَا إِلَى النَّفْقِ فِي الْأَرْضِ، أَوْ إِلَى الطَّيْرَانِ فِي السُّكَاكِ<sup>(٢)</sup>، وَلَا إِلَى يَدِ بِيضَاءِ كَيْدِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَلَا إِلَى عَصَا مُوسَى، وَلَا إِلَى قَمِيصِ يَوْسُفَ، وَلَا إِلَى عَرْشِ بَلْقَيْسِ، وَلَا إِلَى

(١) تَخَوَّنْتَنِي: جعلتني متهمًا بالخيانة. نهكتني: أتعبتني.

(٢) السُّكَاكُ: الهواءُ بين السماءِ والأرضِ.

لَوْحٍ مِنْ سَفِينَةِ نُوحٍ، وَلَا إِلَى فِلْدَةٍ مِنْ كَبْشِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي فَدَى اللَّهَ بِهِ ابْنَهُ إِسْحَاقَ<sup>(١)</sup>،  
 كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، وَلَا إِلَى الصَّدْفَةِ  
 الَّتِي فِيهَا الدُّرَّةُ الْيَتِيمَةُ، وَلَا إِلَى شَطْبَةِ<sup>(٢)</sup> مِنْ سَنَامِ نَاقَةِ صَالِحٍ، وَلَا إِلَى زُبْرَةٍ مِنْ زُبْرِ  
 الْحَدِيدِ الَّتِي جُعِلَ رَدْمًا لِأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَلَا إِلَى عُسٍّ مِنْ لَبَنِ بَقْرَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
 الَّتِي ذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ، وَلَا إِلَى أَدْمَغَةِ الطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ الَّتِي رَمَتْ بِحِجَارَةٍ مِنْ  
 سَجَّيلٍ، وَلَا تَرْبِيَةٍ مِنْ ﴿إِمْرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْإِلْدَادِ ﴿[الفجر: ٧، ٨]،  
 وَلَا إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ السَّحَابِ الْمَسْخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا إِلَى لَمْعَةٍ مِنَ الْبَرَقِ  
 الَّتِي يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ، وَلَا إِلَى مِثْقَالٍ مِنْ صَوْتِ الرَّعْدِ الَّتِي يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ تَعَالَى،  
 وَلَا إِلَى ذَرَّةٍ مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي جُعِلَتْ ضِيَاءً لِلْعَالَمِينَ، وَلَا إِلَى قَبْضَةٍ مِنَ الْقَمَرِ الَّتِي  
 جُعِلَ نُورًا لِأَهْلِ الْخَافِقِينَ، وَلَا إِلَى صَبْغٍ مِنَ الْأَصْبَاغِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي قَوْسِ قُرْحِ غَبِّ  
 الْأَنْدَاءِ الْمُتَّصِلَةِ، وَلَا إِلَى مِثْقَالٍ مِنَ السَّرَابِ الَّتِي يَحْسَبُهَا الظَّمَانُ مَاءً، وَلَا إِلَى شَيْءٍ  
 مِنْ شَحْمِ الذَّنْبِ الَّتِي لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفُ، وَلَا إِلَى نَابِ الْكَلْبِ الَّتِي كَانَ بَاسِطًا ذِرَاعَيْهِ  
 بِالْوَصِيدِ الَّتِي لَوْ أَطْلَعَتْ عَلَيْهِ لَوَلَّيَتْ مِنْهُ فَرَارًا وَلَمَلَّتْ مِنْهُ رُعبًا، وَلَا إِلَى الْكَبْرِيتِ  
 الْأَحْمَرِ، وَلَا إِلَى الْمُومِيَايِ<sup>(٣)</sup> الْأَبْيَضِ الَّتِي لَا يُوْجَدُ، وَلَا إِلَى حِيلَةِ بُلَيْثَاسَ وَلَا إِلَى  
 قَطْرَاتٍ مِنْ مَاءِ الْحَيَوَانِ تَعْبُجْنَ بِهَذِهِ الْأَدْوِيَةِ، وَلَا إِلَى مُنْخَلٍ تَنْخُلُ بِهِ، مِنْ ذَنْبِ شَعْرٍ

(١) إن الراجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وهو مذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وأبي عمرو بن العلاء وهو رواية عن ابن عباس كما نقله البغوي عنهم، وقد بسط المحققون أدلة ذلك، فقد قال شيخ الإسلام في المنهاج: والذبيح على القول الصحيح ابنه الكبير إسماعيل كما دلت على ذلك سورة الصافات وغير ذلك فإنه قد كان سأل ربه أن يهب له من الصالحين فبشّره بالغلام الحليم إسماعيل فلما بلغ معه السعي أمره أن يذبحه لئلا يبقى في قلبه محبة مخلوق تراحم محبة الخالق.. وكذلك في التوراة يقول: اذبح ابنك. وحيدك وفي ترجمة أخرى: بكرك. ولكن الحق المبدلون لفظ إسحاق وهو باطل، فإن إسحاق هو الثاني من أولاده باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، فليس هو وحيد ولا بكره، وإنما وحيد وبكره إسماعيل.

(٢) الشَّطْبَةُ مِنَ الشَّيْءِ: قِطْعَةٌ تَقَعُ طَوَّلًا.

(٣) المومياي- كما ذكر البيروني في كتاب الجماهر- «ذكر في كتاب الآيين (وهو كتاب مشهور لبني ساسان) ضمن الأدوية التي كانت في خزانة الأكاسرة، مبدولة لمن لا يقدر عليها من المضطرين».

حِمَارٍ عَزِيرٍ الَّذِي أَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، فَتَنَحَّلُ بِهِ الْعَقَاقِيرَ، وَلَا إِلَى مَرَارَةِ الْعَنْقَاءِ الْمَغْرِبِ<sup>(١)</sup> الَّتِي لَمْ تَرُقْ طَّ، وَلَا إِلَى مُمَّحِ الْبُعُوضِ، وَلَا إِلَى بَيْضِ الْأَنْثُوقِ<sup>(٢)</sup>، وَلَمْ تَحْتَجِّجْ فِي تَدْبِيرِ عَلْتِي وَجَمِيعِ أَدْوِيَتِي إِلَى نَهَارٍ لَا لَيْلَ بَعْدَهُ، وَلَا إِلَى لَيْلٍ لَا نَهَارَ بَعْدَهُ، وَلَا إِلَى نَهَارٍ مُوَلِّجٍ فِي لَيْلٍ، وَلَا إِلَى لَيْلٍ مُوَلِّجٍ فِي نَهَارٍ، وَلَا إِلَى زَمَانٍ يَخْرُجُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رِبِيعًا أَوْ صَيْفًا أَوْ شِتَاءً أَوْ خَرِيفًا.

ولو ظننتُ أَنَّ هَذِهِ كَلَّمَهَا أَوْ بَعْضَهَا تَلَزُمُكَ أَوْ تَدْخُلُ فِي تَكَلُّفِكَ لِأَثَرَتِ الْمَوْتِ عَلَى الْعَافِيَةِ؛ فَإِنَّ فِي الْمَوْتِ خَلَاصًا مِنْكَ، وَمُفَارَقَةً لِمَثَلِكَ، وَوَاللَّهِ مَا أُنْدَبُ إِلَّا حُسْنَ ظَنِّي بِكَ، وَمُبَاهَاتِي أَهْلَ مَجْلِسِي بِفَضْلِكَ، وَقَوْلِي: أَبُو دُلْفٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا أَبُو دُلْفٍ! لَا تَنْظُرُوا إِلَى هَزْلِهِ، فَإِنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ جِدًّا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ حَقِيقَةَ مَا أَقُولُ فَافْرَعُوا إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ تَجِدُونَهُ فِي قَضَائِهَا قَبْلَ إِنْهَائِهَا. وَهُوَ الْمَرْءُ الَّذِي قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْمَنْظَرِ وَالْمَخْبَرِ، وَبَيْنَ الدَّعْوَى وَالْبَيِّنَةِ، وَبَيْنَ الْقَوْلِ وَالْحُجَّةِ، وَبَيْنَ الضَّمَانِ وَالْوَفَاءِ، وَبَيْنَ الصَّدَاقَةِ وَالشَّفِيقَةِ. فَمَا زِلْتُ أَقُولُ هَذَا أَوْ شِبْهَهُ، وَأَصْحَابِي يُشَيِّعُونَ قَوْلِي بِمَثَلِهِ فِي الظَّاهِرِ، وَيُخَالِفُونَنِي بِعِلْمِهِمْ فِي الْبَاطِنِ حَتَّى كَانَ الْفُلُجُ<sup>(٣)</sup> لَهُمْ سَاعَةً هَذِهِ؛ لِأَنِّي احْتَجَجْتُ إِلَى عِلْمِكَ فَخُنْتُ عَهْدِي، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْكَ فَأَعْرَضْتَ عَنِّي، وَوَهَبْتُ لَكَ كُلِّي فَبَخِلْتَ بِبَعْضِكَ عَلَيَّ؛

«فِيَا رَبِّ مَظْنُونٍ بِهِ الْخَيْرُ يُخْلَفُ»

وَلَقَدْ اسْتَفَدْتُ بِمَعْرِفَتِكَ تَجَنُّبَ مِثْلِكَ. وَيَقَالُ: لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مَالِكَ مَنْ وَعَظَكَ، وَمَنْ أَطَّلَعَكَ عَلَى خَبِيئَتِهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَقَدْ أَرَاكَ مِنْ طَوِيلِ الْفِكْرِ فِيهِ، وَكَفَاكَ خَطَرَ التَّجْرِبَةِ لَهُ وَالسَّلَامِ».

(١) عنقاء مغرب: طائر معروف الاسم، مجهول الجسم.

(٢) (أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأَنْثُوقِ) مِثْلُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ الظَّفَرُ بِهِ لَوْجُودِ الْأَنْثُوقِ (الْعَقَابِ أَوْ الرَّحْمَةِ) فِي الْأَمَاكِنِ الْوَعْرَةِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا، وَصَارَ يُطْلَقُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ صَعِبِ الْمَنَالِ.

(٣) الْفُلُجُ: الْفُوزُ وَالظَّفَرُ، فَلَجَّ بِحَاجَتِهِ: ظَفَرَ بِهَا. فَلَجَّ بِحُجَّتِهِ: أَحْسَنَ الْإِدْلَاءَ بِهَا فَغَلَبَ حُصْمَهُ.

قلتُ لأبي دُلف: ما أجبته عن هذا الكلام؟

قال: عملتُ في المسوِّدة شيئاً، ثم لم أجسر على إظهاره، وخفتُ صولته ونكايته وشره وغائلته؛ ومما قد حدث في رؤساءِ زمانك أنهم يحقدون على الأتباع، ولا يعرفون حقهم في الخدمة والطاعة.

وكنا يوماً عند ذي الكفائتين بمدينة السلام، فجرى حديث بغداد، فقال ذو الكفائتين: لما رجع ابنُ عباد من بغداد، قال له الأستاذ الرئيس - نصر الله وجهه -: كيف رأيت بغداد؟

قال: رأيتُ بغدادَ في البلاد، كالأستاذ في العباد.

وحكى أيضاً في هذا اليوم عن أبيه قال: لما انصرف أهل خراسان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة أمام الغزاة من الرِّي، بعد الحادثة التي جرت ودفع الله حدَّها<sup>(١)</sup>، وأعاد نضارتها<sup>(٢)</sup>، أخذ الرئيسُ يني حول دار رُكن الدولة حائطاً عظيماً.

فقال له عليُّ بن القاسم العارض: هذا كما يُقال: الشدُّ بعد الضرِّط.

فقال: هذا أيضاً جيدٌ لثلاث تفلت أُخرى.

ورأيتُ أبا الفتح ذا الكفائتين يسأل أبا الحسن العامري: لم طلبت النفس الفرق بين المتشابهين؟

فقال العامري: لأنها في جوهرها، وما هو لائقٌ بها تآبى الكثرة وتنفرت منها، وهي تحنُّ إلى الوحدة بسوسها<sup>(٣)</sup>، وتنزع نحوها وتتقبل كلَّ ما أعانها على ذلك، ويذلُّ الطريق لها؛ والفرق يوضح سبيل الوحدة. وكلما كان الاشتباه أشدَّ كان الفرق أطف. وكلما كان الفرق أطف كانت أشدَّ بحثاً عنه وألهج بطلبه لأن ظفرها به يكون أعزَّ،

(١) حدَّها: بأسها.

(٢) نضارتها: بهجتها.

(٣) بسوسها: بطبعها وسجيتها.

ونيلها مطلوبها يكون أحلى.

وقال أبو الفتح يوماً لآبن فارس المعلم:

لم قال الجاحظ: «فإن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه الجد»؟  
فلم يقل شيئاً.

فقال أبو الفتح: قد صدق أبو عثمان، هذه خاصة مذاهب العرب، ولكن لم عرض هذا في أخبارها، وأدنى ما فيه أن يدل على وضع الشيء في غير موضعه؟  
فلم يُحر (١) أحد شيئاً.

فقال هو: إن إفراز الجد من الهزل، وتمييز الهزل من الجد حتى لا يؤتى بهذا في هذا، ولا بهذا في هذا لنوع من الخطر على المتكلم البليغ والقائل البين، ولو جرى على ذلك كان الاقتدار يُنطل الحد الملزوم، والسعة تُضيق الغاية المبلوغة.  
ولما كان البيان لا يكون بياناً، والبلاغة لا تصير بلاغة إلا بأن يكون المتكلم آخذاً في كل واد، قادحاً بكل زناد، مُستظهِراً بكل عتاد، وجب أن يدخل الهزل في الجد إمتاعاً واستمتاعاً، ويدخل الجد في الهزل اقتداراً واتساعاً.  
قال ابن فارس: وأي خصوصية تكون في هذا، ونحن بالفارسية نرى هذا المذهب، ولعل سائر اللغات على ذلك؟

فقال: القول كما قلت، ولكن أين مزية بيان العرب على جميع ما لأصناف العجم؟  
ثم قال: إن الغرض الأول في الكلام الإفادة، وجُل الأُمم على هذا. والثاني تحسين الإفادة، ثم التحسين تارة يكون بمعاني التوكيد، وتارة يكون بمعاني الحذف، وتارة يكون بوزن اللفظ، وتبديل الوزن، وتسهيل المطالع، وتبديل المقاطع؛ وهذه

(١) لم يُحر: لم يجب أو يرجع.

الأنواع وغيرها مما يطول إحصاؤه. وهو للعرب خاصة، ولباقى الأمم عامة.

ثم قال: وقد اشتمل القرآن على هذا كله، وعلى ضروب أخر لم تكن في عادة القوم فاشية ولا كثيرة، ولكن كالشيء البديع، ألا ترى أنك لا تجد شوافع هذه المعاني التي في الكتاب غريبة في مثنور كلامهم ولا في منظومه؟ وأنت تعلم أنهم كانوا لا يسكتون، وكان ولوعهم بالكلام أشد من ولوعهم بكل شيء، وكل ولوع كان لهم بعد الكلام فإنما كان بالكلام.

فهل تجد معنى قوله تعالى في الإبانة عن التوحيد: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] في شيء من كلام.

وكذلك أيضا لا تجد ما يشبه قوله عز وجل: ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ إلهةٌ كما يقولون إذا لا بُنَّغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وكذلك أيضا لا تجد ما يقارب قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إلهةٌ إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وكذلك لا تجد ما يداني قوله: ﴿ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١]، أو قوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون: ١٨]. ثم تدبر قوله: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ [عبس: ٢٥]، وقال: ﴿ ثُمَّ سَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ [عبس: ٢٦]، وقال: ﴿ فَسَأَلَتْ أَوْدِيَهُهُ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧]، وقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجنانية: ٤]، وقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس: ٧٨]، قال: ﴿ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وقال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠] وقال: ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُنَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴿٦﴾ [فصلت: ٣٩]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ [فصلت: ٣٩].

ثم قال: وهذا سببٌ بديع، وأسلوبٌ معجز؛ ولو كانت العرب نغمت بهذه المعاني بعباراتٍ دون عباراتها، أو حلّمت بهذه العبارات بمعانٍ دون معانيها، لكننا نقف ونترجح<sup>(١)</sup>، ونرتاب ونضطرب، فأما وشيءٌ لا يُصاب لهم، لا على وجه التشبيه ولا على التحقيق فماذا يبقى؟

ثم هب أنهم كانوا مصروفين عنها في الأول وهم لا يابهُون لها، هلاً تصرّفوا فيها في الثاني وقد تحدّوا بها؟ إن هذا لواضح.

وكان مع شبابه وكثرة أشغاله مليئاً بهذا الفنّ، ولقن أكثره من معلّمه ابن فارس؛ فإنه كان قد ذلّل هذا وأشابهه له، وكان ينتصب للناس في جامع الرّي، ويُفسّر القرآن، ويتكلّم على وجوهه ونظائره وتأويلاته، وزاد هو أيضاً - أعني أبا الفتح - بقوّته كشافاً لغامضها، وإبانة لما خفي منها. وكان على كلّ حال أمثلاً طريفةً من والده أبي الفضل الذي سمع يُنشد هازئاً:

وَمُدّعٍ يَدْعِي بِالسَّيْفِ حُجَّتَهُ مَا حُجَّةُ السَّيْفِ إِلَّا حُجَّةُ الْبَطْلِ<sup>(٢)</sup>  
وَيُنشِد:

(١) نترجح: نتردد.

(٢) يرى أبو حيان أن هذا البيت نقدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، ولفكرة الجهاد في الإسلام، ومن هنا اتخذه - وهو صائب في رأيه - دليلاً على خبث عقيدة قائله.

لَعَنَ اللَّهُ ذَا الْعَصَا فَلَقَدْ كَا نْتَ لِقُلِّ النَّامُوسِ كَالْمِفْتَاحِ (١)  
وهذا كله دليلٌ على سوء الضمير، وخُبثِ العقيدة، وشِدَّةِ المجاهرة.

قال أبو الفتح يوماً لأبي سليمان: قال أبو عثمان في رسالته في «التربيع والتدوير»  
إلى ابن عبد الوهاب: «لم صرنا نتذكر الشيء المهم فلا نقدر عليه» (٢) حتى ندعه يأساً  
منه أجمع ما نكون نفساً وأحسن ما نكون تدبيراً، ثم يعارضنا ويخطر على بالنا في حال  
شغل أو حال نوم، وأسهي ما نكون عنه وأقل ما نكون احتفالاً به». وأنا أحب أن أسمع  
من الشيخ فيه قولاً.

فقال أبو سليمان: ليست النفس على قدر إرادة الإنسان منها، بل الإنسان على  
قدر مُراد النفس؛ لأن النفس هي مالكتها ومدبرته ومقومته ومتمته ومحركته. فلو كان  
الإنسان إذا أراد إذكراها أذكراها، وإذا أراد إنساها أنساها، كانت النفس تحت ملكة  
الإنسان وجارية على إرادته، ومتصرفه بتصرفه وإرادته، إنما هي (٣) منها ويقوم هو  
بها، وكماله من جهتها، وتماؤه من معونتها.

فلهذه الحال قد يتذكر الشيء فلا يجد من النفس إجابة له في ذكر ذلك الشيء،  
وقد يسهو عن ذلك الشيء فيلقى عليه أغفل ما يكون عنه لأنه موجودٌ عندها عتيداً (٤)  
قبلها، وإنما يكون هذا منها في الفينة بعد الفينة؛ ولو لم يتذكر الإنسان شيئاً جملة،  
لكانت نفسه الناطقة مغمورة، ولو تذكر كلما شاء لكان قد صفا كل الصفاء، فلماً  
وقف بين هاتين المنزلتين تذكر مرة فذكر، وسها مرة فحصر.

وطال كلامه في حديث النفس، واتسع في فنون منه.

فلما انتهى قال له أبو الفتح: عينُ الله عليك أيها الشيخ أنت كما قال الأخص:

(١) ذو العصا: سيدنا موسى عليه السلام.

(٢) أي لا نقدر على تذكره.

(٣) «هي» أي الإرادة، وباقي الضمائر التالية المؤنثة للنفس، والمذكورة للإنسان.

(٤) عتيد: حاضر.

إِنِّي إِذَا خَفِي الرِّجَالُ وَجَدْتَنِي كَالشَّمْسِ لَا تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانٍ  
 إِنِّي عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ مُحْسِنٌ أَنَّمِي عَلَى الْبَعْضَاءِ وَالشَّنَانِ  
 مَا تَعْتَرِينِي مِنْ خُطُوبٍ مُلَمَّةٍ إِلَّا تُشْرَفُنِي وَتَرْفَعُ شَانِي  
 فَإِذَا تَزُولُ تَزُولُ عَنْ مُتَخَمِّطٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ لَدَى الْأَقْرَانِ<sup>(١)</sup>  
 فَللهِ دَرَكٌ وَدَرٌّ زَمَانٍ أَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ.

فقال أبو سليمان:

سَعَادَةٌ ذِي الْكِفَايَتِينَ هِيَ الَّتِي نَعَشْتَنِي عِنْدَهُ، وَهِيَ أَتُ وَصَفِي عَلَى لِسَانِهِ،  
 وَزَوَّدْتَنِي فَخْرًا بِخِدْمَتِهِ، وَأَبَقْتَ ذِكْرِي مَنْوَهًا بِذِكْرِهِ. وَلَقَدْ كُنْتُ غَضِيضَ الطَّرْفِ  
 حَتَّى رَأَيْتُهُ، كَلِيلَ اللِّسَانِ حَتَّى وَصَفْتُهُ، مَبْخُوسَ الْحِظِّ حَتَّى عَرَفْتُهُ، حَامِلَ الذِّكْرِ  
 حَتَّى خَدَمْتُهُ. وَإِنْ فَسَحَ اللهُ فِي الْمُدَّةِ فَسَأَسْتَقْبِلُ خَلْقَ الْعَيْشِ جَدِيدًا، وَأَلْحَقُ مَفْقُودَ  
 الْمُنَى مَوْجُودًا.

وحدثني الخليلي قال:

أَوَّلُ مَا عَيْبَ عَلَيَّ هَذَا الْفَتَى أَنَّهُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أَبِي الْفَضْلِ، أَمَرَ بِأَنْ يُنْقَلَ الْمَطِيخُ إِلَى  
 دَارِ النِّسَاءِ، فَقَالَ النَّاسُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، صَارَ الطَّعَامُ حَرًّا، وَالخَبِزُ عَوْرَةً، وَالْقَدْرُ وَالغَضَارُ  
 حُرْمَةً<sup>(٢)</sup>.

وَاللَّهِ مَا أَرَادَ بِهَذَا إِلَّا أَنْ يُصَانَ الْخَبِزُ كَمَا تُصَانُ ذَوَاتُ الْخُمُرِ وَصَوَاحِبُ الْمَقَانِعِ<sup>(٣)</sup>،  
 وَإِنَّ هَذِهِ لَعَبْرَةٌ وَضِعَتْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، ثُمَّ أَنْشَدَ لِذَعْبِلٍ قَوْلَهُ:

صَدَّقَ أَلَيْتَهُ إِنْ قَالَ مُجْتَهِدًا «إِي وَالرَّغِيفِ» فَذَاكَ الْبَرُّ مِنْ قَسَمِهِ<sup>(٤)</sup>  
 وَإِنْ هَمَمْتَ بِهِ فَافْتَكِ بِخَبْرَتِهِ فَإِنَّ مَوْضِعَهَا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ

(١) متخمط: شديد الغضب. البوادر: جمع بادرة، وهي ما يبدر عن حدة الغضب، فيسبق ما يقتضيه الحلم.

(٢) الحُرْمَةُ: ما لا يحلُّ انتهاكُه من ذِمَّةٍ أَوْ حَقٍّ أَوْ صَحْبَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

(٣) المَقَانِعُ: جمع مقنعة، وهي ما تغطي به المرأة وجهها.

(٤) الْبَرُّ: الصادق.

ما كان أحسنه لو أن غيرته على جرادقه كانت على حرمه<sup>(١)</sup>  
قال الخليلي:

كنت واقفاً في صحن داره خلف شجرة كبيرة، والزمان قيظ، والهجرة مُحتدمة،  
وهو أيضاً واقفٌ تجاه تلك الشجرة لا يلحقني طرفة. فقال لخادمٍ بين يديه: قد جُعْتُ  
فأصلحوا الطعام، وصيحووا بهؤلاء الأكلة الطغام.

قال: فنزت<sup>(٢)</sup> في نفسي أنفةً سدّت ما بيني وبين السماء، فرجعتُ القهقرى  
ألقطُ قدمي حتى صرتُ إلى الباب، وفُتُّ إلى المنزل؛ وطلبتُ فاحتجبتُ، ثم طلبتُ  
فاحتجبتُ، وقلتُ: سقطتُ من عالي السطح، وانكسرت ساقِي. وبقيتُ على هذه  
التعلة حتى فرج الله بالقبض عليه.

قال:

وهذا عرقٌ كان يَبِضُ فيه من أبيه؛ فإن أباه كان غالباً في هذا الخلق، وكان يُكابد  
من ستر هذا الداء على نفسه أمراً عسيراً. ولقد حضر ابن بُندار يوماً، وكان يأكل معه،  
فنظر إلى غضارة<sup>(٣)</sup> قد ملئت ثريداً فأنشد:

ثريدٌ كأنَّ السَّمَنَ في حَجراته نجومُ الثُّريا أو عُيون الضِّياوِنِ<sup>(٤)</sup>  
فقال: أف، لعن الله قائله!

فقال ابن بُندار: قائله حَسَّان بن ثابت، والنبيُّ عليه السلام لا يرضى بلعن من يقول  
له حاضاً على جوابِ المشركين: «قُلْ ومعك روحُ القدس»<sup>(٥)</sup>. فسكتَ خزَّيان.

(١) جرادق: جمع جردق، وهو الغليظ من الخبز.

(٢) نَزت: جرت.

(٣) الغضارة: الطين اللزج الأخضر الحُرُّ، والمراد هنا الصفحة المتخذة منه.

(٤) حجراته (بفتح الحاء): جمع مفردة الحجرة وهي الناحية. الضيئون: السُّورُ الذكور. والجمع: الضيائون.

(٥) روى أبو داود في سنن (٥٠١٥) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يضعُ لحسان بن ثابتٍ منبراً في المسجد،  
فيقومُ عليه يهجو من قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ رُوحَ  
القدسِ مع حَسَّانَ ما نافعَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.»

وكان يَنْجُم من قلبه في الوقت بعد الوقت بُغْضُ العَرَبِ والأَكَلَة. أَنشَدَ يوماً بيتاً، وقال: أَحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ مَا يُرِيدُ الأَعْرَابِيُّ بِقَوْلِهِ:

تَرَى وَدَكَ السَّدِيفِ عَلَى لِحَاهُمْ كَلَوْنَ الرِّاءِ لَبَدَهُ الصَّقِيعُ<sup>(١)</sup>

قال: وما انتصف منه أَحَدٌ كَأَبِي العباس ابن بُنْدَارٍ؛ فإنه جرى ليلةً حديثُ العَرَبِ والقبائل والأَنساب. فقال أبو الفضل: أَسَدٌ<sup>(٢)</sup>، عِرْقٌ وَشَيْجٌ<sup>(٣)</sup> وِحَارِكٌ<sup>(٤)</sup> ونَشِيجٌ وطرز نسيج، فقال ابن بُنْدَارٍ:

إِذَا أَسَدِيٌّ جَاعَ يَوْمًا بِلُدَةٍ وَكَانَ سَمِينًا كَلْبُهُ فَهُوَ آكِلُهُ<sup>(٥)</sup>

فتغافل أبو الفضل كأنه لم يسمع، وكان حَلِيمًا حَمُولًا<sup>(٦)</sup> لثِيمًا ذُلُولًا<sup>(٧)</sup>.

وقال: أَحَدْتُكَ مِنْ حِلْمِهِ بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا: كُنَّا بِأَذْرَبِيْجَانَ لما افتتحنها لإبراهيم ابن المرزبان وقرَرناها في يده اتفق أن ظفرنا هناك بطبيب نصرانيٍّ بَغْدَادِيٍّ حَسَنَ الحذق، بارع الصناعة، مشهودٍ له بصواب الرأي وجودة التدبير، فأدناه أبو الفضل ورضي هديه، وحمد قوله ورأيه، وكان يخصه بالبرِّ والتحفة. فكان من أمره أن أبا الفضل شربَ غَدَاتِيذٍ قَدَحًا مِنْ شَرَابِ الرُّمَانِ، فَبَقِيَ فِي أَسْفَلِ القَدَحِ قَلِيلًا، ومدَّ يده إلى الطَّيِّبِ يُنَاوِلُهُ، تَكْرُمَةً لَهُ، ويقول له: اشرب هذه البقية.

فقال له الطَّيِّبُ: «نَهَى نَبِيُّكُمْ عَنْ سُؤْرِ الكَلْبِ»، وَأَمْسَكَ عَنِ القَدَحِ.

فاصفرَّ وجه أبي الفضل. ولم ينطق بكلمة، ولا أساء إليه، ولا اعتذر ذلك من فرطته.

(١) الرِّاءُ: شَجَرٌ سهلي له ثمر أبيض أو أحمر، واحدته راءة. وَدَكَ السَّدِيفِ: الودك: دَسَمَ اللَّحْمَ وَدَهُنُهُ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ. السَّدِيفِ: لحم السنام.

(٢) يعني قبيلة أسد.

(٣) عِرْقٌ وَشَيْجٌ: أصل متداخل ومترايط.

(٤) الحارِكُ: أعلى الكاهل، أي مُقَدَّمُ أَعْلَى الظَّهْرِ مِمَّا يَلِي العُنُقَ.

(٥) البيت للفرزدق، وكانت بنو أسد تُعَبِّرُ بِأَكْلِ الكلاب.

(٦) حَمُولًا: من حمل الحقد، إذا أكنه في نفسه.

(٧) ذُلُولًا: ضعیفًا.

ولتدافع الحديث ما أخرج من ذكر هذا إلى شأن ذلك. ولقد اضطرب عليّ نسجُ الرسالة على مذهب المصنّفين، ولكنّ عذري بيّن، لأنني نقلت ما نقلت في وقتٍ صعب وحالٍ عوراء.

سألت العتّابيّ، شيخاً من أهلِ أصفهان كان صحب ابن عبّاد في أيام الحداثة، عن ترك ابن عبّاد الشراب.

فقال: واللّه ما ترك ما ترك لله. ولكن تركه لأنه كان إذا سكر افتضح ودعا إلى الفجور به، ولما فشا هذا وقبّحت القالة هجره، وأظهر ذلك لتقوى الله، أو لوجه الله تعالى.

ورأيت ابن عبّاد يوماً يقول لابن أبي هشام: لا تقلّ حرّجت نفسي، إنما الحرّج للصدر؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢].

فقال له: فأين أنت من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَصَلَتِ﴾ [النساء: ٦٥].. فغرق جبينه خجلاً؛ وكان ذلك سبب إعراضه عن هذا الشيخ، وانقلابه عنه بالحرماني.

وقال لي العتّابي: كان هذا، يعني ابن عبّاد يقال له في المكتب: ديوجه، قال: وتفسيره شيطان صغير.

وقال لي ابن الرّازي: كَلَّمْتُهُ فِي شَيْءٍ يَوْمًا، وَقَلْتُ فِي عُرْضِ الْكَلَامِ: «وَكَانَ ذَلِكَ لِانْطِلَاقِ لِسَانِهِ»، فَقَالَ لَهُ: «أَخْسَأُ، الْانْطِلَاقُ فِي الشَّيْءِ، وَالطَّلَاقُ فِي اللِّسَانِ».

قال: فقلت له: ما تصنع بقول الأوّل وهو يزيد بن الصّعق يخاطب النّابغة الذّبياني:

وَأَيُّ النَّاسِ أَغْدُرُ مِنْ شَامٍ لَهُ صُرْدَانٌ مَنْطَلَقَ اللِّسَانِ<sup>(١)</sup>

قال: فخمّد وحقّد.

(١) صُرْدَانٌ: عرقان أسفل اللسان.

هكذا قال بفتح القاف، وكان فصيحاً.

وقال يوماً في المجلس، وهو يُحدّث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله:

«ولا بُدَّ من شيءٍ يُعينُ على الدهرِ»

ثم قال: قد سألت جماعةً عن صدر هذا البيت فما كان عندها ذاك. فقلت: أنا أحفظ ذاك.

فنظر إليّ بغضبٍ وقال: فما هو؟

قلت: قد نسيته.

قال: ما أسرعَ ذكركَ من نسيانك.

قلت: ذكرته والحالُ سليمة، فلما حالت عن سلامتها نسيته.

قال: وما حيلولتها؟

قلت: نظر الصّاحب بغضب، فوجب في حُسن الأدب أن لا يقال ما يُثير الغضب.

فقال: ومن تكونُ حتى يُغضب عليك؟ دَع هذا وهات!

قلت: قال الشاعر:

ألامٌ على أخذِ القليلِ وإنما أصادفُ أقواماً أقلَّ من الدرِّ  
فإن أنا لم آخذ قليلاً حرّمته ولا بُدَّ من شيءٍ يُعين على الدهرِ  
فسكت.

وكان ابن عبّاد ورد إلى الرّبيّ سنة ثمان وخمسين مع مؤيد الدولة، وحضر مجلس

ابن العميد أبي الفضل، وجرى بينه وبين مسكويه كلامٌ، ووقع تجاذب.

قال مسكويه: فدعني حتى أتكلّم، ليس هذا نصفة، إذا أردت أن لا أتكلّم فدع على

فمي مخدّة.

فقال له: أنا لا أدع على فمك مخدّة، ولكن أدع فمك على المخدّة. وطارت النّادرة،

ولصقت وشاعت وبقيت.

فأمّا حديثُ ابنِ عبّادٍ مع أبي عبد الله الحصريّ فمن الطرائف. كان هذا الحصريّ من أسقط الناس وأنذلهم، فلما ورد ابن عبّاد الرّيّ تقرب إليه، وعرض نفسه عليه، وسأل أن يُلقنه المذهب<sup>(١)</sup>، فحقّره ابن عبّاد، وكان لا يهشّ له.

فجعل الحصريّ يقف في الأسواق والشوارع العظام، والمربّعات الكبار، ويُنادي بصوتٍ جَهيرٍ ويقول:

ادعوا الله للصّاحب الجليل، إسماعيل الذي ليس له في الدّنيا عدل! ثم يقول بالفارسيّة: فإنّه قد بسط العدل، وأحيا العلم، وبثّ المكارم، وآوى الغرباء؛ لا يشرب الخمر، ولا يَفجِحُ<sup>(٢)</sup> الغلمان، ولا يخلو بالمُردان، ولا يتقحب<sup>(٣)</sup> بالنساء، ولا يأخذ الرُّشا، ولا يقبل المصانعات. نهاره في المُلْك، وليله في دراسة العلم. وأشباة هذا الكلام الشنيع.

وكان المنظرُ عجيبًا، والمسمَعُ أعجب. وكان أهل الرّيّ يقفون ويسمعون ويضحكون ويسخرون، والبلد يغلب على أهله التّوادر والعيارة<sup>(٤)</sup>. فلما توالى ذلك منه، نُمي إلى ابن عبّاد، وشنع به على الحصريّ، واستؤذن فيه لئِنهَى عنه ويُرَجِر.

فقال: لا تفعلوا فإنّ باله ينكسر، ونشاطه يذهب، دَعُوهُ على شدّته في المذهب وحدّته على أهل الكذب.

وكان له آخر يُلقنه المذهب بالفارسيّة، ويقال له: اجلس في الأسواق عند

(١) مذهب الاعتزال.

(٢) يعفج: يفعل فعل قوم لوط.

(٣) يتقحب: يفجر.

(٤) العيّارة: النقد والبحث عن العيوب.

الباقلاني<sup>(١)</sup> وعند الصَّيدلاني، وعند المَرَّاق<sup>(٢)</sup>، وعند الهَرَّاس<sup>(٣)</sup>، واطرح له حُسْنَ «الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ»، وادعُهُ إِلَى المَذْهَبِ، وَلِكِ مِشَاهِرَةٌ تَدْرُ عَلَيْكَ، وَبِرٌّ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَصِلُ إِلَيْكَ، وَلِكِ الجَاهُ العَرِيضُ فِي الوُصُولِ إِلَيَّ، وَالخُلُوةُ مَعِي، وَكَانَ يُقَالُ لِهَذَا الرَّجُلِ الفُقَّاعِيَّ.

ورأيتُ آخَرَ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَلِيٍّ الإسْكَافِ، وَكَانَ أَشْفَّ مِنَ الفُقَّاعِيِّ، عَلَيَّ هَذَا؛ وَكَانَ يُقَالُ لَهُؤَلَاءِ دَعَاةُ الصَّاحِبِ، وَخَاصَّةُ الصَّاحِبِ.

وَاجْتَهَدَ بِالْحُسَيْنِ المِتْكَمِّ الكَلَّابِيِّ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى مَذْهَبِهِ، فَتَلَطَّفَ حُسَيْنٌ وَقَالَ: أَيُّهَا الصَّاحِبُ! دَعْنِي حَتَّى أَكُونَ مَشْحُذًا لَكَ، فَمَا بَقِيَ غَيْرِي، وَإِنْ دَخَلْتَ فِي المَذْهَبِ لَمْ يَبْقَ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْ تَنْثُو عَلَيْهِ قَبِيحَةٍ، وَتُبْدِي لِلنَّاسِ عَوَارِهِ.

فَضَحِكَ مِنْ كَلَامِهِ وَقَالَ: قَدْ أَغْفَيْنَاكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَبَعْدُ فَمَا نَبْخَلُ عَلَيْكَ بِنَارِ جَهَنَّمَ، أَصْلُ بِهَا كَيْفَ شِئْتَ!

قَالَ لَنَا حُسَيْنٌ بَعْدَ ذَلِكَ: يَا قَوْمَ! أَتُرَانِي أَصَلَّى بِنَارِ جَهَنَّمَ وَعَقِيدَتِي وَسِيرَتِي مَعْرُوفَتَانِ، وَيَتَبَوَّأُ هُوَ الجَنَّةَ مَعَ قَتْلِ الأَنْفُسِ المَحْرَمَةِ، وَرُكُوبِ المَحْظُورَاتِ العَظِيمَةِ؟ إِنَّ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ لَعَجَبٌ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مِنَ المَرْجُئَةِ<sup>(٤)</sup> لَكَانَ مَخُوفًا عَلَيْهِ، فَكَيْفَ وَهُوَ

(١) الباقلاني: بائع الباقلاء.

(٢) المَرَّاق: بائع المرق.

(٣) الهَرَّاس: بائع الهريسة أو صانعها.

(٤) المرجئة لغة: من الإرجاء: وهو التأخير والإمهال، قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَإِعْتِ فِي الدَّيْنِ حَشِيرِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٦]. أي أمهله، ومن الرجاء، ضد اليأس وهو الأمل. قال تعالى: ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

المرجئة اصطلاحًا: كانت المرجئة في آخر القرن الأول تطلق على فئتين، كما قال الإمام ابن عيينة:

- قوم أرجأوا أمر علي وعثمان فقد مضى أولئك.

- فأما المرجئة اليوم فهم يقولون: الإيمان قول بلا عمل.

واستقر المعنى الاصطلاحي للمرجئة عند السلف على المعنى الثاني «إرجاء الفقهاء»، وهو القول بأن: الإيمان هو التصديق أو التصديق والقول، أو الإيمان قول بلا عمل، «أي إخراج الأعمال من مسمى الإيمان»، =

يُدعي الوعيد، ويخوّف بالتّخليد؟ لحا الله الوقاح.

وقال يوماً: ما صدر قول الشاعر:

«والمشرب العذب كثير الزحام»؟

فسكت الجماعة.

فقال: قد - والله - فشا النقص، وذهب الحفظ، ومات الأدب.

فقال ابن الرّازي: صدره:

«يزدحم الناس على بابه»

فأقبل عليه بغیظ، وقال: ما عرفتك إلا متعجرفاً جاهلاً، أما كان لك بالجماعة أسوة؟

وسمعه يقول: كان أبو الفضل<sup>(١)</sup> مطبوعاً على معرفة الشعر، وكان لا يخفى عليه جيده من رديّه، وكان يُعجب بقول الشاعر:

وجاءت إلى باب من السجف بيننا  
مُجافٍ وقد قامت عليه الولايدُ  
لتسمع شعري وهو يقرع قلبها  
بوحى تؤديه إليها القصائدُ  
إذا سمعت معنى لطيفاً تنفست  
له نفساً تنقذ منه القلائدُ  
ثم قال: هذا والله القول، وأنا أعجب بقول الآخر حين يقول:

ما زلتُ أهواك سؤلَ قلبي ما دمت بين الأنام حياً  
وكيف يسألو هواك قلبٌ سقّيته من هواك رياً

= وعليه فإن: من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان من قال بهذه الأمور أو بعضها فهو مرجئ .

ثم أطلق الإرجاء على أصناف أخرى كالجهمية القائلين بأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكرامية القائلين بأن الإيمان هو قول اللسان فقط. وللمزيد انظر (فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب بن علي عواجي، ٣/ ١٠٧١-١٠٧٥).

(١) يعني أبا الفضل ابن العميد.

أولى لك الله ثم أولى أما خشيت العقاب فيا  
جئت إلينا بغير وعدٍ يا حب من زارنا بدياً  
حتى إذا ما ملكت قلبي وازددت حسناً نعم وزياً  
نفرت نفرَ الطباء عنّا فصار من دونك الثرياً

وسنوسع هذه الرسالة بعد هذا التطويل ببعض ما يكون حجةً أو عُذراً، وإن اعترض حديثُ سقناه على غره<sup>(١)</sup>، وعرضناه على حُلوه ومُره. ولولا أن الفائدة - أبقاك الله - في سماع هذه الأشياء ومعرفة هذه الأحوال أضعاف الفائدة في الإضراب عنها، لكان السكوتُ ممكناً، والإمساكُ مستطاعاً، والسلم واقعاً، والإعفاء سهلاً. ولكن الخيرة لا تقع، واليقظة لا تحدث، والتجربة لا تستحکم، والطبع لا يرتاض حتى تتصفح الأمور، وتتعبق الدهور، وتأخذ نصيبك من الاعتبار، وتبعث همّتك على محمود الاختيار؛ والشاعر يقول:

ومن يطل عيشه لا تلقه غمراً وفي الحوادث والأيام تجريبٌ  
وقال آخر:

أخو خمسين مُجتمعٍ أشدّي ونجذني مُداورة الشؤون<sup>(٢)</sup>  
وقال الآخر:

ألم تر ما لاقيت والدهرُ أعصر ومن يتملّ العيشَ يراً ويسمّع  
وقال لي بعض أصحابنا حين وقف على جرّامة<sup>(٣)</sup> هذا الكلام: قد كشفت طائفتين كبيرتين، وحملتهما على عداوتك والإرصاد لك، يعني المتكلمين والمتفلسفين؛ فإن هذه لا تصبر لك على ثلبك ابن عباد. وهذه لا تسكت عنك في نيلك من ابن العميد.

(١) العرّ: كل كسر مُتَنَّن في ثوب أو جلد، والمعنى: سقنا الحديث على ما فيه.

(٢) نجذني: حنّني وعرّفتني الأشياء. مداورة الشؤون: معالجة الأمور.

(٣) جرّامة: قطعة.

فقلت له: متى كان الخَصْمُ مُنْصِفاً، وكان مُدِلاًّ بالحق متوقِّفاً، فإن القولَ معه يسهل، والجِدالُ يَخَفُّ، والحديثُ يُفِيدُ؛ وهل أنا إلا كمن قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث: يا رسول الله: رَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ ما عَرَفْتُ، وغَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبَحَ ما عَرَفْتُ. فلم يُنكَرْ ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. وأنا أروي لك القِصَّةَ لتكون الفائدةُ أَظْهَرَ، والحجةُ أَنْوَرَ.

قال عمرو بن الأَهمم للزُّبَريِّ قال له النبيُّ عليه السلام: ما عَلِمْتُ فيهِ؟ قال: أَعْلَمُ أَنَّهُ قد نَجَمَتْ له مُرْوَةٌ، وَأَنَّهُ مُطاعٌ في قَوْمِهِ، وَأَنَّهُ مانِعٌ لما وراءَ ظَهْرِهِ. فقال الزُّبَريِّ قال: أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَرَكَ ما هُوَ أَفْضَلُ من هَذا. فقال عمرو: أَمَّا إِذِ قال ما قال فهو ما عَلِمْتُ أَحْمَقُ الأبِّ، لئِمْ الخال، زَمِرٌ<sup>(١)</sup> المرْوَةٌ، حديثُ الغِنَى؛ ولقد صدقتُ في الأُولَى، وما كذبتُ في الأُخْرَى. وضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمرو: يا رسول الله! لقد غَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبَحَ ما عَرَفْتُ، ورَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ ما عَرَفْتُ.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا»<sup>(٢)</sup>. فهذا هَذا، عَلَى ما رواه ابن الأَعرابي.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ طَلَبَ مِنَ السَّاخِطِ ما لا يوجَدُ إِلا عند الرّاضِي، وطَلَبَ مِنَ الرّاضِي ما لا يصابُ إِلا عند السَّاخِطِ؟ وَمَنْ كان كذلك فقد رَدَّ الأُمُورَ على أَعقابِها، وأتى المِطالِبَ من غيرِ أَبوابِها؟ ولكُلِّ واحدٍ مِنَ الرّاضِي والسَّاخِطِ شاكِلَةٌ

(١) زَمِرٌ: قليل.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث، ولمزيد من التفصيل انظر: البداية والنهاية، الجزء الخامس، كتاب الوفود الواردين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يَعْمَلُ عَلَيْهَا، وَشِيمَةٌ يَظْهَرُ بِهَا. عَلَيَّ أَنِّي مَا بَهَّرَجْتُ<sup>(١)</sup> مَذْهَبَ الْمُتَكَلِّمِينَ<sup>(٢)</sup>، وَلَا زَيْفَتِ مَقَالَةَ الْمُتَفَلِّسِينَ. وَإِنَّمَا قُلْتُ فِي أَوْلَائِكَ إِنَّهُمْ ادَّعَوْا «الْعَدْلَ» وَعَمِلُوا بِالْجَوْرِ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَرَكِبُوا الْمُنْكَرَ، وَدَعَوْا النَّاسَ إِلَى اللَّهِ بِالْقَوْلِ وَنَفَرُوا عَنْهُ بِالْفِعْلِ، وَلَمْ يَرْجِعُوا فِيمَا نَصَرُوهُ وَذَبُّوا عَنْهُ إِلَى وَرَعٍ ظَاهِرٍ وَتَحَرُّجٍ مَعْرُوفٍ، وَيَقِينٍ لَا خِلَاجَ<sup>(٣)</sup> فِيهِ، كَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُهُمْ وَأَعْلَامُهُمْ؛ وَاصِلٍ، وَعَمْرٍو، وَالْحَسَنَ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ.

وهذا ما لا أحتاج إلى الاعتذار منه؛ فإني سمعت الديانين منهم يقولون هذا فيهم، ويرؤونه من الداء الذي قد أعضل عليهم.

ثم إنني ما رأيت أحداً سكت عن أحدٍ من سفهائهم تغافلاً عنه أو حصراً<sup>(٤)</sup> له إلا ورأيته يقول ويطنب في ابن عبّاد غير خاشٍ ولا مُتَحَاشٍ، لعظم الآفة به على المذهب، وتفاقم الأمر بمكانه على أهله.

وما قولِي هذا فيهم إلا كقولك يومَ اجتماعنا في مقبرة معروف الكرخي لبعض الشيعة: لو كنتَ دائماً بحُبِّ آل الرسول معتقداً لشرف العترة<sup>(٥)</sup> راجعاً إلى صحّة السريرة والعقيدة لظهر ذلك في عفتك وورعك، وصلاتك وصيامك، وحجّك، وعبادتك واجتهادك، وصدقتك ومواساتك؛ مع إحياء الليل وإظماء النهار، واقتداءً بالذين إياهم تُحب، وعنهم تُذُبُّ؛ ولم تكن تقنع من جميع محاسن المذهب بسبّ السلف وتضليل الأمة، وثلب الصالحين وتكفير السابقين وتدنيس الطاهرين.

(١) بَهَّرَجْتُ كَلَامَهُ: زَيْفُهُ بِحَيْثُ لَا يُعْبَرُ عَنِ الْوَاقِعِ، زَوْقَ كَلَامِهِ.

(٢) الْمُتَكَلِّمِينَ: يَقْصِدُ بِهِمُ الْمُعْتَزِلَةَ.

(٣) لَا خِلَاجَ: لَا شَكَّ أَوْ رَيْبَ.

(٤) حَصْرًا: كَتْمًا أَوْ إِخْفَاءً.

(٥) الْعِتْرَةُ: نَسْلُ الرَّجُلِ، وَرَهْطُهُ، وَعَشِيرَتُهُ. وَالْمَرَادُ هُنَا عِتْرَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقولك لهذا الرجل الشيعي هو قولِي للمتكلّم إذا كان دعيًّا، ولم يكن في مذهبه  
برًّا تقيًّا.

وأما ابن العميد، فمن هذا الذي يتفلسف على بصيرة ومعرفة، وهو يرضى سيرته،  
ويحمد هديّه، ويراه قدوةً ويعُدّه سعيدًا؟

كأنّ الفلسفة إنما تكون بالدعوى باللسان، من غير عمل ومعاناة ورياضة، وقمع  
للشهوة إذا غلبت، وردع للنفس إذا طغت، واستصلاح للأموال بالعدل المؤثر فيها،  
وطلب السعادة والفوز في العاقبة على ما رسمه علماءؤها، وحقّقه حكماؤها.

هيهات! ظنُّ لا تسافر فيه العين، وقولٌ لا يصبر على لَفْح الكير<sup>(١)</sup>. فليت شعري  
بعد هذا من الخصم الذي يركب البهت<sup>(٢)</sup>، ويدفع العيان، ويسحر العقول، وي طرح  
الأذهان، ويقول: ليس القول بالعدل والتوحيد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر  
إلا ما هو عليه ابن عباد، ولا الفلسفة إلا ما كان يختاره ابن العميد؟

هذا ما لا يقوله أحد ممن له عقل ونهى<sup>(٣)</sup>، ولا يجترئ عليه من له حجر وحجا<sup>(٤)</sup>،  
خاصةً إن كان ممن يربُّ<sup>(٥)</sup> مروته بالحق، ويصون كلمته عن الكذب، ويغار على  
عقله من تعنيف معنّف، ويأنف لنفسه من لومة لائم.

سمعتُ القاضي أبا حامد المرزورودي يقول: وكان سيّد الفقهاء في وقته، وإمام  
أصحابه في عصره، وعجيب الفضل في جميع أموره: لو أنّ رجلين ظاهرين زكيا  
رجلاً عند الحاكم، ثم سأل الحاكم آخرين مرضيين عن ذلك المزكي بعينه فجرّحاه

(١) الكير: الرّق الذي ينفخ فيه الحداد، والجمع أكيارٌ وكيرة، ويعني هنا أنّ هذا القول لا يثبت للنقد أو التجربة.

(٢) البهت، والبُهتان: الكذب المُفتري.

(٣) النهي: العقل وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤] أي لأولي العقل والحكمة.

(٤) الحجر: العقل. الحجا: الفطنة.

(٥) يربُّ: يتولى ويتعهد.

لكان الحاكم لا يقف ولا يتحير ولا يعيا ولا يحصر، ولكنه يقدم الجرح على التزكية ويعمل به دونها، وبصير إليه تاركاً لها؟

فإن قلت: ما الحكمة في هذا؟

قيل لك: إن اللذين زكياً قالوا بالظاهر، وربما يكثر مثله، ويغلب شبیهه، وربما يتكلف نظيره بالرياء والسمعة، والتفاق والخديعة، والختل والحيلة. فلو لم يكن هذا لأضيت التزكية على ظاهرها؛ وعملت بها، وسكنت إليها. فأما إذا استظهرت فسألت آخرين مرضيين عن المزكى فجرّاه، فكأنما علما من باطن أمره وخافي حاله وكنه غيبه، ومطوي شأنه ما توارى عن عرفان من زكاه، وخفي على بحث من عدله. فكان هذا عندي بالقبول أولى والعمل به أحرى.

هذا ما قاله هذا الرجل العالم، وهلك سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

وابن عبّاد - حفظك الله - ليس بصغير القدر، وابن العميد لم يكن حامل الذكر، وما فيهما إلا من هو غرة زمانه، وتاريخ دهره، لنباهته وصيته، وطول أيامه وامتداد دولته، ومواتاة مراده، وطاعة الناس له، وتوجه الأطماع إليه؛ فكيف يجزّف<sup>(١)</sup> الحديث عنهما مجزّف، ويُلزق الكذب بهما مُلزق، أو يدعي الباطل عليهما مدّع؟

هذا ما لا يطمع فيه خفيف، ولا يعمل عليه عاقل، ولكن حديث الدين والكرم والعقل والمجد والسيرة والهدى والجود والبذل، ليس من حديث الجدد والفتوح والختال والإنفاق<sup>(٢)</sup> والدولة والسناء والمرتبة في شيء.

اللهم إلا أن يكون الفضل كله عند هذا المخالف في كتاب ينشأ ومعنى يقتضب، وقصيدة تُنشد، ورسالة تُحبر، ومسألة تُداول بالعي والبيان، ودعوى تُتناقل بالشبهة،

(١) يُجزّف: جازف بكلامه دون تفكير: تكلم بلا روية، حبط حبط عشواء.

(٢) الختال: المخادعة. الإنفاق: الرواج.

وَعَرَبِيَّةٌ تُشَقِّقُ تَشَقِّقًا، وكلمة تَزَوَّقُ تَزَوِّقًا، وباطل يُنَصِّرُ لِحَاجَةٍ تَدْعُو إِلَيْهِ، وَحَقٌّ يُرْفَضُ لِأَمْرٍ يَحْمِلُ عَلَيْهِ، وَخَصْمٌ يُفْحَمُ بِمَا غَثَّ وَسَمِنَ، وَشُبْهَةٌ تُرَكَّبُ بِمَا ظَهَرَ وَبَطَنَ. أَوْ يَكُونُ الْفَضْلَ عِنْدَهُ، وَالتَّمَامُ لَدَيْهِ فِي الْأَمْرِ وَالتَّهْيِي، وَالْعَزَلِ وَالْوَلَايَةِ، وَالقَبْضِ وَالْمُصَادَرَةِ، وَالكَئِدَ وَالغِيْلَةَ، وَالاسْتِخْرَاجَ وَالْحِيْلَةَ، وَالغَاشِيَةَ وَالْحَاشِيَةَ، وَالخَدَمَ وَالْحَشَمَ، وَالذُّورَ وَالقُصُورَ، وَالْمَرَائِبَ وَالْمَوَاكِبَ، فَيَكُونُ كُلُّ مَا يَدَّعِيهِ الْخَصْمُ مَقْبُولًا، وَكُلُّ مَا يَأْبَاهُ مَرْدُودًا؛ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ - بِإِجْمَاعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَالْمَاضِينَ وَالغَابِرِينَ - فِي الدَّيْنُونَةِ وَالتَّأْلُهُ وَالْعَفَافِ وَالتَّحَرُّجِ وَالكَرَمِ، وَالطَّهَارَةِ وَالتَّقَرُّزِ وَالنِّزَاهَةِ وَالرِّقَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْجُودِ وَالْعَطِيَّةِ وَالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ وَالْإِبْقَاءِ وَالْإِغْضَاءِ وَالْوَفَاءِ وَالْإِرْضَاءِ وَالتَّغَافُلِ وَالتَّسْمُحِ وَالبِرِّ وَالتَّعَهُدِ، وَالبِشْرِ وَالتَّطْلَاقَةِ، وَالدَّمَائَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَطَلَبِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، إِمَّا لِلْسَاعَةِ وَإِمَّا لِلْأَبَدِ، فَيَنْبَغِي عَلَيَّ هَذَا أَنْ لَا يَكُونَ لِكَلَامِ الْخَصْمِ سَامِعٌ، وَلَا لِدَعْوَاهِ مُصَدِّقٌ وَلَا لِحُكْمِهِ مُجِيزٌ.

قُلْتُ لِأَبِي الْوَفَاءِ الْمُهَنْدِسِ، وَكَانَ قَدْ رَجَعَ مِنْ عِنْدِ ابْنِ عَبَّادٍ، لَقِيَهُ بِجُرْجَانٍ مُؤَدِّيًّا إِلَيْهِ رِسَالَةً مِنْ بَغْدَادٍ، لَقِيْتُهُ بِالْمَرْجِ فِي لَيْلَةِ عَمِيَاءَ بِالْمَطَرِ وَالبَرْدِ وَالتَّلْجِ وَالسَّيْلِ الْعَرَمِ: كَيْفَ شَاهَدْتَ ابْنَ عَبَّادٍ، فَإِنَّكَ صَيَّرْتَنِي النَّاسَ فِي النَّاسِ؟

فَقَالَ: يَقَالُ لِمِثْلِهِ عِنْدَنَا بَنِيْسَابُورُ: طَبْلٌ هَرْتَمِي، وَيَقَالُ لِمِثْلِهِ عِنْدَ إِخْوَانِنَا بِبَغْدَادٍ: مَا دَحُ نَفْسِهِ يَقْرَأُكَ السَّلَامَ. وَهُوَ مَعَ هَذَا عِنْدَ أَصْحَابِهِ رَقِيعٌ طَيِّبٌ، وَعِنْدَ الْكُتَّابِ أَحْمَقٌ غَلِيظٌ، وَعِنْدَ سَفَلَةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَاحِدُ الدُّنْيَا، وَعِنْدَ الْفَلَسِيفَةِ طَائِرٌ طَرِيفٌ، وَعِنْدَ الصَّالِحِينَ ظُلُومٌ قَاسٌ، وَعِنْدَ اللَّهِ فَاسِقٌ عَاصٍ، وَعِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ أَفَاكٌ أَثِيمٌ، وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ.

وَقُلْتُ لِأَبِي السَّلْمِ نَجْبَةَ بْنِ عَلِيٍّ الشَّاعِرِ الْقَحْطَانِيِّ: أَيْنَ ابْنُ عَبَّادٍ مِنْ ابْنِ الْعَمِيدِ؟

فقد زرتهما مُتَّجِعًا، ورزتهما<sup>(١)</sup> جميعًا.

فقال: كان ابنُ العميدَ أَعْقَلَ، وكان يدَّعي الكرمَ، وابنُ عبَّادٍ أكرمَ، وهو يدَّعي العَقلَ. وهما في دعويَّتهما كاذبان، وعلى سَجِيَّتَيْهِمَا جاريان.

أَنشَدْتُ يَوْمًا عَلَى بَابِ ذَاكَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ فِي دَوْلَةِ امْرِءٍ جَمَالٌ وَلَا مَالٌ تَمَنَّى انْتِقَالَهَا

وَمَا ذَاكَ مِنْ بُغْضٍ لَهَا غَيْرَ أَنَّهُ يَوْمَلُ أُخْرَى وَهُوَ يَرْجُو زَوَالَهَا

فَرُفِعَ إِلَيْهِ إِنْشَادِي، فَأَخَذَنِي وَأَوْعَدَنِي، وَقَالَ لِي: انجُ بِنَفْسِكَ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتَكَ بَعْدَ هَذَا أَوْلَعْتُ<sup>(٢)</sup> الْكِلَابَ دَمَكُ.

وَكُنْتُ قَاعِدًا عَلَى بَابِ هَذَا مِنْذُ أَيَّامٍ فَأَنشَدْتُ الْبَيْتَيْنِ عَلَى سَهْوٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ، فَدَعَانِي وَوَهَبَ لِي دُرَيْهَمَاتٍ وَخُرَيْقَاتٍ، وَقَالَ: لَا تَتَمَنَّ أَنْتِقَالَ دَوْلَتِنَا بَعْدَ هَذَا.

وَأَبُو السَّلْمِ هَذَا مِنْ أَغْزَرِ النَّاسِ فِي الشَّعْرِ، يَحْفَظُ الطَّمَّ وَالرَّمَّ، وَكَانَ طَيِّبَ الْإِنْشَادِ، رَخِيمَ النِّعْمَةِ. أَنشَدَنِي لِابْنِ حَسَانَ:

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

لَا تَطْمَعَا طَمَعًا يُدْنِي إِلَيَّ طَبَعٍ إِنَّ الْمَطَامِعَ فَفَرُّوا لِي غِنَى الْيَأْسِ<sup>(٣)</sup>

لِلنَّاسِ مَالٌ وَلِي مَالَانِ مَا لَهُمَا، إِذَا تَحَارَسَ أَهْلُ الْمَالِ، حُرَّاسُ

مَالِي الرِّضَا بِالَّذِي أَصْبَحْتُ أَمْلِكُهُ وَمَالِي الْيَأْسِ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسُ

(١) رَزَّتَهُمَا: جَرَّبْتَهُمَا وَخَبَّرْتَهُمَا.

(٢) أَوْلَعْتُ: سَقَيْتُ.

(٣) طَبَعٍ: دَنَسٍ وَعَيْبٍ.

وقال لي الخليلي: الرجل مجنونٌ، يعني ابن عباد، وفي طباع المعلمين. سمعته وهو يقول للتميمي الشاعر: كيف تقول الشعر؟ وإن قلته كيف تجيده؟ وإن أجدت كيف تغزُر فيه؟ وإن غزرت فيه فكيف تروم غاية وأنت لا تعرف ما الرّهلق<sup>(١)</sup> وما الهبلع<sup>(٢)</sup>، وما العنط<sup>(٣)</sup>، وما الجلعلع<sup>(٤)</sup>، وما القهقَب<sup>(٥)</sup>، وما الطرطُب<sup>(٦)</sup>، وما القهلبس<sup>(٧)</sup>، وما الخيسفُوج<sup>(٨)</sup>، وما الخزَعبلة<sup>(٩)</sup>، وما القُدَعِملة<sup>(١٠)</sup>، وما العرومط<sup>(١١)</sup>، وما السرومط<sup>(١٢)</sup>، وما الدودري<sup>(١٣)</sup>، وما المكوري<sup>(١٤)</sup>، وما العفشليل<sup>(١٥)</sup>، وما القفشليل<sup>(١٦)</sup>، وما الجلعي<sup>(١٧)</sup>، وما القرشِب<sup>(١٨)</sup>، وما الصقعل<sup>(١٩)</sup>، وما الجرذحل<sup>(٢٠)</sup>، وما الدرديبس<sup>(٢١)</sup>، وما

(١) الرّهلق: الحمارُ الهملاج، وهو أيضاً الحمار السمين المستوي الظهر من الشّحم.

(٢) الهبلع: الكلب السلوقي. والهبلع: اللثيم.

(٣) العنط: اللبن الخاثر.

(٤) جلعلع وجلعلع من الإبل: الحديد (الشديد) النَّفس، والقنقذ، والخنفساء.

(٥) القهقَب أو القهقُم: الجمال الضخم، الطويل الرَّغيب، الضخم المِسْن، الباذجان.

(٦) الطرطُب: الثدي الضخم المسترخي الطويل.

(٧) القهلبس: الضخمة من النساء، والأبيض الذي تعلوه كُدرة.

(٨) الخيسفُوج: حبّ القطن، والخشب البالي.

(٩) الخزَعبلة: أحاديث باطلة، أحاديث مستطرفة تبعث على الضحك.

(١٠) القُدَعِملة: القليل التّافه، من النساء: القصيرة الخسيّة.

(١١) لم أعر على معناها في المعجم.

(١٢) السرومط: الجمال الطويل.

(١٣) الدودري: العظيم الخصيتين.

(١٤) مكوري ومكوري: اللثيم، والقصير العريض، والرؤنة العظيمة، وهي: المكوريّة.

(١٥) عجوز عفشليل: مُسنّة مسترخية اللحم. وكساء عفشليل: كثير الوبر ثقيل جاف، وربما سميت الضبع عفشليلًا به؛ الجوهري: العفشليل الرجل الجافي الغليظ والكساء الغليظ. الأزهري: رجل عفشليل ثقيل وخم.

(١٦) قفشليل: المعرفة، مُعرب.

(١٧) الجلعي والجلعابة كله: الرجل الجافي الكثير الشر.

(١٨) القرشِب من الرجال: الأكل.

(١٩) الصقعل، على وزن السّجّل: التمر اليابس يُنقع في المخض.

(٢٠) الجرذحل من الإبل: الضخم. ناقة جرذحل: ضخمة غليظة. الجرذحل: الوادي.

الأزهري: رجل جرذحل وهو الغليظ الضخم، وامرأة جرذحلة كذلك.

(٢١) الدرديبس: الشيخ والعجوز الفانيان، الداھية، خرزة يشعبُ بها نساء العرب لاستجلاب محبة الرجل.

الطَّرْطَيْسِ<sup>(١)</sup>، وما العَلْطَمِيسِ<sup>(٢)</sup>، وما الجَرَعَبِيلِ<sup>(٣)</sup>، وما الخُنْعَبِيلِ<sup>(٤)</sup>، وما العُبَارِيدِ<sup>(٥)</sup>، وما العَبَايِيدِ<sup>(٦)</sup>، وما العَبَايِيدِ<sup>(٧)</sup>، وما النَّقَابِ<sup>(٨)</sup>، وما الجِرْفَاسِ<sup>(٩)</sup>، وما اللُّووسِ<sup>(١٠)</sup>؟ وما النَّعْثَلِ<sup>(١١)</sup>، وما الطَّرْبَالِ<sup>(١٢)</sup>؟

وما معنى: إنه لظريفٌ ولا تباعة<sup>(١٣)</sup>؛ وما الفرق بين العذم والرذم<sup>(١٤)</sup>، والحدم والحدم<sup>(١٥)</sup>، والخضم والقضم<sup>(١٦)</sup>، والنضح والرضح<sup>(١٧)</sup>، والقضم والفضم<sup>(١٨)</sup>،

- (١) الطَّرْطَيْسِ: الماء الكثير، والعجوزُ المُسْتَرْخِيَّةُ، والناقةُ الخَوَّارَةُ عند الحلب.
- (٢) العَلْطَمِيسُ من النوق: الشديدة الغالية، والهامة الضخمة الصلعاء، والجارية النائمة الحسنة القوام، والكثير الأكل الشديد البلع.
- (٣) الجَرَعَبِيلِ: الغليظ.
- (٤) الخُنْعَبِيلِ: لم أجد لها.
- (٥) العباريد: كذا في الأصل، وفي القاموس المحيط: جارية عُبرْدٌ وعُبرْدٌ وعُبارْدٌ: بيضاء ناعمة، ترنج من نعمتها.
- (٦) العَبَايِيدُ من الخيل والناس: المتفرقون الذاهبون في كل وجه؛ تفرقوا عباييد. العَبَايِيدُ: الطرق المتفرقة، العَبَايِيدُ: الأكام.
- (٧) العباييد من الناس أو الخيل الفرق الذاهبة في كل وجه. الطرق المتفرقة البعيدة. التلال.
- (٨) النَّقَابُ: بكسر النون، القناع، الخمار، الحجاب، العلامة البحاثه الفطن.
- (٩) الجِرْفَاسُ: الضخم الشديد، والجمل العظيم، والأسد الهصور.
- (١٠) اللووس بوزن فعول: الذي يتتبع الحلوات فيأكلها.
- (١١) النَّعْثَلُ: الذكر من الضباع، الشيخ الأحمق.
- (١٢) الطَّرْبَالُ: علم يبنى فوق الجبل. وكل بناء عال كالمنارة ونحوها. وكل قطعة من جبل أو حائط مستطيلة في السماء. والجمع: طرابيل.
- (١٣) التَّبَاعَةُ: تباعة الأمر: عاقبته، وما يترتب عليه من أثر، لي قبل فلان تباعة: علامة.
- (١٤) العذم: العض بالشفة والأخذ باللسان. والوذم: النذل الذي لا مروء له، والقطر والسيلان.
- (١٥) الحدم: شدة إحماء الشيء، والحدم: القطع السريع.
- (١٦) الخضم: الأكل بأقصى الأضراس. والقضم: الأكل بأدناها.
- (١٧) النضح: الرش بالماء، والرمي بالنبال، والدفاع عن النفس. والرضح (بالفتح): كسر الحصى أو النوى، وبالضم: النوى نفسه.
- (١٨) القضم: كسر فيه بينونة، والفضم: الكسر من غير بينونة.

والْقَصْعُ وَالْفَصْعُ<sup>(١)</sup>، وما الْعَبْنَقْسُ، وما الْفَلَنْقَسُ<sup>(٢)</sup>، وما الْوَكْوَاكُ وَالزَّوَنَّاكُ<sup>(٣)</sup>، وما الْخَيْتَعُورُ<sup>(٤)</sup>، وما السَّيْتَعُورُ<sup>(٥)</sup>، وما الْيَسْتَعُورُ<sup>(٦)</sup>، وما الْحِرْذُونُ<sup>(٧)</sup>، وما الْحَلْزُونُ<sup>(٨)</sup>، وما الْقَصْدَرُ<sup>(٩)</sup>، وما الْجُمْعَلِيلُ<sup>(١٠)</sup>. قال الشاعر:

جاءت بخف وحتين ورجل

جاءت تمشي وهي قدام الإبل

مشيَّ الخمعليلة بالحرف النقل

قال: ورأيت بعض الجهال باللغة يصحف هذا ويقول:

بحف وحنين ورخل

قلت للخليلي: من عنى بهذا؟

قال: عنى ابن فارس معلّم ابن العميد أبي الفتح.

(١) القصع: عصر الشيء، ذلك بين الظفرين، والضرب ببسط الكف على الرأس، وشدة المضغ. والصفح: الدلك، وحسر العمامة عن الرأس، وعصر الشيء بين الإصبعين.

(٢) الْعَبْنَقْسُ: السبيء الخلق. وَالْعَبْنَقْسُ: الناعم الطويل من الرجال؛ قال رؤبة: شوق العذارى العارمَ الْعَبْنَقْسَا وَالْعَبْنَقْسُ: الذي جدّناه من قبل أبيه وأمه أعجميتان، وقد قيل إنه بالفاء؛ قال ابن السكيت: الْعَبْنَقْسُ الذي جدّناه من قبل أبيه وأمه أعجميتان وامرأته أعجمية، وَالْفَلَنْقَسُ الذي هو عربي لعربيين وجدّناه من قبل أبويه أمتان وامرأته عربية.

(٣) الْوَكْوَاكُ: الرجل الذي يمشي وكأنه يتدحرج، وهو الجبان أيضًا. الزونك: القصير الذميمة.

(٤) الْخَيْتَعُورُ: كل شيء يتغير ويضمحل، ولا يدوم على حال، السراب المضمحل، الدنيا، شيء كئسيح العنكبوت، يظهر في الحر كالخيوط في الهواء، يقال له: لعاب الشمس، دويبة سوداء تكون على وجه الماء لا تثبت في موضع، الذئب؛ لأنه لا وفاء له، الغول؛ لتلونها، امرأة خيتور: لا يدوم ودّها، الْخَيْتَعُورُ: الغادر، الداهية.

(٥) كذا في الأصل، وكأنه مكرر مع ما بعده.

(٦) الْيَسْتَعُورُ: موضع، وشجر يصنع منه المسواك.

(٧) الْحِرْذُونُ: دويبة.

(٨) الْحَلْزُونُ: دويبة أيضًا.

(٩) كذا، ولم أصل إلى معناها.

(١٠) جُمْعَلِيلُ: مَنْ يَجْمَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، جُمْعَلِيلَةُ: الضَّبْعُ، وَالنَّاقَةُ الْهَرِمَةُ، أَوْ الشَّدِيدَةُ الْوَثِيقَةُ.

قال الخليلي: أفهذا الضربُ من الكلام مما يجب أن يفتخرَ به، ويتدققَ به؟ إنك يا أبا حيان لو رأيتَه يَميسُ وهو يَهذي بهذا وشبهه، ويتَفَهَّقُ فيه، ويُلوي شِدْقَه عليه، ويقذفُ بالبُرْاقِ على أهلِ المجلس، لحمدتَ الله تعالى على العافيةِ مما بُلي به هذا الرجل.

وبعدُ فما بينَ الشاعرِ وبينَ هذا الضربِ؟ الشاعرُ يطلبُ لفظًا حُرًّا، ومعنىً بديعًا، ونظمًا حُلُوًّا، وكلمةً رشيقةً، ومثالًا سهلًا، ووزنًا مقبولًا.

قان للخليلي: فما بالُ الناسِ، مع علمهم برقاعته وجنونه، قد لزموا فناءه، وتزاحموا على بابه؟

فقال لي: يا هذا! خلَّت الدنيا من الكرم والكِرام، واصطَلح الناسُ على قلةِ المباحاةِ بالفضائل، وكان هذا كله منوطًا بالخلافة، فانقضت أيامُ الصدرِ الأولِ بالدينِ الخالصِ، وأيامُ بني مروانِ بالرياءِ والسُّمعةِ، وأيامُ بني العباسِ بالمروآتِ والتوسعِ في الشَّهواتِ، ولم يبقَ بعد هذا شيءٌ.

ولا بد للناسِ من الانتجاعِ، أخصبتِ البلادُ أم أجذبتِ، والحرفُ لا تسعُ الخلقَ، والمرتبةُ الواحدةُ لا تحفظُ النظامَ، ولا بُدُّ للناسِ من التقسُّمِ بين الرِّفعةِ والضَّعةِ، وعلى ما بينهما من الأحوالِ؛ على أن الكرم والعطاء، والبذلُ وحُبُّ الشَّاءِ، والهزَّةُ والأزْيحيةُ أمورٌ قد فُقدت منذُ زمانٍ، وقامتَ عليها النوادبُ في كلِّ مكانٍ. هذا ثمامةٌ<sup>(١)</sup> المتكلمُ يحكي بلسانه، وهو صاحبُ المأمون، قال: دخلَ التَّوشِجاني على المأمون، فقال: يا أميرَ المؤمنين! ما في بين مالِ الصدقاتِ درهمٍ، وقد كثرَ الغارمُون.

فقال المأمون:

وكيف لا يكثرون وثلاثةُ أرغفةٍ بدرهمٍ، وهاهنا أناسٌ لا حرفةَ لهم، ولا إفضالٍ من

(١) هو ثمامة بن أشرس، أبو معن النميري: أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء. وله أخبار ونوادر، يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد.

مُوسِرِيهِمْ عَلَى مُعْسِرِيهِمْ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ شَهِدَتْ أَيَّامَ الرَّشِيدِ وَالخَرَاجُ أَقْلٌ وَأَرَذَلٌ، وَإِنَّ فِيهَا لِأَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ يَدٍ بِالْخَيْرِ طَوِيلَةً، وَبِالْعَطَايَا سَائِلَةً، وَلِلْمَعْرُوفِ بَازِلَةً، وَلِلْأَرْحَامِ وَاصِلَةً.

وَرَوَى عَنْ سَابِقِ بَنِي هَاشِمٍ فِي هَذَا أَعْجَبَ كَلَامٍ، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ غِنَى فُقَرَائِكُمْ فِي أَكْثَرِ مِنْ زَكَاةٍ أَعْنِيَاكُمْ لَفَرَضَ ذَلِكَ لَهُمْ. فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.  
أَيْنَ أَوْلِيكَ الْبِرَامِكَةَ؟ وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْهُمْ الْيَوْمَ؟ كَانَ مَعْرُوفُهُمْ يَسَعُ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَيَعْمُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، مَرَّةً يَغْرِفُ وَمَرَّةً يَنْزِفُ<sup>(١)</sup>، مَا لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا تَشْمِيرُهُ.

وَمِنْ أَوْلِيكَ زُبَيْدَةُ بِنْتُ جَعْفَرٍ وَابْنُهَا، إِنِّي وَاللَّهِ لِأَحْسَبُهُمَا فَرَقًا مِنَ الْمَالِ فِيمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِمَا وَطَلَبَ مَعْرُوفَهُمَا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ؛ وَلَقَدْ كَانَ لِمَنْ ذَكَرْتُ بَطَانَةَ، وَلِلْبَطَانَةِ بَطَانَةَ، وَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَالْبَدْلِ فِي الْجَارِ وَالْحَمِيمِ وَالسَّائِلِ وَابْنِ السَّبِيلِ مَا لَوْ أَحْصِيَ لَطَالَ ذِكْرُهُ وَعَظُمَ قَدْرُهُ. فَمَا بِالْعِرَاقِ الْيَوْمَ مِنْ يَجُودٍ بِدَرَاهِمٍ وَلَا رَغِيفٍ، أَوْ لَيْسَ مِنْ انْقِلَابِ الزَّمَانِ أَنْ صَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَشِيرٍ أَحَدَ أَجْوَادِهِ، وَأَحَدَ أَبْوَابِ الْمَعْرُوفِ؟ فَمَا ظَنُّكُمْ بِنَا وَقَدْ حُشِرْنَا فِي زِمْرَةٍ وَاحِدَةٍ؟ ثُمَّ مَيِّزَ أَهْلَ كُلِّ زَمَانٍ فَإِذَا نَظَرَ إِلَى أَهْلِ زَمَانِنَا لَمْ يَقُمْ فِي الْمَبَاهَاةِ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ وَمَالِكُ بْنُ شَاهِيٍّ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

اكتب لهم إلى البلدان، وانظر من كان منهم مُحْتَمِلًا<sup>(٢)</sup> فارم به إلى الأطراف وأجنحة الثغور، ومن قل ماله ورث حاله، وقعد به العدم عن الحركة الشاسعة فلا تجاوز به الموصل والبصرة، وفرق فيهم ألف درهم، وعجل سراحهم الأول فالأول.  
ثم قال لي الخليلي: حصّل الآن زمانك من زمان المأمون حين قال هذا القول، وميّز هذا التمييز، ودأوني بهذا الدواء. والله إن هذا لعجب! حصلنا في حديث ابن

(١) يغرف: ينال جزءاً من هذا المعروف، وينزف: ينال الكثير منه.

(٢) مُحْتَمِلًا: قادراً.

العميد عَلَى أَنْ يُقَالَ: جَمَشَكَ<sup>(١)</sup> عَمِيدِي، وفي حديث ابن عَبَّادِ عَلَى أَنْ يُقَالَ: هذا رِكَابٌ صَاحِبِي. إِنِّي لِأَجِدُ فِي صَدْرِي غَلِيلاً لَا يَبْرُدُهُ شَيْءٌ، من ذهابِ الكَرَمِ وَفَقْدِ الكِرَامِ وَقَلَّةِ المُبَالِي بِذَلِكَ.

قلت للخليلي أَيضاً: ومع هذا كَلَّهَ أَيْنَ ابْنُ عَبَّادٍ من ابن العميد؟ فقد خبرت ذلك بملازمتك، وعرفت هذا بتعرُّضك.

فقال: أَمَّا ذَاكَ فَكَانَ لَا يُعْطِيكَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ لَا يُطْمَعُكَ.

وَأَمَّا هَذَا فَإِنَّهُ يُطْمَعُكَ حَتَّى يَسْتَفْرِعَكَ، ثُمَّ يَرْمِيكَ بِالْحَرَمَانِ أَوْ بَعْطَاءٍ شَبِيهِ بِالْحَرَمَانِ. وَتَفْسِيرُ هَذَا عِنْدَكَ يَا أَبَا حَيَّانَ.

قلت: كَيْفَ كَانَ عِلْمُ ذَاكَ مِنْ عِلْمِ هَذَا.

قال: كَانَ ذَاكَ يَدَّعِي الفَلَسَفَةَ دَعْوَى شَدِيدَةٍ، وَلَكِنْ لَا يُنَادِي عَلَيْهَا فِي الْأَسْوَاقِ.

وهذا يدَّعي علم الدين، وهو يعرضه فيمن يريد.

قلت له: كَيْفَ كَانَ ابْنُ الْعَمِيدِ فِي أَمْرِ الطَّعَامِ؟

قال: كَانَ مَكْبُوتَ الْأَنْفَاسِ عِنْدَ اخْتِلَافِ الْأَضْرَاسِ، كَدِرِ الْإِحْسَاسِ عِنْدَ دَوْرَانِ

الكَاسِ، وَهَذَا مِمَّا يُخَالِفُ مَا عَلَيْهِ كِرَامُ النَّاسِ.

قلت: فَكَيْفَ كَانَ ابْنُ عَبَّادٍ لِأَهْلِ الْعِلْمِ؟

قال: إِنَّ كَذْبَهُ وَخَدَعُوهُ وَمَوَّهُوا عَلَيْهِ وَنَافَقُوهُ وَتَمَلَّقُوهُ قَرَّبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ، وَأَكْرَمَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ، وَإِنْ صَدَّقُوهُ وَمَاتَنُوهُ<sup>(٢)</sup> وَثَبَّتُوا لَهُ أَبْعَدَهُمْ وَأَقْصَاهُمْ، وَحَرَمَهُمْ وَأَخْزَاهُمْ.

فَمَا ذَنْبِي - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - إِذَا سَأَلْتُ عَنْهُ مَشَايخَ الْوَقْتِ وَأَعْلَامَ الْعَصْرِ فَوَصَّفُوهُ

جَمِيعاً بِمَا جَمَعْتَ لَكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ؟

(١) جَمَشَكَ: حذاء بالفارسية. وكأنه كان مشتهراً بالنسبة إلى ابن العميد، وكذلك رِكَابٌ صَاحِبِي.

(٢) ماتنوه: عارضوه في جدل أو خصومة.

عَلَى أَنِّي قَدْ سَتَرْتُ كَثِيرًا مِنْ مَخَازِيهِ، إِمَّا هَرَبًا مِنَ الْإِطَالَةِ أَوْ صِيَانَةً لِلْقَلَمِ مِنْ رَسْمِ الْفَوَاحِشِ، وَنَتَّ الْعِضْلَةَ<sup>(١)</sup>، وَذِكْرٍ مَا يَسْمُحُ مَسْمُوعُهُ، وَيُكْرَهُ التَّحَدُّثُ بِهِ.

هَذَا سِوَى مَا فَاتَنِي مِنْ حَدِيثِهِ، فَإِنِّي فَارَقْتُهُ سَنَةَ سَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةَ.

أَوْ مَا ذَنَّبِي إِنْ ذَكَرْتُ عَنْهُ مَا جَرَّعَنِيهِ مِنْ مَرَارَةِ الْخِيْبَةِ بَعْدَ الْأَمْلِ، وَحَمَلَنِي عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْفَاقِ بَعْدَ الطَّمَعِ، مَعَ الْخِدْمَةِ الطَّوِيلَةِ، وَالْوَعْدِ الْمَتَّصِلِ، وَالظَّنِّ الْحَسَنِ؛ حَتَّى كَأَنِّي خُصِّصْتُ بِخَسَاسَتِهِ وَحَدْيِي، أَوْ وَجِبَ أَنْ أَعَامَلَ بِهِ دُونَ غَيْرِي.

قَدَّمَ إِلَيَّ نَجَاحُ الْخَادِمِ، وَكَانَ يَنْظُرُ فِي خِرَازِنَةِ كُتُبِهِ ثَلَاثِينَ مَجْلَدَةً مِنْ رِسَائِلِهِ، وَقَالَ: يَقُولُ لَكَ مَوْلَايَ: انسخ هذه فإنه قد طلب من خراسان.

فَقُلْتُ بَعْدَ ارْتِيَاعِ: هَذَا طَوِيلٌ، وَلَكِنْ لَوْ أَدِنَ لَخَرَجْتُ مِنْهُ فِقْرًا كَالْغُرْرِ، وَشَدُورًا تَدُورُ فِي الْمَجَالِسِ كَالشَّمَامَاتِ وَالِدَسْتَبُويَاتِ<sup>(٢)</sup> لَوْ رُقِيَ بِهَا مَجْنُونٌ لِأَفَاقٍ، وَلَوْ نُفِثَ عَلَى ذِي عَائِنَةٍ<sup>(٣)</sup> لَبْرِيءٍ، لَا تُمَلُّ وَلَا تُسْتَعْتَّ<sup>(٤)</sup>، وَلَا تُعَابُ وَلَا تُسْتَرْتُ<sup>(٥)</sup>.

فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَيْهِ عَلَيَّ وَجْهَ مَكْرُوهٍ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ، فَقَالَ:

طَعَنَ فِي رِسَائِلِي وَعَابَهَا، وَرَغِبَ عَنْ نَسْخِهَا، وَأَزْرَى بِهَا، وَاللَّهِ لِيُنْكَرَنَّ مِنِّي مَا عَرَفَ، وَلِيَعْرِفَنَّ حَظَّهُ إِذَا انصَرَفَ. كَأَنِّي طَعَنْتُ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ رَمَيْتُ الْكُعْبَةَ بِخِرْقِ الْحَيْضِ، أَوْ عَقَرْتُ نَاقَةَ صَالِحٍ، أَوْ سَلَحْتُ فِي زَمْزَمٍ، أَوْ قُلْتُ كَانَ النَّظَامُ مَانُويًا<sup>(٦)</sup>، أَوْ

(١) النَّثُّ: الإذاعة والنشر. العِضْلُ: الشديد القبح.

(٢) نوع من الطيب.

(٣) ذو عائنة: المصاب بالعين.

(٤) تُسْتَعْتَّ: تعد رديئة فاسدة.

(٥) تسترت: تعد رثة خلقة.

(٦) (المانوية) نسبة إلى ماني بن فاتك ولد بجنوبي بابل نحو سنة ٢١٦ ميلادية، وأدعى النبوة، وهي فرقة غنوصية مسيحية كانت أخطر البدع التي تعرضت لها المسيحية وأطولها عمرًا، وتختلط فيها التعاليم المسيحية بالتعاليم اليهودية والبوذية والزرادشتية، وأهم أركانها القول بالثنائية، أي: إله للنور وإله للظلام.

كان العَلَّاف ديصانيًّا<sup>(١)</sup>، أو كان الجبَّائي بُتْرِيًّا<sup>(٢)</sup>، أو مات أبو هاشم في بيت خَمَّار، أو كان عبَّاد معلِّم الصبيان<sup>(٣)</sup>.

وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلِّدة؟ ومَن هذا الذي يَسْتَحْسِن هذا التكليف حتى أعذره في لومي على الامتناع؟ أيِّ إنسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو بعده أن يمتَّعه الله ببصره أو ينفعه بيده؟

ثم ما ذنبي إذا قال لي: من أين لك هذا الكلام المفوِّف المشوِّف<sup>(٤)</sup> الذي تكتب إليَّ به في الوقت بعد الوقت؟

فقلت: وكيف لا يكون كما يوصِّف وأنا أقطف من ثمار رسائله، وأستقي من قلب<sup>(٥)</sup> علمه، وأشيمُّ بارقة أدبه، وأرد ساحل بحره، وأستوكفُ قَطْرَ مُزْنِه؟ فيقول: كذبتَ وفجرتَ لا أمَّ لك! ومن أين في كلامي الكُدِيَّة<sup>(٦)</sup> والشحذ والضَّرع والاسترحام؟ كلامي في السماء، وكلامك في السَّماد.

هذا - أيدك الله - وإن كان دليلًا على سوء جدِّي، فإنه دليل أيضًا على انحلاله وتخرُّقه وتسرعه ولؤمه. انظر كيف يَسْتَحِيل معي عن مذهبه الذي هو عرقه النَّابض وسوسه الثابت وديدنه المألوف. وهلاَّ أجراني مُجْرَى التَّاجر المصري والشاذياشي وفلان وفلان؟

(١) الديصانية نسبة إلى مؤسسها ديسان الذي وُلد على «نهر ديسان»، فرقة مهرطقة من فرق المثنوية كانت منتشرة في العراق في العصر العباسي، وكانت لهم مناظرات مع فلاسفة ومحدثي الإسلام آنذاك، من أبرزها مناظرة «أبي شاكر الديصاني» مع هشام بن الحكم الكوفي تلميذ الإمام جعفر بن محمد الصادق.

(٢) البترية: أصحاب كثير النوا، الملقب بالأبتر، وقد سموا بذلك لتركهم الجهر بالبسملة بين السورتين، وقيل: لما أنكر سليمان بن جرير النص على علي، سماه المغيرة ابن سعيد أبتر، وتدعي الصالحة أيضًا، نسبة إلى الحسن بن صالح بن حي الهمداني المتوفى سنة ١٦٩ هـ. وهي فرقة من فرق الشيعة الزيدية.

(٣) يقصد عباد بن العباس والد صاحب، وكان معلمًا بقرية من قرى طالقان الديلم.

(٤) المفوف: الموشى. المشوف: المزَّين.

(٥) القلب: البئر.

(٦) الكُدِيَّة: الإلحاح في المسألة.

أو ما ذنبي إذا قال لي: هل وصلت إلى ابن العميد أبي الفتح ببغداد؟ فأقول: نعم رأيتُه وحضرتُ مجلسه وشاهدت ما جرى له، وكان من حديثه فيما مُدح به كذا وكذا، وفيما تقدّم منه كذا وكذا، وفيما كفى فيه كذا وكذا، وفيما تكلف من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا، ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا وكذا، ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا؛ فيزوي<sup>(١)</sup> وجهه ويتكره حديثه، وينجذب إلى شيء آخر ليس مما شرع فيه، ولا مما حُرِّك له. ثم يقول: أعلم أنك إنما انتجعتَه من العراق، فأقرأ عليّ رسالتك التي توسّلت إليه بها، وأسهب مقررًا لها فيها، فأتَمَّع فيأمر ويشدد، فأقرؤها فيتقد ويذهل.

وأنا أكتبها لك ها هنا لتكون زيادةً في الفائدة.

بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم هب لي من أمري رشدًا، ووفّقني لمرضاتك أبدًا، ولا تجعل الحرمان عليّ رصداً<sup>(٢)</sup>.

أقول وخير القول ما انعقد بالصواب، وخير الصواب ما تضمّن الصدق، وخير الصدق ما جلب النفع، وخير النفع ما تعلق بالمزيد، وخير المزيد ما بدأ عن شكر، وخير الشكر ما بدأ عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن إيقان، وخير الإيقان ما صدر عن توفيق.

لما رأيت شبابي هرمًا بالفقر، وفقرني غنى بالقناعة، وقناعتي عجزًا عند التحصيل، عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه، فرأيت طرفه عني نايبًا، وعنائه عن رضاي مثنياً، وجانبه في مرادي خشناً، وإنفاقي في أسبابه سيئًا، والشامت بي على الحدّان متماديًا؛ طمعت في السكوت تجلداً، وانتحلت القناعة رياضة، وتألّفت

(١) زوى وجهه: نحاه وصرفه.

(٢) رصداً: رقيباً.

شاردَ حرصي متوقفاً<sup>(١)</sup>، وطويت منشورَ أمرِي متنزّهاً، وجمعتُ شتيت رجائي ساليًا،  
وادرعت الصبرَ مُستمرًّا، ولبست العفافَ محمودًا، واتخذت الانقباضَ صناعةً،  
وقمت بالعلاء مجتهدًا.

هذا بعد أن تصفحت الناس فوجدتهم أحدَ رجلين: رجلًا إن نطق نطق عن غيظ  
ودمئة<sup>(٢)</sup>، وإن سكت سكت على ضغنٍ وإحنة. ورجلًا إن بذل كدرَ بامتتانه بذله،  
وإن منع حصنَ باحتياله بخله؛ فلم يطلَ دهرِي في أثنائه متبرّمًا بطول الغربة وشطف  
العيش، وكلبَ الزمان وعجف<sup>(٣)</sup> المال، وجفاء الأهل وسوء الحال، وعادية العدو  
وكسوف البال؛ متحرقًا<sup>(٤)</sup> من الحق على لئيم لا أجد مُنصرَفًا عنه، متقطعًا من الشوق  
إلى كريم لا أجد سبيلًا إليه - حتى لاحت لي غرة الأستاذ فقلت: حلّ بي الويل، وسال  
بين السيل!

أين أنا عن ملك الدنيا، والفلك الدائر بالنعمة؟

أين أنا عن مشرق الخير ومغرب الجميل؟

أين أنا عن بدر البدر وسعد السعد؟

أين أنا عن يرى البخل كفرًا صريحًا، ويرى الإفضال دينًا صحيحًا؟

أين أنا عن سماء لا تفتّر عن الهطلان، وعن بحر لا يقذف إلا باللؤلؤ والمرجان.

أين أنا عن فضاء لا يُشققُ غباره، وعن حرم لا يُضام جوارؤه؟

أين أنا عن منهل لا صدرَ لفراطه ولا منع لورّاده؟

أين أنا عن ذوب لا شوب فيه، وعن صدد لا حدّ<sup>(٥)</sup> دونه؟

(١) متوقفاً: مثبّتا.

(٢) الدمئة: الحقد القديم الدائم.

(٣) العجف: الهزال وذهاب السمن، وكأنه يريد قلة المال.

(٤) متحرقًا: ملتهبًا من الحق.

(٥) الصدد: الناحية تستقبلك. الحدد: المنع، لا حدد دونه، أي لا يمنع منه مانع.

بلى!

أين أنا عمّن قد أتى بنبوة الكرم، وإمامة الإفضال، وشريعة الجود، وخلافة البذل،  
وسياسة المجد، نسيمة مشيمة البوارق، ونفسه نفيسة الخلائق؟

أين أنا عن الباع الطويل والأنف الأشمّ والمشرّب العذب والطريق الأمّ؟  
لم لا أقصد بلاده؟

لم لا أفتدح زناده؟

لم لا أنتجع جنابه وأرعى مراده<sup>(١)</sup>؟

لم لا أسكن ربه وأستدعي نفعه؟

لم لا أخطب جوده وأعتصر عوده؟

لم لا أستمطر سحابه وأستسقي ربابه<sup>(٢)</sup>؟

لم لا أستميح نيله وأستسحب ذيله؟

لم لا أحجّ كعبته، وأستلم ركنه؟

لم لا أصلي إلي مقامه مؤتمًا به؟

لم لا أسبح بثنائه متقدسًا؟

لم لا أحكم في حالي:

فتى صيغ من ماء البشاشة وجهه فألفاظه جودٌ وأنفاسه مجدٌ  
لم لا أقصد:

فتى بان للناس في كفه من الجود عيان نضاختان  
لم لا أمتري معروف:

(١) المراد: المرعى.

(٢) الرّباب: سحابٌ أبيض متوسّط الارتفاع، يكون رقيقًا وقد يغلظ حتّى يحجب الشمس أو القمر.

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجَسْمِهِ إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ، شَحُوبٌ  
لَمْ لَا أَمْدَحُ:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِرُوحِهِ وَيَعْلَمُ أَعْقَابَ الْحَدِيثِ تَدْوِمَ

نعم!

لَمْ لَا أَنْتَهِيَ فِي تَقْرِيبِ فَتَى لَوْ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَلَوْ كَانَ مِنَ  
الْأَنْبِيَاءِ لَكَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْخُلَفَاءِ لَكَانَ نَعْتُهُ اللَّائِذَ بِاللَّهِ، أَوْ الْمُنْصِيفَ  
فِي اللَّهِ، أَوْ الْمُعْتَصِدَ بِاللَّهِ، أَوْ الْمُتَّصِبَ لِلَّهِ، أَوْ الْغَاضِبَ لِلَّهِ، أَوْ الْغَالِبَ بِاللَّهِ، أَوْ  
الْمَرْضِيَّ لِلَّهِ، أَوْ الْكَافِيَ بِاللَّهِ، أَوْ الطَّالِبَ بِحَقِّ اللَّهِ، أَوْ الْمُحْيِي لِدِينِ اللَّهِ.

أَيُّهَا الْمُنْتَجِعُ قَرْنِ كَلْتِهِ<sup>(١)</sup>، الْمُخْتَبِطُ وَرَقِ نِعْمَتِهِ، ارْعَ عَرِيضَ الْبَطَانِ<sup>(٢)</sup> مُتَمَيِّنًا، وَكُلْ  
خَضْمًا<sup>(٣)</sup> نَاعِمَ الْبَالِ مُتَعَوِّدًا بَعْرَهُ، وَعِشْ رِخِيَّ اللَّبِّبِ<sup>(٤)</sup> مُعْتَصِمًا بِحَبْلِهِ، وَلِذْ بَدْرَاهِ أَمْنِ  
السَّرْبِ، وَامْحُضْ وَدَهْ بَأْنِيَةِ الْقَلْبِ، وَقِ نَفْسَكَ مِنْ سَطْوَتِهِ بِحُسْنِ الْحِفَافِ، وَتَخَيَّرْ لَهُ  
أَلْطَفَ الْمَدْحِ، تَفُزْ مِنْهُ بِأَيْمَنِ الْقَدْحِ؛ وَلَا تَحْرِمْ نَفْسَكَ بِقَوْلِكَ: إِنِّي غَرِيبُ الْمَثْوَى نَازِحُ  
الدَّارِ، بَعِيدُ النَّسَبِ مَنَسِيَّ الْمَكَانِ. فَإِنَّكَ قَرِيبُ الدَّارِ بِالْأَمَلِ، دَانِي النَّجْحِ بِالْقَصْدِ،  
رَحِيبُ السَّاحَةِ بِالْمُنَى، مَلْحُوظُ الْحَالِ بِالْجِدِّ، مَشْهُورُ الْحَدِيثِ بِالْدَرْكِ.

وَاعْلَمْ عِلْمًا يَلْتَحِمُ بِالْيَقِينِ وَيَدْرَأُ<sup>(٥)</sup> مِنَ الشُّكِّ أَنَّهُ مَعْرُوفُ الْفَخْرِ بِالْمَفَاخِرِ، مَأْثُورُ  
الْأَثْرِ بِالْمَأْثَرِ؛ قَدْ أَصْبَحَ وَاحِدَ الْأَنَامِ، تَارِيخَ الْأَيَّامِ، أَسَدَ الْغِيَاضِ يَوْمَ الْوَعْيِ، نَوَّرَ  
الرِّيَاضِ يَوْمَ الرِّضَا، إِنْ حُرِّكَ عِنْدَ مَكْرَمَةٍ حُرِّكَ غُصْنًا تَحْتَ بَارِحِ<sup>(٦)</sup>، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى

(١) قرن الكلاً: خيره.

(٢) البطان: الحزام. وإنه لعريض البطان: رخي البال.

(٣) الخَضْمُ: الأكل، أو بأقصى الأضراس، أو ملء الفم بالمأكول، أو خاصص بالشيء الرطب، كالتناء.

(٤) رخي اللبب: اللبب: البال، ورخي اللبب: في سعة وأمن وخصب.

(٥) يدرأ من الشك: يخرج منه، يدفعه ويمنعه.

(٦) البارح: النوء، الرِّيح الساخنة.

اللقاء دُعي لَيْثًا فوق سابع.

وَقُلْ إِذَا أَيْتَهُ بِلِسَانِ التَّحَكُّمِ: أَصْلَحُ أَدِيمِي فَقَدْ حَلِمَ<sup>(١)</sup>، وَجَدَّدُ شَبَابِي فَقَدْ هَرِمَ، وَأَنْطِقُ لِسَانِي بِمَدْحِكَ فَقَدْ حَصِرَ<sup>(٢)</sup>، وَافْتَحَ بَصْرِي بِنِعْمَتِكَ فَقَدْ سَدِرَ<sup>(٣)</sup>، وَاتْلُ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فِي اصْطِنَاعِي فَقَدْ سَرَدْتُ صَفَائِحَ التُّجْحِ<sup>(٤)</sup> عِنْدَ انْتِجَاعِي. وَقُلْ: رِشٌّ عَظْمِي فَقَدْ بَرَّاهُ الزَّمَانُ، وَاكْسُ جِلْدِي فَقَدْ عَرَّاهُ الْحَدِثَانُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ: يَا مَالِكَ الدُّنْيَا جُدْ لِي بِبَعْضِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ يَحْرُمُكَ، وَلَكِنْ قُلْ: يَا مَالِكَ الدُّنْيَا هَبْ لِي الدُّنْيَا.

اللَّهُمَّ فَأَخِي بِهِ بِلَادِكَ، وَانْعَشْ بِرَحْمَتِهِ عِبَادَكَ، وَبَلِّغْهُ مَرْضَاتِكَ، وَأَسْكِنْهُ فِرْدَوْسَكَ، وَأَدِمْ لَهُ الْعِزَّ النَّامِيَّ وَالْكَعْبَ الْعَالِيَّ، وَالْمَجْدَ التَّلِيدَ، وَالْجَدَّ السَّعِيدَ، وَالْحَقَّ الْمُرُوثَ، وَالْخَيْرَ الْمَبْثُوثَ، وَالْوَلِيَّ الْمَنْصُورَ، وَالشَّانِيَّ الْمَثْبُورَ<sup>(٥)</sup>، وَالِدَّعْوَةَ الشَّامِلَةَ، وَالسَّجِيَّةَ الْفَاضِلَةَ، وَالسَّرْبَ الْمَحْرُوسَ، وَالرَّيْعَ الْمَأْنُوسَ، وَالْجَنَابَ الْخَصِيبَ، وَالْعُدُوَّ الْحَرِيبَ<sup>(٦)</sup>، وَالْمَنْهَلَ الْقَرِيبَ. وَاجْعَلْ أَوْلِيَاءَهُ بِأَذْلِينَ لَطَاعَتِهِ، نَاصِرِينَ لِأَعَزَّتِهِ، ذَائِبِينَ عَنِ حَرَمِهِ، مُرْفَرِّينَ عَلَى حَوْبَائِهِ.

أَيُّهَا الشَّمْسُ الْمَضِيئَةُ بِالْكَرَمِ، وَالْقَمَرُ الْمَنِيرُ بِالْجَمَالِ، وَالنَّجْمُ الثَّاقِبُ بِالْعِلْمِ، وَالْكَوْكَبُ الْوَقَّادُ بِالْجُودِ، وَالْبَحْرُ الْفِيَاضُ بِالْمَوَاهِبِ، قَدْ سَقَطَ الْعِشَاءُ<sup>(٧)</sup> بَعْبَدِكَ عَلَى سَرَحِكَ<sup>(٨)</sup> فَأَقْرِهْ مِنْ نِعْمَتِكَ بِمَا يُضَاهِي قَدْرَكَ، وَزَوِّجْ هَيْئَتَهُ تَرْبَاهَا مِنَ الْغِنَى، فَطَالَ مَا خَطَبَ كُفَاهَا مِنْ هِي.

(١) الأديم: الجلد. حَلِمَ: فسد.

(٢) حَصِرَ القارئُ والخَطِيبُ: عَيَّ فِي مَنْطِقِهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْكَلَامِ.

(٣) سَدِرَ بصره: لم يكدر يبصر.

(٤) السرد: وضع أشياء متسقة متتابعة بعضها إثر بعض. والصفائح: الحجارة العريضة، فكأن المعنى: قد مهدت لطريق النجاح.

(٥) المثبور: الهالك.

(٦) الحريب: الذي سلب منه كل ما يملك.

(٧) العشاء: أول ظلام الليل، من صلاة المغرب إلى العتمة.

(٨) السرح: فناء الدار.

ثم يُقال لي من بعد: جنيتَ على نفسك حين ذكرتَ عدوّه بخير، وبَيّنتَ عنه، وجعلته سيّد الناس، فأقول: كرهتُ أن يراني مُندرياً<sup>(١)</sup> على عِرْضِ رَجُلٍ عَظِيمِ الخَطَرِ، غَيْرِ مَكْتَرٍ لِلقَعَةِ فِيهِ، وَالإِنْجَاءِ عَلَيْهِ. وَقَدْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ أَشَعَّثَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً وَأُبْرِي مِنْ أَثَلْتِهِ جَانِباً، وَأُطِيرَ إِلَى جَنْبِهِ شَرَارَةً.

فيقال أيضاً: جنيتَ على نفسك وتركتَ الاحتياط في أمرِك؛ فإنه مَقْتَك وعافَك ورأى أَنَّكَ في قولك عَدَوْتَ طُورَكَ، وَجَهَلْتَ قَدْرَكَ، وَنَسِيتَ وَزَنَكَ. وليس مثلك من هَجَمَ على ثَلْبٍ من بَلْعِ رُتْبَةٍ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَأَنْتِ مَتَى جَسَرْتَ عَلَى هَذَا دَرَبْتَ بِهِ<sup>(٢)</sup> وجعلتَ غيرَه في قَرَنِهِ.

فإذا كانت هذه الحالاتُ ملتبسةً، وهذه العواقبُ مجهولة فهل يدورُ العملُ بعدها إلا على الإحسان الذي هو علة المحبّة، والمحبّة التي هي علة الحمد، والإساءة التي هي علة البُغْضِ، والبُغْضُ الذي هو علة الذمّ؟ فهذا هذا.

وكان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول وأجاد اللفظ. وكان الصوابُ غالباً عليه، وله رفق في سرد حديث، ونيقة<sup>(٣)</sup> في رواية خبر، وله شمائل مخلوطة بالدمائة، بين الإشارة والعبارة.

وهذا شيءٌ عامٌّ في البغداديين وكالخاصّ في غيرهم.

حدّثته ليلةً بحديث فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاد، ثم قيل لي بعد: إنه كان يقول: قاتل الله أبا حيان! فإنه نكد وإنه وإنه وأكره أن أروي ذمّي بقلمِي، وكان ذلك كله حسداً محضاً، وغيظاً بحتاً.

وأروي لك الحديث، فإنه في نهاية الطيب، وفيه فُكاهة ظاهرة، وعيٌّ عجيب في

(١) مُندرياً: مندفعاً.

(٢) درب بالأمر/ درب على الأمر: اعتاده وأولع به حتى أصبح حاذقاً بصنعه، مرّن وحذق.

(٣) النِّيْقَةُ: المبالغة في التجويد.

معرض بلاغة ظريفة في ملبس فهاهة.

حدثني القاضي أبو الحسن الجراحي قال: لحقتني مرةً علّةٌ صعبةٌ. فمن طريف ما مرَّ على رأسي فيها أنه دخل عليّ في جملة من عادني شيخُ الشونيزية<sup>(١)</sup> ودوّارة الحمار والتوتة وفتيها أبو الجعد الأنباري، وكان من أصحاب البربهاري<sup>(٢)</sup>، فقال أول ما قعد:

يقع لي فيما لا يقع إلا لغيري أو لمثلي فيمن كان كأنه مني أو كأنه كان على سني أو كان معروفًا بما لا يُعرف به إلا أنني أرى أنك لا تحتمني إلا حميةً فوق ما يجب، ودون ما لا يجب، وبين فوق ما لا يجب وبين دون ما لا يجب فرق، الله يعلم أنه لا يعلمه أحد ممن يعلم أو لا يعلم.

الطبُّ كله أن تحتمني حميةً بين حمتين؛ حمية كلاً حمية، ولا حمية كحمية، وهذا هو الاعتدال والتعديل والتعادل والمعادلة. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَبْكُ ذَلِكَ قَوْمًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «خير الأمور أوساطها، وشرها أطرافها»<sup>(٣)</sup>.

والعلّة في الجملة والتفصيل إذا أقبلت لم تدبر، وإذا أدبرت لم تقبل، وأنت من إقبالها في خوف، ومن إدبارها في التعجب. وما تصنع بهذا كله؟ لا تنظر إلى اضطراب

(١) الشونيزية- كما جاء في معجم البلدان- مقبرة بالجانب الغربي من بغداد تضم رفات جمع من أعلام المسلمين.

(٢) هناك عدة من العلماء يعرفون بالبربهاري، منهم:

أ- محمد بن أبي الحسن بن كوثر البربهاري أبو بحر المتوفي سنة ٣٦٢ هـ.

ب- أبو محمد الحسن بن علي الفقيه الحنبلي الواعظ، المتوفي سنة ٣٢٩ هـ.

ج- أبو بكر محمد بن موسى بن سهل العطار البربهاري، المتوفي سنة ٣١٩ هـ.

ولا يُعرف أي من هؤلاء الثلاثة يقصد أبو حيان.

(٣) ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٩٤٠) بلفظ: «العلم أفضل من العمل، وخير الأمور أوساطها» وقال: موضوع.

الْحَمِيَّة عَلَيْكَ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى جَهْلِ هَؤُلَاءِ الْأَطْبَاءِ الْأَلْبَاءِ الَّذِينَ يُشَقِّقُونَ الشَّعْرَ شَقًّا، وَيُدْقُونَ الْبَعْرَ دَقًّا، وَيَقُولُونَ مَا يَدْرُونَ وَمَا لَا يَدْرُونَ زَرْقًا<sup>(١)</sup> وَحُمَقًا؛ وَإِلَى قَلَّةِ نُصَحِهِمْ مَعَ جَهْلِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَجْهَلُوا إِذَا لَمْ يَنْصَحُوا كَانَ أَحْسَنَ عِنْدَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَلَوْ نَصَحُوا إِذَا جَهِلُوا كَانَ أَوْلَى عِنْدَ النَّاسِ وَأَشْبَاهِ النَّاسِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

أنت في عافية، ولكن عدوك ينظر إليك بعين الأست، ويقول: وجهه وجه من قد رجع من القبر بعد غد. وعلى حال فالرجوع من القبر خير من الرجوع إلى القبر، لعن الله القبر، لا بزاز ولا خباز ولا دراز ولا جلواز<sup>(٢)</sup> ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، عن قريب إن شاء الله، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿وَلَا يَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

تأمر بشيء؟ السنّة في العيادة، خاصّة عيادة الكبار والسادة، التخفيف والتطفيف وقلة الكلام، أنا إن شاء الله عندك بالعشي، والحق الحق وأقوم بما يجب على مثلك لمثلي، وإن كان ليس لك مثل، ولا لمثلي أيضًا مثل؛ هكذا إلى باب الشام وإلى قنطرة الشوك وإلى المزرفة.

أقول لك المثوى، أنا وأنت اليوم كمثل كُمثراتين إذا عفتنا على رأس شجرة، وكدلوين إذا خلقتنا على رأس بئر، ودع ذا القارورة، اليوم لا إله إلا الله، وأمس كان سُبْحانَ اللَّهِ، وغداً يكون شيئاً آخر، وبعد غد ترى من ربك العجب، والموت والحياة بعون الله، ليس هذا مما يُباع في السُّوق، أو يوجد مطروحاً على الطريق، ولكن الإنسان ولا قوة إلا بالله طريف أعمى، كأنه ما صح له منام قط، ولا خرج من السُّمّارية إلى الشط، وكأنه ما رأى قُدرة الله في البط، إذا لقط كيف يتقطّط<sup>(٣)</sup>. والكلام في الإنسان

(١) زَرَقَ الرَّجُلُ: عَمِيَ. يعني يقولون ذلك من عماهم وحمقهم.

(٢) جلواز: شرطي. والجمع: جلاوزة.

(٣) يَتَّقَطُّطُ: يَصَوَّتُ.

وَعَمَى قَلْبِهِ وَسُخْنَةَ عَيْنِهِ كَثِيرٌ لَا يَحْمَلُهُ تَلٌّ عَقْرَقُوفٌ<sup>(١)</sup>، وَلَا يَسْلَمُ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَّا مِنْ عَصْرِ نَفْسِهِ عَصْرَةَ يَنْشَقُّ مِنْهَا فَيَمُوتُ كَأَنَّهُ شَهِيدٌ. وَهَذَا صَعْبٌ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَبَعْضُ خِذْلَانِهِ الْغَرِيبُ. عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلُنَا، وَإِلَيْهِ التَّفَتُّنَا وَرِضِينَا، وَبِهِ اسْتَجْرُنَا، إِنْ شَاءَ خَرَّانَا وَإِنْ شَاءَ أَطْعَمَنَا.

قَالَ الْقَاضِي: فَكِدْتُ أَمُوتُ مِنَ الضَّحْكَ، عَلَى ضَعْفِي، وَمَا زَالَ كَلَامُهُ لَهْوِي إِلَى أَنْ خَرَجْتُ إِلَى النَّاسِ. وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَعْيًا وَلَا يَكَلُّ وَلَا يَقِفُّ، وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ الزَّمَانِ.

وَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّادٍ: حَدَّثَنِي عَنْ بَعْضِ لِيَالِيهِ بِبَغْدَادَ، يَعْنِي ذَا الْكُفَايَتَيْنِ، وَعَنْ مُذَاكِرَةِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَهُ وَمِشَارِكَتِهِ لَهَا.

قُلْتُ: نَعَمْ! حَضَرْتُ لَيْلَةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةَ، فَسَأَلَ عَنِ الْغِنَى أَيَقْصُرُ أَمْ يَمُدُّ؟ قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: الْغِنَى مَقْصُورٌ وَهُوَ الْيَسَارُ وَالتَّرَفُّ، وَالْغِنَاءُ بِالْمَدِّ مَا يُسْمَعُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْرُوفَةِ، إِلَّا أَنْ الْفَرَّاءَ قَدْ حَكَى أَنَّ الْمَدَّ فِي هَذَا الْمَقْصُورِ وَهُوَ حَبَّةٌ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّ قَوْلِهِ.

فَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ: هَكَذَا وَمَا أَصَحَّ حِكَايَتِكَ! وَلَكِنْ قَلْبِي لَا يَطْمَئِنُّ إِلَى مَدِّ هَذَا الْاسْمِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي كَلَامِهِمْ مَمْدُودًا.

فَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: قَدْ أَنْشَدَ الْفَرَّاءُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

سَيُغْنِينِي الَّذِي أَغْنَاكَ عَنِّي فَلَا فِقْرَ يَدُومُ وَلَا غِنَاءُ

فَقُلْتُ: عِنْدِي فِي هَذَا شَيْءٌ، وَمَا دَخَرْتَهُ إِلَّا لِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، وَقَدْ حَانَ وَقْتُهُ.

فَقَالَ: هَاتِ، بَارِكِ اللَّهُ عَلَيْكَ، إِنَّهُ لِحَبَّاءَ بِالْفَائِدَةِ مَا عَلِمْتُ.

قُلْتُ: الشُّعْرُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ، وَالْبَيْتُ الَّذِي يَتْلُوهُ يَشْهَدُ لَهُ، وَهُوَ:

(١) تَلٌّ عَقْرَقُوفٌ: قَرْيَةٌ بِنَوَاحِي نَهْرِ عَيْسَى بِبَغْدَادَ.

سَيُغْنِينِي الَّذِي أَغْنَاكَ عَنِي فَلَا فُقْرِي يَدُومُ وَلَا غِنَاكَ  
تَجْنِيَّتِ الذَّنُوبَ لِتَصْرَمِينِي دَعِي الْعَلَاتِ وَأَتَّبِعِي هَوَاكَ  
فَقَالَ لِي: أَحْسَنْتِ وَأَجَدْتِ! مَنْ أَنْشَدَكَ هَذَا؟

قلتُ: أَبُو اللَّيْلِ الْعَلَوِيُّ بِالْمَدِينَةِ، فِي مَجْلِسِ أَمِيرِهَا أَبِي أَحْمَدِ الْعَلَوِيِّ الْعَقِيقِيِّ.  
قال: فَحَدَّثْنَا عَنْ أَبِي اللَّيْلِ هَذَا وَعَنْ غَيْرِهِ بِشَيْءٍ.  
قلت: سَمِعْتُ شَيْخًا عِنْدَهُ مِنْ بَنِي حَرْبٍ قَدْ أَنْشَدَ آيَاتًا، لَمْ أُعَلِّقْ مِنْهَا إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا،  
وهو:

فَتَى خُلِقَتْ أَرْوَاحُهُ مُسْتَقِيمَةً لَهُ نَفْحَاتُ رِيحُهُنَّ جَنُوبُ  
وكان معنا إذ ذاك أبو صالح الرّازي الصوفي، وكان مُفَوِّهًا جَدِلاً.  
فقال له: ماذا أراد بقوله: «أَرْوَاحُهُ مُسْتَقِيمَةٌ»؟

قال: أَرَادَ أَنْ أَخْلَاقَهُ لَا تَحُولُ عَنِ الْخَيْرِ، وَعَادَتَهُ لَا تَرِيغُ<sup>(١)</sup> إِلَى الْقَبِيحِ، وَأَنَّهُ عَلَى  
دَيْدَنِهِ فِي الْكِرْمِ، وَخَصَّ الْجَنُوبَ لِاسْتِدْرَارِهَا السَّحَابَ، وَجَعَلَ نَفْحَاتِهَا مَنَافِعَ لِهَذَا  
الَّذِي مُدِّحٌ بِهِ.

فقال: زِدْنَا مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الْمَدَنِيِّينَ.

قلتُ: وَسَمِعْتُهُ، أَعْنِي الْحَرْبِيُّ، يَقُولُ لِلْأَمِيرِ أَبِي أَحْمَدَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ:  
أَيُّهَا الْأَمِيرُ!

لِنِي وَلِيَّةٌ تُمْرَعُ جَنَابِي فَإِنِّي لَمَّا نِلْتُ مِنْ وَسْمِي نُعْمَاكَ شَاكِرٌ  
قلتُ: أَعِدْ عَلَيَّ نَسِيحَ قَافِيَتِكَ.

قال: أَمَّا ثَقَفَتَهُ؟

قلتُ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ.

(١) تريغ: تركن، تميل.

قال: لعلك من هذه الفرقة الكلامية.

قلتُ: لعله.

وسمعتُ هذا الحربيّ يقول، وكان يُكنى أبا الخَصِيبِ، لِسَيِّدِ حَيْهٍ، وَهُمَا بِالْعَقِيقِ عَلَى صَفَّةِ الْوَادِي وَقَدْ مَدَّ<sup>(١)</sup>، وَهُمَا يَنْطِقَانِ بِمَا أُحْصِلُ وَلَا أُحْصَلُ، حَتَّى قَالَ أَبُو الْخَصِيبِ لَصَاحِبِهِ:

يَا هَذَا! اسْأَلْ عَن طَارِفِكَ وَتَالِدِكَ، تَسُدُّ بَيْنَ صَاحِبِكَ وَوَأْفِدِكَ، أَمَا سَمِعْتَ فِي هَذِهِ الْقَوَافِي الْأَوَّلِ:

لَوْ كُنْتَ تُعْطِي حِينَ تُسْأَلُ سَامَحْتَ لَكَ النَّفْسُ وَاحْلَوْلَاكَ كُلُّ خَلِيلٍ؟  
فَرَدَّدْتُ الْقَافِيَةَ، وَقُلْتُ: «وَاسْتَحْلَاكَ كُلُّ خَلِيلٍ»:

فَقَالَ لِي مُنْكَرًا: مَا هَكَذَا لَعْتِي!

فَقَالَ ذُو الْكِفَايَتَيْنِ: كَيْفَ كَانَ إِدْرَاكُهُمْ لِمَا يَقَعُ بِالْإِعْرَابِ؟

قلتُ: سَأَلْتُ أبا الْخَصِيبِ هَذَا: أَقُولُ إِنَّ قُرْبِي جَعْفَرًا؟

قال: نعم، فما تبغي؟

قلتُ: أَفَأَقُولُ: إِنَّ بُعْدِي جَعْفَرًا؟

قال: لا، فما تبغي؟

قلتُ: فما الذي يمنع من جوازهما؟

قال: بينهما مُسْنِفَةٌ<sup>(٢)</sup> لَا تُسَلَّكُ، وَرُمَيْلَةٌ لَا تُعْلَى، وَمَا أَعْلَمَ الْغَيْبِ، وَإِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِمَّا قُلْتُ، وَعَلَى رَيْبٍ مِمَّا سَأَلْتُ.

فَسَمِعَ ابْنَ عَبَّادٍ هَذَا كُلَّهُ عَلَى تَغْيِظٍ مَا قَصَدَتْ إِثَارَتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا عَلِمْتُ أَنْ لِي

(١) مَدَّ: كَثُرَ مَاؤُهُ.

(٢) لَعَلُّهَا مِنَ الْفِعْلِ (سَفَا) سَفَا الرِّيحُ التُّرَابَ وَنَحْوَهُ سَفَا سَفِيًّا: دَرَّتُهُ أَوْ حَمَلَتْهُ، أَيْ مَكَانَ تَجْمَعِ التُّرَابِ.

متقَصَّى (١) من نَبْئِي (٢) منه؛ وكان ذلك كله سبب الحرمان.

ولقد ظهرَ لذي الكِفَايَتَيْنِ بمدينة السلام فضلٌ كبيرٌ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَشْخَصْ إِلَّا مَعْتَوِبًا عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ طَرْخَانَ الرَّاقِ رِسَالَةً طَوِيلَةً أَطْلَعَنِي عَلَى فَضْلِ مَنِهَا يَقُولُ فِيهِ: «وَإِنَّكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْهُمَامِ دَخَلْتَ هَذَا الْبَلَدَ إِذَا غَرًّا بِمَا تَرِي وَتَرِي، وَإِنَّمَا عَلَى أَنْ تُبَيِّنَ فَضْلَكَ لِأَهْلِهِ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ تَسْتَفِيدَ مِنْهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ.

فَإِنْ كَانَ دُخُولُكَ عَلَى غَرَارَةٍ، فَمَا هَذَا بِمُشَاكِلٍ لِمَرْتَبَتِكَ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي عُزَّتْهَا مَجْلُوءَةٌ بِيَدِكَ. وَجُمَّتْهَا (٣) مَفْرُوقَةٌ بِمَذْرَى (٤) تَدْبِيرِكَ، وَأَذَاهَا مُمَاطٌ بِذَبَّكَ، وَدَوَاؤُهَا مَأْمُونٌ بِطَبِّكَ، وَعَدْوُهَا مَكْبُوتٌ بِصَوْلَتِكَ، وَدَوْلَتِكَ، وَوَلِيَّهَا قَرِيرُ الْعَيْنِ بِحُسْنِ إِيَالَتِكَ (٥) وَكَفَالَتِكَ.

وَإِنَّمَا أَنْ تُبَيِّنَ فَضْلَكَ، فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِفَضْلِكَ إِلَّا مَوْصُوفًا بِإِفْضَالِكَ، وَلَا يُسَلِّمُونَ لَكَ مُرَادَكَ فِيهِمْ إِلَّا بَأَنَّ يُدْرِكُوا أَمَلَهُمْ مِنْكَ، كَانَ ذَلِكَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، سَلْمًا أَوْ حَرْبًا.

وَإِنَّمَا لِأَنَّ تَسْتَفِيدَ مِنْهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ، وَهَذَا لَا يَكُونُ مَعَ إِذَالَةِ (٦) الْقَاصِدِينَ، وَالِاحْتِجَابِ مِنَ الطَّامِعِينَ وَالتَّكَبُّرِ عَلَى الْحَاضِرِينَ. وَلَوْ حَسُنَ التَّكَبُّرُ بِأَحَدٍ لِحُسْنِ بكَ، لِأَبْوَتِكَ الشَّرِيفَةِ، وَلِغُرَّتِكَ الصَّبِيحَةِ، وَلِكِفَايَتِكَ الظَّاهِرَةِ، وَلِفَضَائِلِكَ الْكَثِيرَةِ. وَلَكِنْ زَرَايَةُ التَّكَبُّرِ عَلَى صَاحِبِهِ أَطْرَدَ لِمَحَاسِنِهِ مِنْ تَدَارُكِهِ - بِتَكَبُّرِهِ - مِنْ غَيْرِهِ مَا يَرِيدُ

(١) متقَصَّى: غاية.

(٢) نَبْئِي: إظهارِي.

(٣) الْجُمَّةُ مِنَ الْإِنْسَانِ: مُجْتَمَعُ شَعْرِ نَاصِيَتِهِ.

(٤) الْمَذْرَى: خَشَبَةٌ ذَاتُ أَطْرَافٍ كَالْأَصَابِعِ يُدْرَى بِهَا الْحَبُّ وَيُنْقَى.

(٥) الْإِيَالَةُ: الْوِلَايَةُ وَالْحُكْمُ.

(٦) إِذَالَةُ: إِهَانَةٌ.

يحلده<sup>(١)</sup>، والناس لا يرضون إلا بالغاية، والغاية أن يظلم الرئيس نفسه تكرماً على زائره، ويجزع الغيظ من كل من قرب ولمس ركابه.

وأنا، أعلى الله كعبك، أحصي أشياء جعلها أصحابنا جوالب للتعب عليك، والكلام من ورائك، وليس لي فيما أقول إلا الفوز بجمال النصح، وإلا الالتذاذ بالتنبه على الكرم، وإلا إثارة سلامة عرضك على قوم همهم المحك في كل حال، وإلا التعرض لذكرك لهم بالجميل بعد الرحيل من هذه الرباع.

فمن تلك الأشياء:

سهوك الذي وقع قد ركد عليك في قبول من تقبل، وإبصال من توصل، وإبعاد من تبعد، وتفضيل من تفضل بقول من حولك، وحكم من أطاف بك. استرسالاً مع الأئس بهم، وثقة بما سلف لهم.

وذهب عليك - أكرمك الله - أن هؤلاء الذين تنظر بأعينهم، وتقبل وترد بأهوائهم، ما خلوا من حسد لمن يخف على قلبك بعينيك ويلتاط بنفسك، والعامّة تقول: «القاص لا يحب القاص».

ولو كان قلبك لكل من اسمه عندك، لصيته البعيد، وسؤالك لمن لا شهرة له قبلك بحسن التأتي في التقريب، لكان حدك حينئذ مقبولاً بما يظهر لك من الزيادة والنقص، وكانت الحجة تقوم بينك وبين من قد ضري على مالك، أو وضع في نفسه أن ينال مراده منك بالخدع، على أن التغافل في هذا الباب أدل على الكرم، كما أن الاستقصاء فيه أجلب فيه للنكد.

فهذا هذا.

وشيء آخر، وهو أصعب مما تقدم، وذلك أن حجابك قد بدد شمل الزوار عنك،

(١) هكذا بالأصل.

وَقَسَمَ ظَنُونَهُمْ بِكَ، وَطَرَحَ فِي قُلُوبِهِمُ الْيَأْسَ مِنْكَ؛ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ لِذَلِكَ مِنْهُمْ، كَمَا أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ لِشِدَّةِ الْحِجَابِ مِنْكَ، وَقَلَّةِ رَافِعِي أَخْبَارِهِمْ إِلَيْكَ.

وشيءٌ آخر، وهو أصعبُ مما تقدم، والسَّهْوُ فيه لاحتقُّ بالظلم. لِمَ يَجِبُ - أَدَامَ اللهُ دَوْلَتَكَ - أَنْ لَا يَصِلَ بَرُّكَ إِلَّا إِلَى الْفَاضِلِ، وَإِلَى الْكَامِلِ، وَإِلَى الَّذِي هُوَ فِي الشَّعْرِ مُفْلِقٌ، وَفِي الْكِتَابَةِ بَارِعٌ، وَفِي الْفَلَسَفَةِ غَايَةٌ، وَفِي الْكَلَامِ نَهَايَةٌ، وَفِي الْفِقْهِ آيَةٌ، وَفِي النَّحْوِ مَذْكُورٌ، وَفِي الطَّبِّ مَشْهُورٌ؟

وهذا ظلم؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَأَظْهَرَ لَهُ خَطَرًا. وَكُلُّ مَتَاعٍ وَثْمَنُهُ، وَكُلُّ بَدَنٍ وَسِمْنُهُ، وَالْمَتْنَاهِي كَانَ فِي الْأَوَّلِ مُبْتَدَأًا، ثُمَّ فِي الثَّانِي مَتَوَسِّطًا. ثُمَّ فِي الثَّلَاثِ الَّذِي لَا رَابِعَ لَهُ؛ وَقَاصِدُوكَ بِفَضَائِلِهِمْ كَالْعَارِضِينَ عَلَيْكَ بِأَمْتِعَتِهِمْ، وَأَنْتَ تَشْتَرِي كُلَّ مَتَاعٍ بِقِيمَتِهِ وَتُعَدُّلُهُ بِبَدَلِهِ فَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ بِأَبْنَاءِ الْأَمَلِ وَأَصْحَابِ الْعَمَلِ. فَلَيْسَ يَجْمَلُ أَنْ يَحْظَى بِصَلْتِكَ وَبِرِّكَ وَجَائِزَتِكَ وَنَظْرِكَ أَبُو سَعِيدِ السَّيرَافِيِّ، وَأَبُو سُلَيْمَانَ السَّجِسْتَانِيِّ، وَعَلِي بْنُ عَيْسَى الرُّمَّانِيِّ، وَأَصْحَابُ الْقَلَانِسِ، وَيُحْرَمُ بَعْضُ ذَلِكَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ سَمْعٌ<sup>(١)</sup> هُوَ لَا وَلَا حَالُهُمْ، عَلَى أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى إِلْحَاقِ الصَّغَارِ بِالْكِبَارِ بِالْأَصْطِنَاعِ وَالتَّفَضُّلِ؛ فَإِنَّ الرِّجَالَ هَكَذَا يَتَلَحَّقُونَ، وَفِي حَلَبَةِ الرُّؤَسَاءِ يَتَسَابِقُونَ.

فَكُنْ سَبَبًا لِلسَّكَاتِ حَتَّى يَنْطِقَ، وَعِلَّةً لِلسَّاكِنِ حَتَّى يَتَحَرَّكَ، وَبَابًا لِلنَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَطَرِيقًا لِلخَامِلِ حَتَّى يَنْتَبِهَ، وَجَدًّا سَعِيدًا لِلْمَيِّتِ حَتَّى يَحْيَا. فَأَمَّا مِنْ عَدَا هَذِهِ الطَّبَقَةَ فَقَدْ سَلَفَ لَهُ بَغِيرُكَ مَا هُوَ أَشْكُرُ، وَبِهِ أَبْصَرَ وَلَهُ أَنْصَرَ؛ عَلَى أَنَّكَ إِذَا عَمِمْتَ الْجَمِيعَ بِالْخَيْرِ كُنْتَ أَشَدَّ اقْتِدَاءً بِاللَّهِ، وَأَجْنَحَهُمْ<sup>(٢)</sup> إِلَى هُدَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَأَخَذَهُمْ بِعَادَةِ خُلَفَاءِ اللَّهِ.

(١) السَّمْعُ (بالكسر): الذِّكْرُ الْمَسْمُوعُ.

(٢) الضمير هنا يعود على الرؤساء.

وشيء آخر تَرَجَّحْتُ بفكري في طيِّه ونَشْره، فرأيت طيِّه خَمَشًا<sup>(١)</sup> لوجه النَّصِيحة، وذكره بالإطالة فتحًا لباب الفضيحة، فذكرته مختصرًا. فقد يُفهم من الكلام القصير المعنى العريض الطويل، وهو حديث المائدة والطَّبَق، وما يُحْضَرُ للأكل ويُجَمَعُ عليه الرَّفِيعُ والوَضِيعُ، والنَّزْهَ والجشع، فجدد الاهتمام بذلك، فإن القالة فيه طائفة، والحال فيه دائرة، والحاجة إلى التَّحَرُّمِ فيه ماسَّة، والتَّغافلُ عنه مَجَلَبَةٌ للذم. وقد رأينا قومًا كرامًا نهاونوا في هذا الباب، إمَّا رَفَعًا لأنفسهم عنه، وإمَّا سُغْلًا بمهملاتٍ أُخِرَ دونه، فأكلتْهم الألسنة، وأعلقتهم الملامة، وأحوجتْهم إلى الاعتذار الطويل بالاحتجاج الكثير. والكرَمُ والمجدُّ لا يثبتان بالدَّعْوَى، ولا يَسْلَمَانِ بِالْحُجَّةِ، ولكن يشيعان بالفعل الذي نُطِقُهُ كالوحي في الحال التي تنصب للعين، ولا يُؤنَّفَنَ من ضعة الأكلة، فإن لؤم الأكلة دليلٌ ناصعٌ على كرم المُطعم.

وهذا باب يزل فيه الرئيس ويظلم فيه الخدم؛ فإن الرئيس لا يقدر على أن يتولَّى كلَّ ذلك بنفسه فيراعيه بلحظه ولفظه، إلا أنه متى أحكم الأساس فقد أمن الباس، وأرضى جمهور الناس.

وشيء آخر لا بد من الإفاضة فيه على وجه الذكري؛ إن لقاءك الناس بالبشر بأسرهم لك ويُرْضِيهم عنك؛ فتكلَّف ذلك إن لم يكن التهلُّل سحبةً لك بالمزاج المستعد، وما أكثر ما يلحق المتخلِّق بذي الخلق.

وبعد، فبين عبوس وجهك وقد ظهرت للناس لتركب، وبين عبوسه، وقد رجعت إلى دارك لتنزل، فرق، أعني أنك ربما عذرت في العبوس في الثاني، لأن النهار قد نصف، ولأنك قد تجشمت إلى ذلك الوقت مصاعب الدولة بالأمر والنهي والقبض والبسط؛ ولست تُعذِّر في غرة نهارك وأنت جامٌّ<sup>(٢)</sup> ومتوجّه ومقتضبٌ<sup>(٣)</sup> للتدبير في الأمور.

(١) خَمَشَ فلانًا: جرح بشرته في أي موضع من جسده.

(٢) جامٌّ: مستريح.

(٣) اقتضب الدابة: ركبها قبل أن تراض. واقتضب فلانًا: كلفه عملاً قبل أن يحسنه.

وشيء آخر، قد يسبق إلى عينيك ازدرأء من عليه مُرَقَّعة، أو علته بذادة<sup>(١)</sup>، وقد اعتراه عيٌّ إِمَّا للهيبة أو لسوء العادة. فلا تُصدِّق العين فإنها تكذب أحياناً، واعمل على أنك تعتقده بفصلك، فإن كان من أهل الفضل فهو شقيقك بالطبيعة، وإن كان من أهل النقص فهو مستحقُّ منك الرحمة. والإحسان إلى مثله شكرٌ منك لله على ما خصَّك به من دونه.

هذا ما حصل لي من ذلك الفصل.

ثم إنني في سنة سبعين وجدتُ هذه الرسالة في مُسَوِّدة ابن طرخان فيما يُباع من ميراثه. فكان في أولها:

«السعادة أيها الأستاذ الجليل ضربان، والسَّعيدُ رجلان، وإحدى السَّعادتَيْنِ للدنيا، والثانية للآخرة؛ وأحد السَّعِيدِينَ مَنْ هو سَعِيدٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ، والثاني هو السَّعِيدُ فِي مَكَانٍ آخَرَ. وَمِنْ كِمَالِ فَضِيلَةِ أَحَدِ السَّعِيدِينَ أَنْ يُعَايِشَ النَّاسَ بِالْمَعْرُوفِ، وَمِنْ تَمَامِ إِحْدَى السَّعَادَتَيْنِ أَنْ تَتَّصِلَ بِالْآخَرَى.

ولما رأيتُك أيها الأستاذ سعيداً في هذه العاجلة بالمال والولاية، والعزِّ والمرتبة، أثيرت أن تكون سعيداً في تلك الآجلة بالإحسان والمعروف، والبرِّ والمكرمة، فكتبتُ حروفاً قصدتُ بها إذكارك لا تعليمك، لأنك تجلُّ عن التعليم؛ لما أوجب الله لك علينا من التعظيم. وإنما ساغ الإذكار، وحسن التنبية لأشغالٍ قد اكتنفتك من تهذيب الدولة، وأعباءٍ قد تحمَّلتها في حماية البيضة، وأمورٍ أنت وليها في بثِّ المعدلة في الرعية، وإقامتها على سواء المحجة، ولو سكتُ عن هذا كله لأمكن، وكان لا يتشعثُ لك حالٌ قد تولى الله صلاحها، ولا يناد<sup>(٢)</sup> عليك مُستقيماً قد أذن الله بدوامه. ولكن، كنتُ أحرَمَ القربى إليك، ولفوتُ النظرِ إلى مثلي ومحرومي الدُّعْ لِقَلْبِي مِنْ فَائِتِكَ؛

(١) بذادة: رثاء الهيئة.

(٢) اناد: انتنى واعوج.

لَأَنَّكَ سَيِّدٌ وَأَنَا عَبْدٌ، وَأَنْتَ رَئِيسٌ وَأَنَا مَرُؤُوسٌ، فَنَعَمْتُ دَالًّا عَلَى نَفْسِي بِمَا قَدَّمْتُهُ  
 مِنْ نَفْسِي. فَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَخْرُجْ مِنْ حَدِّ الْأَدَبِ الْمَرَضِيِّ، وَعَادَةَ أَهْلِ الْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ،  
 فَمَا أَوْلَاكَ بَعْرِفَانِ ذَلِكَ لِي! وَإِنْ كُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ عَنْ ذَلِكَ بَعْجَبِ حَالِ بَيْنِي وَبَيْنَ  
 صَوَابِي، وَخَطَأَ قَعْدِ بِي عَنْ مَرْتَبَةِ أَصْحَابِي، فَمَا أَوْلَاكَ بَسْتَرِ ذَلِكَ عَلَيَّ! وَمَا بَسَطَ اللَّهُ  
 بِاعْكَ، وَمَا وَسَّعَ دَرْعَكَ إِلَّا لِيَقِيكَ خَطَأَ غَيْرِكَ بِشَكْلِ صَوَابِكَ، وَإِلَّا لَتَتَّعَمَّدَ إِسَاءَتَهُمْ  
 بِإِحْسَانِكَ، وَإِلَّا لَتُغَلَّبَ الظَّنُّ فِي الْجَمِيلِ وَلَا تَغَلَّبَ الظَّنُّ فِيْمَا خَالَفَ ذَلِكَ. وَأَنْتَ  
 كَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْأَفَاقِ الْمُتَبَارِحَةِ، وَالْكَوَاكِبِ الْمَزْدَهْرَةِ، وَالْحَرَكَاتِ اللَّطِيفَةِ، وَالْآثَارِ  
 الشَّرِيفَةِ، وَالْأَسْرَارِ الْمَكْنُونَةِ، وَالْعَجَائِبِ الْكَثِيرَةِ، وَالْغَرَائِبِ الْمَشْهُورَةِ؛ فَلِكُلِّ نَاطِرٍ  
 إِلَيْكَ تَعْجَبُ، وَلِكُلِّ عَيْنٍ نَحْوِكَ تَقَلُّبُ، وَلِكُلِّ عَقْلٍ عَنْكَ بَحْثٌ، وَلِكُلِّ قَلْبٍ فِيكَ أَمَلٌ،  
 وَلِكُلِّ عَامِلٍ عِنْدَكَ رَجَاءٌ، وَلِكُلِّ عَمَلٍ قَبْلَكَ جَزَاءٌ.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَفَعَكَ إِلَى هَذِهِ الذَّرْوَةِ وَالْقَلَّةِ أَنْ لَا يَحْطُكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الذَّلَّةِ  
 وَالْقَلَّةِ»<sup>(١)</sup>.

هذا ما صحَّ لي بالاستخراج من مُسَوِّدَتِهِ، أَتَيْتُ بِهِ عَلَى مَا تَرَى. وَأُرْوِي لَكَ هَاهُنَا  
 قَصِيدَةَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ النَّمِرِيِّ يَمْدُحُ بِهَا أَبَا الْفَتْحِ، وَكَانَ يُعْجَبُ بِهَا، وَيَحْفَظُهَا وَيُنشِدُهَا.  
 وَمُرَادِي بِذَلِكَ تَكْثِيرُ الْفَائِدَةِ؛ وَتَخْلِيدُ الْحَدِيثِ يُمْتَعُ مَرَّةً وَيَنْفَعُ أُخْرَى، وَهِيَ:

سَرَتِ النَّجَائِبِ بِالنَّجَائِبِ تَرْمِي الْكَوَاكِبَ بِالْكَوَاكِبِ  
 تَرْمِي تُجَاهَاتِ الْمَشَا رِقٍ مِنْ تُجَاهَاتِ الْمَعَارِبِ  
 قَصِدًا إِلَى مَلِكٍ يُحَكِّ مُمْ فِي رَغَائِبِهِ الْغَرَائِبِ  
 مَلِكٍ تَبَوَّأَ مِنْ خُزَيْبِ مَمَّةٍ فِي النَّوَاصِي وَالذَّوَائِبِ  
 حَيْثُ السَّوَابِقُ وَالسَّوَا بَغُ وَالنَّجَائِبُ وَالْجَنَائِبُ<sup>(٢)</sup>

(١) القلَّة (بالضم): القمة. القلَّة (بالكسر): الذلَّة.

(٢) الجنُوب: الجهة التي تقابل الشمال وتكون على يمينك وأنت متجه إلى الشرق، وريح تهبُّ من جهة الجنُوب، وهي الرِّيح القبليَّة، ريحها جنُوب، إذا كانا متصافيين والجمع: جنائب.

يَهَبُ الْمَنْعَمَةَ الْكُوا      عَبَّ وَالْمَطَهَّمَةَ السَّلَاهِبُ<sup>(١)</sup>  
 فِي سَوْرَةِ الْمَجْدِ التَّلِي      دِ وَسَوْرَةِ الْقَلْبِ الْغَوَارِبِ  
 يَا بَنَ الْعَمِيدِ عَمِيدِ دَو      لَتِهِ الْمَوْطِدَةَ الْمَرَاتِبِ  
 الْأَلْمَعِيَّ اللَّذْتُحَدُّ      تُهُ الشَّوَاهِدُ بِالْغَوَائِبِ  
 زُرْنَاكَ مِنْ أَرْضِ الْبُصِي      رة شَاحِبِينَ عَلَى شَوَاحِبِ  
 نَرِدُ الْمَنَاهِلَ كَالْمَجَا      هِلِ وَالسَّبَاسِبِ كَالسَّكَائِبِ<sup>(٢)</sup>  
 نَطْوِي الْجِبَالَ إِلَى جِبا      لِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ الْمُغَالِبِ  
 الْآنَ قَدْ قَرَّرَ الْقَرَا      رُ بِنَا وَأَطْلَبَتِ الْمَطَالِبِ  
 لَا رِيَّ دُونَ الرِّيِّ وَالـ      بَحْرِ الْعَطَامِطِ ذِي الْغَوَارِبِ<sup>(٣)</sup>  
 بَحْرٌ جَوَاهِدُهُ طَوَا      فِي فِي سَوَاحِلِهِ رَوَاسِبِ  
 لَا دُونَهَا لَجُجُ الْكُوا      رَبِ، لَا، وَلَا حُجُجُ الْكَوَاذِبِ  
 يرمي بنا تيارها      قِبَلَ الْأَبَاعِدِ وَالْأَقَارِبِ  
 وَالْبَحْرُ لَا يَنْدَى بِهِ      إِلَّا السَّوَا حِلُّ وَالْجَوَانِبِ  
 لِمَا نَهَضْتُ إِلَى الرَّجَا      ءِ وَحَنَّتِ الْبِيضُ الْكَوَاعِبِ  
 وَتَنَاثَرَتْ عَبْرَاتُهَا      نُ عَلِيٍّ كَالدُّرِّ الثَّقَائِبِ  
 نَدَى يَدَيَّ وَحُلَّتِي      دَمْعُ الْأَحْبَبَةِ وَالْحَبَائِبِ  
 فَجَعَلْتُهُ فَالًا وَقُلُّ      ت نَدَى الدُّمُوعِ نَدَى الْمَوَاهِبِ  
 وَلَعْنُ تَلَا فْتَنِي يَدُ الْأُ      سَتَاذِ مِنْ أَيْدِي النَّوَائِبِ  
 وَأَقَمْتُ فِي الظِّلِّ الظَّلِي      لِ وَلَمْ تُشْعِبْنِي الشُّوَاعِبِ  
 لِيُبَشِّرَنَّ أَحَبَّتِي      بِمَوَاهِبِي شَتَى الْمَوَاهِبِ

(١) سلاهيبُ : جمع سلهب، وهو الطويل من الناس والخيل.

(٢) السباسب: جمع سبسب، وهو المفازة. والسكائب: من انسكاب الماء، تصوير للحركة بتدفق الماء وسيلانه.

(٣) حر عطامط: عظيم الأمواج كثير الماء.

وَيَحَلِّينَ لَالِيًّا أضعافَ أدْمِعِهَا السَّوَابِ  
 وَلَا تُفْضِينَ مِنَ الْعَشِيرَةِ كُلَّ حَقِّ حَقِّ وَاجِبِ  
 حَتَّى يُقَالَ أَعَادَهُ الـ أُسْتَاذُ مكرمة الضَّرَائِبِ  
 كَمِ مِنْ ظَبَاءٍ بِالْبَصِيرَةِ فِي الْمَقَاصِرِ وَالسَّبَاسِبِ  
 إِنْسٌ وَوَحْشٌ يَشْتَبَهُنَّ سَوَى الذَّوَابِ وَالْحَقَائِبِ  
 أَدَمٌ يُقَاسِمَنَّ الْأَرَاكَ جَنَاهُ وَالْقَضِبَ الرَّطَائِبِ  
 فَلَانْسَهَا أَغْصَانُهُ تَجْلُو بِهِ بَرْدَ السَّحَابِ  
 وَلِوَحْشِهَا غَضُّ الْجَنِيِّ عَثَّ الْمَعَازِلِ وَالْمَلَاعِبِ  
 نَصْطَادٌ وَحَشِيَّاتُهَا وَتَصِيدُنَا الْإِنْسُ الْخِرَاعِبِ<sup>(١)</sup>  
 يَا رَبِّ يَوْمَ لِي كَظَلِّكَ أَوْ كَظَلْمِكَ أَوْ يُقَارِبُ  
 رَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَغَضَّتْ عَيْنُ وَاشِيهِ الْمُرَاقِبِ  
 قَضُرْتُ لَنَا أَطْرَافُهَا قَصَرَ الْقِنَاعِ عَنِ الذَّوَابِ  
 فَتَبَرَّجْتَ لَذَاتِهِ لِلْحَاطِبِينَ وَلِلْحَوَاجِبِ  
 نَزَلْتُ بِهِ حَاجَاتُنَا بَيْنَ الْمُحَاجِرِ وَالْحَوَاجِبِ  
 يَا لَيْتَ سَعِيدًا مِنْ سَعُوذِكَ رَدَّ أَيَّامِي الذَّوَاهِبِ  
 مَلِكٌ يُضِيءُ بِوَجْهِهِ وَتَرَى بِهِ الظُّلْمَ الْغِيَاهِبِ  
 لَوْ سَامَهُ أَعْدَاؤُهُ مَا نَدِيهِمْ، وَالْيَوْمَ عَاصِبِ  
 وَهَبِ الذَّوَابِ لِلْمَطَا عِنِ وَالْقَوَاضِبِ لِلْمَضَارِبِ  
 وَمَنِ السَّخَاءِ مَذَاهِبُ يُعَدِّدُنَ فِي جُمَلِ الْعَجَائِبِ  
 لَمَّا رَأَى الطَّالِعِ الـ مَأْمُونٌ مَأْمُونِ الْمَغَائِبِ  
 وَرَأَى رَكْنَ الدَّوْلَةِ الـ غَرَاءَ رَكْنَا ذَا مَنَاكِبِ

(١) الْخِرَاعِبُ مِنَ النِّسَاءِ: الشَّابَّةُ الْحَسَنَةُ الْخَلْقِ النَّاعِمَةُ.

ومظفَّرَ الأَقلامَ والأَ غلامَ ميمونَ النَّقائِبِ  
 كأبيه خَيْرِ أبٍ وَأَنَّ جَبَهَ إِذا عُدَّ المَناجِبِ  
 رَدَّ الأُمُورَ إِليه رَ دَ مُفَوِّضينَ عَلى التَّجَارِبِ  
 حَتَّى إِذا انْتَضَمَتْ لَه بِثُقُوبِ آراءِ ثواقِبِ  
 وكفى أَميرَ المَؤمِنينَ نَ عُرَى الكِتابَةِ والكَتابِ  
 بكفائَتينَ أَقامَتَا أودَ المُسالِمِ والمَحارِبِ  
 اشْتَقَّ من أَفعالِه لَقبًا لَه بِكُرِّ المَنابِ  
 مِثْلَ الفِرْنِندِ عَلى القَوا ضِبِّ والفِرِيدِ عَلى التَّرائِبِ  
 لِه تَوفيقُ الإِما مِ العَدلِ في اللَّقَبِ المُناسِبِ  
 يا خَيرَ من رَكبِ الجِيا دَ وقادَها قُبًّا شَوازِبِ<sup>(١)</sup>  
 أَغْنَيْتَنِي كَلى الغَنى وكَسَبَتَنِي أَسنى المَکاسِبِ  
 شَرَفًا تُلقِبُه العِدا سَرَفًا فيا لَک من مَعايِبِ  
 وكَسَوَتَنِي حُلًّا صَقَلُ نَ حَواطِرِي صَقَلُ القَواضِبِ<sup>(٢)</sup>  
 حُلًّا كَديباجِ الخَدُو دِ مَطَرَزاتِ بالشَّوارِبِ  
 فَلَنتَشكُرَنَّ رِياضَنا جَدوى سَحايبِک الصَّوائِبِ  
 ولتَنتَظِمَنَّ لَک القِصا نَدَ کالْقلائِدِ لِلکَواعِبِ

والنمريّ هذا مليح الشعر والأدب والخلق، ولما توجه إلى ذي الكفایتين من  
 البصرة وصف بعض ما عناه فقال:

لما رأيتُ كرم الأَصمّا

وشجر البلوط خضرًا عمّا

(١) قُبًّا: من الفعل (قَبَّ) إذا سَمِعَ صوتَ قَعَقَةِ أُنباہ. شوازِب: ضامرة.

(٢) القَواضِبُ: القَواطِعُ.

وفتية عن الفصيح صَمَّا

ذكرتُ بالبصرة نخلاً جمًّا

وفتية بيض الوجوه سُمَّا

ناديتُ يا للهَّم فرِّجْ غَمَّا

ما أَسْرَعَ الشَّيْءُ إِذَا مَا حَمًّا<sup>(١)</sup>

فَأَمَّا الْجُمْلَةُ الَّتِي تَمَّتْ فِي أَمْرِ أَبِي الْفَتْحِ ذِي الْكِفَايَتَيْنِ، فَقَدْ كُنْتُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ قَدْ وَعَدْتُ بِرَوَايَتِهَا، وَهَذَا مَوْضِعُهَا عَلَيَّ مَا سَنَحَ الرَّأْيُ فِيهِ، وَلَعَلَّهَا تُفِيدُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ خَاصِّ مَا فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ؛ لِأَنَّ الرَّسَالَهَ قَدْ صَارَتْ كِتَابَ خُرَافَةٍ<sup>(٢)</sup>، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَصْدَ الْأَوَّلَ لَمْ يَنْحَرْفِ إِلَى هَذِهِ الْفُنُونِ وَالشُّعَبِ، وَلَكِنْ الْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ<sup>(٣)</sup>، وَلَهُ نَزْوَةٌ مِنَ الْقَلْبِ عَلَيَّ اللَّسَانَ، وَدَيِّبٌ عَلَيَّ اللَّسَانَ مِنَ الْقَلْبِ، وَالِاحْتِرَاسُ مِنْهُ يَقِلُّ، وَالْغَلَطُ فِيهِ يَعْزُضُ، وَحَفْظُ الْكَلَامِ عَلَى سَنَنِهِ مِنَ الْكُلْفِ الشَّاقَّةِ وَالْأُمُورِ الصَّعْبَةِ، وَاللِّسَانُ فِيهِ أَكْثَرُ إِنْصَافًا مِنَ الْقَلَمِ، وَاللَّفْظُ أَعْدَلُ مِنَ الْخَطِّ.

وَبَعْدَ وَقَبْلُ فَالْكَلامُ فِي نَشْرِ الْعَيْبِ، وَكَشْفِ الْقِنَاعِ، وَتَدْنِيسِ الْعَرِضِ، وَهَجْوِ الْإِنْسَانِ، وَوَصْفِهِ بِالْخَبَائِثِ أَكْثَرُ اسْتِمْرَارًا، وَالْمَتَكَلِّمُ فِيهِ أَظْهَرُ نَشَاطًا، وَأَمْرُنُ عَادَةً، وَأَوْقَدَ هَاجِسًا، وَأَحْضَرَ عَاطِسًا، وَهَذَا لِأَنَّ الشَّرَّ طِبَاعٌ وَالْخَيْرُ تَكْلُفٌ، وَالطَّيْبَةُ أَغْلَبُ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ فِتْيَانِ خُرَاسَانَ: الْإِحْسَانُ مِنَ الْإِنْسَانِ زَلَّةٌ، وَالرَّحْمَةُ مِنَ الْقَادِرِ أُعْجُوبَةٌ، وَالظُّلْمُ مِنَ الْمُدِلِّ مَأْلُوفٌ.

وَقَدْ قِيلَ لِبَعْضٍ مِنْ انْتَبَجَ مَأْمُولًا وَأَدْرَكَ حَاجَتَهُ مِنْهُ: كَيْفَ انْقَلَبْتَ عَنْ فُلَانٍ؟

فَقَالَ: مَنْعَنِي لَذَّةَ هِجَائِهِ، وَأَكْرَهَنِي عَلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالْقُلُوبُ مَجْبُولَةٌ عَلَى

(١) حَمُّ الْأَمْرِ حَمًّا: قُضِيَ.

(٢) الْخُرَافَةُ: الْحَدِيثُ الْمَسْتَمْلَحُ الْمَكْذُوبُ.

(٣) الْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ: ذُو فُنُونٍ وَأَعْرَاضٍ.

حُبَّ الإِحْسَانِ، وَالْأَلْسِنَةُ تَابِعَةٌ لِلْقُلُوبِ، كَمَا أَنَّ الْعُيُونَ نَاطِقَةٌ عَنِ الضَّمَائِرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

تُحَدِّثُنِي الْعَيْنَانِ مَا الْقَلْبُ كَاتِمٌ وَلَا جِنَّ بِالْبُغْضَاءِ وَالنَّظْرُ الشَّرُّ  
أَيُّ لَا حَائِلَ وَلَا سِتْرَ. وَاللَّحْظُ رَائِدٌ، وَالْقَلْبُ شَاهِدٌ؛ وَالرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ،  
وَالشَّاهِدُ لَا يَكْذِبُ نَفْسَهُ.

وَقُلْتُ لِأَبِي سَلِيمَانَ شَيْخِنَا بِبَغْدَادَ، وَكَانَ يُتَهَادَى كَلَامُهُ، وَيُتَشَاحُّ عَلَيَّ مَا يُسْمَعُ مِنْهُ:

لَمْ صَارَ السَّبُّ وَالهِجَاءُ وَذِكْرُ كُلِّ عَوْرَةٍ وَفَحْشَاءُ أَحْفَ عَلَيَّ مِنْ حُرْمِ مَأْمُولِهِ، وَمُنْعِ  
مُلْتَمَسِهِ، مِنَ الْوَصْفِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ، وَالْمَدْحِ الْأَعْرَ الْمُحَجَّلِ، وَالتَّقْرِيطِ  
الْبَلِيغِ الْمُتَقَبَّلِ عَلَيَّ مِنْ صَدَقَةِ ظَنِّهِ، وَتَحَقُّقِ رَجَاؤِهِ، وَحَضْرَتِهِ أُمْنِيَّتِهِ؟

فَقَالَ: لِأَنَّ الَّذِي يَمْدَحُ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ مَا عِنْدَهَا كَالْعَتِيدِ<sup>(١)</sup>، وَالَّذِي يَثْلُبُ يَأْخُذُ  
لِنَفْسِهِ مَا لَيْسَ عِنْدَهَا كَالْمُسْتَقْبَلِ؛ فَالْفَصْلُ بَيْنَهُمَا كَالْفَصْلِ بَيْنَ الْغَارِمِ مَا يَمْلِكُهُ، وَبَيْنَ  
الْغَانِمِ مَا يَطْلُبُهُ.

وَهَذَا كَمَا قَالَ، وَهُوَ أَرْجَعُ إِلَى شِفَاءِ النَّفْسِ وَبَرْدِ الْغَلِيلِ، وَإِلَى بُلُوغِ الْغَايَةِ  
وَالِاسْتِيْلَاءِ عَلَى النَّهْيَةِ.

\*\*\*

وَلَوْلَا أَنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، أَعْنِي ابْنَ عَبَادٍ وَابْنَ الْعَمِيدِ، كَانَا كَبِيرِي زَمَانِهِمَا، وَإِلَيْهِمَا  
انْتَهَتْ الْأُمُورُ، وَعَلَيْهِمَا طَلَعَتْ شَمْسُ الْفَضْلِ، وَبِهِمَا اِزْدَانَتْ الدُّنْيَا، وَكَانَا بَعِيثَ  
يُنَشِّرُ الْحُسْنَ مِنْهُمَا نَشْرًا، وَيُوَثِّرُ الْقَبِيحَ عَنْهُمَا أَثْرًا، لَكُنْتُ لَا أَتَسَكَّعُ<sup>(٢)</sup> فِي حَدِيثِهِمَا

(١) العتيد: الحاضر.

(٢) يَتَسَكَّعُ فِي ضَلَالِهِ: يَتَمَادَى فِي ضَلَالِهِ.

هذا التسكع، ولا أنحي<sup>(١)</sup> عليهما بهذا الحد.

ولكن التّقص مَمَّن يدّعي الكمال أشنع، والحرمان من السيّد المأمول فاقرة<sup>(٢)</sup>. والجهل من العالم مُنكر، والكبيرة ممن يدّعي العصمة جائحة<sup>(٣)</sup>. والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب.

ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثاً من جميع من كتّب للجيل والديلم إلى وقتك هذا المؤرّخ في الكتاب لم تجد.

كان من الحديث الذي زلّنا عنه قليلاً إلى هذا الموضوع أن رُكن الدولة لِمَا مات في أول سنة ستّ وستين وثلاثمائة، اجتمع أبو الفتح ذو الكفّائين، وعلي بن كامة، وتعاهدا وتعاقدا وتوافقا وتحالفاً، وبذل كل واحدٍ منهما لصاحبه الإخلاص في المودة في السرّ والجهر، والذّب في الظاهر والباطن، والتوقيع عند الصغير والكبير، واجتهدا في الأيمان الغامسة<sup>(٤)</sup> والعقود المؤرّبة<sup>(٥)</sup> والأسباب المغارة الفتل، ودبراً أمر الجيش، ووعدا الأولياء، وردّ النافر وركبا الخطر الحاضر، وعانقا الخطب العاقِر<sup>(٦)</sup>، وباشر كل ذلك أبو الفتح خاصة بحدّ من نفسه، وصريمة من رأيه، وجودة فكره، وصحة نيته؛ وتوفيق ربّه.

فلما ورد مؤيد الدولة الرّبي من أصفهان؛ وعاین الأمر متسقا؛ ولحق كل فتق مرتقا؛ بما تقدّم من الحزم فيه، ونفذ من الرأي الصائب عنده، أنكر الزيادة الموجبة للجند، وكرّها ودمدم بها. فقال له أبو الفتح: بها نظمت لك المُلْك، وحفظت لك الدولة،

(١) أنحي: أميل.

(٢) الفاقرة: داهية أو مُصيبة تكسر فقار الظهر من شدة هولها.

(٣) جائحة: بليّة، تهلكة، داهية.

(٤) اليمين الغموس: الكاذبة تغمس صاحبها في الإثم.

(٥) المؤرّبة: المُحكّمة.

(٦) العاقِر: الجارح، المؤلم.

وَصُنَّتِ الْحَرِيمَ، وَإِنْ خَالَفَتْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ هَوَاكَ أَسْقَطْتَ بِالْيَدِ الطَّوْلَى.

وكان ابن عباد قد ورد، وحطبه رطب، وتنوره بارد، وزرقه<sup>(١)</sup> غير نافذ. هذا في الظاهر، فأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويُنزِيه<sup>(٢)</sup> على أبي الفتح بما يجد إليه السبيل من الطعن والقدح. فأحس بذلك كله ابن العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر الشغب، وعظم الخطب، وهمم بقتله، وقال للأمير: ليس من حق كفايتي في الدولة وقد انتكح حبلها، وقويت أطماع المفسدين فيها، أن أسام الخسف، والأحرار لا يصبرون على نظرات الدلّ وغمرات الهوان.

فقال له في الجواب: كلامك مسموع، ورضاك متبوع، فما الذي يُبرِد فورتك منه؟ قال: ينصرف إلى إصفهان<sup>(٣)</sup> موفوراً، فوالله لئن أنصفتَه في مطالبته برفع حساب ما نظر فيه ليعرقن جبينه، وليُثدقن جبينه، ولئن أحس الأولياء الذين اصطنعتهم بمالي وإفضالي بكلامه في أمري، وسعيه في فساد حالي، ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق إذا حطف، ومن المزن إذا نطف.

فقال له: لا مخالف لرأيك، والنظر لك، والزمام بيدك.

وتلطف ابن عباد في عرض ذلك لأبي الفتح، وقال: أنا أتظلم منك إليك، وأتحمل بك عليك؛ وهذا الاستيحاش العارض سهل الزوال إذا تألف الشارد من حلمك على شافع كرمك. ولني ديوان الإنشاء، واستخدمني فيه، ورتبني بين يديك، واحضرنني بين أمرك ونهيك، وسمني برضاك، فإني صنيعه والدك، وأتجدد بهذا صنيعه لك، وليس بجميل أن تكرر على ما بناه ذلك الرئيس فتُهَوِّره وتنقضه. ومتى أجبتني إلى ذلك وأمتنتني فإني أكون خادماً بحضرتك. وكاتباً يطلب الزلفة عندك في صغير أمرك

(١) زرقه: طعنته.

(٢) ينزیه: يثيره ويحركه.

(٣) إصفهان وأصبهان اسمان لمدينة واحدة، والبعض يكسرها فينطقان إصفهان وإصبهان.

وكبيره وفي هذا إطفاء الثائرة التي قد تآزبت<sup>(١)</sup> بسوء ظنك، وتصديق أعدائي عليّ.  
فقال في الجواب: والله لا تُجاورني في بلد السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة  
الأمير، ولا يكون لك أذن عليّ، ولا عين عندي.  
وليس لك مني رضى إلا بالعودة إلى مكانك من أصبهان والسُّلُو عما تحدّث به  
نفسك.

فخرج ابن عباد من الرّيّ على صورة قبيحة. خرج متنكراً بالليل؛ وذلك إنه خاف  
الفتك والغيلة، وبلغ أصبهان وألقى عصاه بها ونفسه تغلي، وصدْرُه يفور، والخوف  
شامل، والوسواس غالب.

وهم أبو الفتح بإنفاذ من يطلبه ويؤذيه ويُهينه، ويعسف به، فأحس هو بالأمر.  
فحدّثني ابن المنجّم قال: عمِلَ على ركوب المفازة إلى نيسابور لما ضاق عطنه،  
واختلف على نفسه ظنّه، وإنا لفي هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت  
الدولف إليهم، وتناوَرَتْ<sup>(٢)</sup> في الإطلال عليهم.

فقال الأمير لأبي الفتح: ما الرأي؟ قد نُمي إلينا ما تعلّم من طمع خراسان في هذه  
الدولة بعد موت ركن الدولة.

فقال أبو الفتح: ليس الرأي إليّ ولا إليك، ولا الهُمُّ علي ولا عليك. هاهنا من يقول  
لك: أنت خليفتي، ويقول لي: أنت كاتب خليفتي، يدبّر هذا بالمال وبالرجال، وهو  
الملك عضد الدولة.

قال: فاكتب إليه وأشعره بما قد مُنينا به، وسله دواء هذا الداء، وأبلغ في ذلك ما  
يُوجبه الحزم الصّحيح، ويوزن بالسّعي النّجیح، فكتب وتلطّف.

وصدّر في الجواب: إن هذا لأمرٌ عجب، رجل مات وخلف مالا، وله ورثة وابن،

(١) تآزبت عليه: تأبى وتشدّد وتعرّس.

(٢) تناوَرَتْ: نواثب.

فلم يُحْمَلِ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ إِرْتِهَ زَيْيَا عَنْهُ<sup>(١)</sup>، واستثناءً به دونه، ثم حُوطِبَ بِأَنْ يَغْرَمَ شَيْئًا  
آخر من عنده قد كَسَبَهُ بِجَهْدِهِ، وَجَمَعَهُ بِسَعْيِهِ وَكَدْحِهِ.

هذا والله حديثٌ لم يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ، ولئن اسْتَفْتَيْتِي فِي هَذَا الْفُقَهَاءِ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْهُ  
إِلَّا التَّعَجُّبُ وَالِاسْتِطْرَافُ، وَرَحْمَةُ هَذَا الْوَارِثِ الْمَظْلُومِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّهُ حُرْمَ مَالِهِ بِحَقِّ الْإِرْتِ، وَالْآخَرُ: أَنَّهُ يُطَالَبُ بِإِخْرَاجِ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ؛ وَإِنْ  
أَبَى قَوْلِي حَاكَمْتَ كُلَّ مَنْ سَامَ هَذَا إِلَى مَنْ يَرْضَى بِهِ.

فَلَمَّا سَمِعَ مُؤَيَّدَ الدَّوْلَةِ هَذَا، وَقَرَأَهُ أَبُو الْفَتْحِ قَالَ:

- مَا تَرَى؟

قَالَ: قَدْ قُلْتُ، وَلَيْسَ لِي سِوَاهُ، أَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ هُوَ الْمَلِكُ، وَالْمَدَبَّرُ، وَالْمَالُ كُلُّهُ  
مَالُهُ، وَالْبِلَادُ بِلَادُهُ، وَالْجُنْدُ جُنْدُهُ، وَالْكَلُّ عَلَيْهِ وَالْمَهْنَأُ لَهُ<sup>(٢)</sup>، وَالِاسْمُ وَالْجَلَالَةُ عِنْدَهُ،  
وَلَيْسَ هَاهُنَا إِرْتٌ قَدْ زُويَ عَنْهُ، وَلَا مَالٌ اسْتَوْثِرَ بِهِ دُونَهُ، وَالنَّادِرَةُ لَا وَجَهَ لَهَا فِي أَمْرِ  
الْجَدِّ وَفِي مَا لَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّعِبِ.

أَمَّا خُرَاسَانُ فَكَانَتْ مِنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً تُطَالِبُنَا بِالْمَالِ، وَتُهَدِدُنَا بِالْمَسِيرِ وَالْحَرْبِ،  
وَنَحْنُ مَرَّةً نُسَالِمُ وَمَرَّةً نُحَارِبُ. وَنَحْنُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ نَفْرَقُ الْمَالَ بَعْدَ الْمَالِ عَلَيَّ  
وُجُوهَ مُخْتَلِفَةٍ، وَاحْتَسِبُ أَنْ رُكْنَ الدَّوْلَةَ حَيًّا بَاقٍ، هَلْ كَانَ لَهُ إِلَّا أَنْ يُدَبَّرَ بِمَالِهِ وَرِجَالِهِ  
وَدُخْرِهِ وَكَثْرَتِهِ؟ أَفَلَيْسَ هَذَا الْحَكْمُ لَازِمًا لِمَنْ قَامَ مَقَامَ، وَجَلَسَ مَجْلِسَهُ، وَأَلْقَى إِلَيْهِ  
زِمَامَ الْمَلِكِ، وَأُصْدِرَ عَنْهُ كُلَّ رَأْيٍ، وَأُورِدَ عَلَيْهِ كُلَّ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ؟ وَهَلْ عَلَيْنَا إِلَّا  
الْخِدْمَةُ وَالنُّصْرَةُ وَالْمُنَاصَحَةُ بِكُلِّ مَا سَهَّلَ وَصَعَّبَ كَمَا كَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ مِنْ  
جَهَةِ الْمَاضِي؟

فَقَالَ الْأَمِيرُ: إِنْ الْخَطْبُ فِي هَذَا أَرَاهُ يَطُولُ، وَالْكَلَامُ يَتَرَدَّدُ، وَالْمُنَازَرَةُ تَرَبُّو،

(١) زَيْيَا عَنْهُ: مَنَعًا عَنْهُ. زَوَى عَنْهُ حَقُّهُ: مَنَعَهُ إِيَّاهُ.

(٢) الْكَلُّ: النِّقْلُ. الْمَهْنَأُ: مَا أَتَاكَ بِلا مَشَقَّةٍ.

والْحُجَّةُ تَقِفُ، وَالْفُرْصَةُ تَفُوتُ، وَالْعَدُوُّ يَسْتَمَكِنُ. وَأَرَى فِي الْوَقْتِ أَنْ نَذْكَرَ وَجْهًا لِلْمَالِ حَتَّى نَحْتِجَ بِهِ ثُمَّ نَسْتَمِدَّ فِي الْبَاقِي مِنْهُ، وَنُرْضِيَ الْجُنْدَ فِي الْحَالِ، وَنَتَحَزَّمُ فِي الْأَمْرِ، وَنُنْظِرَ الْمَرَارَةَ وَالشَّكِيمَةَ بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعْدَادِ، حَتَّى يَطِيرَ الْعَيْنُ إِلَى خُرَاسَانَ بَجْدَانَا وَاجْتِهَادِنَا، وَحَزْمِنَا وَاعْتِمَادِنَا، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَكْسِيرٌ لِقُلُوبِهِمْ وَحَسْمٌ لِأَطْمَاعِهِمْ، وَبَاعَثْتُ عَلَيَّ تَجْدِيدَ الْقَوْلِ فِي الصُّلْحِ، وَإِعَادَةَ الْكَلَامِ فِي الْمَوَاعِيدِ، وَرَدَّ الْحَالِ إِلَى الْعَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ بَرَكَهَ هَذَا الْأَمْرَ، فَقَدْ نَشِبَتْ مِنْهُ رَائِحَةٌ مَنكَرَةٌ وَمَا أَعْرِفُ لِلْمَالِ وَجْهًا.

أَمَا أَنَا فَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانَ عِنْدِي، مَرَّةً بِمَا خَدَمْتُ بِهِ الْمَاضِي تَبَرَّعًا حَدِيثَانِ مَوْتِ أَبِي، وَمَرَّةً بِمَا طَالَ بَنِي بِهِ سِرًّا، وَأَوْعَدَنِي بِالْعَزْلِ وَالِاسْتِخْفَافِ مِنْ أَجْلِهِ، وَمَرَّةً بِمَا غَرِمْتُ فِي الْمَسِيرِ إِلَى الْعِرَاقِ فِي نُصْرَةِ الدَّوْلَةِ.

وَهَذِهِ وَجُوهٌ اسْتَفَدْتُ قُلِّي وَكُثْرِي، وَأَتَتْ عَلَيَّ ظَاهِرِي وَبَاطِنِي، وَقَدْ غَرِمْتُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ مَا إِنْ ذَكَرْتُهُ كُنْتُ كَالْمُمْتَنِّ عَلَيَّ أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِي، وَإِنْ سَكَتُ كُنْتُ كَالْمَتَّهِمِ عِنْدَ مَنْ يَتَوَقَّعُ عَثْرَتِي، وَهَذَا هَذَا.

وَأَمَا أَحْوَالُ التَّوَاحِي فَأَحْسَنُ حَالِنَا فِيهَا أَنَا نُزَجِيهَا إِلَى الْأَوْلِيَاءِ فِي نَوَاحِيهَا مَعَ النَّفْقَةِ الْوَاسِعَةِ فِي الْوِظَائِفِ وَالْمَهْمَاتِ الَّتِي نَنْوِيهَا.

وَأَمَا الْعَامَّةُ فَلَا أَحْوَجَ إِلَيْهَا، وَلَا كَانَتْ دَوْلَةٌ لَا تَثْبُ إِلا بِهَا وَبِأَسَاخِ أَمْوَالِهَا. فَقَالَ الْأَمِيرُ، وَكَانَ مَلَقْنَا<sup>(١)</sup>: هَذَا ابْنُ كَامَةِ، وَهُوَ صَاحِبُ الذَّخَائِرِ وَالْكَنُوزِ وَالْجِبَالِ وَالْحِصُونِ، وَيَبِيدُهُ بِلَادٍ، قَدْ جَمَعَ هَذَا كُلَّهُ مِنْ نِعْمَتِنَا وَفِي مَمْلَكَتِنَا وَأَيَامِنَا وَبِدَوْلَتِنَا، وَهُوَ جَامٌّ مَا شَيْكَ<sup>(٢)</sup>، وَمَخْتَوْمٌ مَا فُضَّ مَذْكَانٌ.

ما تقول فيه؟

(١) مَلَقْنَا: يَقْصِدُ أَنَّهُ كَانَ مَوْحَى إِلَيْهِ بِهَذَا الْكَلَامِ.

(٢) جَامٌّ: مُسْتَرِيحٌ. شَيْكَ: أَصِيبُ بِشَوْكَةٍ. يَعْنِي أَنَّ مَالَهُ سَلِيمٌ لَمْ يَمَسْ.

قال: ما لي فيه كلام، فإن بيني وبينه عهداً ما أخيسُ به<sup>(١)</sup> ولو ذهبت نفسي.  
فقال: اطلب منه القرض.

فقال: إنه يتوحش ويراه باباً من الغضاضة، وقد ر القرض لا يبلغ حد الحاجة، فإن الحاجة ماسة إلى خمسمائة ألف دينار على التقريب، ونفسه أنفع لنا وأرد على دولتنا من موقع ذلك المال. وبعد فرائه وتدبيره واسمه وصيته وبداره إلى الحرب فوق المطلوب.

قال: فليس لنا وجه سواه؛ وإذا ليس هاهنا وجه، فليس بأس بأن نطالع الملك بهذا الرأي لتكون نتيجته من ثم.  
فقال: أنا لا أكتب بهذا فإنه غدر.

قال: يا هذا! فأنت كاتب وصاحب سرّي وثقتي، والزمام في جميع أمري، ولا سبيل إلى إخراج هذا الحديث إلى أحد من خلق الله؛ فإن أنت لم تتول حاره وقاره، وغته وسمينه، ومحبوبه ومكروهه، فمن؟

قال: أيها الأمير! لا تسمني الخيانة، فإنني قد أعطيت عهداً نقضه يذر الديار بلاقع، ومع اليوم غد، ولعن الله عاجلة تفسد آجلة.

فقال: إني لست أسومك أن تقبض عليه، ولا أن تسيء إليه. أشر بهذا المعنى على ذلك المجلس، وخلاك دم؛ فإن رأى الصواب فيه تولاه دونك كما يراه، وإن أضرب عنه عاضنا رأياً غير ما رأينا، وأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبدل بها؛ وإنما الذي يجب عليك في هذا الوقت أن تكتب بين يدي حرفين: أنه لا وجه لهذا المال إلا من جهة فلان، ولست أتولى مطالبته به، ولا مخاطبته عليه، وفاء له بالعهد، وثباتاً على اليمين، وجرياً على الواجب؛ ولا أقل من أن تجيب إلى هذا القدر، وليس فيه ما يدل

(١) ما أخيسُ به: لا أخونه أو أغدر به أو أنقصه حقه.

على شيءٍ من التُّكْتِ والخِلافِ والتَّبْدِيلِ.

فما زالَ هذا وشبهه يتردَّدُ بينهما حتى أَخَذَ خَطَّهُ بهذا النَّصِّ عَلَيَّ أَنْ يُصْدِرَهُ إِلَيَّ  
فَارِسَ.

فلما حَصَلَ الخَطُّ، وَجَنَّ اللَّيْلُ، رَوَّسِلَ ابْنُ كَامَةَ وَحَضَرَ، وَقَالَ لَهُ الأَمِيرُ: أَمَا عِنْدَكَ  
حَدِيثُ هَذَا المَخْنَثِ فِيمَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ المَلِكُ فِي شَأْنِكَ، وَأُورِدَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِكَ مِنْ  
إِطْمَاعِهِ فِي مَالِكَ وَنَفْسِكَ، وَتَكْثِيرِهِ عِنْدَهُ مَا تَحْتَ يَدِكَ، وَفِي نَاحِيَتِكَ مَعَ صَاحِبِيكَ؟  
فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ كَامَةَ: هَذَا الفَتَى يَرْتَفِعُ عَنِ هَذَا الحَدِيثِ، وَلَعَلَّ عَدُوًّا قَدْ كَادَهُ بِهِ،  
وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا لَا مَنفَذَ لِلسَّحْرِ فِيهِ، وَلَا مَسَاغَ لظَنِّ سَيِّئٍ فِيهِ.

قَالَ: فَمَا قُلْتَ مَا سَمِعْتَ إِلَّا عَلَيَّ تَحْقِيقًا، وَدَعَّ هَذَا كَلَّهُ يَذْهَبُ فِي الرِّيحِ، هَذَا كِتَابُهُ  
إِلَى فَارِسٍ بِمَا عَرَّفْتُكَ، وَخَطَّهُ.

قَالَ عَلِيٌّ: فَإِنِّي لَا أَعْرِفُ الخَطَّ، وَلَكِنْ كَاتِبِي يَعْرِفُ، فَإِنْ أَذِنْتَ حَضَرَ.  
قَالَ: فَلِيحْضُرْ. فِجَاءَ الخُثْعَمِيِّ الكَاتِبِ، وَشَهِدَ أَنَّ الخَطَّ خَطُّهُ، فَحَالَ ابْنُ كَامَةَ عَنِ  
سَجِيئَتِهِ، وَخَرَجَ مِنْ مُسْكِهِ، وَقَالَ: مَا ظَنَنْتَ أَنَّ هَذَا الفَتَى بَعْدَ الأَيْمَانِ الَّتِي بَيْنَنَا يَسْتَجِيزُ  
هَذَا.

قَالَ الأَمِيرُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ! إِنَّمَا أَطْلَعَكَ المَلِكَ عَلَيَّ نِيَّةَ هَذَا الغُلامِ فِيكَ، لِتَعْرِفَ فَسَادَ  
ضَمِيرِهِ لَكَ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ هِنَاتٍ أُخْرَى، وَأَفَاتٍ هِيَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا وَأَكْبَرُ؛ وَقَدْ حَرَّكَ  
خِرَاسَانَ عَلَيْنَا، وَكَاتَبَ صَاحِبَ جُرْجَانَ، وَأَلْقَى إِلَيَّ أُخِينَا بِهِمَذَانَ، يَعْنِي فِخْرَ الدَّوْلَةِ،  
أَخْبَارَنَا، وَهُوَ عَيْنٌ هَاهُنَا لِبِخْتِيَارٍ، وَقَدْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَعْمَلُ فِي تَخْلِيصِ هَذِهِ البِلَادِ لَهُ،  
وَيَكُونُ وَزِيرًا بِالعِرَاقِ، وَقَدْ ذَاقَ بِبَغْدَادَ مَا لَا يَخْرُجُ مِنْ ضَرْسِهِ إِلَّا بِنَزَعِ نَفْسِهِ.

وَكَانَ المَجُوسِيُّ أَبُو نَصْرٍ<sup>(١)</sup> قَدْ قَدِمَ مِنْ عِنْدِ المَلِكِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَهُوَ يَقْتُلُ الحَبْلَ

(١) المَجُوسِيُّ أَبُو نَصْرٍ: هُوَ أَبُو نَصْرٍ خُوشَادَةَ المَجُوسِي، مِنْ ثِقَاتِ رِجَالِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ، وَقَدْ أَرْسَلَهُ إِلَى أُخِيهِ مُؤَيَّدِ  
الدَّوْلَةِ لِلقَبْضِ عَلَى أَبِي الفَتْحِ ابْنِ العَمِيدِ بَعْدَ أَنْ يُوَافِقَ ابْنَ كَامَةَ عَلَى أَمْرِهِ، لِأَيِّمَانِ نَاحِيَةِ العَسْكَرِ.

وَيُبرِم، وَيُوخَّرُ مَرَّةً وَيُقَدِّمُ أُخْرَى، وَيَهَابُ مَرَّةً وَيُقَدِّمُ؛ وَكَانَ الْحَدِيثُ قَدْ بَيَّتَ بَلِيلَ، وَاهْتَمَّ بِهِ قَبْلَ وَقْتِهِ بِزَمَانٍ.

قال علي بن كامة: فما الرأي الآن؟

قال: لَا أَرَى أَمَثَلَ مِنْ طَاعَةِ الْمَلِكِ فِي الْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَقَدْ كُنَّا عَلَيَّ ذَلِكَ قَادِرِينَ، وَلَكِنْ كَرِهْنَا أَنْ يُظَنَّ بِنَا أَنَّا هَجَمْنَا عَلَيَّ نَصِيحِنَا وَكَافِينَا، وَعَلَى رَبِيبِ نِعْمَتِنَا، وَنَاشِئِ دَوْلَتِنَا فَمَهَّدْنَا عِنْدَكَ الْعُدْرَ، وَأَوْضَحْنَا لَكَ الْأَمْرَ.

قال: فَأَنَا أَكْفِيكُمْوه. ثم كان ما كان.

قال الخليلي: وَكُلُّ هَذَا جَرَّهَ عَلَيْهِ الْإِسْتِبْدَادُ بِالرَّأْيِ، وَالغَرَارَةُ وَالتَّوَانِي وَقِلَّةُ التَّجْرِبَةِ، وَالرُّكُونُ إِلَى وَصِيَّةِ الْمَيْتِ، وَسَوْءُ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ، وَمُجَانِبَةُ الْحَزْمِ وَالرَّأْيِ الثَّاقِبِ؛ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا.

ورأيت الخليلي، والهروي، والشاعر المغربي، وجماعة من خلطاء أبي الفتح، كابن فارس، وابن عبد الرحيم يخوضون في حديثه، وقالوا: كَانَ الرَّأْيُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ الْمَغْرِبِيُّ: أَجُودُ مِنْ هَذِهِ الْأَرَاءِ كُلِّهَا أَنْ كَانَ يَضْرِبُ عُنُقَ الْمَجُوسِيِّ جَهَارًا أَنِّي الدَّهْرُ بِمَا أَتَى، وَمَا كَانَ لِيَكُونَ أَشَدَّ مِمَّا كَانَ؛ وَلَعَلَّهُ كَانَ يَطْرَحُ هُنَيْئَةً، وَيَصِيرُ سَبَبًا إِلَى خَلَاصٍ.

وذهبوا في القول كل مذهب.

وفي الجملة القدر لا يسبق، والقضاء لا يملك؛ وَمَنْ اسْتَوْفَى أَكَلَهُ اسْتَفْنَى أَجَلَهُ، وَالكَلَامُ فَضْلٌ، وَالرَّأْيُ الدَّبْرِيُّ مَرْدُودٌ، وَمَنْ سَاوَقَ الدَّهْرَ غَلِبَ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا.

ما وصلنا - حاطك الله - حديثاً بحديث، وكلمة بكلمة، إلا لتكثر الفائدة، ويظهر العلم، ويكون ما صرّفنا القول فيه مرفوداً بالحجة الناصعة، والامتناع المونق.

أَيُّهَا السَّامِعُ! قَدْ سَمِعْتَ صَرِيحَ الْحَدِيثِ وَدَعِيَّهِ، وَعَرَفْتَ مَسْخُوطَهُ وَمَرْضِيَّهِ؛ فَإِنَّ كَانَ اللَّهُ قَدْ أَلْهَمَكَ الْعَدْلَ، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ الْإِنْصَافَ، وَخَفَّفَ عَلَيْكَ الرَّفْقَ، وَوَفَّرَ نَصِيبَكَ مِنَ الْخَيْرِ، وَرَفَعَ كَعْبَكَ فِي الْفَضْلِ، فَقَدْ رَضِيتُ بِحُكْمِكَ، وَأَمِنْتُ عَدَاوَتَكَ، وَوَثِقْتُ بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لِي عَلَى لِسَانِكَ، وَجَعَلَهُ حَظِّي مِنْكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْاعْتِذَارَ فَقَدْ أَسْلَفْتُ الْوَاضِحَ فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ الْاِحْتِجَاجَ فَقَدْ أَتَى الْبَيَانَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَغْضَبُ لِابْنِ عَبَّادٍ أَوْ لِابْنِ الْعَمِيدِ فَقَدْ شَحَنْتُ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ فَضْلِهِمَا وَأَدْبِهِمَا وَكَرَمِهِمَا وَمَجْدِهِمَا، بِمَا إِذْ مَيَّزَتْهُ وَأَفْرَدَتْهُ ثُمَّ اجْتَلَيْتَهُ وَأَبْصَرْتَهُ، وَاقَعَ نَفْسَكَ، وَشَفَى غَلِيْلَكَ، وَبَلَغَ آخِرَ مُرَادِكَ؛ وَإِلَّا فَعَرَّفْنِي مَنْ جَمَعَ إِلَيَّ هَذَا الْوَقْتِ عَشْرَ وَرَقَاتٍ فِي مَنَاقِبِهِمَا وَأَدَابِهِمَا وَمَكَارِمِهِمَا، وَمَا يَنْطِقُ عَنْ اتِّسَاعِهِمَا وَقَدْرَتِهِمَا، وَيَدْعُو إِلَى تَعْظِيمِهِمَا وَتَوْفِيَةِ حُقُوقِهِمَا وَمَعْرِفَةِ أَقْدَارِهِمَا وَهَمَمِهِمَا، مِمَّنْ لِهَمَّا عَلَيْهِ الْإِصْبَعُ الْحَسَنَةُ، وَالْيَدُ الْخَضْرَاءُ، وَالنِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَمَنْ لَمْ يُذَكِّرْ إِلَّا بِهِمَا، وَمَنْ لَمْ يُعْرِفْ إِلَّا فِي أَيَّامِهِمَا، وَمَنْ لَوْ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مِنْهُمَا لَكَانَ يَحْرُسُ فِي الدُّرُوبِ، أَوْ يَلْقُطُ النَّوَى فِي الشُّوَارِعِ، أَوْ يُوجَدُ فِي أَوَاخِرِ الْحَمَامَاتِ.

وَدَعِ الشُّعْرَاءَ جَانِبًا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَنْ حَسَبِ دَنِيِّ، وَمَذْهَبِ زَرِيِّ، وَطَمَعِ خَسِيِّسٍ، وَمَقَامِ نَذَلٍ، وَمَوْقِفِ مُخْجَلٍ؛ وَلَكِنْ هَاتِ رِسَالَةً مَجْرَدَةً، وَأَدَبِيًّا فَاضِلًا وَعَالِمًا مَذْكُورًا تَجْرَدَ لِنُصْرَتِهِمَا، وَدَلَّ عَلَى خَفِيِّ فَضْلِهِمَا، أَوْ عَجَبَ مِنْ جَلِيِّ فِعْلِهِمَا!

فَإِذَا كُنْتَ لَا تَجِدُ ذَلِكَ، فَدَعِ الْكَلْبَ يَنْبِجُ، فَإِنَّمَا الْكَلْبُ يَنْبَاحُ.

عَلَى أَنِّي - حَفِظَكَ اللَّهُ - لَا أُبْرِيءُ نَفْسِي فِي هَذَا الْكِتَابِ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ مِنْ دَبِيبِ الْهَوَى، وَتَسْوِيلِ النَّفْسِ، وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ، وَغَرِيبِ مَا يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ.

فَإِنْ وَقَفْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَقَرَأْتَ الْعَدْلَ عَلَيْنَا، وَسَالَ فِي اللَّائِمَةِ مِنْ أَجْلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَجِيَّ جِلْدَةً لَا تَدْمِي بِشَفْرَتِكَ، أَوْ تَسْتُدَّ إِلَى جُمُجْمَةٍ لَا تَقْشَعِرُّ ذَوَائِبُهَا بِرِيحِكَ، وَأَنْ تَمْتَحِنَ جَوْهَرًا لَا يَحَاصُّ عَيْبَهُ بِنَارِكَ.

واستيقن أن من ركب سنام هذا الحديث كما ركبته، وسبح في غامر هذه القصة كما سبحت، وقال ما قلت، وعرض بما عرضت، فغير بعيد أن يحكم له وعليه بمثل ما يحكم به لي وعلي، وإذا كان الحكم لازماً، وهذا القياس مطرداً، فالرضا بهما عز، والصبر عليهما شرف، وإني لأحسد الذي يقول:

أعدُّ خمسين عامًا ما عليّ يدُ لأجنبِيّ ولا فضلٌ لذي رَحِمِ  
الحمد لله شكرًا قد قنعتُ فلا أشكو لئيمًا ولا أطري أخا كرمِ  
لأنِّي أتممتي أن أكونه، ولكنَّ العجزَ غالبٌ، لأنه مبدورٌ في الطينة.  
ولقد أحسن الآخر أيضًا حين يقول:

ضيقُ العُدَرِ في الضراعةِ أنا لو قنعنا بقسمننا لكفانا  
مَا لنا نَعْبُدُ العِبَادِ إِذَا كَانِ إِلَى اللَّهِ فَفُرْنَا وَغِنَانَا  
وَأَدْعُو هَاهُنَا بِمَا دَعَا بِهِ بَعْضُ النَّسَاكِ:

«اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبدلها بالإقتار فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شرار خلقك، فنبتلى بحمد من أعطى ودم من منع. وأنت من دونهما ولي الإعطاء، ويبيدك خزائن الأرض والسما. يا ذا الجلال والإكرام.»

## الفهارس

١- فهرس الأحاديث النبوية

٢- فهرس الأمثال

٣- فهرس الشعوب والجماعات

٤- فهرس الأماكن

٥- فهرس الأعلام

٦- فهرس القوافي



## ١- فهرس الأحاديث النبوية

(أ)

- اذْكُرُوا الْفَاسِقَ بِمَا فِيهِ كَيْ تَحْذَرَهُ النَّاسُ ٣٦

- إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وَعَاءٌ ١٣٠ - إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا ١٤، ٢٧٠

(ح)

- حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَةَ ١١٣

(ج)

- خَيْرَ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا، ٢٩٠

(د)

- الدِّينَ النَّصِيحَةَ ٩٨

(ق)

- قُلْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ ٢٦٢ - قَوْمًا صُفُوفُكُمْ فَتَرَأَوْا ١٠٢

(ل)

- لَا نَبِيَّ بَعْدِي ١١٣ - لَيْئِ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَظَهْرَهُ ١٥٧

(م)

- مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ ١٥٨

(ي)

- يَا بَنِي سَلَمَةَ، مَنْ سَيِّدُكُمْ ٣٦

٢- فهرس الأمثال

(أ)

- أجبن من المنزوف ضرطاً ١٨٨  
- أدل دُعَيْمِص الرَّمْل ١٥٤  
- أعز من كليب وائل ٤١  
- أعز من بيض الأنوق ٢٥٤

(خ)

- الحديث ذو شجون ١٢٠، ٣٠٣  
- الحديث قد بيت بليل ٣١٢  
- حين تقلين تدرين ٢١٨

(ذ)

- ذق عقق ٢٤٥

(ر)

- رب طمع يهوي إلى طبع ٢٧٥  
- رب رمية من غير رام ٢٤٠  
- رب واثق خجل ٩٩

(ص)

- صَابَتْ بَقْرُ ١٥٣

(ع)

- عمل من طب لمن حب ٣٥  
- عود يعلم العنج ١٥٣

(غ)

- غضب الخيل على اللجم الدلاص ٤٢

(ق)

- القاص لا يحب القاص ٢٩٥

(ل)

- لكل جابه جوزه ثم يؤذن ١٥٣

(ي)

- يسر حسواً في ارتغاء ٧٥

٣- فهرس الشعوب والجماعات

(أ)

آل بويه ١٨٣	آل برمك ٢٢١
آل الجراح ١١٥، ١٩٠	آل البيت
آل الرسول ٢٧١	آل أبي جعفر العتبي ٩٦
آل العميد ١٠١	آل سليمان بن علي ٥١
آل مكرم ٤٤	آل الفرات ١١٥
آل وهب ٢٢١	آل المهلب ٩٥
الأدباء ٢٩	أبناء المهلب ٣٤
أسد ٢٦٣	أرباب الحرق ١٦٨
أصحاب الحرق ١٦٨	أصحاب الاثنين: المانوية ٢٨٢
أصحاب القلانيس ٢٩٦	أصحاب الفرضة ١٠٧
الأطباء ٢٩٠	أصحاب الكلام ١٢٣
الأنباط ٤٤	الإمامية ٢٣٣
أهل البصرة ١٨٢	أنبياء الله ٢٩٧
أهل الجدل ١٢٧	أهل البيت ١١٤، ٢٣٣
أهل الحكمة ٣٢، ١٤٠، ٢٩٩	أهل الجراح ١١٥
أهل الري ٢٦٦	أهل خراسان ٢٦٥
أهل العلم ٧٤، ٢٨١، ٢٨٣	أهل الشام ٣٤
أهل المشرق ٢٤٤	أهل الفرات ١١٥
أهل المغرب ٢٤٤	أهل مصر ١٧٥، ١٧٦
أولاد بويه ١٠١	أهل نيسابور ١٦٠

(ب)

البرامكة ١١٥، ٢٧٩	البترية ٢٨٢
البغداديون ٢٠٠، ٢٨٩	البربر ٧٠
بنو أمية ٢١٥	بنو إسرائيل ٢٥٤
بنو حرب ٢٩٢	بنو ثوابة ٩٦، ١٠٨
بنو سلمة ٣٦	بنو ساسان ٦٧
بنو الفرات ١١٥	بنو العباس ٢٧٨
بنو المنجم ٥٢	بنو مروان ٢٧٨
بنو هاشم ٢٧٩	بنو المهلب ٣٤، ٩٥
	بنو اليزيديين ٦١، ٩٦

(ت)

الترك ١٢٥

(ث)

الثوية: المانوية ٢٨٢	ثقيف ٢٣٠
	ثمود ١٣٠

(ج)

الجيل ٣٠٥	الجوامردية ١٧٣
-----------	----------------

(ح)

الحشوية ٢١٢

(خ)

الخراسانيون ٢٦٥	خاصة الصاحب ٢٦٧
	خلفاء الله ٤٥، ٢٩٧

(د)

الدولة الزيارية ٢٤٨	دعاة الصاحب ٢٦٧
---------------------	-----------------

الديلم (قبيلة) ٣٠٥	الديصانية ٢٨٢
(ر)	
الروم ١٢٥، ١٤١	الرافضة ٢٢٩، ٥٥
(ز)	
الزنج ٧٠	الزنادقة ١٢٣
	الزيدية ١٠٤
(ش)	
الشطار ١٧٣	الشحاذون ١١٣
	الشيعة ١٢١، ١٢٣، ٢٧١
(ص)	
	الصوفية ١٦٥
(ع)	
	المعجم ٧٣، ٨٣، ١٨٤، ٢٥٧
العرب ٢٠، ٦١، ١١٧، ١٤٣، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٠، ٢١٠، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٥٦، ٢٥٧،	
العلوية ٢٧٤	٢٦٢، ٢٥٩
(غ)	
الغز ٧٠	الغزاة ٢٥٦
(ف)	
الفرق الكلامية ٢٩٣	الفرس ٧٠، ١٩٣
	الفقهاء ١٢٣، ٣٠٨
(ق)	
	القصاص ١٠٥
(ك)	
	الكرامية ١٣٧

(هـ)

المتفلسفون ٢١٩، ٢٦٩، ٢٧٠	المانوية ٢٨٢
	المتكلمون ١٠٢، ١٣٧، ١٦٠، ٢٦٩، ٢٧٠
المدنيون ٢٩٣	المجوس ١٧٧
المرجئة ٢٦٧	المذكرون ١٠٥
المعتزلة ١٢٧، ٢٧٤	المشركون ٢٦٢
المغاربة ٢٣٠	المعلمون ٨٧، ٢٢٩، ٢٧٥
الملحدون ١٢٣، ١٤٤	المكدون ١١٣
	المهندسون ١٤٧

(ن)

النصارى ١٧٧	النحويون ١٠٣، ١٣٣
-------------	-------------------

(ي)

اليزيديون ٩٦	يأجوج ومأجوج ٢٥٤
	اليهود ١٧٧

#### ٤- فهرس الأماكن

(أ)

	أذربيجان ١٨٩، ١٩١، ٢٠٢، ٢٦٣
إرم ذات العماد ١٧٣	أرجان ٣٧، ٢٠٢
أصبهان ٣٠٧	أسد آباد ٦٤
	اصطخر ٨٢

(ب)

باب سين ٨٣	باب الرصافة ٢٤٦
باب المسلحة ٨٠	باب الشام ٢٩١

بادية البصرة ١٧٣	بادية الكوفة ١٧٣
بخارى ٢٤٣، ٢٠٢	
البصرة ٣٤، ٧٥، ٩٥، ١٣١، ١٧٣، ١٨٢، ٢٨٠، ٣٠٣	
بغداد ٧١، ٧٣، ٨٦، ١١٠، ١١٥، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٣، ١٥٠، ١٧٣،	
١٨٠، ١٣٦، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٨٣، ٢٩١، ٣٠٤، ٣١٢	
بلاد العجم ١٨٤	
(ت)	
تل عقرقوف ٢٩١	التوتة ٢٨٩
(ج)	
جامع الري ٢٥٩	
جرجان	جلق
جيان	
(ح)	
حانة الملهين ٢٣٠	الحجاز ١٧٤
حجر الصراة ٢٤٦	
(خ)	
خراسان ٣٧، ٧٣، ٨٤، ٨٥، ٩٦، ٩٠، ١٣٧، ١٦٥، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٣٣، ٢٤٣،	
٢٤٤، ٢٨١، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٢	
الخنديق	
(د)	
دار باكونة ١٠٧	دوارة الحمار ٢٨٩
دير حنون ٩١	الديلم ١٠٤، ١٨٩، ٣٠٥
الدينور ١٢٦	

(ر)

رضوى ٤٠  
روض القطا ٧١  
الري ٦٤، ٦٨، ٧٥، ٨٠، ٨٣، ٨٥، ١٠١، ١٢٨، ١٧٩، ١٨٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥،  
٢١٩، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٥٦، ٢٦٥، ٣٠٦، ٣٠٧

(ز)

الزبد ١٠٧  
زبم ١٤٣، ٢٨٢  
الزيدية ١٠٤

(س)

سامرا (سامرة = سر من رأى) ١٧٣  
سجستان ١٤٨  
السمارية ٢٩١  
سمرقند ٨٣  
سوق الحنطة بقم ٥٦

(ش)

الشام ٢٤٤  
شت طولة ٢٣٠  
الشونيزية ٢٨٩

(ص)

الصيمرة ١٢٦

(ط)

طالقان ٨٢  
طالقان الديلم ٥٦  
طبرستان ٢٣٣

(ع)

العراق ٧٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٨٠، ١٨٩، ٢٨٠، ٢٨٣، ٣٠٩، ٣٠١٢  
العقيق ٢٩٣  
عمان ٢٣٠

(ف)

الفرضة ١٠٧، ٢٨٣  
فيد ٩٣

(ق)

قصر الخلد ١٠٧	قصر الجحص ٢٣٤
قم ١٩٩، ١٩١، ١٩٠	قطيعة الربيع ١٢٦
	قنطرة الشوك ٢٩١

(ك)

الكوفة ١٧٣	الكعبة ٢٨٢
------------	------------

(هـ)

المدينة المنورة ٢٩٢	ما وراء النهر ١٣٦
	مدينة السلام ١١٧، ٥٧، ١٨٣، ٢٥٥، ٢٩٤
المزرفة ١٠٧، ٢٩١	المرج ٢٧٤
	المشرق ٧٣، ٢٠٥، ٢٤٤
	مصر ٧٦، ١٠٤، ٧٧، ١٧٥، ١٧٦، ١٨١، ١٨٤، ٢٤٤
	مصطبة المكدين ١٢٨
	المغرب ٢٠٥، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٤
الموصل ٢٨٠	مقبرة معروف الكرخي ٢٧١

(ن)

النوبهار ٢١٩	نجران ٢٣١
	نيسابور ٧٣، ١٦٠، ٢٧٤، ٣٠٧

(هـ)

همذان ٦٤، ١٨٣، ٣١٢
--------------------

(و)

ورامين ٢١٩
------------

٥- فهرس الأعلام

(i)

- إبراهيم (عليه السلام) ٢١٦، ٢٥٣  
إبراهيم بن سيار النظام ١٩٣، ٢٨٢  
إبراهيم بن العباس الصولي ١٩٣، ٢٣٠،  
إبراهيم بن علي الفارسي أبو إسحق ٢٠٥  
إبراهيم بن علي المتكلم أبو إسحق النصيبي ١٢١، ١٢٦، ١٧٥، ١٢١، ١٢٦،  
إبراهيم قويري أبو إسحق ١٤١، ١٤٥  
إبراهيم بن المرزبان ٢٦٣  
إبراهيم المسلم الطيب ٢٣٢  
إبراهيم بن هلال الصابي ٩٠، ١٨٥، ٢٣٩، ١٨٥، ٢٣٩  
إيليس ٣٥، ٤٧، ١٢٠، ١٨٤، ٢١٢  
الأبهري أبو سعيد: القاسم بن عطية  
أحمد بن إبراهيم بن عبد الله القلانسي ٩٠  
أحمد بن إسماعيل بن سمكة القمي ١٤٠، ١٤٠  
أحمد بن بشر بن عامر أبو حامد المرورودي ١٢١، ١٢٣، ١٣٣، ١٧٠، ١٧١،  
٢٧٢  
أحمد بن جعفر بن موسى جحظة ٩٦  
أحمد بن الحسين البديع الهمذاني ١١٦، ١٢١،  
أحمد بن أبي خالد ١٩٣  
أحمد بن أبي دواد القاضي ٣٥، ٥٢، ١٧٠  
أحمد بن أبي شجاع معز الدولة ١٠٧  
أبو أحمد العلوي العقيقي أمير المدينة ٢٩٢، ٢٩٣  
أحمد بن علي الحنفي الرازي أبو بكر الجصاص ١٢١

أحمد بن فارس المعلم صاحب اللغة ١٠٤، ١٨٨، ٢٠٢، ٢٢٤، ٢٣٨، ٢٥٦،  
٢٥٧، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٩١، ٣١١، ٣١٢

أحمد بن محمد بن إبراهيم الضبي ١٠٦

أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي ابن القطان ١٠٩

أحمد بن محمد بن ثابت البغدادي

أحمد بن محمد الطبري أبو الحسن ٧٦، ١٣٤

أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي ١٤٠، ١٤١، ١٤٧

أحمد بن محمد العوفي ١٧٤

أحمد بن محمد بن يحيى أبو الحسين بن أبي البغل

أحمد بن محمد بن يعقوب أبو علي مسكويه ١٩١، ٢٠١

أحمد بن يحيى بن إسحق، ابن الراوندي ١١٢

أحمد بن يحيى ثعلب ٢٣٣

أحمد بن يحيى بن محمد بن خالد بن ثوابة ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧

الأحوص: عبد اله بن محمد بن عبد الله ٢٦٠

ابن أبي خالد: أحمد بن أبي خالد ١٩٣

الأخفش: علي بن سليمان

إدريس بن أبي حفصة أبو سليمان ١٥٩

أرسطوطاليس ١١٢، ١٩٠، ٢١٤

أسامة بن زيد ٧٣

الأستاذ: ابن العميد أبو الفتح

الأستاذ/ ابن العميد أبو الفضل ١٧، ٥٥، ٥٦، ٧٥، ٨١، ٨٢، ١٠٥، ١٦٦، ١٦٨،  
١٧٩، ١٨٨، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٤، ٢١٠،  
٢١٣، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٦، ٢٤٨،  
٢٥٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٠، ٣٠٥، ٢٨١، ٣١٣

إسحاق (عليه السلام) ٢٥٣

إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله البربري ١٩٣

إسحق الطبري أبو الحسن

الإسكاف أبو علي ٢٦٧

إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) ٢٥٣

إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه الحمدوني الشاعر ٤١

إسماعيل بن بلبل الوزير ٥٢

إسماعيل بن عباد الصاحب ٥٦، ٦٤، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٨١، ٨٣، ٨٤،

٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩١، ١٠٢، ١٠٨، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٠، ١٢٧،

١٣٧، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٩، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧،

١٩٢، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٣،

٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،

٢٨٠، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٣

إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية ٢٥

أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو

أشجع السلمي: أشجع بن عمرو

أشجع بن عمرو السلمي ٣٥

الأشل الكاتب ١٧

الأشناني: عمر بن الحسن بن مالك أبو الحسين الأصمعي ٥٦

ابن الأعرابي: محمد بن زياد ٦٠

ابن الأعرج النمري ٢٣٧

أفلاطون ١٩٠، ٢١٤

الأقطع المنشد الكوفي ١١٣، ١١٤، ١٨١

أم حبيش ٣١

الإمام أحمد: أحمد بن حنبل

ابن الإمام (طفيلي) ٢٣٠

امرؤ القيس ٩٤

أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ٢١٤

الأمين: عباد بن العباس والد الصاحب ٥٦، ١٨٥، ٢٨٢

ابن الأمين: إسماعيل بن عباد

ابن الأنباري ١٨١

(ب)

ابن بابويه القمي: علي بن الحسين

ابن باش أبو علي ٩٠

البحثري: الوليد بن عبيد بن يحيى

البخاري ١٥٩

بختيار بن معز الدولة بن بويه ٢٣٤، ٣١٢

البديع الهمداني: أحمد بن الحسين

البديهي الشاعر: علي بن محمد بن علي ٧٧، ١٨٤

البربري: إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله

البربهاري ٢٨٩

برهان الصوفي ٣٦

البيزاز ١٢١

بشر الحافي: بشر بن الحارث المروزي ٣٦

أبو بشر متى: متى أبو بشر ٢٣٨

البصري: الحسين بن علي الجعَل أبو عبد الله

البصيري الشاعر ٢٣٤

بغا الكبير أبو موسى التركي

البغدادي: الخطيب البغدادي

البغدادي: عبد القادر البغدادي

البغدادي عبد القاهر

ابن أبي البغل: أحمد بن يحيى أبو الحسين

ابن البقال الشاعر: علي بن يوسف

ابن بقية الوزير: محمد بن محمد بن محمد

بكر بن شاذان ١٠٤

أبو بكر الصديق: عبد الله بن أبي قحافة ٥٤

البلخي: أبو زيد البلخي

البلعمي أبو الفضل: محمد بن عبد الله

بلقيس ٢٥٣

بلنياس (= بلنيوس، بلنياس): أبولونيوس ٢٥٣

ابن بنان الوراق ١٢٥

ابن بندار أبو العباس ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٦٢، ٢٦٣

بهاء الدولة ١٨٣

ابن البواب ١٠٧

البوزجاني: محمد بن محمد بن يحيى

بويه بن ركن الدولة مؤيد الدولة ١٧٤، ٢٦٥، ٣٠٦، ٣٠٨

البيع أبو علي ١٨٩

(ت)

التاجر المصري ١٣٠، ١٧٥، ١٧٦، ٢٨٣

أبو تمام ٢٣٠

ابن تميم ١٣٧

التميمي الشاعر المصري الرغيب سبطل ٧٦، ١٨٧

(ث)

ابن ثابت ١٣٦، ١٧٠، ١٨١

ابن ثابت البغدادي: أحمد بن محمد بن ثابت ١٠٢، ١٠٧

ابن ثابت البغدادي: محمد بن ثابت أبو بكر ١٣١

ثعلب: أحمد بن يحيى

ابن الثلاث المتكلم: عبد الله بن محمد بن عبد الله

ثمامة بن أشرس النميري ٢٧٩

ابن ثوابة: أحمد بن يحيى بن محمد بن خالد

ابن أبي الثياب: عبد الرزاق بن الحسن الشاعر

(ج)

الجاحظ: عمرو بن بحر أبو عثمان ٣٥، ٣٦، ٤٥، ١٩٣، ٢٥٦

الجامدي: محمد بن حامد الشاعر

الجبائي: عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ٩٢

الجبائي: محمد بن عبد الوهاب

جبريل ١٢٣

جحظة: أحمد بن جعفر بن موسى

الجد بن قيس ٣٦

ابن الجراح: علي بن عيسى بن داود

ابن الجراح: محمد بن داود

الجراحي أبو الحسن ٢٨٩

الجراحي: أبو طالب الجراحي الكاتب ٢٨٩

الجرباذقاني أبو بكر

الجرجاني ١٩٩

الجرجاني: محمد بن أحمد البغدادي الكاتب

- الجرفاذقاني: الجرباذقاني أبو بكر ٧٧، ٧٨  
درويل بن أوس بن مالك الحطيئة  
جريح المقل شاعر من أذربيجان ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٥١  
جرير ١٥٨  
الجريري غلام ابن طرارة ٧٥  
جزء بن غالب بن عامر الخزاعي ابن أبي كبشة ٢٢١  
جستان بن المرزبان ٢٠٢  
الخصاص: أحمد بن علي الحنفي أبو بكر  
أبو الجعد الأنباري ٢٨٩  
جعدة ٧٣  
جعفر بن حرب الهمذاني ٩٨  
أبو جعفر الخازن: الخازن ٢٠١  
أبو جعفر الخطيب النيسابوري ٢٤٦  
جعفر بن مبشر الثقفي ٩٨  
أبو جعفر الوراق ١٨٦  
الجعفران ٩٨  
الجعل: الحسين بن علي بن إبراهيم البصري  
ابن الجلبات الاعر: علي بن الحسن التنوخي أبو القاسم  
الجنيد  
أبو جهل: عمرو بن هشام المخزومي  
أبو الجيش الخراساني شيخ الشيعة ١٢١، ١٢٣  
الجيلوهي الشاعر ١١٥، ١٢٠  
(ح)  
أبو حاتم السجستاني: سهل بن محمد

- الحاتمي: محمد بن الحسن بن المظفر ٢٢  
الحاجب النيسابوري ٢٢٣  
حامد بن العباس ١١٥  
أبو حامد المرورودي ٢٧٢  
أبو الحباب ١٠٧  
حبيشة ٦١  
ابن الحجاج الشاعر: الحسين بن أحمد بن محمد ٩٤  
حجاج بن هارون الكاتب ١٠٠  
الحراني ٥٢  
أبو الحرث حمين ٥٣، ٩٦  
ابن حرثان: عمرو  
حرثان بن عمرو ٢١٥  
حرثان بن محرث ذو الأصبغ العدواني  
الحريري غلام ابن طراز: الجريري  
أبو الحريش ٢٠٩  
الحرزنبل: محمد بن عبد الله بن عاصم ٦٠  
ابن حسان ٢٧٥  
حسان بن ثابت ٦٤، ٢٦٢  
الحسن البصري: الحسن بن أبي الحسن ٣٤، ٤٩  
أبو الحسن البغدادي ٥٢  
الحسن بن بويه أبو علي ركن الدولة ٨٥، ١٨٨، ٢٥٦، ٣٠٨، ٣٠٩  
الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد ١٥١  
الحسن بن رجاء ٥٢  
الحسن بن رشيق القيرواني ٢٣١

أبو الحسن الطبري: إسحاق الطبري ٧٦، ١٣٤

أبو الحسن الطبيب ١٣١

الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي أبو سعيد ٤٩، ١٠٣، ١٤٨، ١٨٠،  
٢٠٥، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٨٣، ٢٩٦

أبو الحسن العلوي الهمداني

الحسين بن علي بن إبراهيم البصري الكاغدي ١٢١

الحسن بن علي بن خلف البربهاري ٢٨٩

الحسن بن محمد بن هارون المهلبلي الوزير ١٠٥

الحسن بن وهب ١٠٦

الحسنكي أبو عمران

الحسن بن أحمد بن سعدان ١٨٤

الحسين بن علي بن إبراهيم البصري الجعَل ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧

الحسين بن علي بن عبد الله النمري الشاعر ٢٩٩، ٣٠٣

الحسين بن علي بن محمد الخالع ١٤٨

الحسين المتكلم ١٥٥، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٦٧

الحسين بن محمد أبو عبد الله النجار

الحصيري أبو عبد الله ١١٢، ١٥١، ٢٦٥، ٢٦٦

الحلاء: الغاشي

ابن حماد: عبد الله بن حماد ٤٨

حمد بن محمد أبو الفرج الكاتب ٢٤٢، ٢٤٣

ابن حمدون: محمد بن عبد الله

الحمدوني الشاعر: إسماعيل بن إبراهيم بحمدون

حمدويه ضاحب الزنادقة

حمزة بن عبد المطلب

حمزة المصنف: حمزة بن الحسن الأصبهاني ٢٠٨

ابن حمزة ١٥٥

حميد بن أبي شحاذ الضبي

أبو حنيفة الإمام: النعمان بن ثابت

أبو الحوراء الرقي: أبو الجوزاء الرقي ٨٣

أبو حيان الأندلسي ٢١٥

أبو حيان البصري ١٨٢

أبو حيان التوحيدي ١٨٠، ١٨١

أبو حيان الدارمي ١٨١، ١٨٢

الجيلوهي: الجيلوهي ١٥٧، ١٦٧

(خ)

ابن خارجة ٢٤٢، ٢٤٣

الخازن أبو جعفر

ابن خاقان: عبيد الله بن محمد بن عبيد الله

الخالع: الحسين بن أبي جعفر علي بن محمد

الخشعمي ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٥، ٣١١

ابن أبي خراسان الفقيه ٦٨

الخراساني: أبو واقد الكرابيسي

الخرائطي ٧٠

الخشوعي ١٣٧

أبو الخصيب: الشيخ الحربي أبو الخصيب

الخليل بن أحمد الفراهيدي ١٣١

الخليلي ٨١، ٨٢، ٨٥، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢٦١، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣١٢

الخوارزمي: محمد بن العباس أبو بكر ٧٢، ٧٣، ٢١٧، ٢٣٣

(د)

الدامغاني ١٥٠، ١٥١

دعبل بن علي الخزاعي ٢٦١

دعيميص الرمل ١٥٤

دغة ٥٧

أبو دلف الخزرجي: مسهر بن مهلهل

ديك الجن: عبد السلام بن رغبان

(ذ)

ذو الكفائيتين: ابن العميد أبو الفتح

أبو ذؤيب الهذلي ٢٢٥

(ر)

رأس الجالوت اليهودي ١٧٦

ابن الرازي ٢٦٤، ٢٦٨

الرازي أبو بكر: أحمد بن علي الحنفي

الرازي أبو الفتح ١٢٦

أبو راغب ٩٦

ابن الراوندي: أحمد بن يحيى بن إسحق

أبو الربيع: محمد بن الليث ٨٨

رسول الله: محمد صلى الله عليه وسلم

ابن رشيق: الحسن بن رشيق

الرقاشي: عبد الملك بن محمد بن قلابة

ركن الدولة: الحسن بن بويه أبو علي ٧٦، ٢٠١، ٢٤٢

الرمادي: يوسف بن هارون الرمادي أبو عمر

الرماني: علي بن عيسى بن عبد الله

رويين ١٩٤، ١٩٥

ابن الرومي: علي بن العباس بن جريج أبو الحسن

الرويانى ١٠٤

(ز)

الزبرقان ٢٧٠

زبيدة بنت جعفر ٢٧٩

الزبير (رضي الله عنه) ١٧٥

ابن زرعة الفقيه ١٨٧

الزعفراني ٦٥، ٦٦-٧٣، ١٣٠، ١٨١

الزعفراني الشاعر: عمر بن إبراهيم ٧١، ٩١، ١٨٧

الزعفراني: محمد بن أحمد بن عبدوس أبو الحسن

الزعفراني النحوي أبو عبد الله ٨٣

زهير بن أبي سلمى ٢١٥

ابن الزيات المتكلم ١١٥

ابن الزيات: محمد بن عبد الملك

زياد بن أبيه ٦٢

زياد بن سليمان الأعجم ٦٠

أبز زيد الأنصاري: سعيد بن أوس

زيد بن حارثة ٧٣

زيد بن علي بن الحسين ١٠٤

أبو زيد الكلابي ٧٥

(س)

سبطل المصري: النيمي الشاعر المصري الرغيب ٧٦، ١٨١

سحبان بن وائل ٢١٠

- سديف بن إسماعيل بن ميمون المكي ٤٣  
أبو سعد المخزومي: عيسى بن الوليد ١٣  
سعد مولى أبي بكر ١٥٩  
ابن سعدان: الحسين بن أحمد  
سعيد بن حميد ٥٢، ٩٣، ٢١٠  
السعيد: نصر بن أحمد بن إسماعيل صاحب خراسان  
أبو سعيد السيرافي: الحسن بن عبد الله  
سقراط ١٩٠، ٢١٤  
السلامي ٢٣٣  
السلامي أبو علي  
السلامي: محمد بن عبد الله أبو الحسين  
أبو السلم مسلم الأعرابي ١٣١، ١٤٨  
أبو السلم: نجبة بن علي القطاني الشاعر ٨٠، ١٦٦، ٢٢٧، ٢٧٤، ٢٧٥  
السلمي  
سليمان بن علي ٥١، ١٣١، ١٣٢  
سليمان بن مختار ٩٣  
أبو سليمان المنطقي: المنطقي ١٥٢، ١٧٧، ١٧٩  
ابن سمكة القمي: أحمد بن إسماعيل  
سهل بن محمد السجستاني أبو حاتم  
سهل بن هارون ٥١  
سيبويه: عمر بن عثمان بن قنبر  
(ش)  
ابن شاذان: بكر بن شاذان ١٠٤  
ابن شاذان أبو الحسن ١٥٥، ١٦٥

ابن شاذان القاضي ٢١١

الشاذياشي أبو علي ١١٨، ١١٩، ٢٨٣

الشاعر المغربي ٣١٢

الشمردل ١٦٤

شمسويه ١٩٨

الشويعر الحنفي: هانئ بن توبة الشيباني

ابن أبي شيبان ١٢٢

الشيخ الحربي أبو الخصيب ٢٩٣

الشيخان (أبو بكر وعمر)

(ص)

الصابي: إبراهيم بن هلال

الصاحب: إسماعيل بن عباد

أبو صادق الطبري ١٥٥، ١٨٦

الصاغانبي: أبو علي ٢٠١

صالح بن إسحاق الجرمي ١٠٣

أبو صالح الرازي الصوفي ٢٩٢

صالح بن عبد القدوس ١١٢، ٢٢٢

صالح الوراق ١٨١

أبو صالح الوراق: عبد الله بن حمد بن زياد ١١٣

الصدقي: عبد الله بن قحافة

صفوان بن المعطل ١٥٩

صقلاب ١٠٧

الصولي ٥٢، ١٥٨، ١٨٢

الصولي: إبراهيم بن العباس ٤٢

الصيمري أبو بكر ١٤٠

الصيمري أبو زكرياء ١٧٧، ١٧٨

(ض)

الضبي ١٨٥

الضبي ١٠٦

الضبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم

الضريير النحوي ٨٣، ١٥٦

(ط)

أبو طالب الجراحي ١٨٩

أبو طالب العلوي ٦٧، ١١٧

أبو طاهر الأنماطي ١٣٧، ١٨٧

أبو طاهر الحنفي ٦٦

أبو طاهر العباداني ٦٧

أبو طاهر الوراق ١٩٢، ٢٠٢

الطبري ٢١١، ٢١٢، ٢١٣

أبو الحسن الطبري: أحمد بن محمد

ابن طرارة: المعافى بن زكرياء النهرواني ٧٥، ١٣٤

ابن طرخان: علي بن الحسن أبو الحسن

طرفه ٩٢

طلحة (رضي الله عنه) ١٧٥

طلحة بن عبد الله بن فتاش المصري أبو جعفر ١١٧

أبو الطيب الكميائي ٢٢٣

أبو الطيب النصراني ٧٣

(ظ)

ظالم بن عمرو أبو الأسود الدؤلي ٦٢

(ع)

أبو العادي الصوفي ٢٠٨

أبو عاصم البصري ١٥٢

عامر بن الظرب ٢٠

عامر بن لقيط الأسدي الشاعر

العامري أبو الحسن: محمد بن يوسف

عائشة (رضي الله عنها) ١٧٥

ابن عباد: اسماعيل بن عباد ٥٤

عباد بن أحمد ١٨٤

ابن عباس: عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ٥٤

العباس بن الحسن ١١٥

العباس بن الحسين أبو الفضل الشيرازي ١٣٤

عبد الرحمن بن زاعط أبو الفتح أعشى همدان ١٥٣

ابن عبد الرحيم القاضي ١٩٤، ٢٠٣، ٣١٢

عبد الرزاق بن الحسن بن أبي الثياب الشاعر ٢٠٢، ٢١١، ٢٤٣، ٢٤٦

عبد السلام بن الحسين المأموني ٨٠، ١٨٥

عبد السلام بن رغبان: ديك الجن ٩٩

عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي أبو هاشم ٢٨٢

عبد العزيز بن عمر السعدي: ابن نباتة ١٤٨

عبد العزيز بن يوسف الكاتب ٧٣، ١٨٣

ابن عبد كان الكاتب: محمد بن عبد الله أبو جعفر ١٧٥

عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي أبو هفان ٤٦، ٩٣، ٢١٦

- عبد الله بن بشير ٢٨٠  
عبد الله بن حمود الزبيدي الأندلسي ٢٢٩  
عبد الله بن الزبير رضي الله عنه  
عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ٦٤، ١٣٢  
عبد الله بن عمرو بن العاص ١٣٠  
عبد الله بن أبي قحافة أبو بكر الصديق ١٣٦  
عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الثلاج المتكلم ١٢٧، ١٢٠  
عبد الله بن محمد القطان: ابن كلاب ١٢١  
عبد الله بن يزيد أبو صالح الوراق  
عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب  
عبد الله المعلم ٩٠  
عبد الله بن هارون الرشيد: المأمون ٢٤، ٢٥، ٢٧٩، ٢٨٠  
ابن عبدان الأصبهاني ٢١٤  
عبد الملك بن محمد الرقاشي أبو قلابة ١٨٢  
عبد الملك بن مروان ٢١٤، ٢١٥  
عبد الملك بن نوح الساماني ٢٣٣  
ابن عبد الوهاب ٢٩٥  
العبيسي ١٥٩  
أبو عبيد الكاتب النصراني ٨٦  
عبيد الله بن دينار أبو العباس ٣٧  
عبيد الله بن زياد ٦٢  
العتابي ١٥٠، ١٧٤، ١٧٥، ٢٦٤  
العتابي شيخ من أصبهان ٢٦٣  
أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم ٢٥

- عتبة بن أبي سفيان  
العتبي: محمد بن عبيد الله بن عمر ٤٦  
عثمان (رضي الله عنه)  
عدي بن حاتم ٢١٨، ٦٣  
العروضي أبو محمد ٤٨  
عز الدولة: بختيار بن معز الدولة ١٢١، ١٢٢، ١٢٣  
عزير (عليه السلام) ٢٥٤  
العسجدي ٢٢٢  
عضد الدولة: فناخسرو بن الحسن بن بويه ٦٤، ٦٥، ٧٢  
ابن العطار ١٠٤  
عقيل بن علفة المري ١٥٨  
العلاف: محمد بن الهذيل أبو الهذيل  
العلوي العقيقي: أبو أحمد العلوي أمير المدينة  
علي بن ثابت الهمداني الكاتب ١٩١  
علي بن الحسن التنوخي أبو القاسم ابن الجلبات ١٤٨، ١٨٤  
علي بن حسن أبو الحسن ابن طرخان ١٢١، ١٢٦، ٢٩٤، ٢٩٨  
علي بن الحسن الكاتب ١١٠  
علي بن الحسين العلوي ٩٤  
علي بن الحسين بن موسى القمي بن بابويه ١٠٤، ١٥١  
علي بن الحسين بن هندو أبو الفرج ٢٢٣  
علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي ١١١  
علي بن سليمان الأخفش ٧١  
علي بن أبي طالب ١٣٢، ١٧٥  
علي بن العباس بن جريج ابن الرومي ١٧١

- علي بن عبد الله بن وصيف الناشي ١٧٤  
علي بن عمر بن أحمد بن القصار الفقيه ٩٠  
علي بن عيسى بن عبد الله الرماني ١٠٣، ١٢١، ١٢٢، ٢٣٧، ٢٩٦  
علي بن عيسى الوزير ١٨٩، ٢٢١  
علي بن القاسم الكاتب ٨١  
علي بن كامه ٩١، ٣١١، ٣١٢  
علي بن كعب الأنصاري أبو الحسن ٢٣٧  
علي بن محمد بن الحسين ابن العميد أبو الفتح ذو الكفائيتين ٦٨، ٨٥، ٩٩، ٢١٩،  
٢٣٤، ٢٣٩، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٨٣، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٣، ٣٠٥،  
٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٢  
علي بن محمد الطبري كيا  
علي بن محمد بن علي البديهي ١٠٣، ٢٢٨  
علي بن هارون بن علي بن المنجم أبو الحسن ١٠١  
علي بن هارون بن نصر النحوي القرمسيني ٧١  
علي بن هشام ٥٢  
علي بن يوسف بن البقال الشاعر ١١٧، ٢٣٧  
العماري ١٨٣  
عمر بن إبراهيم الزعفراني الشاعر ١٧٣  
عمر بن الخطاب ١٥٣  
عمر بن الأهم ٢٧٠  
عمرو بن حرثان ٢١٤  
عمرو بن عبيد: ابن باب ٩٨، ١٥٤  
عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه ١٩٣  
أبو عمرو كاتب فخر الدولة ١٢٦

عمرو بن هشام المخزومي: أبو جهل ٥٤، ٩٩

العمرى ٥٢

العميد والد أبي الفضل ابن العميد: الحسين بن محمد كلة ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩

ابن العميد أبو الفتح: علي بن محمد بن الحسين

ابن العميد أبو الفضل: محمد بن الحسين بن محمد

ابن العميد: أبو القاسم (ولد لأبي الفضل) ٢٢٤

عيسى بن صبيح أبو موسى المردار ٩٨

عيسى بن فرخان شاه أبو موسى الكاتب ٣٧

أبو العيناء: محمد بن قاسم بن خلاد ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٥٢، ١٠٠

العيني

(غ)

ابن الغازي ١٢١

أبو غالب الأعرج الكاتب الأصبهاني ٢٤٢، ٢٥١، ٢٥٢

الغويري أبو الحسن الشاعر ١٩٢

(ف)

ابن فارس: أحمد بن فارس

ابن فتاش المصري: طلحة بن عبد الله أبو جعفر

الفتح بن خاقان: عبيد الله بن محمد بن عبيد الله ١٠٦

أبو الفتح ابن الفرات: الفضل بن جعفر

أبو الفتح ابن العميد: علي بن محمد بن الحسين ٨١، ٢٠٠

فخر الدولة ١٢٦، ٣١٢

الفراء: يحيى بن زياد بن عبد الله

ابن الفرات ١٠٦

ابن الفرات: علي بن محمد بن موسى

- ابن الفرات: الفضل بن جعفر أبو الفتح  
أبو الفرج البغدادي الصوفي ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧  
فرعون ٩٩  
أبو فرعون الأعرابي الساسي ٩٥  
الفرغاني أبو محمد الحنفي ١٢٧، ١٢٤  
ابن فثيشا ١٢٨  
الفضل بن جعفر بن الفرات أبو الفتح ٢٣٩  
الفضل بن سهل ٥٢  
أبو الفضل ابن العميد: ابن العميد أبو الفضل  
أبو الفضل الهروي ٧٥، ٨٢، ٨٥، ١٠٦، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٢٤، ٣١٢  
الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ١٥٨  
الفقاعي ٢٦٧  
فناخسرو بن الحسن بن بويه عضد الدولة ٢٤٠، ٣٠٨  
فيروزان المجوسي ٧٠، ١٨٤  
(ق)  
قابوس بن وشمكير الديلمي ١٢٤  
القاسم بن عطية أبو سعيد الأبهري ٧٩، ١٢١، ١٨٧  
القاص أبو العباس الضرير  
القاضي ابن عبد الرحيم  
القرمسيني: علي بن هارون بن نصر  
ابن قريعة: محمد بن عبد الرحمن  
قس بن ساعدة ١٩٣، ٢١٠  
ابن القطان القزويني الحنفي ٦٦  
القلانسي: أحمد بن إبراهيم بن عبد الله

قويري: إبراهيم قويري أبو إسحق

(ك)

الكاغدي: الحسين بن علي بن إبراهيم البصري ١٢١

ابن كامة: علي بن كامة

ابن أبي كانون ١٢٤

ابن أبي كبشة: جزء بن غالب بن عامر الغزاعي

ابن كعب الأنصاري: علي بن كعب أبو الحسن ١٢١

ابن كلاب: عبد الله بن محمد القطان

الكلواذي: عبيد الله بن محمد ١٩٣

(ل)

أبو الليل العلوي ٢٩٢

(م)

ابن ماسويه: ميخائيل ١٠٨

أبو مالك ٩٠

مالك بن شاهي ٢٨٠

المأمون: عبد الله بن هارون الرشيد

المأموني: عبد السلام بن الحسين

المبرد: محمد بن يزيد ٥٢

الميرمان: محمد بن علي بن إسماعيل النحوي ١٥٣

مجزر بن الأعور بن جعدة المدلجي ٧٣

المجوسي: أبو نصر خوشادة ٣١٢

ابن محارب ١٤٠

ابن المحاوش ٢٠٢، ٢٠٤

محمد صلى الله عليه وسلم ١٤، ٣٦، ٥٤، ٦٣، ٧٣، ٩٨، ١٠٢، ١١٣، ١٢٣،  
١٢٤، ١٣٠، ١٤٢، ١٥٧، ١٥٩، ١٧٠، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٩٠

محمد بن إبراهيم صاحب الجيش ٧٣

محمد بن أحمد البغدادي الكاتب الجرجرائي ٢١، ٢٢، ٢٣

محمد بن جعفر بن محمد أبو الفتح ابن المراغي ١٠٣، ١٥٠، ١٨٦

محمد بن الجهم البرمكي ٣٥

محمد بن الحسن بن كوثر البربهاري ٢٨٩

محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي الحاتمي ١٨٤

محمد بن الحسن بن مقسم أبو بكر العطار ٢٣٣

محمد بن الحسين بن محمد أبو الفضل بن العميد

محمد بن داود بن الجراح ٢٢١

محمد بن زكريا الرازي ٢٥٣

محمد بن زياد ابن الأعرابي ٦٠، ٢١٧

محمد بن صالح الهاشمي ١٢٤

محمد بن طاهر بن الحسين ٣٧

محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي أبو سليمان ١٢٦، ٢٣٧، ٢٥٩،

٢٦٠، ٢٦١، ٢٩٦، ٣٠٤

محمد بن العباس أبو الفرج ١٣٤، ١٣٥

محمد بن عبد الرحمن ابن قريعة ١٢٢

محمد بن عبد الله البلعمي أبو الفضل، ٢٣٣

محمد بن عبد الله بن طاهر ٦٩

محمد بن عبد الله بن عاصم الحزنبل ٦٠

محمد بن عبد الله بن عبد كان الكاتب ١٧٥

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة الزيات ١٠٦، ١٧٠

- محمد بن عبد الوهاب الجبائي أبو علي ٩٢  
محمد بن عبيد الله بن عمر العتبي ٤٦، ٢١٤  
محمد بنعلي بن إسماعيل النحوي المبرمان ١٥٣  
محمد بن علي بن الحسين ابن مقلة أبو علي ٤٨، ١٠٦، ١٩٣  
محمد بن عمران بن موسى أبو عبيد الله المرزباني ٤٢، ١٨٢، ٢٣٤  
محمد بن فرح أبو بكر ٢٣٠  
محمد بن القاسم بن خلاد أبو العيناء ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٥٢، ١٠٠  
أبو محمد كاتب الشروط ٦٨  
محمد بن محمد الدقاق أبو بكر ١٨١  
محمد بن محمد بن محمد بن بقية الوزير ٢٢  
محمد بنالمرزباني ١٣٦  
محمد بن مكرم ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧،  
أبو محمد المهلب: الحسن بن هارون المهلب ١٣٥  
محمد بن الهذيل بن عبد الله العلاف أبو الهذيل ١٨١، ١٨٢، ٢٨٢  
محمد بن موسى بن سهل العطار البربهاري أبو بكر ٢٨٩  
محمد بن يحيى بن خالد ٥٣  
محمد بن يزداد الوزير ١١٣  
محمد بن يوسف العامري أبو الحسن ٢٠٠، ٢٣٧، ٢٥٦  
المذهب أبو عبد الله ١٢٤  
المرار بن سعيد بن حبيب الفقعسي ١٥٦  
مرداويج ١٠٥  
المرزبان بن محمد ملك الديلم ١٨٩  
المرزباني: محمد بن عمران بن موسى  
مروان بن المهلب ٣٤

- مريم ابنة عمران ٢٥٣  
مزيد : مزبد الماجن  
مزبد الماجن ٩٤، ٩٦  
مسكويه: أحمد بن علي بن محمد بن يعقوب ٢٤، ١٩١ / ٢٦٥  
مسلم بن الوليد ١٩٣  
مسهر بن مهلهل أبو دلف الخزرجي ١٠٧، ٢٥٢، ٢٥٥  
المسيبي ٧٢، ٨١، ١٠٦، ١٦٤  
المسيح (عليه السلام) ٢٥٣  
المشوق الشاعر الشامي أبو الحسن ١٣٦  
مطرف بن أحمد وزير مرداويج الجبلي ١٠٥  
معاوية بن أبي سفيان ١٨٢  
معروف بن فيروز (فيرزان الكرخي) ٢٧١  
ابن معروف: عبيد الله بن أحمد ١٢٢  
معز الدولة: أحمد بن أبي شجاع  
ابن مقسم: محمد بن الحسن أبو بكر العطار  
مقعدة النصيبي: إبراهيم بن علي المتكلم  
ابن المقفع ٥١  
ابن مقلة: محمد بن علي بن الحسين  
ابن مكرم: محمد بن مكرم  
المكي أبو عبد الله العلوي ٢٤٠  
ممويه ١٩٥  
ابن المنجم: علي بن هارون أبو الحسن ٢١٩، ٣٠٧  
منصور ١٩١  
المنطقي أبو سليمان: محمد بن طاهر بن بهرام

المهلب بن أبي صفر أبو سعيد ٣٤

موسى (عليه السلام) ٢٥٣

موسى بن بغا ٤٣

موسى بن عمران (عليه السلام) ١٥١، ١٥٦، ١٦٠، ١٨٣

أبو موسى المرदार ٩٨

أبو موسى المعلم الحسنكي الطبرستاني ١٥٦، ١٥٩، ١٦٣، ٢٣٢، ٢٣٣

مؤيد الدولة: بويه بن ركن الدولة ٧٣، ٨٣

(ن)

النابعة الذبياني ٩٤، ٢٦٤

الناشي: علي بن عبد الله بن وصيف

ابن ناصح ١٨١

ابن نباتة السعدي: عبد العزيز بن عمر

النباتي: أبو محمد ١٧١

ابن نبهان ١٢١

النبي: محمد صلى الله عليه وسلم

التتيف المتكلم ٢١٧

نجاح الخادم خازن كتب الصاحب ١٧٥، ١٧٦، ٢٣١، ٢٨١

النجار: الحسين بن محمد أبو عبد الله

أبو نصر خوشادة المجوسي ٣١٢

النصيبي: إبراهيم بن علي المتكلم أبو إسحق

نصيح بن منظور الفقعي

النضر بن الحارث ٢٢١

نضلة بن البك ٩٦

النظام: إبراهيم بن يسار ٢٨٢

النعمان بن ثابت بن زوطا أبو حنيفة الإمام ١٣٥، ١٩٣

النمري الشاعر: الحسين بن علي بن عبد الله

نهار بن توسعة ١٢٠

نوح (عليه السلام) ٢٥٣

النوشجاني ٢٧٩

(هـ)

هارون الرشيد ٢٧٩

هارون بن المعتصم، الواثق العباسي ١٨١

أبو هاشم: عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي

أبو الهذيل العلاف: محمد بن الهذيل بن عبد الله

ابن أبي هشام ٢٦٤

هشام بن الحكم أبو محمد ١٣٧

أبو هفان: عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي ٤٦

ابن هلال الصابي: إبراهيم بن هلال ٩٠

الهمذاني ١٢١

الهمذاني العلوي أبو الحسن ٦٤

ابن هندو: علي بن الحسين أبو الفرج

(و)

الواسطي ١٢٧

واصل بن عطاء ٩٨

أبو واقد الكرابيسي الخراساني ٨٣، ٨٥

الوراق الطرسوسي ١٥٧

وشمكير بن زيار ٢٤٨

أبو الوفاء المهندس: محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني ١٢٢، ١٨٣، ٢٧٤

الوليد بن عبيد بن يحيى أبو عبادة البحري ١١١، ٢٢٣  
الوليدي ١٦٠، ١٦٣

(ي)

يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء ١١١، ٢٩٢  
يزيد بن معاوية ١٨٢

اليزيدي ٦١

يعقوب بن إبراهيم بن حبيب أبو يوسف ١٩٣

يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن كلثوم ٧٦

يوسف (عليه السلام) ١٦١، ٢٥٣، ٢٥٤

يوسف بن هارون الرمادي أبو عمر الأندلسي ٢٣١

## ٦- فهرس القوافي

(أ)

سَيِّئِنِي ..... غِنَاءُ ٢٩٢

(ب)

قد يرزق ... من تعب ٧٢	سرت النجائب ... بالكواكب ٣٠٠
نهضت ... الكواكب ٢٣٤	ونعتب ... أعتبا ١٨٥
لحا الله ... ذبًا ٦٣	إني متى ... أنبوا ٢٣٤
ولست ... المهذبُ ٣٣	فهدى ... ضاربُ ١٢
وفي الصمت ... ومذهبُ ٢٣٨	فتى لا يبالي ... شحوب ٢٨٦
قلبي دام ... يذوب ٢٠٠	فتى خلقت ... جنوب ٢٩٢
وأن غدا لناظريه قريب ٢١٧	ومن يطل ... تجريب ٢٦٩
إذا ما ... رقيب ٢١٧	وإن لسانا ... حاطبه ٢٣٨

أزرى بنا ... وأنياب ٣٠	فإذا كنت ... فاغضب ٤٢
قد يرزق ... من تعب ٧٢	لا تبطنن ... بتأنيب ١٢٨
إذا اعتصم ... حجابته ٢٣٤	أبا جعفر ... إعجابه ٢٢٢
لعنة الله ... طلبه ٤٧	

(ت)

من ضمن .... الموتى ٢١٣	وأقدر .... شئيت ١٦٣
بل ندى ... الكفاة	يقولون ... المنابت ١٩١
رب فتى ... في ذمته ٢٣٤	

(ث)

جزعت من .... قد حدث ١٣٧

(ج)

فيا قومنا ... فيعرج ٦٠

(ح)

أكول ... وقاح ٢٢٠	أخذنا ... الأباطح ١٠٩
عليك سلام ... سافح ٢٤٥	فبدلت ... منضوح ٢١٠
لعن الله .... كالمفتاح ٢٥٩	وأدعوك ... للفضائح ٤٨

(د)

يلى .... جديد ٣١	العرف .... الحميد ٣١
أبا يوسف ... قصدا ٩٣	فتى صيغ ... مجد ٢٨٦
وأنت ... يوجد ٤٣	وإن الكريم .. أقود ٦٣
وجاءت إلى ... الولايد ٢٦٨	فأصون ... سعيد ١٢
يسائلني ... شديدا ٩٤	لقد أنانا ... بإسناد ١٥٩
إن تكلمت ... بمجدي ٦٢	وقد يقصر ... أنجد ٣٠
الرزق قد ... ولا يجدي ٧١	من يعط ... يحمد ٥٨

فأرميها ... بجلمود ١٥٤ إذا هتف ... الشرائد ٢١٥

(ذ)

حجر أبي نصر.... وبغداد ١٠٤

(ر)

حمراء ... عطارا ٢٣٩	إذا المشكلات ... بالنظر ١٤٩
يا لك من .... اكفهرًا ٩٥	لا تحسب المجد ... الصبرا ٦٢
يا صاحبي ... خسارة ١٨٢	يا من أعاد ... مشورا ١٤٨
وأحور ... ساحر ٢٣١	ألا ذهب الحمار ... الحمار ٤١
ثمن المعروف ... زخر ٢١٦	لني ولية ... نعماك شاكر ٢٩٣
لا يسبق ... ويخفر ١٦٤	إذا قال .... هجر ٦٥
وإن المجد .. وخير ٥٨	بنو اليزيدي .. الكمر ٦١
ما زلت .. والإثأر ٢٣٩	ذريني ... الفقير ١٧٨
برح اشتياق ... حرار ٢٤٦	قد استوجب ... بن مختار ٩٣
يا أيها .... الأقدار ١٠٠	يغدو على ... بثار ٢٥١
اسقني قهوة ... بختيار ٢٣٤	متلقب ... الكفار ٢١٧
تحدثني ... الشزر ٣٠٤	أرى الناس ... النجر ١٣
باح لساني ... بالدهر ٢٢٢	لو أن لي ... بالدهر ٣٨
ألام على ... الذر ٢٦٥	ولا بد من .... الدهر ٢٦٤
وإني على .. والنسر ١٠٧	لئن طببت .. على عسر ٦٠
لله درك .. البشر ٢١٦	عتبت على ... بشر ١٢٠
خلالك .. واصفري	وكان لي .. بالعشر ٣٨
وإن امرءًا .. غرور ١٠٧	أصبحت جم ... غمر ٢٢٢
آليت أل .. ولا متنور ١٥٦	سقوني ... وزور ١٣٠

(ز)

عدلت لتزويجه ... يجوز ١٦٧

(س)

من يفعل .... والناس ٢٤  
وكيف .. يا بس ١٢  
عدلي بعبادتك ... العباس ١٥٨  
أبا الفضل ... في اليبس ٢١١  
الأستاذون ... خسيس ٢١٤  
إن الجديدين ... الناس ٢٧٥  
فمالكم ... أطلس ٢٢٤  
من يفعل .. والناس ٢٤  
ولم أدخل الحمام ... بيوسي ٢٣١

(ش)

بليت بما ... يطيش ١٦٦

(ص)

بيتون ... خمائصا ٢١٥

(ض)

إلى الله أشكو ... فرضا ٢٠٢  
ومصرف أنفاس ... رابض ٩٥  
وهل عائض ... عائض ٦٧  
وما الحقد ... بعض ١٧١

(ط)

ولحية كأنها القباطي ١١٣

(ع)

ما طار ... وقع ٩٩  
إذا قل .. الأصابع ٣٠  
إذ المرء ... المطامع ٣٠  
كم من أسير ... ضائع ٢٠  
البحثري ... مصراعا ٢٢٣  
ألم تر ما .. ويسمع ٢٦٩  
ترى ودك ... الصقيع ٢٦٢  
لنا فيلسوف ... بالبدائع ٢٢١

(ف)

فيا رب مظنون به الخير يخلف ٢٥٥

(ق)

كبرق ... لmaq ١٦٧  
 ما بال أم جبي ... ففتفق ٣١  
 ومن لا يصن ... ويحق ٥٩  
 وإنما الشعر ... حمقا ١٤  
 زوجت أمك ... القلق ١٦٧  
 نال الغنا ... الشرق ٦٣  
 سبحان من ... وموموقا ٨٠  
 أرى الناس ... متفرق ١٦٣  
 إنا إذا ... الورق ٣١  
 والرزق .... جلق ٧١  
 كل امرئ ... ولا حمق ١٢  
 شقيت بنو أسد .. يشنق ٢١٢  
 وديوث يقال ... وسوق ١٣٧

(ك)

سيغيني ... غناك ٢٩٢

(ل)

إن تقوى الله ... وعجل ١٤  
 وإذا خطبت ... مختالا ٢٣٧  
 إذا ما ابن عباس ... فضلا ٦٤  
 فإن تمنعوا .. أن نقولا ٦٠  
 والقائل القول ... الماحل ٢٣٨  
 فكيف ... مزحل ١٢  
 لو أن حيا ... ولا وكل ١٨٢  
 وليس ... حامل ١٢  
 كم حربة ... يطول ٢١٧  
 اصطلح ... سبيل ١٣  
 أما الهجاء ... دليل ٤٧  
 سباك ... سبيل ١٨١  
 فحامقته ... أعاقله ١٦٨  
 ولا يستوي ... والبخيل ٢٢١  
 وذو خطل ... قائله ٢٣٨  
 إذا أسدي ... آكله ٢٦٣  
 هنالك إن ... يغلوا ٢١٥  
 فتى إن ... لا يبالي ٤٢  
 يتزحزون ... الإجلال ٣٦  
 أبلغ سليمان ... مال ١٣٣

من عملي ... البزل ١٢٨	أعلي ... بالأموال ٣٦
عدو لمولاه ... الفعل ٤١	ومدع يدعي ... حجة البطل ٢٥٩
لو كنت تعطي ... كل خليل ٢٩٣	مهلا فما ... من التنزيل ٢٣١
	لا تلم ... إلى مثله ١٤٩

(هـ)

الناس أخياف ... الأدم ١٢٧	يزدحم الناس ... الزحام ٢٦٨
وإذا قلت ... من لا ونعم ١٥٦	فتى يمنع ... الحرم ٨٦
فقيم عرفت .... والفما ٤٥	لما رأيت كريم الأصما ٣٠٣
إذا أنا بالمعروف ... المذمما ٤٥	وفي الصمت ... أن يتكلما ٢٣٨
فلستم ... الدم ٤٤	وكنت ... حماهما ٦٠
فتى يشتري ... تدوم ٢٨٦	وإن لساني ... علقم ٥٩
لا تنه عن ... عظيم ١٥٠	والحمد لا يشتري ... معلوم ٥٨
يخبرنا ابن كبشة ... وهام ٢٢١	ولم أرفي ... التمام ٩٧
لقد عجمتني ... في العجم ٨٣	نعمة الله ... أقوام ١٨٥
مالك موفور ... على المعدم ٢٤٢	أعد خمسين ... لذي رحم ٣١٤
أفضله ... المكرم ١٨٢	الحمد لله ... أخا كرم ٣١٤
عتبت على سلم ... على سلم ١٢٠	علقتها عرضاً .... بمزعم ٢٥١
صدق أليته ... قسمه ٢٦١	وما خير ... بقائم ١٢
	وكنت إذا ... حماهما ٦٠

(ن)

لا تصحبن شاعر ... بئمن ١٣	فتى ... نضاختان ٢٨٦
ما لنا ... وغنانا ٣١٤	ضيق العذر ... لكفانا ٣١٤
وبي مثل ... وتعذرنا ١٥٣	لئن كنت ... حيننا ١٦٤
أفديك ... دخان ٢٣٠	ألا رب ... وهو ظنين ٦٩

وأي الناس ... منطق اللسان ٢٦٤	إني إذا أخفى ... بكل مكان ٢٦٠
والحمد لا يشتري .. بأثمان ٥٨	كتبت تسأل .. حزن ٦٩
لا كنت ... أكن ٦٩	الجود والغول ... ولم تكن ٢٣٠
تريد كان .. الضياون ٢٦٢	أخو خمسين ... الشؤون ٢٦٩
وأنت بالليل ... ابن سيرين ١٧٢	إن الذي يقبض ... يغنيني ٦٠

(هـ)

يا صاحبي ... خساره ١٨٢	فحامقته ... أعاقله ١٦٨
يا بن عباد ... خذها ١٠٨	وعيرها الواشون ... عارها ٢٢٥
وقاسمهما ... نشورها ٢٢٨	فتى كان يعلو ... قيلها ٢٣٨
إذا لم يكن ... تمنى انتقالها ٢٧٤	كأن دماملا ... منها ٤١
مغرى بقذف .... أبنائها ٤٨	

(ي)

ما زلت ... حيا ٢٦٨	وعين الرضا ... المساويا ٢٠
لا يكون السرى ... مثل الغبي ١٣٢	شيخ لنا ... المردي ١٠٠

